مَوَاقِف وَعِبَرٌ

زاد للدعاة وموعظة للمؤمنين

د. محمد محمد داود

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار المنار
للنشر والتوزيع
٩ ش حسن العدوى - الحسين - القاهرة
ت: ٥٩١٥٠٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾

[الأنعام/ ٩٠]

إهـــــداء

- إلى من اصطفاهم الله لأشرف رسالة فى الوجود، رسالة الدعوة إلى الله تعالى، وإمامهم فيها سيدنا المصطفى رسول الله ﷺ

- إلى من مدحهم الله وأثنى عليهم بقوله تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

- إلى الدعاة العاملين أهدى هذه المواقف.

محمـــد داود

كَـرِّرْ علىَّ حـديثَـهمْ يا حـادى

فـحـديثُـهم يَجلُو الفـؤادَ الصَّـادى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبى الله ورسوله سيدنا محمد رحمة الله للعالمين، وبعد :

فهذه المواقف يرجع الفضل فى إعدادها لإذاعة القرآن الكريم، حيث طلب منى أخى الأستاذ / شحاتة العرابى، المشاركة فى برنامج « مواقف إسلامية ». ولاقت الدعوة ترحيبًا منى بسبب ميلى فى خطب الجمعة والدروس الدينية إلى ربط المعانى الفاضلة لآيات القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف بالمواقف العملية فى حياة سيدنا رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والتابعين؛ لتكون هذه المواقف تطبيقًا عمليًا لتعاليم الإسلام بين يدى المستمع، فيزداد فهمه ووعيه بدينه؛ وفى هذا تيسيرٌ للتأسى والاقتداء. هذا من جانب.

ومن جانب آخر ففى هذه المواقف تسهيل لأسباب الهداية من خلال الموعظة التى تتركها - هذه المواقف - فى قلوب المستمعين، فتكون دعمًا معنويًا للمؤمن فى طريق زيادة الإيمان بالله تعالى، وعونًا للمؤمن على القيام بتكاليف الإيمان من فعل الخيرات وترك المنكرات.

وقد أشار عَلَىَّ أخى فى الله، صاحب الفضيلة الشيخ / سيف النصر عبدالفتاح الدسوقى، مدير وعظ الجيزة أن أجمعها فى كتاب؛ لتكون زادًا للدعاة وموعظة للمؤمنين.

والذى أود أن أشير إليه هنا هو أن التعليم من خلال الموقف هدى نبوى كريم، ولون من الأساليب التربوية فى السنة المطهرة، التى قدمت لنا تنوعًا سخيًا من الأساليب التربوية الهادفة، كى يصطفى الداعى والمربى والمعلم والمرشد من بينها الأسلوب الذى يناسب حال المتعلم.

فهناك من الناس من يحتاج إلى مزيد توضيح وبيان عملى، وتأتى الوسيلة التعليمية لتأخذ دورًا بارزًا فى هذا المجال، وكان النبى ﷺ يستعين بهذه الوسائل لمزيد من التوضيح والبيان : من ذلك رسمه ﷺ خط الأجل وخط

الأمل، واستعمال العصى واليد والأصابع . . إلخ.

ومن بين الأساليب التربوية فى السنة المطهرة التعليم عن طريق الموقف، ولتحقيق ذلك منا تأسيًا بسيدنا رسول الله ﷺ سبيلان :

الأول : عن طريق المواقف الحيَّة من واقع الأحداث، من خلال ربطها بهدى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

الثانى : عن طريق الاستعانة بمواقف من عصر النبوة والتابعين والسلف الصالح، ويحلل الموقف فى ضوء القرآن الكريم والسنة، وذلك لتظل الموعظة حية تنتقل بين الأجيال لينتفع بها الناس، وإلى هذا النوع تنتمى المواقف موضوع الكتاب الذى بين أيدينا.

وتعالج هذه المواقف موضوعات متنوعة، منها ما يعالج مسائل فى الإيمانيات، ومنها ما يعالج مسائل فى العبادات، ومنها ما يعالج مسائل فى الأخلاق، ومنها ما يعالج مسائل فى المعاملات.

وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذه المواقف وأن يتقبلها منى، وأن يجزى كل من علمنى أو أعاننى خير الجزاء وأوفاه، كما أسأل الله تعالى أن يفقهنا فى ديننا، وأن يهدينا إلى الحق والصواب، وأن يرزقنا الإخلاص فى السر والعلن، وأن يكرمنا بالقبول، فإنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد رحمة الله للعالمين

والحمد لله رب العالمين

راجى عفو ربه

د . محمد محمد داود

مكتبة العلماء

بالمركز الإسلامى بالعمرانية

ت / ٥٦٨٥١٢٢

فاكس / ٥٦٩٤٢٠٢

١ - متوكل على القافلة

عـزمت جـمـاعـة من طلبـة العلـم على الحـج، وأحب الإمام أحـمـد بن حنبل أن يطمئـن عليـهم، ولفت انتـباهه شأن أحدهم، حيث استعد كل واحدٍ من الجماعة بالزاد والنفقة إلا هذا الطالب فما جَهَّزَ شيئًا!!

فسأله الإمام أحمد بن حنبل عن سبب ذلك، فقال :

إنما أنا متوكل على الله !!

فقال له الإمام أحمد : ألست مع القافلة ؟!

فقال الطالب : بلى، إنى معهم.

فقال له الإمام أحمد : أنت متوكل على القافلة.

(*) رواه : الخلال عن أحمد بن محمد الرازى عن أبى معين الرازى عن الإمام أحمد، ص٧٠.

هذا موقف تربوى يقف بنا على حقيقة التوكل على الله عزَّ وجل، ويعالج وهمًا شاع بين الناس، حين يتركون أنفسهم عالةً على من حولهم، وعبئًا على إخوانهم ظنًا منهم أن هذا توكل على الله تعالى.

لذلك لم يَرْضَ الإمام أحمد بن حنبل لطالب العلم أن يترك الأسباب فلا يعد الزاد ولا النفقة، ويترك نفسه عالةً على القافلة ويقول : أنا متوكل على الله، فأرشده الإمام بقوله : أنت متوكل على القافلة.

● إنَّ الله تعالى أمرنا فى قرآنه الكريم أن نأخذ بالأسباب، والآيات فى هذا المعنى كثيرة، من ذلك قول الله تعالى : ﴿**وَقُلِ اعْمَلُوا** ...﴾، وقوله: ﴿**فَاسْعَوْا**...﴾ ، وقوله : ﴿**فَانتَشِرُوا** ....﴾.

فكيف يكون ترك ما أمرنا الله به توكلاً على الله ؟!

إن فعل السبب طاعة لأن الله أمرنا أن نأخذ بالأسباب.

وترك السبب معصية لأنه مخالف لما أمرنا الله به.

● والتوكل هو اعتماد الطالب على الله تعالى، واعتقاده الخالص بأن النافع هو الله، وأن الضار هو الله؛ ولذلك قال بعض السلف الصالح: التوكل هو أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل.

وغياب أحد الأمرين (عمل الجوارح أو توكل القلوب) يحول التوكل إلى شىء آخر؛ فغياب الأخذ بالأسباب مع القدرة عليه يؤدى إلى التواكل، وغياب اعتماد القلب على الله يؤدى إلى الشرك؛ لذلك وصف العلماء المحققون من السلف الصالح حقيقة التوكل فى ثلاث كلمات، هى فى قولهم :

« فعل السبب طاعة، وترك السبب معصية، والاعتماد على السبب شرك بالله تعالــى ».

وقـد جـاء رجل إلى النبى ﷺ فـقـال: يا نبى الله، أُخَلّى ناقـتى وأتوكل أم أعقلها وأتوكل؟ فقال ﷺ : «اعقلها وتوكل على الله»(١).

ويُبَصِّرُنا رسول الله ﷺ بثمرة التوكل الحق بقوله ﷺ : «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا»(٢) أى: تذهب الطير أول النهار جائعة، وترجع آخر النهار ممتلئة البطون.

ووعد الله من توكَّل عليه أن يكفيه، قال تعالى : ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق/٣]. أى: كافيه.

وجعل الله التوكل الحق من صفات المؤمنين، قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [الأنفال/٢].

ودرس آخر فى هذا الموقف؛ وهو أهمية الملاحظة فى العملية التربوية؛ كى يتحقق المعلم والمربى من صحة التطبيق وصواب الفهم عند طلبته. وهو هدى نبوى كريم، فكان النبى ﷺ كثيراً ما يلاحظ أصحابه ويوجههم ويرشدهم. وفى هذا الموقف أثمرت الملاحظة تصحيح مفهوم خاطئ وقع فيه أحد الطلبة ظنًا منه أن هذا من التوكل؛ وصحح الإمام أحمد له الفهم وأرشده.

---

(١) أخرجه الترمذى فى «الزهد» باب «التوكل على الله» (٢/٦٥/ح ٢٣٤٤) وقال: حديث حسن.

(٢) رواه الترمذى (رقم ٢٥١٧)، والبيهقى فى شعب الإيمان (رقم ١٢١٢).

٢ – من أى البلاد أنت ؟

لما أخرج أهل الطائف رسول الله ﷺ منها بعد أن آذوه، جلس النبى ﷺ إلى جوار حائط بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، فأرسلا إليه قطفًا من عنب مع غلامهما عَدَّاس، الذى وضعه بين يدى النبى ﷺ.

فمد النبى ﷺ يده قائلاً : باسم الله» ثم أكل.

فقال عدَّاس :

هذا كلام غريب لا يعرفه أهل هذه البلاد.

فقال له النبى ﷺ : «من أى البلاد أنت ؟».

قال : من نينوى.

فقال النبى ﷺ :

«من بلد الرجل الصالح يونس بن متى».

قال : أو تعرفه ؟!

قال النبى ﷺ : «ذاك أخى، كان نبيًّا وأنا نبى»، فأقبل عَدَّاس يُقَبِّلُ رأسَ رسول الله ﷺ ويديه، وأعلن إسلامه.

(*) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية جـ ٢ / ص ١٧.

هذا الموقف الإيمانى يفيض بالدلالات الحكيمة، والدروس النافعة فى الدعوة إلى الله عز وجل. وأول هذه الدروس: هذا الأسلوب الودود من رسول الله ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى، والذى يقوم على الحوار المقنع دون تعجل للنتائج، بالإضافة إلى رعاية مشاعر من أمامه.

ويظهر ذلك واضحًا فى حوار النبى ﷺ مع عَدَّاس حين قال النبى ﷺ : « باسم الله »، فقال عَدَّاس : هذا كلام غريب لا يعرفه أهل هذه البلاد، وأحب النبى ﷺ أن يتعرَّف على عَدَّاس من خلال التعرف على البيئة التى نشأ فيها، ففى هذا مفتاح لمعرفة أسلوب تفكير عَدَّاس وعقيدته التى تسكن قلبه، والفكر الذى يملأ رأسه حتى يكون الكلام الموجه إليه مناسبًا لحاله، وهذا من حكمة رسول الله ﷺ . فلما أعلن عَدَّاس أنه من (نينوى) عَرَّف النبى ﷺ هذه البلد بأحب الأوصاف وأشرفها كى يستميل قلب عَدَّاس، فكل إنسان يبش ويفرح حين يسمع ثناءً على بلده ومدحًا لها، فقال النبى ﷺ : « بلد الرجل الصالح يونس بن متى » . وشَجَّعَ هذا عَدَّاسًا أن يستكشف العلاقة بين رسول الله ﷺ وبين يونس بن متى – عليه السلام – فقال للنبى ﷺ : أو تعرفه ؟!

فقال رسول الله ﷺ : « ذاك أخى، كان نبيًّا وأنا نبى »، وهنا وصل عَدَّاس لحالة إيمانية امتلأ فيها قلبه إيمانًا ونورًا، فقام مسرعًا يقبل رأس رسول الله ﷺ ويديه ويعلن إسلامه.

ومن الإشارات الإيمانية فى هذا الموقف أيضًا، التى ينبغى أن نلفت الانتباه إليها: النفسية التى كان عليها رسول الله ﷺ بعد طرده من الطائف، وما ناله من سب وشتم وأذى من عبيدها وصبيانها، فعندما جاء ذكرهم على لسان عَدَّاس لم يصدر من رسول الله ﷺ أى كلمة بشأنهم، لم يَدْعُ عليهم .. وكأنه لم يحدث منهم ما حدث.

فالأمر الذى يهتم به ويتحرك له رسول الله ﷺ هو الدعوة إلى الله تعالى.

أيضًا رسول الله ﷺ لم يتعجَّل دعوة عَدَّاس إلى الإسلام، بل مضى معه فى الحوار، حتى أقنع عقله وملأ قلبه إيمانًا وحبًّا لهذا الدين.

كل هذه المعانى يؤكدها القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل/١٢٥].

حيث تؤكد الآية رعاية حال المتلقى وخطابه بما يناسب حاله، فمن كان من أهل الحكمة كان خطابه بالحكمة، ومن كان من أهل الموعظة كان خطابه بالموعظة الحسنة، ومن لم يكن من أهل الحكمة ولا من أهل الموعظة، وإنما كان من أهل الجدل، كان خطابه بالجدل، بشرط أن يكون الجدال بالتى هى أحسن.

٣ - كأنك نبى

رأى سعد بن أبى وقاص رجلاً يسبُّ عليًّا وطلحة والزبير، فنهاه، فلم ينته، فقال له سعد : إذن أدعو عليك، فقال الرجل :

أراك تتهدَّدنى كأنك نبىّ !!

فانصرف سعد، وتوضأ ، وصلى ركعتين ثم رفع يديه، وقال : اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سَبَّ أقوامًا سبقت لهم منك الحسنى، وأنه قد أسخطك سبُّه إياهم، فاجعله آيةً وعبرةً.

فلم يمض غير وقت قصير، حتى أصابته دابته، فما زال يتخبط بين قوائمها حتى مات.

(*) راجع الطبقات الكبرى (٢٢١ - ٢٣٢)، الاستيعاب (٢ / ٦٠٦ - ٦١٠).

هذا الموقف يحمل عبرًا هادية وعظاتٍ بالغة :

● **العظة الأولى** : هذا الخلق العظيم من سيدنا سعد بن أبى وقاص ﷺ حيث إنه لم يقابل السيئة ولا السبَّ بالسبّ، وإنما كفَّ لسانه، وهذا شأن المؤمن كما وصفه رسول الله ﷺ : «ليس المؤمن بطعانٍ ولا بلعانٍ ولا الفاحش البذىء»[١] .

● **العظة الثانية** : هى إسداء النصيحة لوجه الله تعالى، فنصح الرجل أن ينتهى عن السب والإساءة لهؤلاء الأخيار من صحابة رسول الله ﷺ إعمالاً لقول النبى ﷺ : «الدين النصيحة» قلنا لمن يا رسول الله؛ قال : «لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٢] .

● **العظة الثالثة** : تحذير أهل المعاصى حين لا تنفع معهم النصيحة، فقال سعد للرجل: إذن أدعو عليك. ولكنه الكبر والغرور من الرجل الشاتم، فقال لسيدنا سعد بن أبى وقاص ﷺ : أراك تتهدَّدُنى كأنك نبى!!

● **العظة الرابعة** : هى إخلاص التوجه إلى الله تعالى، وتفويض الأمر إليه سبحانه وتعالى. حيث انصرف سيدنا سعد وتوضأ وصلى ركعتين، وكان الدعاء فى غاية الحكمة؛ حيث لم يزكِّ على الله أحدًا، ولم يفرض فى دعائه شيئًا يرضى نفسه وهواه، بل جعل الأمر كله لله تعالى؛ يظهر هذا من قوله :

«اللهم إن كنت تعلم أن هذا الرجل قد سَبَّ أقوامًا سبقت لهم منك الحسنى، وأنه قد أسخطك سبُّه إياهم، فاجعله آية وعبرة» .

● **العظة الخامسة** : الحذر من معاداة أولياء الله تعالى والصالحين من

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ١/٤٠٥ .
(٢) أخرجه مسلم فى «الإيمان» باب «بيان أن الدين النصيحة» (١/٢/٣٦) .

عباده، فقد استجاب الله تعالى لدعاء سيدنا سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه وذلك لأن الله يتولى الصالحين من عباده ويدافع عن عباده المؤمنين، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج/٣٨].

وفى الحديث القدسى : « من عادى لى وليًّا فقد آذنته بالحرب »(١).

أيضًا يستفاد من هذا الحديث أن منزلة سيدنا سعد عند الله تعالى عالية وغالية، وأن الله أكرمه بهذه الخصوصية، وهى أنه مستجاب الدعوة.

وتفيد السنة النبوية المطهرة أن سيدنا سعداً رضي الله عنه طلب ذلك من رسول الله ﷺ، قال : يا رسول الله، أُدْعُ الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة، فأرشده النبى ﷺ إلى طريق ذلك بقوله ﷺ : « يا سعد، أطِب مطعمك تكن مستجاب الدعوة »(٢)، ودعا له النبى ﷺ فى موقف آخر فقال له : « اللهم سدِّد رميته وأجب دعوته »(٣).

---

(١) أخرجه البخارى فى « الرقاق » باب « التواضع » (١٠/٣٤٨/جـ ٦٥٠٢ مع الفتح).
(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٩٤) وقال : رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم.
(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/٥٠٠)، وأبو نعيم فى الحلية (١/٩٣)

٤ - من أدب التَّعَفُّف

أصبح أبو سعيد الخدرى ﷺ وليس فى بيته طعام، وقد ربط على بطنه حجراً من الجوع.

فقالت له امرأته : ائت النبى ﷺ فاسأله؛ فقد أتاه فلان فأعطاه.

فقال لامرأته : لا، حتى لا أجد شيئًا، وبعد حين، طلب طعامًا من امرأته فلم يجد شيئًا.

فأتى النبى ﷺ وهو يخطب، فأدركه وهو يقول :

«من يستغن يغنه الله، ومن يستعفف يعفه الله».

قال أبو سعيد :

فما سألت أحداً بعد ذلك، وما زال اللهُ يرزقنا حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا.

(*) أخرجه البخارى (٢/١٣٩، ١٥١، ٨/١٢٤).

هذا الموقف يربى فينا قوة التحمل والرضا والتعفف، ويبشرنا الموقف بأن عاقبة الصبر تكون خيرًا. كما يفيض الموقف بالدلالات الآتية:

• **الدلالة الأولى** : أن الإنسان إذا فتح على نفسه باب المسألة والاحتياج فإن النفس لا تقنع ولا تشبع، ويتعود الإنسان على الأخذ السهل دون كفاحٍ وعملٍ، وفى الحديث النبوى الشريف : « وارضَ بما قسم الله لك تكُن أغنى الناس »[١].

إنَّ الإسلام يربى فى الإنسان قيمَ البناءِ والاعتماد على النفس، ولا يرضى لأتباعه أن يكونوا عبئًا على الغير، أو أن تشيع بينهم القيم الاستهلاكية. وما أحسن قول الإمام البوصيرى :

والنفسُ كالطفلِ إن تهمله شَبَّ على حبِّ الرضاعِ وإن تفطمه ينفطمِ

• **الدلالة الثانية**: سرعة استجابة صحابة سيدنا رسول الله ﷺ لهدى النبى صلوات الله وسلامه عليه، فما أن سمع أبو سعيد الخدرى قول رسول الله ﷺ : « ومن يستغن يغنه الله ». حتى رجع عن السؤال وامتثل لهدى سيدنا رسول الله ﷺ. وفى هذا أسوة حسنة لكل مؤمنٍ يرجو الله واليوم الآخر أن يجعل السنة النبوية موقع العمل والتطبيق؛ وهذه حقيقة إيمانية أكدها القرآن الكريم: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾ [الحشر/٧].

فالسمع والطاعة لهدى الله ورسوله ﷺ هما حقيقة الاستجابة التى أمرنا الله بها فى القرآن؛ قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال/٢٤].

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٠٥)، وأحمد فى المسند (٢/٣١٠).

● **الدلالة الثالثة** : ثمرة وبركة العمل بسنة رسول الله ﷺ؛ فبركة السنة لمن يعمل بها. وحين امتثل أبو سعيد الخدرى لقول رسول الله ﷺ : « من يستغن يغنه الله ومن يستعفف يُعفه الله » وسَّع الله رزق أبى سعيد الخدرى، وزاده من فضله وأغناه عن السؤال.

وهذا ما عبَّر عنه أبو سعيد فى الموقف بقوله :

« فما سألت أحداً بعد ذلك، وما زال اللهُ يرزقنا حتى ما أعلم أهل بيت من الأنصار أكثر أموالاً منا » . ومن هنا ندرك أن البركة فى اتباع هدى الله ورسوله والعمل بهما؛ كيف لا والنبى ﷺ لا ينطق عن الهوى.

وفى الحديث : « من اقتصد أغناه الله، ومن بذَّر أفقره الله، ومن تواضع رفعه الله ومن تجبر قصمه الله »[1] .

---

(١) أخرجه الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٦)، قال : رواه البزار، وفيه ممن أعرفه اثنان، الحديث عند الطبرانى فى الأوسط بغير هذا اللفظ، راجع الترغيب والترهيب (٤/ ١٩٧).

٥ - المسارعة إلى الخيرات

لما عزم النبى ﷺ على غزوة تبوك، كان المسلمون يعانون من جَدْبٍ شديدٍ، حتى اضطر النبى ﷺ إلى رد من لا يملك راحلة عن الجهاد.. فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع.

عند ذلك صعد النبى ﷺ المنبر، وحث المسلمين على الإنفاق؛ فوقف عثمان بن عفان رضي الله عنه وقال: علىَّ مائة بعير بأحلاسها ورِحالِها يا رسول الله.

فنزل النبى ﷺ درجة وحضَّ الناس على الصدقة. فوقف عثمان مرة ثانية، وقال: علىَّ مائة بعير أخرى يارسول الله. فتهلل وجه النبى ﷺ: ونزل درجة، وحثَّ الناسَ على الصدقة، ثم أسرع عثمان إلى بيته وجاء مع النوق بذهبٍ وفضةٍ ووضعهما بين يدى النبى ﷺ.

فقال النبى ﷺ: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت، وما أعلنت، وما أخفيت وما أبديت، وما هو كائن إلى يوم القيامة».

(*) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (٧/ ٤٩٣) وهى مذكورة فى غير موضع من كتب السير.

هذا الموقف العظيم يجسد لنا الهمة العالية فى التضحية، من أجل إقامة دين الله تعالى .. وصاحبُ الموقفِ هنا هو سيدنا عثمان بن عفان ﷺ: إنه ذو النورين، زوج ابنتى رسول الله ﷺ، وصاحبُ الهجرتين، ولا عجب ولا دهشة من حجم هذا العطاء العظيم، فإن من يقدم نفسه لله تعالى فإن تقديمه للمال أهون عليه وأيسر.

وهكذا يصنع الإسلام بالنفوس؛ حيث يخلصها من الشُّح والبخل، ويزكى فيها روح العطاء والتضحية.

ويظهر من هذا الموقف دلالاتٌ إيمانية، أهمها :

إنفاق الإنسان مما يحب، واصطفاؤه أفضل ما عنده، فيه تعبير عن حسن إيمانه بربه، كما يحمل له البشرى عند الله تعالى، قال تعالى :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران/ ٩٢].

وكذلك فى هذا الموقف قد بشَّر النبى ﷺ عثمان ﷺ بقوله: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما كان منك وما هو كائن إلى يوم القيامة».

دلالة أخرى فى هذا الموقف وهى أن النبى ﷺ لم يفرض على أحد من أغنياء المسلمين شيئًا من النفقة، رغم شدة الموقف وما أصاب الناس من جَدْبٍ شديدٍ، بالإضافة إلى ظروف التجهيز لغزوة تبوك، واكتفى النبى ﷺ بحثٍّ الناس على الصدقة، ولعل الحكمة من هذا أن يعلم الأمة روح المشاركة عن رغبة وحب، وأن تسهم طواعية دون إجبار فى كل موقف أو ضائقة تتعرض لها الأمة، وليعظم الثواب عند الله تعالى لهم، وتتعلم الأمة روح المبادرة والمسارعة لفعل الخيرات.

٦ - شُكر المُنعِم

خـرج النبى ﷺ - وقت الهـاجـرة - فـوجـد أبا بـكر وعمر - رضى الله عنهما - فسألهما :

«ما أخرجكما فى هذه الساعة ؟»

فقالا : والله ما أخرجنا إلا شدة الجوع .

فقال النبى ﷺ :

«وأنا والذى نفسى بيده ما أخرجنى غير ذلك» .

ثم انطلقوا إلى دار أبى أيـوب الأنصـارى رضي الله عنه فأتاهم بخبـز ولحم وتمـر ورطـب . فلمـا أكلوا وشبـعـوا ، قـال النبى ﷺ :

«خبز ولحم وتمر ورطب ! !» ودمعت عيناه ثم قال :

«والذى نفـسى بيـده لتـسـألن عن هذا النعـيـم يوم القيامة» .

(*) أخرجه مسلم فى «الأشربة» باب «جواز استتباع غيره إلى دار من يثق برضاه» (١٣ / ٢١٠ مع شرح النووى) .

هذا موقف نبوى كريم يحمل قيمًا تربوية هادية، أهمها :

شكر الله المنعم على كل ما ينعم به على عباده حتى الأكلة والشربة؛ كى ينال المؤمن الثواب من الله تعالى، ويصبح الطعام والشراب من ألوان الطاعات التى يتقرب بها العبد لله تعالى. فإذا نوى المؤمن وقصد بالطعام أن يتقوى به على طاعة الله وعلى العمل النافع، وأكل دون أن يعيب طعامًا، ولا يأكل إلا إذا أصابه الجوع، وإذا أكل لم يشبع فمن هدى النبى ﷺ قوله : «نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا، وإذا أكلنا لم نشبع» كذلك يحرص على التسمية فى أوله، وبعد أن ينتهى من الطعام يتوجه لله المنعم بالحمد والشكر، نال المؤمن بطعامه على هذه الصفة أجرًا عظيمًا من الله، وصار هذا الطعام عملاً صالحًا يثاب المؤمن عليه. وهكذا ينبغى للمؤمن أن يربط كل أموره بربه عز وجل.

هذه النفس الصافية والروح المتعلقة بربها التى تتوجه إليه فى كل شأنها بالشكر والحمد، ولعل فى دمع عينى رسول الله ﷺ عند ذلك إشارة إلى غفلة كثير من الناس عن شكر ما بين أيديهم من نعم، فأحب أن يلفت انتباه الأمة إلى أن المؤمن مسئول عن كل نعيم أنعم الله به عليه حتى الأكلة والشربة، فما بالنا بما هو أكثر من ذلك من صحة الأبدان والأمن والأولاد والأزواج والأموال.. وغير ذلك من نعم الحياة الدنيا، هذا فضلاً عن النعم الغالية التى تأتى فى مقدمة كل النعم، وهى نعمة الإيمان ونعمة الدخول فى خير أمة أخرجت لُلناس ونعمة الطاعة ونعمة رسول الله ﷺ، والسؤال من الله للمؤمن عن هذه النعم يوم القيامة يدفع المؤمن إلى أن يؤدى حق الله فيها، من صدقة وزكاة وإعانة للناس وتواضع لله وألا يتفاخر ولا يتعالى بها، وأن يجعلها معونة له فيما يرضى الله تعالى : ﴿ **وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ** ﴾ [الضحى/١١].

٧ – اقتصَّ منى يا أُسَيد

في ذات يوم كان أُسَيْد يُطْرِفُ الناس بطرائفه، فغمزه النبى ﷺ فى خاصرته، كأنه يستحسن ما يقول، فقال أُسَيد : أوجعتنى يا رسول الله !

فقال النبى ﷺ : «اقتص منِّى يا أُسَيْد».

فقال أُسَيد :

لم يكن علَيَّ قميص حين غمزتنى يا رسول الله.

فرفع رسول الله ﷺ قميصه عن جسده الشريف، فاحتضنه أُسَيد وجعل يقبِّله، ويقول :

بأبى أنت وأمى يا رسول الله، إنه لَبُغْية كنت أتمناها !!

(*) مستدرك الحاكم (٣ /٢٨٨ – ٤ / ٣٣١).
وهذا الموقف ورد شبيه له مع سواد، فقد مرّ رسول الله ﷺ يوم بدر بصفوف المسلمين يعدلها وفى يده قدح، فمرّ بسواد بن غزية وهو متقدم عن الصف، فطعنه فى بطنه بالقدح وقال : استو يا سواد.
فقال : يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدْنى.
فكشف عن بطنه فقال : اقتص منى يا سواد.
فاحتضنه وقبل بطنه.
فقال ﷺ : ما حملك على هذا ؟
قال : حضر من أمر الله ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك.
فدعا له الرسول ﷺ بخير.

هذا موقف نبوى كريم، به دلالات إيمانية هادية، وقيم تربوية نافعة. من ذلك :

الدلالـة الأولى: استحسان النبى ﷺ لصنيع أُسَيْد من هذه الطرائف التى تدخل السرور على قلوب أصحابه. وفى هذا إشارة واضحة إلى أهمية الترويح فى حياة المسلم لتجديد نشاطه ودفع الرتابة والملل عن حياته، لكن الترويح مشروط بألا يجرَّ إلى مُحرَّم كالاستهزاء بالغير أو نحو ذلك، أو يُضيع فرضًا من الفرائض أو حقًّا من الحقوق.

وكان رسول الله ﷺ يمزح مع أصحابه، لكنه كان لا يقول إلا حقًّا، من ذلك قوله لامرأة عجوز – ذات مرة: «لا تدخل الجنة عجوز» فتغير وجه المرأة، فقال لها النبى ﷺ : «لأن الله سيعيد إليك شبابك وجمالك»(١).

وهذا فقه نحتاج إليه فى حياتنا المعاصرة، فالمغالاة من بعض الناس فى منع الترويح والطرائف من حياة المسلم، ظنًّا منهم أن فى هذا مزيداً من تقوى الله عز وجل، هذه المغالاة غير مقبولة. والذى نهى عنه رسول الله ﷺ هو كثرة الضحك، كى لا تتحول حياة المسلم كلها إلى لهو وصخب، وأدب الطرائف والترويح فى الإسلام أن يكون فى حدود ما أحل الله عز وجل.

والدلالة الثانية : هذا الحرص الواضح من سيدنا رسول الله ﷺ على تمكين أصحاب الحقوق والمظالم من حقهم، حتى وإن كانت هذه المظلمة شيئًا يسيراً. وفى الحديث الذى أخرجه مسلم عن أبى أمامة أن رسول الله ﷺ قال : «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة». فقال الرجل : وإن كان شيئًا يسيراً يا رسول الله ؟ فقال : «وإن كان

---

(١) رواه الترمذى فى الشمائل مرسلاً، وأسنده ابن الجوزى من حديث أنس بسند ضعيف، قاله العراقى فى تخريج الإحياء (٧/ ٥٠٠).

قضيبًا من أرَاك »[١] .

وفى هذا الموقف الذى بين أيدينا يضرب النبى ﷺ المثل الأعلى لأمته، ويقدم لهم الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة فى تمكين أصحاب الحقوق من حقوقهم، حتى وإن كان شيئًا يسيرًا نستهين به فيما بيننا .

الدلالة الثالثة : هذا الحب العظيم الذى يملأ قلب أُسَيْد، فكانت رغبته الودودة فى أن يُقبل جسد رسول الله ﷺ، كى يمس جسده جسد رسول الله ﷺ، فلجسد رسول الله ﷺ من الخصائص التى أكرمه الله بها فى الدنيا والآخرة، ما يحتاج إلى كتب كاملة، وقد ألَّف العلماء فى شمائله ﷺ وخصائصه الجسدية الكثير من الكتب، من ذلك : شمائل الترمذى، واللفظ المُكرَّم بخصائص النبى صلى الله عليه وسلم للخيضرى.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، واجمعنا به يوم القيامة، واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبداً .

---

(١) أخرجه مسلم فى «الإيمان» ح ٢١٨، وقوله ﷺ : «قضيبًا من أراك» أى: عود من هذا الشجر.

٨ - سر القبــول

شُغِلَ رجل بـحب ثناء الناس ومدحـهم، فالتقى برسول الله ﷺ وقال له :

يا رسول الله، إنى أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يذكرنى الناس.

فلم يرد عليـه النبى ﷺ . فنـزل فيـه قـول الله تعـالى : ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف/١١٠].

(*) أخرجه ابن أبى حاتم فى التفسير.

هذا الموقف يقدم معانى ودلالات أهمها :

الدلالة الأولى: أنه يقدم لنا تحديداً دقيقًا لصفة العمل الذى يُرجى له القبول عند الله تعالى. وشأن هذا الرجل فى الموقف الذى بين أيدينا شأن كثير من الناس يدفعهم لإجادة العمل حُسن السمعة، أو الشهرة، أو مشاعر الأحباب . . .إلخ.

والإسلام يرقب بعناية فائقة ما يقارن ويصاحب أعمال الناس من نيّات، وما يلابسها من مشاعر وعواطف. ولا يرقى العمل، ليكون موضع القبول عند الله تعالى إلا إذا تخلص من شوائب النفس وخلص لمرضاة الله وحده، وهذه حقيقة تؤكدها آيات القرآن الكريم، وظهرت واضحة فى هذا الموقف.

قال الله تعالى :

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً﴾ [الإنسان/٩].

وقال تعالى :

﴿الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل ١٨ : ٢١].

ولتصحيح اتجاهات القلب وتجريدها لله تعالى، قال النبىﷺ : «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى . . .»(١).

إذن صلاح النية وإخلاص الفؤاد لرب العالمين يرتفعان بالعمل الدنيوى ليكون طاعة لله تعالى.

وأما الدلالة الثانية : أن العمل لا اعتبار له عند الله تعالى إذا جاء مخالفًا

(١) رواه البخارى (١/٢، ٨/١٧٥)، وأبو داود (٢٢٠١).

لهدى القرآن والسنة، فصلاحية العمل بموافقة هدى القرآن وهدى سنة رسول الله ﷺ.

ونخرج من هذا الموقف بأن العمل الذى يرجى له القبول عند الله تعالى مشروط بشرطين، هما : الإخلاص، والموافقة للكتاب والسنة.

الدلالة الثالثة : أن وجود أحد الشرطين فى العمل: الإخلاص، أو موافقة الكتاب والسنة، وافتقاد أحدهما ليس كافيًا، ليكون العمل عبادة يرجى لها القبول عند الله تعالى.

فالرجل كان يعمل العمل الصالح لكنه مصاب بداء الرياء وطلب ذكر الناس والشهرة، فانتفى الإخلاص.. فضاع العمل وسقط. ويقول النبى ﷺ : «إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ : من كان أشرك فى عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عنده؛ فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك به»[١].

---

(١) رواه ابن ماجه (رقم ٤٢٠٢) وأصله فى صحيح مسلم بنحوه (٤ / ٢٩٨٥).

٩ - مهرها الإسلام

كان أبو طلحة فارس بنى النجار، وله منزلة محمودة بين قومه، ولما علم أبو طلحة أن أم سُليْم توفى عنها زوجها ذهب إلى خِطْبَتِها قبل أن يسبقه أحد إليها، حيث كانت أم سُلَيْم راجحة العقل حسنة الصفات.

فلما ذهب يخطبها قالت له :

يا أبا طلحة، مثلك لا يُرد لكنى وأنا مسلمة وأنت مشرك. فقال لها :

لعل هناك من هو أكثر منى ذهبًا وفضة!

فقالت له :

أُشهد الله ورسوله إن أسلمت يا أبا طلحة رضيت بك زوجًا من غير ذهب ولا فضة، وجعلتُ إسلامك لى مهراً.

ففعل، فكان المسلمون يقولون :

ما سمعنا بمهر قط كان أكرم من مهر أم سُليم، فقد جعلت مهرها الإسلام.

(*) أخرجه ابن سعد فى الطبقات (٨/٨).

هذا موقف إيمانى كريم، يحمل دلالات هادية، فيها الأسوة وفيها القدوة لجميع المسلمين.

أولى هذه الدلالات هى بيان أثر الإسلام فى النفوس؛ فالإسلام يربى فى النفوس القيم العالية، ويتجاوز حدود إسعاد النفس بالمال من ذهب وفضة، لأن النفس بالإسلام وهديه تسمو وترقى لتسعد بالمعانى العظيمة والقيم النبيلة، وما أعده الله للمؤمنين عنده فى الجنة، فأم سُليم لم تفتن بمكانة أبى طلحة ولا بالذهب ولا بالفضة؛ لأن هناك معنى وغاية أكرم، تسكن قلبها ألا وهى رضوان الله عز وجل، لذلك كانت معتزة بإسلامها.

وفى الحديث، قال النبى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»(١).

فالإيمان الصادق يجعل المشاعر والعواطف مرتبطة بالله، لا تتبع الهوى فتضل، بل تسارع مستجيبة لهدى الله تعالى عن رضا وطمأنينة، فالمؤمن يرضى بما يرضى الله به.

ودرس آخر يظهر من موقف أم سليم حين رفضت الزواج من أبى طلحة حتى يُسلم، وهو أن رغبة المؤمن فيما عند الله تعالى تفوق كل رغبة عنده فى متاع الدنيا العاجل، فعلِم أم سليم بأن ما عند الله خير وأبقى، ولرغبتها فى تحصيل ثواب إسلام أبى طلحة، وعدته إن أسلم أن تجعل إسلامه مهراً لها، رغم مكانتها بين قومها ورغبة أشراف القوم فى خطبتها، لكنها آثرت الآخرة.

وصدق الله العظيم: ﴿**مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ**﴾ [النحل/٩٦].

ولأن هذه الأسرة قامت على الإيمان ورضا الله تعالى؛ باركها الله وأسبل

---

(١) أخرجه الحافظ فى الفتح (١٣/ ٢٨٩).

عليها نعمة السعادة والرضا وأسعد كلاً منهما بصاحبه.

وفى هذا قدوة صالحة لبنات حواء أن يكون معيار الاختيار، كما وضح النبى ﷺ: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير»[١].

ولعل فى هذا الموقف الأسوة الصالحة لبناتنا وأولياء الأمور بأن يكون فى طيب خلق الخاطب وحسن دينه عوض عن المهر المرتفع والمطالب التى تطلب من الخاطب فى زماننا وترهقه من أمره عسراً، وتجعل الزواج أمراً عسيراً، بسبب خضوعنا لعادات بالية وتقاليد زائلة تقوم على التباهى والتفاخر بالماديات التى يعتز بها الناس، من مسكن واسع وفرش وثيرة ومهد مرتفع ونحو ذلك. وكل هذا مخالف لهدى الإسلام الذى ييسر الحلال للناس. وفى الحديث النبوى الشريف: «من بركة المرأة يسر مهرها»[٢].

وأين نحن من يسر رسول الله ﷺ فى الزواج؟ لقد كان يزوج الفقراء العلماء من أهل القرآن بما معهم من قرآن، وكانت الصالحات ترضين بالقرآن مهراً.

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/١٦٩) وابن ماجه فى السنن (ح ١٩٦٧).
(٢) رواه أحمد (٦/٧٧، ٩١)، وإسناده جيد.

١٠ - هكذا أُمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا ﷺ

صلى زيد بن ثابت رضي الله عنه على جنازة، فقربت إليه بغلته ليركبها، فجاء ابن عباس رضي الله عنه فأخذ بركابه، وأمسك بزمام الدابة.

فقال له زيد :

دع عنك هذا يا ابن عم رسول الله ﷺ .

فقال له عبد الله بن عباس :

هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا.

فقال له زيد :

أرني يدك يا ابن عم رسول الله ﷺ .

فأعطاه يده، فإذا بزيد يُقَبِّلها ويقول :

ونحن هكذا أُمرنا أن نفعل حُبًّا بأهل بيت نبينا.

(*) أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم، قاله العراقي في تخريج الإحياء (١ / ٥٠)..

هذا موقف كريم بين اثنين من أئمة صحابة سيدنا رسول الله ﷺ، وممن قاموا بأمانة التبليغ عن سيدنا رسول الله ﷺ .

وفى هذا الموقف تربية على الخلق الكريم، حيث نرى هذا التواضع من سيدنا عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – إجلالاً لسيدنا زيد بن ثابت رضي الله عنه فيمسك الدابة ويأخذ بزمامها إكرامًا وإجلالاً لعلم سيدنا زيد بن ثابت، كاتب الوحى، ورأس أهل المدينة فى القراءة والعلم، ولمَّا نهاه سيدنا زيد عن هذا التواضع الشديد، أظهر سيدنا عبد الله بن عباس نيته الخالصة وحكمته الرشيدة، فقال: «هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا».

ما أحوجنا جميعًا إلى التأسى بهذا الأدب الرفيع فى إجلال أهل العلم! كيف لا، والله قد رفع أقدارهم وأعلى مكانتهم ؟! قال الله تعالى : ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ [المجادلة/ ١١].

والله سبحانه وتعالى حين أراد أن يجعل لآدم – عليه السلام – منزلة كريمة، ما كان ذلك بمال ولا شيء من زينة الحياة الدنيا، وإنما كان ذلك بالعلم. قال تعالى:

﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ [البقرة/ ٣٠ : ٣١].

فأهلية آدم للخلافة كانت بالعلم.

وهذا الموقف الكريم يقدم لنا الأسوة الطيبة والقدوة الحسنة فى محبة آل بيت سيدنا رسول الله ﷺ.

وليتأمل المؤمن أننا فى صلاتنا بعد التشهد نصلى ونسلم عليهم بعد سيدنا رسول الله ﷺ، وذلك فى صيغة الصلاة الإبراهيمية التى أرشدنا إليها رسول الله ﷺ :

« اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد »[1].

وفى القرآن الكريم نجد قول الله تعالى :

﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود/٧٣].

ولهذا رأينا فى الموقف كيف أخذ سيدنا زيد رضي الله عنه يد سيدنا عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – وقبلها، ثم أعلن عن النية والحكمة من ذلك بقوله : « وهكذا أمرنا أن نفعل حبًّا بأهل بيت نبينا ».

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم، وصفة الصلاة على النبى ﷺ مذكورة بعدة ألفاظ.

١١ - شُمَّنى يا حُذيفة

كان حذيفة بن اليمان ﷺ إذا جلس بجوار منافق أحس به، حتى اشتهر بين الصحابة بأنه يشمُّ رائحة النفاق.

ولمَّا ائتمنه النبى ﷺ على أسرار المنافقين جاءه عمر بن الخطاب ﷺ وقال له :

أعطاك النبى ﷺ قائمة بأسماء المنافقين وائتمنك على أسرارهم، فهل عمر منهم يا حذيفة ؟!

فقال له حذيفة :

يا عمر، أنت من المبشرين بالجنة.

فقال له عمر :

شُمَّنى يا حذيفة، هل تجد فىّ شيئًا من رائحة النفاق؟!

وحذيفة يكرر :

يا عمر أنت من المبشرين بالجنة.

(*) حوار عمر مع حذيفة، أخرجه مسلم [١/ ١٢٨ - ١٣٠ ح/ ٢٣١ (١٤٤)].

هذا الموقف يقدم لنا عظة بليغة فى الحذر من النفاق، وذلك لخطورة النفاق من وجهين :

الوجــه الأول : أن النفاق أمر خفى غير واضح وضوح الإيمان أو الكفر، دليل ذلك أن الله تعالى فى أول سورة البقرة وصف المؤمنين فى خمس آيات، ووصف الكافرين فى آيتين، ووصف المنافقين فى تسع آيات؛ وما ذلك إلا لخفاء النفاق.

الوجــه الثــانى : خطورة عاقبة النفاق، فقد توعد الله المنافقين بالدرك الأسفل من النار يوم القيامة، قال تعالى : ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾ [النساء/١٤٥].

وقــال تعــالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ [التحريم/٩].

فقد كان صحابة رسول الله ﷺ على حذر من مرض النفاق، أو أن يوجد بهم أدنى صلة أو رائحة تربطهم بالنفاق، لذلك أسرع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى حذيفة رضي الله عنه ليطمئن على نفسه.

دلالة أخرى فى هذا الموقف وهى : هذا الخشوع من سيدنا عمر رضي الله عنه فهو رغم منزلته فى الطاعة ، وعند رسول الله ﷺ، ورغم أنه من المبشرين بالجنة، إلا أنه خائف، يصدق عليه قول الله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾ [المؤمنون/٦٠].

ولما سألت السيدة عائشة - رضى الله عنها - رسول الله ﷺ عن هذه الآية: هل هو الرجل يسرق ويزنى ويفعل السيئات ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يعاقبه الله عليها؟ قال لها : لا يا عائشة، إنما هو الرجل يصوم ويصلى ويتصدق

ويفعل الخيرات ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه ذلك، يا عائشة أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون[١].

وهذا شأن الفائقين فى كل موقع، إنما هم على حذر ويقظة من أن يصيب عملهم شائبة أو خلل.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبرى فى التفسير عن عائشة - رضى الله عنها -.

١٢ - لم يبق لى شىءٌ يُباع

جاء سائل إلى سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه يسأله عطاءً، فكتب له :

لم يَبْقَ لى شىءٌ يُبَاعُ بِدِرْهَمٍ

تُغْنِيكَ حالةُ مَظْهَرِى عن مَخْبَرِى

إلاَّ بقيةُ ماءِ وجهٍ صُنْتُهُ

من أن يُباعَ ونِعْمَ أنتَ المُشترِى

فأعطاه الإمام على عطاءه كاملاً، وكتب له :

عاجَلْتَنَا فأتاكَ عاجلُ بِرِّنا

قُلاًّ ولو أَمْهَلْتَنَا لم نُقْتِرِ

فخُذِ القليلَ وكُنْ كأنَّكْ لم تَبِعْ

ما صُنْتَهُ وكأنَّنا لَمْ نَشْتَرِ

(*) ذكره الإمام الغزالى فى الإحياء (٣ / ٣٥٥) بغير هذا السياق .

هذا الموقف يربى فينا خلقًا إيمانيًا أمرنا الله به فى قرآنه، قال الله تعالى : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة/٢٦٣].

إن بعض الناس ينظر لصاحب الحاجة من الفقراء والمساكين وغيرهم بترفع، وأنه الأعلى والأفضل والأكرم، وربما صَاحَب العطاء استقلال واستهانة بالفقير، وربما صاحبت العطاء كلمات تجرح المشاعر وتنال من كرامة الفقير، وكل هذا يحدث حين يضعف الإيمان بالله تعالى، وأما حين يزيد الإيمان فى القلب فإن المؤمن يدرك أن المعطى على الحقيقة هو الله تعالى.

وحين يُكرم الله عبداً من عباده فيُجرى على يديه خيراً، ويجعله سببًا لنفع إخوانه المؤمنين، فينبغى أن يُرجع الفضل لصاحب الفضل وهو الله رب العالمين، وألا يرى لنفسه فضلاً فى هذا العطاء، ويعلم أن الله يختبر عبده بالغنى كما يختبره بالفقر.

ورحم الله ابن عباس – رضى الله عنهما – حيث قال : عباد الله، لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم، ولو شاء لجعلكم فقراء لا غنى فيكم، ولكن اقتضت حكمته أن يبتلى بعضكم ببعض.

تجسَّدت كل هذه المعانى الطيبة فى موقف الإمام علىّ ﷺ من السائل، حيث أجزل له العطاء مع حفظ كرامته ورعاية مشاعره، ولزوم التواضع، وإظهار أنه كان يود أن يكون العطاء أكثر من هذا، يظهر هذا من قوله :

عاجَلْتَنَا فأتاكَ عاجلُ برِّنا
قُلاً ولو أَمْهَلْتَنَا لم نُقْتِرِ

فـخُـذِ القليلَ وكُنْ كـأنَّكْ لـم تَبِعْ

مـا صُنْتَـهُ وكـأنَّنا لَمْ نَشْـتَـرِ

كـذلك ينبـغى أن نصطفى ونختـار من نسـأل، حـين نقع فى ضرورة أو حاجة، فقد تخير الرجل من يملك قضاء حاجته، ويُرجى خيره، فليس من الحكمة أن نسأل من لا يملك قضاء المصالح أو من لا يرجى خيره.

أيضًا يستفاد من الموقف حُسن السؤال، والتلطف فى الطلب، وحسن الإجابة والترفق بالسائل.

١٣ - المَلَك ينتصر لك

بينما رسول الله ﷺ جالس ومعه أصحابه، وقع رجل بأبي بكر رضي الله عنه فَسبَّه، فصمت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية فصمت عنه أبو بكر ، ثم آذاه الثالثة فانتصر أبو بكر لنفسه، فقام الرسول ﷺ من المجلس.

فقال أبو بكر :

أَوَجَدْتَ عليَّ يا رسول الله ؟

فقال رسول الله ﷺ :

«نزل ملك من السماء يكذبه بما قال لك، فلما انتصرت لنفسك ذهب الملك وقعد الشيطان، فلم يكن رسول الله يجلس إذا وقع الشيطان».

(*) أخرجه أحمد (٢ / ٤٣٦) ، وأبو داود (رقم ٤٨٩٧) .

هذا موقف إيمانى يقدم دلالات أخلاقية هادية، منها :

عدم مجاراة أهل الإساءة فى إساءتهم، ولا أهل الفساد فى فسادهم، وإنما ندفع بالتى هى أحسن، فالحلم يسكت فم السفيه، يؤكد هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ **وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت/٣٤].

وهكذا كان النبى يربى أصحابه على الخلق الكريم، ومن أساليب التربية النبوية أنه قام عن المجلس تاركًا أبا بكر الصديق وحده، بالرغم من أنهما أتيا إلى المجلس معًا، ليبين النبى ﷺ أن الصحبة تكون فى الخير، وتنقطع بالمعصية، فشعار المؤمن فى الصحبة : «طاعة الله تجمعنا، ومعصية الله تفرقنا» وذلك لأن القصد من الصحبة المعونة على الطاعة والذكر.

ودلالة أخرى تستفاد من هذا الموقف، وهى أن مَنْ كف نفسه عن مجاراة أهل الإساءة إذا أساءوا إليه، فإن الله تعالى يدافع عنه، وينتصر للإنسان الملتزم.. ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [المدثر/٣١]، ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا...** ﴾ [الحج/٣٨].

أيضًا يستفاد من هذا الموقف الكريم تقديم النصيحة وعدم كتمانها حياءً من الصاحب والعزيز على الإنسان؛ فالنبى ﷺ نصح أبا بكر رضي الله عنه بأن يترك الانتصار لنفسه.

وقد قدمت السنة النبوية علاجًا شافيًا لمشاعر الإنسان إذا اضطربت وقت الغضب، كى لا يندفع نحو الخطأ تحت ضغط الانفعال وغريزة الانتقام. وفى الحديث النبوى: «إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس فإن ذهب الغضب عنه وإلا فليضطجع»[1].

---

(١) سنن أبى داود (٤٧٨١).

ومن هديه ﷺ فى علاج الغضب الوضوء؛ لقوله ﷺ : «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[١].

أيضًا من هديه ﷺ فى علاج انفعال الغضب، قوله حين رأى رجلاً انتفخت أوداجُهُ واحمر وجهه : «إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الغضب هى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[٢].

(١) أخرجه أبو داود (ح ٤٧٨٤) ، وأحمد فى المسند (٤ / ٢٢٦) .
(٢) أخرجه الترمذى فى السنن (ح ٣٤٥٢) .

١٤ – من حِلم رسول الله ﷺ

رُوى أن يهوديًّا يُدعى زيد بن سَعْنَة كان له عند رسول الله ﷺ دَيْنٌ، فأراد أن يطلب دَيْنَه قبل حلول أجله، فاعترض اليهودى رسول الله ﷺ فى طريق المدينة، وقال:

إنكم بنى عبد المطلب قوم مطل (أى: مماطلون فى سداد الدين)، ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فاشتد غضبه وهمَّ بمعاقبة الرجل.

فقال له النبى ﷺ:

«كنَّا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر: أن تأمرنى بحسن الأداء، وتأمره بحسن الطلب. اذهب يا عمر فاقضه حقه وزِدْ عشرين صاعًا من التمر».

وكانت نتيجة ذلك أن أسلم اليهودى، وشهد بقية المشاهد مع رسول الله ﷺ.

(*) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٣٢، ٦٠٥).

هذا الموقف يحمل فقهًا عظيمًا فى حسن المعاملة فيما يتصل بالدَّين، وما ينبغى للمؤمن أن يتصف به من حسن الأداء وحسن الطلب والتقاضى، مع التخلق بالسماحة والعفو، لما لذلك من أثر طيب، ولهذا الموقف قصة هادية، وهى أن زيد بن سعنة كان قد قرأ فى الكتب السابقة عن رسول الله ﷺ وعرف صفاته وتأكد منها، إلا صفتين :

الأولى : أن حلمه يسبق غضبه.

والأخرى : أنه لا يزيده جهل الجاهل عليه إلا حلمًا.

وظل زيد يحضر مجالس النبى ﷺ ويتودَّد إليه، حتى تم هذا الدَّين لفقير فى حضرة النبى وبضمانه ﷺ، وأتى زيد عامداً قبل الموعد المحدد لقضاء الدَّيْن، وطلب دَيْنَه بهذه الصورة الاستفزازية، وتهجَّم على رسول الله ﷺ بما لا يليق من الكلام، حيث وصفه بالمماطلة، واشتد ذلك على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فَهمَّ بمعاقبة الرجل. ولكن صاحب الخلق العظيم ﷺ قال لعمر: «كنا أحوج إلى غير هذا منك : أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن الطلب».

ثم أمر النبى ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يدخل بيت المال، وأن يجزل له العطاء، فلما دخل زيد بن سَعْنَة مع عمر قال له : أما تعرفنى يا عمر؟ قال : من ؟ قال أنا زيد بن سَعْنَة. قال عمر : الحبر اليهودى؟ قال: نعم. قال : فما حملك على هذا ؟ قال : أحببت أن أختبر صفتين فى رسول الله ﷺ، هما : أن حلمه يسبق غضبه، وأن جهل الجاهل عليه لا يزيده إلا حلمًا. ثم أسلم زيد بن سعنة وشهد بقية الوقائع مع رسول الله ﷺ.

وفي هذا أبلغ العظات في التأسي برسول الله ﷺ في العفو والتسامح، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت/ ٣٤] .

وصلى الله على سيدنا محمد معلم الناس الخير، وعلى آله وصحبه وسلم .

١٥ – من فقه التربية

قال أنس بن مالك رضي الله عنه :

أرسلنى رسول الله ﷺ يومًا لحاجة، فخرجت وقصدت صبيانًا يلعبون فى السوق لألعب معهم، ولم أذهب لما أمرنى به، فلمَّا صرت إليهم شعرت بإنسان يقف خلفى ويأخذ بثوبى، فالتفتُّ فإذا رسول الله ﷺ يبتسم ويقول :

يا أُنَيْس، أذهبت حيث أمرتك ؟» فارتبكت وقلت :

نعم، إنى ذاهب الآن يا رسول الله !

والله لقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لشىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشىء تركته : لم تركته؟ !

(*) الحديث فى الصحيح بعدة روايات، راجع مجمع الزوائد (٩ / ١٨) .

هذا الموقف يحمل دلالات هادية :

الدلالة الأولى : سعة صدر رسول الله ﷺ وعدم انفعاله أو غضبه حين رأى غلامه أنسًا يلعب مع الصبيان، وترك الحاجة التى أمره بها. وفى هذا إدراك منه ﷺ لطبيعة الصبيان ونزوعهم إلى اللهو واللعب، وما قد يصدر عنهم من مخالفات تحتاج فى تقويمها إلى معلم رحيم ومربٍّ كريم لا يعرف الفظاظة ولا الغلظة ولا العنف.

الدلالة الثانية : تظهر فى الأسلوب الودود الذى خاطب به النبى ﷺ غلامه، حيث ناداه باسم التدليل (أُنَيْس)؛ كى تأنس نفسه برسول الله ﷺ .

وفى هذا ما ينبئ عن رحمة رسول الله ﷺ ورأفته وفقهه. كيف لا والله سبحانه وتعالى قد مدحه بهذه الأوصاف فى القرآن الكريم؟! ومن ذلك قوله تعالى :﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم/٤]، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ [الأنبياء/١٠٧]، وقوله تعالى : ﴿ **حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة/١٢٨].

وهذا سرٌّ من أسرار نجاح القائد فى موقعه، حين يحتوى بقلبه نفوس من حوله. فى حين حذرنا الله تعالى من الفظاظة والغلظة التى تفرق الأتباع وتشتت الشمل، قال تعالى :

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ [آل عمران/١٥٩].

الدلالة الثالثة : تظهر من تعقيب أنس رضي الله عنه فى وصف معاملته ﷺ له طوال مدة خدمته له؛ حيث يقول : والله لقد خدمت رسول الله ﷺ عشر

سنين فما قال لشيء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته : لم تركته؟

وفى هذا دلالة على حكمة النبى ﷺ وتنوع أساليبه فى التربية، ومن بينها ضرب الأسوة والقدوة الحسنة، والمتابعة، دون الزجر والأمر أو النهى المباشر، وقد يكون هذا أجدى مع الصبية.

الدلالة الرابعة : حسن معاملته ﷺ لخدمه، فسيدنا أنس ﷺ من رواة الحديث، وسيدنا زيد من قادة الجيش، وأسامة بن زيد –رضى الله عنهما– من قادة الجيش وغيرهم ممن خدموا رسول الله ﷺ.

وفى هذا دعوة محمدية لأولى الأمر وأصحاب الأعمال أن يرفقوا بمن يعملون تحت أيديهم، وأن يعاملوهم كما يعاملون أبناءهم وإخوانهم.

١٦ - بين الأمانة والإمارة

جاء أبو ذر الغفارى ﷺ إلى رسول الله ﷺ وقال له :

يا رسول الله ، ألا تستعملنى ؟

فضرب بيده على منكبه ، ثم قال :

«يا أبا ذر ، إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة ، إلا من أخذها بحقها وأدَّى الذى عليه فيها » .

(*) أخرجه مسلم فى « الإمارة » باب « كراهة الإمارة بغير ضرورة » (٤ / ١٢ / ٢١٠ مع شرح النووى) .

هذا موقف تربوى يحمل دروسًا نافعة للأمة فى مجال الإدارة وتوزيع الأعمال المختلفة.

الـدرس الأول : هو أن رسول الله ﷺ لم يتحرك بدافع من عاطفة الحب نحو صاحبه أبى ذر رضي الله عنه فحسب، بل قدَّم لنا ﷺ القدوة الصالحة فى مصارحة طالب الرياسة أو الوظيفة بنقص كفاءته ومؤهلاته التى ترشحه للنجاح فيها. ثم بيَّن ﷺ أن الإمارة أمانة نسأل عنها يوم القيامة.

الدرس الثـانى : أنَّ قوله ﷺ : « يا أبا ذر، إنك ضعيف » ليس معناه ضعفًا فى الإيمان، فلقد كان أبو ذر رضي الله عنه من خيار الصحابة وأفضلهم إيمانًا بالله تعالى، ولكن الضعف هنا يفهم من هذا السياق على أنه ضعف كفاءة وإمكانية للقيام بأمر الإمارة.

ويؤكد النبى ﷺ بذلك قاعدة إيمانية، هى أن حُسنَ النية وحده لا يكفى لمعالجة المشاكل وإنجاز الأعمال، بل لابد من الكفاءة والقدرة العملية على إنجاز ما يسند إلى المرء من أعمال.

والقرآن الكريم أرسى هذه القاعدة فى قصة سيدنا يوسف – عليه السلام–، حين لم يقدم نفسه لإدارة شئون المال بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه أيضًا : ﴿**قَالَ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ**﴾ [يوسف/ ٥٥].

وأبو ذر رضي الله عنه لما طلب الولاية لم يجده النبى ﷺ كُفؤًا لها قادرًا على القيام بأعبائها، فحذَّره منها، والأمانة تقضى بأن نصطفى للأعمال أحسن الناس قيامًا بها، فإذا مِلنا عنه إلى غيره – لهوى أو رشوة أو قرابة – فقد ارتكبنا بتنحية القادر وتولية العاجز خيانة فادحة.

قال رسول الله ﷺ : «من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى الله منه – أى أصلح – فقد خان الله ورسوله والمؤمنين»[١].

وقد أرشدت السُّنة إلى أن خيانة الأمانة، مظهر من مظاهر الفساد الذى يقع فى آخر الزمان، فقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأله: متى الساعة ؟ فقال له النبى ﷺ : «إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة»، فقال الرجل : وكيف إضاعتها؟ قال : «إذا وُسِّدَ الأمر لغير أهله، فانتظر الساعة»[٢].

وهكذا عظَّم الإسلام الأمانة؛ كى يُخلِص الرجل فى عمله، ويهتم لإجادته، ويسهر على حقوق الناس ومصالحهم التى وُضعت بين يديه، وأن يحرص الإنسان على مراقبة الله فى عمله لأنه أمانة سوف يُسْألُ عنها يوم القيامة.

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/ ٩٢) وقال : صحيح الإسناد، وراجع الترغيب والترهيب (٣/ ١٧٩).
(٢) أخرجه البخارى (١/ ٢٣، ٨/ ١٢٩).

١٧ - من فقه الأزمات

حَرَّض أحد أحبار اليهود شابًّا يهوديًّا للإيقاع بين الأنصار (الأوس والخزرج)، وأن يذكِّرَهم بيوم بُعاث، الذى انتصر فيه الأوس على الخزرج، فأثمرت الفتنة، وحمل كلٌّ من الأوس والخزرج السلاح للقتال، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأسرع ومعه أصحابه من المهاجرين.

فقال لهم النبى ﷺ :

«يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألَّف بين قلوبكم؟».

وهنا عرف القوم (من الأوس والخزرج) أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق بعضهم بعضًا ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مطيعين.

(*) سيرة ابن هشام (٢/١٤٦).

هذا الموقف حسبه من الأهمية أن الله أنزل فبه قرآنًا يُتلى، وهو موقف يقدم لنا درسًا غاليًا فى الحذر من الدسائس، ويقدم لنا درسًا فى الحفاظ على وحدة الأمة.

فالمسلمون أمة واحدة، ولكن الخطر يأتى من الدسائس التى تريد أن تفرق وحدتهم، وقد بدأت هذه الدسائس منذ عهد رسول الله ﷺ حين جمع الله الأوس والخزرج على الإسلام، وألف بين قلوبهم على يد رسول الله ﷺ وانتهى ما بينهم من شحناء ومعارك، لكن اليهود - قاتلهم الله - غاظهم أن يروا وحدة المسلمين وقوتهم، فأثاروا الفتن والدسائس، وأرسلوا شأس بن قيس يُذَكِّر الأوس والخزرج بمعارك الجاهلية، وأشعار كل قبيلة وما بها من التباهى والتفاخر بالنصر، فأيقظ فيهم روح القبليّة، فنادى كل فريق: يا للأوس ، ويا للخزرج !! يا للسلاح !! وسمع النبى ﷺ فأسرع إلى القوم. ونادى فيهم : « دعوها فإنها جاهلية » . أى أن التداعى بالقبلية أمر من أمور الجاهلية التى لا يليق بمن أكرمه الله بالإيمان أن يأتى شيئًا منها . وأنزل الله على قلب حبيبه قرآنًا يُتلى، قال الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾ [آل عمران/ ١٠٠] .

وتلا النبى ﷺ على القوم قرآن الله عز وجل فبكوا وذرفت أعينهم الدموع، وعانق الرجال بعضهم بعضًا، وانتبهوا وأدركوا أنها نزغة شيطان، وأنها دسيسة يهودى خبيث أراد أن يكيد للمسلمين.

ومن دروس الموقف - أيضًا - أهمية الاعتصام بحبل الله تعالى والاجتماع على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فلابد للأمة من شىء تجتمع عليه، يؤلف بينها ويزيل ما بينها من شقاق وخلاف.

قال الله تعالى : ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران/١٠٣].

ومن دروس الموقف أيضًا: الحذر من الخلاف والفرقة؛ فإنها من أمور الجاهلية، قال الله تعالى : ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾ [آل عمران/١٠٥ : ١٠٦].

وما أحوج أمتنا فى ظروفنا المعاصرة أن تأخذ العبرة من هذه المواقف المحمدية القرآنية، وكفانا فرقة، وكفانا تمزقًا، وإن كان أهل الباطل قد اجتمعوا واتحدوا من أجل باطلهم؛ فأولى بأهل الحق أن يجتمعوا من أهل حقهم.

قال الله تعالى : ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد/١١].

ومن الدروس المهمة فى هذا الموقف :

أولاً : مسارعة النبىﷺ فور وصول خبر الفتنة؛ ليدرك المشكلة فى بدايتها، فتكون السيطرة عليها أسرع وأيسر.

ثانيًا: نرى حكمة رسول الله ﷺ فى المعالجة من خلال خطاب الفريقين (الأوس والخزرج) بأسلوب مقنع يذكرهم فيه بما أنعم الله عليهم من أخُوَّة الإسلام وهداية الإيمان، ويحذرهم من عدوهم الأكبر إبليس عليه اللعنة، الذى

نزغ بينهم وحاول أن يوقع بينهم العداوة والبغضاء. فهل يليق بمن ألَّف الله بين قلوبهم وجعلهم إخوانًا متحابين أن ينتكسوا إلى أخلاق الجاهلية وقبليتها وعصبيتها وقد هداهم الله ؟!

ثالثًا : سرعة رجوع المؤمن إلى الحق، وعدم التمادى فى الباطل، فالصحابة – من الأوس والخزرج – لمَّا بصَّرهم رسول الله ﷺ بالفتنة وأنها نزغة من نزغات إبليس، عادوا طائعين وبكوا وعانق بعضهم بعضًا. وهذا من أدب المؤمن فى سرعة الاستجابة لأمر الله وأمر رسول الله ﷺ .

١٨ - اصطفاء النبهاء

لما قدم النبى ﷺ إلى المدينة، جاءه بعض أهلها بغلام من بنى النجار يُدعى زيد بن ثابت، فقالوا للنبى ﷺ :

إن هذا الغلام قد قرأ مما أُنْزِلَ عليك بضع عشرة سورة، فطلب النبى ﷺ منه أن يقرأ فقرأ.

فقال له النبى ﷺ :

«تعلَّم كتاب اليهود؛ فإنى ما آمن يهوداً على كتاب».

فتعلم زيد لغة التوراة «فى نصف شهر» حتى استطاع أن يكتب للنبى ﷺ رسائله إلى اليهود، ويقرأ له رسائلهم إليه.

(*) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/ ١٨٦).

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية :

الدلالة الأولى : هى حثّ الصحابة على العلم، وهذه حقيقة من حقائق هذا الدين، وحسبنا أن أول ما نزل من آيات الذكر الحكيم كان قوله تعالى : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق/ ١:٥].

وهذه أول نصيحة تسمو بقدر القلم وتنوه بقيمة العلم، وتعلن الحرب على الأمية الغافلة، وتجعل اللبنة الأولى فى بناء كل رجل عظيم أن يقرأ وأن يتعلم.

وسما الله – عز وجل – بدرجات العلماء حتى قرنهم بذاته وملائكته فى الشهادة بوحدانيته والإقرار بعدالته، فقال عز من قائل : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ [آل عمران/ ١٨].

ولا غروَ ولا عجب، فأنَّى للعقول الضعيفة والمعارف الضيقة أن تدرك جلال الكبير المتعال ؟! وأنَّى لمن يعيش على هامش الحياة – بجهله وظلمته – أن يعرف الحقَّ عن رب الحياة، أو أن يلمح طرفًا من صفاته العظمى وآياته الكبرى؟!

إن المعرفة الجيدة أسبق عند الله من العمل المضطرب، ومن العبادة الجافة المشوبة بالجهل والقصور. قال رسول الله ﷺ : « فضل العلم خير من فضل العبادة »[١]. وقال ﷺ : « قليل العلم خير من كثير العبادة »[٢]، وقال ﷺ :

---

(١) أخرجه الهيثمى فى المجمع (١/ ١٢٥)، وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط، والبزار وفيه عبدالله بن عبد القدوس وثقه البخارى وابن حبان وضعفه ابن معين.

(٢) أخرجه الهيثمى فى المجمع (١/ ١٢٥)، وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفيه إسحاق بن أسيد، قال أبو حاتم: لا يشتغل به.

« أفضل العبادة الفقه »[١]، وقال ﷺ : « يا أبا ذر، لأن تغدو فتعلم آية من كتاب الله خيرٌ لك من أن تصلى مائة ركعة، ولأن تغدو فتعلم بابًا من العلم – عُمِلَ به أو لم يُعْمَلْ به – خير لك من أن تصلى ألف ركعة »[٢].

والسر فى هذا الحكم أن عبادة الجهَّال – كصداقتهم – قليلة الجدوى، وهم يضرون أنفسهم من حيث يريدون نفعها، ويؤذون أصدقاءهم من حيث يبغون راحتهم، وجَهلة العُبَّاد يستمسكون بالدين استمساكًا شديدًا ويتعصبون له تعصبًا ظاهرًا، ولكنهم فى ساعة رعونةٍ وغباء يقفون منه الموقف الذى يلحق به الأذى والمعرة، ويجرُّ عليه المتاعب الجمة. أما أولو العلم فإن بصيرتهم الذكية تَحْكُم مسلَكهم وتلهمهم الرشد، فلو قل عملهم كثر ما يصحبه من سداد وبصر، ولذلك يقول رسول الله ﷺ : « فقيه واحدٌ أشد على الشيطان من ألف عابد »[٣]، ويقول أيضًا : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلاً »[٤].

وروى عنه ﷺ أنه قال : « فضل العالم على العابد سبعين درجة، ما بين كل درجتين حُضْرُ الفَرسِ سبعين عامًا »[٥] وذلك لأن الشيطان يبدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهى عنها، والعابد مقبل على عبادة ربه لا يتوجه لها ولا يعرفها.

والعلم الذى يقبل المسلم عليه ويرحل لطلبه إلى أقصى المشارق

---

(١) أخرجه الهيثمى فى المجمع (١ /١٢٥) وقال : أخرجه الطبرانى فى الثلاثة وفيه محمد بن أبى ليلى ، ضعفوه لسوء حفظه.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى مقدمة السنن (ح ٢١٩) وقال المنذرى : إسناده حسن.

(٣) أخرجه الهيثمى (١ /١٢٦) ، وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه يزيد بن عياض وهو كذاب.

(٤) أخرجه الخطيب البغدادى فى « الفقيه والمتفقه » (١ /١٨).

(٥) أخرجه الهيثمى (١ /١٢٧) وقال : رواه أبو يعلى وفيه الخليل بن مرة ، قال البخارى : منكر الحديث، وقال ابن عدى : لم أر حديثًا منكرًا وهو فى جملة من يكتب حديثه وليس بمتروك.

والمغارب – ليس علمًا معينًا محدود البداية والنهاية، فكل ما يوسّع أفق النظر ويزيح السدود أمام العقل، وكل ما يوثق صلة الإنسان بربه حث الإسلام على طلبه.

الدلالة الثانية : هى الدعوة إلى تعلّم اللغات الأخرى، حيث أمر النبى ﷺ زيداً بإجادة العبرية. وفى هذا إشارة إلى أهمية تعلم لغات الشعوب وفهمها؛ لأن رسالته ﷺ للناس قاطبة، وجمع الناس على لسان واحد مستحيل، فاختلاف الألسنة من آيات الله تعالى. ونقل تعاليم الإسلام إلى الأمم الأخرى يحتاج إلى تعلُّم لغاتهم.

الدلالة الثالثة : هى اصطفاء النابهين والفائقين من الصبيان لمهام العلم؛ كى تكون للدعوة الإسلامية فى مستقبلها ألسنة نابهة تنقل الدين إلى الدنيا كلها بكل اللغات.

١٩ - عِظوه وبَصِّروه

مــر أبو الدرداء رضي الله عنه بجماعة قد اجتمعوا على رجل يضربونه ويشتمونه، فسألهم عن خبره. قالوا:

رجل وقع في ذنب كبير.

فقال لهم :

أرأيتم لو وقع في بئر ماذا كنتم تفعلون ؟ قالوا : نخرجه من البئر.

فقال لهم :

إذن لا تسبوه ولا تضربوه، وإنما عظوه وبصِّروه واحمدوا الله الذى عافاكم من الوقوع فى ذنبه.

قالوا : أفلا تبغضه يا أبا الدرداء ؟!

فقال لهم :

إنما أبغض فعله السيىء، فإن رجع عنه فهو أخي.

فبكى الرجل المذنب وتاب من فوره.

(*) رجال حول الرسول ص ٣٦١.

هذا الموقف من أبى الدرداء رضي الله عنه يتسم بالحكمة فى إصلاح النفوس، كما يقدم لها فقهًا عظيمًا فى كيفية تغيير المنكر.

فأما عن الدلالة الأولى فى هذ الموقف وهى درس الحكمة فى إصلاح النفوس، فيظهر ذلك من الخطاب المقنع الذى أقامه أبو الدرداء مع الرجال الضاربين للرجل المذنب، ولجأ فى حواره إلى ضرب المثل لتقريب المعنى المراد وليكون الكلام أكثر إقناعًا.

فقال لهم : أرأيتم لو وقع فى بئر، ماذا كنتم تفعلون ؟! وهذا سؤال يحرك فيهم روح الإنقاذ والإعانة والإغاثة لمن وقع فى كرب أو شدة؛ ولذلك كانت الإجابة منهم : نخرجه من البئر.

وبعد أن أسس ومهَّد أبو الدرداء لنصيحته التى يرغب فى أن يوجهها لهؤلاء الرجال، أصبح الطريق مفتوحًا فى قلوبهم وعقولهم لنصيحته. فقال لهم: إذن لا تسبوه ولا تضربوه، وإنما عظوه وبَصّروه. ثم قال يذكرهم بأن ما هم فيه من طاعة، هو من توفيق الله تعالى لهم وفضل الله تعالى عليهم وليس من أنفسهم، فليحمدوا الله تعالى على توفيقه لهم، يظهر هذا المعنى من قول أبى الدرداء للرجال: واحمدوا الله الذى عافاكم من الوقوع فى ذنبه.

وأما عن الدلالة الثانية فى هذا الموقف فهى: فقه تغيير المنكر، فالعقاب وسيلة من وسائل تغيير المنكر يختص بها ولى الأمر، كل فى موقعه، الرجل فى بيته، المدير فى عمله ... وهكذا. أما على مستوى الدعوة إلى الله تعالى وعلى مستوى العلاقات الاجتماعية فلا مكان لوسيلة العقاب، وإنما تكون المقدمة للحوار المقنع الذى يسيطر على العقول والقلوب فيحدث التحول العظيم للإنسان من مظاهر الشر إلى الخير والفضيلة.

فإن كان العقاب وسيلة للسيطرة على الجسد وأعضائه، فإن الحوار المقنع وسيلة للسيطر على الفكر والمشاعر.

ولقد حَوَّل رسول الله ﷺ مجتمعًا كاملاً من الضلال إلى الهداية عن طريق الإقناع العقلى والتأثير فى المشاعر.

قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ [آل عمران / ١٦٤].

واهتدى الصحابة بهدى رسول الله ﷺ فى إحداث التغيير فى المجتمع عن طريق الفكر والقلب، وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطى شاعرًا كان يهجو الناس بسبب شدة الفاقة والحاجة، فلما أغناه عمر انقطع الشاعر عن هجاء الناس، فأصبح الناس يتحدثون : لقد قطع أمير المؤمنين لسان الشاعر بكرم عطائه.

دلالة ثالثة فى هذا الموقف وهى: الأثر الطيب للأسلوب الحكيم لأبى الدرداء فى معالجة هذا الشجار والاشتباك، حيث تحول الضاربون إلى واعظين. تحولوا من جهد الإدانة إلى جهد الإعانة، وأيضًا تحول الرجل بقلبه وعقله عن الضلال والذنب وأعلن توبته.

ومن هنا يتضح لنا أن المسىء المذنب يحتاج دعمًا من الصالحين؛ لتقوية روح الخير والإيمان بداخله، بدلاً من أن تحمل عليه بالضرب والعقاب، فيتمادى ونكون عونًا للشيطان عليه.

٢١ - كيف نُربى أبناءنا ؟

دعت أم عبد الله بن عامر بن ربيعة ولدها عبد الله، ورسول الله ﷺ فى بيتها.

فقالت لولدها : تعال أعطك شيئًا.

فقال لها النبى ﷺ : ماذا أردت أن تعطيه ؟

فقالت : أعطيه تمراً.

فقال ﷺ : «أما إنك لو لم تُعْطِه لكتبت عليك كذبة».

(*) أخرجه أبو داود فى «الأدب» باب (٨٧).

هذا الموقف يحمل دلالات إيمانية أخلاقية وتربوية هادية :

أولاها : على ورثة الأنبياء من الدعاة وأهل التربية أن يكون لهم فى رسول الله ﷺ أسوة حسنة وقدوة صالحة فى ملاحظة أسلوب أولادهم وأتباعهم من طلبة العلم، وعرض هذا السلوك على ميزان الشرع، حتى إذا رأوا ما يخالف شرع الله تعالى بادروا بالنصيحة، وسارعوا بالتحذير من مخالفة هدى الله تبارك وتعالى.

وهذا ما ظهر لنا فى هذا الموقف؛ حيث نبه النبى ﷺ السيدة ليلى (أم عبدالله بن عامر) إلى أنها لو لم تعط ولدها شيئًا لكُتبت عليها كذبة.

ثانيتها : التأسى برسول الله ﷺ فى تعليمه للأمهات والآباء أن ينشئوا أولادهم على الفضائل والأخلاق الكريمة، وأن يكون الآباء أسوة وقدوة فى أفعالهم، فلا يقول الواحد منا لابنه: كن صادقًا. ثم يقول له : إن سأل عنِّى فلان فقل له : إنى غير موجود، فهذا تناقض بين القول والفعل، وانهيار للأسوة والقدوة.

ثالثتها : أهمية التنبيه على خطورة الكذب مهما كان صغيراً، وأن الله تعالى يؤاخذ الإنسان على ذلك؛ حتى لا يكبر الأطفال وهم يعتبرون أن الكذب ذنب هين صغير تافه يُستهان به. وكثيراً ما نقع فى مثل هذا التناقض فى حياتنا المعاصرة حين نعد أولادنا أو أصحابنا أو العمال الذين يعملون تحت أيدينا بوعود لا تُنفذ، فنقول : إذا نجحت يا ولدى فسوف أعطيك هدية .. إذا لم تفعل كذا فسوف أعاقبك.. ونحن لا نفعل شيئًا من هذه الوعود بحجة أننا نمزح، أو على حد التعبير الشعبى : «نجارى الأحوال» وينبهنا رسول الله ﷺ إلى أن هذا كله يكتب على الإنسان كذبًا. فليحذر

المؤمن من هذه الوعود اللسانية التى لا يعرف واقع الفعل لها وفاء.

يضاف إلى هذا أيضًا : الوقوع فى الكذب فى مجال اللهو والمزاح، ففى هذا الجانب تساهل كبير، وفى هذا قال النبى ﷺ : «لا يؤمن العبدُ الإيمان كله حتى يترك الكذب فى المزاح والمراء»[١]، وكان النبىﷺ يمزح لكنه لا يقول إلا حقًّا.

وتبين السنة المطهرة أن الكذب باب من أبواب الفساد والشر، فى مقابل أن الصدق باب من أبواب الخير والنجاة، وفى الحديث، قال النبىﷺ : «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق فى حديثه حتى يكتب عند الله صديقًا. وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب فى حديثه حتى يُكتب عند الله كذابًا»[٢].

وفى الحديث قال النبى ﷺ : «يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب»[٣].

ولما سئل النبى ﷺ : أيكون المؤمن جبانًا ؟ قال : «نعم»، أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال : «نعم» أيكون المؤمن كذابًا : قال : «لا»[٤].

---

(١) أخرجه الحافظ فى الفتح (١/٥٧).
(٢) أخرجه البخارى فى «الأدب» باب قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ (١٠/٥٢٣/٦٠٩٤ مع الفتح).
(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٥٥٢).
(٤) أخرجه الإمام مالك فى الموطأ (٢/٩٩٠) مرسلا.

٢٢ - توقير النبى ﷺ

جَهَّز عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - ماء الوضوء لرسول الله ﷺ حين هَمَّ رسول الله ﷺ بصلاة الليل فأشار النبى ﷺ إلى ابن عباس أن يقف بجواره، فوقف ابن عباس خلف رسول الله ﷺ .

فلما انتهت الصلاة، قال له النبى ﷺ :

«ما منعك أن تقف بجانبى ؟».

فقال :

يا رسول الله أنت أجلُّ وأعزُّ من أن أوازيك.

فدعا له النبى ﷺ :

«اللهم آته الحكمة».

(*) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١٢ / ٥٩) وأبو نعيم فى الحلية (١ / ٣١٥).

هذا الموقف العظيم بين سيدنا رسول الله ﷺ والصحابى الغلام عبد الله بن عباس – رضى الله عنهما – يفيض بالقيم التربوية الهادية :

القيمة التربوية الأولى : هذا الأدب الجم من ابن عباس – رضى الله عنهما– توقيراً وإجلالاً لسيدنا رسول الله ﷺ، وهذا أدب إيمانى أرشدنا القرآن الكريم إليه، قال الله تعالى :

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح/٩].

ولقد أمر الله المؤمنين بالتزام الأدب بين يدى رسول الله ﷺ، وفى مجلسه وفى حضوره، قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات/٢].

القيمة التربوية الثانية : مكافأة أهل المعروف، ولو بالدعاء لهم؛ فنجد سيدنا رسول الله ﷺ يكافئ ابن عباس بمكافأتين على حسن أدبه :

الأولى : تكريمه تكريمًا معنويًا إيمانيًا بدعوته إلى الصلاة بجوار رسول الله ﷺ.

الثانية : الدعاء له، حيث دعا له النبى ﷺ دعوة مباركة، وهى : «اللهم آته الحكمة».

القيمة التربوية الثالثة: وهى تخص العلماء وأهل التربية: أن يقربوا إليهم النبهاء من طلبة العلم، فقد قَرَّب النبى ﷺ إليه عبد الله بن عباس – رضى الله

عنهما – لمّا رأى فيه خيرًا وذكاءً، فكان النبى ﷺ يجعله رديفًا له فى السفر (أى يركب خلف رسول الله ﷺ)، وكان يدعوه للصلاة خلفه فى قيام الليل، وكان يرشده ويربيه على الهدى الإيمانى المبارك، من ذلك قوله له:

«يا غلام : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك ...»[١].

وكانت الثمرة لهذا القرب وهذه العناية المحمدية بهذا الغلام أن بلّغ عبدالله بن عباس ألفًا وستمائة حديث أثبتها البخارى ومسلم رغم أن عمره عند وفاة النبى ﷺ كان ثلاث عشرة سنة، وأصبح هذا الفتى برعاية رسول الله ﷺ له مرجعًا للأمة فى علوم القرآن والإفتاء واللغة والعقيدة.

---

(١) أخرجه الترمذى فى «صفة القيامة» باب «لم يسم» (٤/٦٦٧/ ح ٢٥١٦). وأحمد فى المسند (١/٢٩٣، ٣٠٣)

٢٣ - التيسير هدى إسلامى

فى ليلة باردة، فى غزوة ذات السلاسل، احتلم عمرو ابن العاص ﷺ وأشفق على نفسه إن اغتسل أن يهلك، فتيمم ثم صلى الصبح بأصحابه، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ.

فقال النبى ﷺ :

«يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جنب؟».

فقال عمرو :

خشيت على نفسى وقد قال الله تعالى :

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء/ ٢٩]. فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا.

(✻) أخرجه البخارى فى «التيمم» باب «إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تيمم» معلقًا (١ / ٥٤١)

هذا الموقف يوضح سمة من سمات الإسلام. ألا وهى اليسر ودفع الحرج والمشقة عن الأمة، ولقد كان النبى ﷺ يرشد أمته إلى الأخذ باليسر، وكان التيسير هديه ﷺ، قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾ [التوبة/ ١٢٨].

وقال تعالى : ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ** ﴾ [البقرة/١٨٥].

وقال ﷺ : «يسِّروا ولا تعسِّروا»(١).

والمتتبع لكل عبادة من العبادات يرى أن التيسير واضح فيها، فالطهارة تكون بالماء، فإن فقد الإنسان الماء أو عجز عن استعماله كان له أن يتيمم، وفى الصلاة إن عجز المُصلِّى عن الوقوف صلى قاعداً، وإن كان مسافراً فله رخصة القصر بأن يصلى الصلاة الرباعية ركعتين، وله الجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء.

وفى الصيام إن كان مريضًا أو مسافرًا فله أن يفطر ويقضى بعد ذلك الأيام التى أفطرها.

وفى الحج جعله الله لمن استطاع، فمن لم يستطع يسقط عنه فرض الحج، وفى بعض أعمال الحج للمريض والضعيف أن يُنيب عنه فى رمى الجمرات والسقاة، ومن يقومون بخدمة شئون الحجاج يسقط عنهم واجب المبيت بمنى أيام التشريق.

وهكذا المتتبع لكل عبادة، يرى أن اليسر ملازم لها، لكن اليسر مشروط بشرط، وهو أن يكون فى إطار الحلال وبعيداً عن الحرام، لما أخرجه البخارى

---

(١) أخرجه البخارى فى «العلم»، باب «كان النبى ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا ينفروا» (١/ ١٩٦/ ح ٦٩).

من حديث عائشة – رضى الله عنها – قالت : « ما خُيِّر النبى ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه »[١].

ولا شك أن الأخذ بالأيسر له فوائد وثمرات، أهمها :

أ – التمكن من مواصلة وإتمام العبادة دون مشقة.

ب – ترغيب النفس فى حب العبادة وحب الإقبال عليها ليسرها. هذا فى مقابل أن عدم الأخذ بالأيسر يُوقع الإنسان فى المشقة، ويُوقعه فى الملل؛ وفى الحديث، قال النبى ﷺ : « إن هذا الدين يسر ولن يُشادَّ هذا الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا »[٢]، وقال ﷺ : « عليكم بما تطيقون، فوالله لا يَمَلُّ الله حتى تملّوا »[٣].

---

(١) أخرجه مالك فى « الموطأ » (٢ / ٦٨٨)، والبخارى فى « المناقب » باب « صفة النبى ﷺ » (٦ / ٦٥٤ / ح ٣٥٦٠).

(٢) أخرجه البخارى فى « الإيمان » باب « الدين يسر » (١ / ١١٦ / ح ٣٩ مع الفتح).

(٣) أخرجه البخارى فى « الإيمان » باب « أحب الدين إلى الله أدومه » (١ / ٢٤ / ح ٤٣ مع الفتح).

٢٤ - أنتم اليوم خير منكم يومئذ

بينما الصحابة يجلسون حول رسول الله ﷺ في المسجد إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ، ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو .

فلما رآه النبي ﷺ بكى للذى كان فيه مصعب من النعمة ، والذى هو فيه اليوم ، ثم قال النبي ﷺ :

« كيف بكم إذا غدا أحدكم في حُلَّةٍ وراح في حُلَّةٍ ، وَوُضِعَتْ بين يديه صحفة ورفعت أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟ ! » .

قالوا :

يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نتفرغ للعبادة ونكفى المؤنة .

فقال لهم النبي ﷺ :

« لأنتم اليوم خير منكم يومئذ » .

(*) أخرجه الترمذى (رقم ٢٥٩٤) وقال : حديث حسن غريب . وراجع أسد الغابة (٤ / ٤٠٧) .

هذا الموقف من نبوءات سيدنا رسول الله ﷺ، التى هى من دلائل نبوته، وإخبار النبى ﷺ أمته بهذه النبوءات فيه تنبيه للأمة أن تلتزم قرآن ربها سنة نبيها؛ لتكون فى رفقة الصالحين، ولتسلم من الوقوع فى المحظور الذى حذر منه ﷺ، هذا فى حال النبوءات المنذرة، أما فى النبوءات المبشرة فلتحريض الأمة ورفع همتها فى العمل الصالح؛ كى تكون من أهل هذه المبشرات.

وهكذا يرى المؤمن فى النبوءات الدلائل على نبوة النبى ﷺ، ويرى فيها تعظيم الله لشأن هذا النبى حين يختص بها، كما أن فيها العظة الغالية والبشرى العالية، والإنذار والتحذير.

ومن دلالات هذا الموقف أن فتح باب الترف والملذات لا تجنى الأمة من ورائه خيراً، ولا يعود على الأمة إلا بالخسارة والهلاك لاقتصادها وشبابها، فشيوع القيم الاستهلاكية يجعل الإنسان عبئًا على مجتمعه، فى حين أن شيوع القيم الإنتاجية والقيم الإيمانية والفضائل يرفع من شأن المجتمع ويجعله فى مقدمة المجتمعات الحضارية.

وهذه سنة الله الجارية فى خلقه، وإلى هذه الحقيقة تشير آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى: **﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾** [الإسراء/١٦].

ولقد نعى الله على قوم ولعهم باللذائذ وافتتانهم بالمرح واللهو وانحصارهم فى مطالب الجسد ودنيا الغرائز السفلى، فقال تعالى: **﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾** [الأحقاف/٢٠].

وعندما يلقون عقوبتهم يذكرون بأن ذلك لفقدانهم العفاف والقصد وانطلاقهم مع الغواية والمجون؛ قال تعالى : ﴿ **ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ** ﴾ [غافر/٧٥].

والحق أن جانبًا ضخمًا من تصدع الأمة الإسلامية يرجع إلى ضياع العفة وشيوع الملذات، ولقد حذر النبي ﷺ أمته من الانحلال النفسى والخلقى، فقال : «إنما أخشى عليكم شهوات الغى فى بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى»[١].

والذى ينبغى التنبيه عليه هنا هو أن الترف سوء استخدام للنعمة، فليس العيب فى النعمة .. فى المال .. فى امتلاك الدنيا، وإنما العيب والخلل فى سوء استخدامها، فالإسلام يحث المسلم على امتلاك الحياة؛ ليسخرها فى بلوغ المثل العليا والقيم الفاضلة، لا أن يستخدمها فى الغرائز والدنايا.

---

(١) مجمع الزوائد (١/١٨٨، ٧/٣٠٦).

٢٥ - لو قلت : إن شاء الله

لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر ، وأصاب الناس التعب ، وطلبوا الراحة ليلاً فى الطريق ، قال النبى ﷺ :

«من يوقظنا لصلاة الفجر ؟»

فقال بلال رضي الله عنه : أنا يا رسول الله .

فنزل الناس وناموا ، وأسند بلال ظهره إلى بعيره ، وغلب النوم القوم جميعًا بما فيهم بلال إلى أن طلعت الشمس . وكان رسول الله ﷺ أول من استيقظ . فنادى بلالاً معاتبًا له .

فقال بلال : ما نمت مثل هذه النومة أبدًا .

فقال له النبى ﷺ :

«لو قلت : إن شاء الله ، لاستيقظت يا بلال» .

ثم أمر الصحابة بالوضوء والصلاة .

(*) راجع حياة الصحابة ، ترجمة بلال بن رباح .

هذا الموقف يعلمنا فقه المشيئة الربانية وأدبها. إن آمال الناس في المستقبل لا تنتهي، يخطط أهل العقول ويدبرون؛ كي يتمكنوا من أسباب النجاح، والمستقبل بيد الله تعالى. ومن يتأمل أحداث الحياة وتقلبها وتغير الموازين وتبدلها يرى صدى المقادير الإلهية والمشيئة الربانية التي لا تسير وفق عواطف الناس، وإنما أمرها إلى الله تعالى، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ **قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** ﴾ [آل عمران/١٥٤].

لذا كان تدبيرنا وتخطيطنا ناجحًا، إذا وافق قدر الله تعالى، وإلا فلا وجود له ولا نفاذ له، ومن هنا كان الأمر الإلهي بتقديم المشيئة في سائر أمورنا المستقبلية، وفي هذا إيمان من الإنسان بأن تدبير الله فوق تدبيرنا، ومشيئة الله فوق مشيئتنا.

وهنالك تطبيقات عملية بشأن المشيئة من القرآن والسنة.

أولها: هذا الموقف بين بلال رضي الله عنه وسيدنا محمد ﷺ. حيث تعهد بلال بأن يوقظ النبي ﷺ وأصحابه لصلاة الفجر دون أن يقدم المشيئة قائلاً: إن شاء الله تعالى، ونام بلال حتى طلعت الشمس، وتعجب بلال مما حدث له من غلبة النوم، فقال النبي ﷺ له: «لو قلت: إن شاء الله لاستيقظت وأيقظت».

والقرآن الكريم ذكر أن بني إسرائيل لما أمرهم الله بذبح بقرة فشددوا على أنفسهم بالسؤال عن أوصافها وتحديد معالمها، فلم يهتدوا إليها إلا بعد أن قالوا: ﴿ **وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ** ﴾ [البقرة/٧٠].

وأكد هذا المعنى سيدنا رسول الله ﷺ بقوله: «**لولا أن قالوا: إن شاء الله، ما اهتدوا أبداً**»(١).

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في التفسير.

أيضًا يأتى فى هذا السياق عتاب الله لنبيه سيدنا محمد ﷺ بشأن وعده الكفار بالإجابة عن أسئلتهم غداً، دون أن يقدم المشيئة، وذلك حين سألوه عن «الروح، وأهل الكهف، وذى القرنين» فانقطع الوحى عن رسول الله ﷺ خمسة عشر يوما ثم أنزل الله قوله تعالى : ﴿ **وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا** ۞ **إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الكهف/٢٣ : ٢٤].

كذلك سيدنا سليمان – عليه السلام – لما قال : «لأطوفن الليلة على أربعين امرأة من نسائى تأتى كل واحدة بفارس يجاهد فى سبيل الله» ولم يقل : إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل من الأربعين إلا امرأة واحدة وجاءت بشق طفل، وقد روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «فوالذى نفس محمد بيده، لو قال أخى سليمان : إن شاء الله، لحملت كل واحدة منهن، ولجاهدوا فرسانًا»(١) وفى ذلك نزل قول الله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ** ﴾ [ص/٣٤].

وعليه فالتعبير : «إن شاء الله» يعبر عند المؤمن عن يقين فى أن الأمر كله بيد الله، وعن توكل صادق على الله.

... أن يستعمل البعض التعبير القرآنى «إن شاء الله» للشك أو الاحتمال ... ـادية، فهو خروج بالتعبير عن قيمته الإيمانية، ويحرم العبد توفيق الله

---

(١) أخرجه البخارى (٤/١٩٧)، ومسلم (ب ٥/ح ٢٥).

٢٦ - حقيقة القرب

كان ربيعة بن كعب رضي الله عنه من أهل الصُفّة، لا أهل له ولا مال ولا سكن، فأحب أن يتقرب إلى رسول الله ﷺ فجهز له ماء وضوئه ليلاً ليقوم الليل، فابتسم النبى ﷺ وأحب أن يكافئه.

فقال ﷺ لربيعة: «سلنى».

فقال: يا رسول الله، أسألك مرافقتك فى الجنة.

فقال له النبى ﷺ: «أو غير ذلك؟».

فقال: بل هو ذاك يا رسول الله.

فقال النبى ﷺ له: «أعنِّى على نفسك بكثرة السجود».

(*) أخرجه أحمد فى المسند (٣/٥٠٠، ٤/٥٩)، وذكره أبو نعيم فى الحلية (٢/٣٢).

من أهم المعانى التى شُغل بها المسلمون معنى القرب من رسول الله ﷺ والجوار له والرفقة معه فى الدنيا والآخرة. وكان هذا مطلبًا صريحًا، أعلنوه وفاضت به عبارات الوجد والحب، التى يصحبها الدمع الحار والإحساس العميق بفضل القرب من هذا النبى العظيم الحبيب الشفيع الرؤوف الرحيم.

وفى الموقف الذى بين أيدينا ظهر لنا كيف أن الصحابى الفقير، حين قال له النبى ﷺ : « سلنى »، لم يسأل شيئًا من الدنيا رغم فقره واحتياجه، ولكنه سأل رفقة النبى ﷺ فى الجنة.

فوصف له النبى ﷺ الأسباب التى يتأتى بها تحصيل رفقة رسول الله ﷺ فى الجنة؛ فقال له : « أعنّى على نفسك بكثرة السجود ».

والمراد بالسجود هنا، معناه الواسع الممتد الذى يشمل كل الأقوال والأفعال، فإذا ما تحقق العبد بمعانى السجود تحقق له القرب، فقد أخبر النبى ﷺ : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد »[١].

فقمة الخشوع والخضوع يقابلها القرب من الله تعالى. ويظهر لنا من هذا أن القرب قرب طاعة وتقوى، قرب قلوب وأرواح، ولا يضر هذا تباعد الأجساد فى الأمكنة أو الأزمنة. فأويس القرنى تباعد به الزمان والمكان عن رسول الله ﷺ، لكنه اقترب من رسول الله ﷺ بقلبه وعقله، بإيمانه وصلاحه للدرجة التى يأمر فيها رسول الله ﷺ سيدنا عمر رضي الله عنه أن يسأل أُويسًا القرنى أن يستغفر له إذا التقى به، وفعل سيدنا عمر امتثالاً لسيدنا رسول الله ﷺ[٢]، وواحد آخر اقترب من رسول الله ﷺ بجسده زمانًا ومكانًا، لكنه كان بعيداً عن رسول الله ﷺ بقلبه بكفره وعناده؛ فأبعده الله عن رحمة هذا النبى الكريم.

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة (٢١٥).
(٢) سنن أبى داود، دلائل النبوة للبيهقى.

وأكد النبى ﷺ فى السنة المطهرة أن القرب مقترن بالإيمان والطاعة، من ذلك قوله ﷺ :

« أقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا »(١).

وفى المقابل تؤكد السنة أن المعاصى والمخالفات يرتبط بها معنى البعد والطرد من رحمة الله، من ذلك إخباره ﷺ أن الملائكة سوف تطرد أناسًا عن الحوض، لأنهم ابتدعوا فى دين الله تعالى ما ليس فيه، وعلى الإجمال يقول ربنا سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء/٦٩].

(١) أخرجه الترمذى فى « البر والصلة » باب « معالى الأخلاق » (٤/ ٣٧٠/ ح ٢٠١٨) وقال : حسن صحيح.

٢٧ - عتاب للرسول ﷺ

لمَّا كان يوم «حنين» أقبلت قبيلة «هوازن» وقبيلة «غطفان» ومعهم أعوانهم لحرب المسلمين، وكان مع النبى ﷺ عشرة آلاف، لكنهم أدبروا عنه حتى بقى وحده !!

فنادى النبى ﷺ : «يا معشر الأنصار». فأجابوه، وانتصر المسلمون وأصابوا غنائم كثيرة. فقسَّمها النبى ﷺ بين المهاجرين ولم يُعْطِ الأنصار شيئًا.

فقال الأنصار : إن كانت الشدة نُدْعى لها، وإن كانت الغنائم يُعْطَى غيرنا ؟!!

فقال لهم النبى ﷺ : «أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا، وتذهبوا برسول الله».

قالوا : رضينا.

فقال النبى ﷺ : «لو سلك الناس واديًا وسلك الأنصار شِعْبًا لسلكت شعب الأنصار».

(*) أخرجه أحمد فى المسند (٣/٧٦- ٧٧)، والطبرى فى «التاريخ» (٣/٩٣- ٩٤)، وإسناده صحيح.

هذا موقف عظيم يُظهر لنا أن الرسالات الكبرى والأمور العظيمة تحتاج إلى رجال على غرار الأنصار، يقدمون أرواحهم وما يملكون، لا يشغلهم مأرب تافه، ولا تميل نفوسهم إلى عرض زائل.

وأسلوب النبى ﷺ فى توزيع الغنائم قام على تقدير إيمان الأنصار وإخلاصهم، فى حين ألف قلوب الأعراب بالمال الذى تميل إليه قلوبهم، وتشتهيه نفوسهم، وليكون هذا العطاء لهم تشجيعًا على القيام بأعباء الدعوة وتكاليف الإيمان، أما الأنصار فقد وكلهم رسول الله ﷺ إلى إيمانهم الصادق ويقينهم الراسخ.

وفى هذا المعنى يقول النبى ﷺ : «إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلىَّ مخافة أن يكبه الله فى النار»(١) .

● ثم هذا الدرس العظيم فى الوفاء من سيدنا رسول الله ﷺ للأنصار، ولعل فى عرض تفاصيل الموقف يكون فيه العظة البليغة : فقد أمر رسول الله ﷺ سعد بن عبادة أن يجمع له الأنصار، بعدما علم من عتابهم له فى توزيع الغنائم، فقال لهم ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

«يا معشر الأنصار : مقالةٌ بلغتنى عنكم، وَجِدةٌ وجدتموها علىَّ فى أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألَّف بين قلوبكم ؟» قالوا : بلى، والله ورسوله أَمَنُّ وأفضل.

هكذا يلفت النبى ﷺ أنظارهم إلى قيم الإيمان والفضيلة، وما عند الله من ثواب وفضل.

ثم قال النبى ﷺ : «ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟».

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل.

فقال ﷺ : «أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم ولصُدِّقْتُمْ : أتيتنا مُكَذَّبًا

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٣٢) وهو فى الفتح (٢/ ٤٠٣) بغير هذا اللفظ.

فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك . أوجْدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعاعةٍ - شىء يسير تافه - من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟».

وصدق رسول الله ﷺ إذ قال : «إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم»(١) فقد أراد الشيطان أن يصوِّر للأنصار أن النبى ﷺ قد نسيهم فى توزيع الغنائم.

فلما بلغ رسول الله ﷺ عتاب الأنصار، كان جوابه ردًّا على هذه الوساوس، وجاء خطاب النبى ﷺ يفيض بمعانى التقدير للأنصار، ومشاعر المحبة الفياضة لهم، كما يفيض خطاب النبى ﷺ بمعانى التألم من أن يُتَّهَمَ من أحب الناس إليه بنسيانهم والإعراض عنهم.

وقد لامست كلمات رسول الله قلوب الأنصار، ونفضت عنها ما عَلِقَ بها من وساوس أو هواجس، فارتفعت أصواتهم بالبكاء فرحًا بنبيهم، ابتهاجًا بقسمتهم ونصيبهم، كما كان البكاء لومًا لأنفسهم على ما خالج قلوبهم من هواجس بشأن توزيع الغنائم.

فما المال وما الغنائم فى جنب حبيبهم رسول الله ﷺ !؛ إذ يعودون به ويعود بهم، فيكون المحيا والممات بينهم، وأى برهان ينطق بالوفاء والحب أكثر من هذا ؟

ثم متى كان المال فى ميزان رسول الله ﷺ دليلاً على التقدير والحب ؟!

ألم يجعل النبى ﷺ نصيبه من الغنائم كنصيب الأنصار؟ لقد وزع ﷺ «الخمس» الذى جعله الله خاصًا به، وزعه ﷺ على الأعراب من حوله.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣/١٥٦، ٢٨٥)، وهو عند البخارى ومسلم بغير هذا اللفظ.

٢٨ - مبالغةٌ فى غير موضعها

كان عثمان بن مظعون رضي الله عنه رغم غناه يميل إلى التبتل والعزوف عن الدنيا، فكان دائم الصيام بالنهار والقيام بالليل، حتى تأثرت حال زوجه «خوْلَة» بحال زوجها، فأهملت مظهرها وهيئتها حتى دخلت يومًا على نساء النبى ﷺ، فرأينها سيئة الهيئة فقلن لها : ما لكِ يا خولة فما فى قريش أغنى من بعلك؟! قالت : ما لنا منه شىء، أما ليله فقائم، وأما نهاره فصائم! فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فدعاه وقال له :

«يا عثمان، أما لك فِىَّ أسوة يا عثمان؟! إن لعينيك عليك حقًا، وإن لجسمك عليك حقًّا، وإن لأهلك عليك حقًّا، وإن لربك عليك حقًّا، فصلّ ونم وصم وأفطر».

(*) أخرجه أحمد فى المسند (٦/٢٦٨)، والحاكم فى المستدرك (٤/٦٠) وذكره الحافظ فى الفتح (٤/٢٢١).

هذا الموقف يعالج قضية مهمة، وهى كيفية الموازنة بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة، وبين سعى الإنسان لدينه وسعيه لدنياه، ولا شك أن الدنيا فى حقيقتها ما هى إلا مطية للآخرة.

نريد أن نتعرف على وسطية الإسلام فى هذا الموقف.

فهذا الموقف يقدم لنا هديًا مباركًا، لمعالجة ما يقع فيه كثير من الناس، حين يبالغون فى الاهتمام بجانب من جوانب حياتهم ويهملون جوانب أخرى لها حقوق أوجبها الله سبحانه وتعالى، فمن الناس من يُشغل بعمله وينسى أهله، ومن الناس من يبالغ فى الاهتمام بالعلم ويقصر فى حق أهله، ومن الناس من يشغل بالعبادة عن حال أهله، وكل هذه أحوال غير سوية، وهذا ما حدث لسيدنا عثمان بن مظعون ﷺ؛ حيث بلغ به التبتل أن جاء إلى رسول الله ﷺ فى حديث آخر يسأله أن يطلق زوجه خولة ويسأله أن يترهب ويسأله أن يحرِّم على نفسه الراحة، ويطلب العزلة عن الدنيا مطلقًا، وربما كان يظن أن فى كل هذا زيادة للتعبد والتبتل والقرب من الله سبحانه وتعالى.

أخرج الإمام مسلم أن سيدنا عثمان بن مظعون سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله نفسى تحدثنى أن أطلق خولة، فقال رسول الله ﷺ : « مهلاً يا عثمان فإن من سنتى النكاح »، فقال عثمان: نفسى تحدثنى أن أتَرَهَّبْ، قال رسول الله ﷺ : « مهلاً يا عثمان فإن رهبانية أمتى الحج والجهاد »، قال : يا رسول الله، نفسى تحدثنى أن أترك اللحم، قال النبى ﷺ : « مهلاً يا عثمان فإنى أحبه ولو أحببته لأكلته، ولو سألت ربى لأطعمنى »[١].

من هذا الحوار يظهر لنا ما انطوت عليه نفس ابن مظعون من الزهد فى الدنيا والرغبة عنها، والانقطاع والتبتل والعبادة والذكر، وانعكس حال عثمان بن مظعون رضي الله عنه على زوجه فأهملت نفسها وزينتها، وهذه حالة غير متوازنة لا

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزى (٢١٩).

يقرها الشرع، وكان الإرشاد الحكيم من سيدنا رسول الله ﷺ لعثمان ولأمثاله، هو أن يتأسى عثمان بحال سيدنا محمد ﷺ فى كل جوانب الحياة، ووضح له أن معنى العبادة الشامل لا يتم إلا برعاية هذه الحقوق كلها، برعاية حق الله وبرعاية حق الجسد وبرعاية حق الزوج، أى بإعطاء كل ذى حقٍ حقه، ومن هنا يتعلم المؤمن أن يوازن بين الواجبات والحقوق المنوطة به.

ودرس آخر نتعلمه من موقف عثمان بن مظعون، ألا وهو الخروج من هوى النفس إلى هوى الله تبارك وتعالى، فالنفس قد تزين للإنسان طاعة من الطاعات يبالغ العبد فيها، ويهمل فرائض أخرى ظنًا منه أن ذلك أكثر تعبداً، فعثمان بن مظعون بالغ فى الصيام والقيام، وقصر فى حق أهله، لكن النبى ﷺ وهو أعبد خلق الله لله وأخشى الناس لربه، يصوم ويفطر ويقوم وينام، ويأتى النساء، وتلك هى سنته لمن أراد أن يتعبد لله عز وجل، ومن رغب عن سنة رسول الله ﷺ إلى هوى نفسه، أو إلى استحسان عقله لم يكن متعبداً لله تعالى.

ودرس ثالث يستفاد من هذا الموقف الكريم أيضًا، وهو أنه ينبغى أن يعرض الإنسان ما برأسه من أفكار وما يجرى فى قلبه من خواطر على شرع الله تعالى حتى وإن بدت له هذه الأفكار أكثر تعبداً لله، وهذه حقيقة قرآنية أشارت إليها الآيات بقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف/٣٢].

وهذه كلها طيبات دعا إليها الإسلام، ودعا إليها رسول الله ﷺ.

٢٩ - ميراث النبى ﷺ

مَـرَّ أبو هـريرة رضي الله عنه ذات يوم بالسـوق، فهـاله انكبـاب الناس وانشغالهم بدنيا الناس.

فناداهم : أنـتم هنا ومـيـراث رسـول الله ﷺ يُقَـسَّمُ فى المسجد ؟!

فذهبـوا إلى المـسـجـد مـسـرعـيـن، ثم رجعـوا إلى أبى هريرة يقولون له:

ما وجدنا شيئًا يُقسَّم بالمسجد.

فقال لهم أبو هريرة :

أما رأيت قومًا يصلون، وقومًا يقرأون القرآن، وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام؟ ذلك ميراث رسول الله ﷺ.

(*) قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (١ / ١٢٩) : رواه الطبرانى فى «الأوسط» وإسناده حسن.

كثيراً ما يغفل الناس عن أمور دينهم من مجالس العلم والذكر والعبادة بسبب انشغالهم فى طلب الدنيا والاستزادة منها .

ويقدم لنا أبو هريرة ﷺ من خلال هذا الموقف أسلوبًا حكيمًا فى تنبيه الناس وإيقاظهم من غفلتهم، كى يقبلوا على ميراث رسول الله ﷺ .

ولمَّا كان الناس قد زُيِّن لهم حب الشهوات من متاع الدنيا : من الأموال وغير ذلك؛ فقد خاطبهم أبو هريرة بما له قيمة عندهم، بالذى يتنافسون من أجله . فقال لهم : أنتم هنا وميراث رسول الله ﷺ يُقسَّم فى المسجد ، فسارع الناس إلى المسجد ليروا ميراث رسول الله ﷺ الذى يُقسَّم لعلهم يدركون نصيبًا منه .

وكانت المفاجأة لهم، أنهم لم يجدوا الميراث الذى ظنوه . . لم يجدوا مالاً ولا متاعًا من متاع الدنيا، فإن الأنبياء لا يورثون مالاً ولا متاعًا؛ وإنما يورثون العلم النافع الذى يَدل الناس على ربهم ويصلهم بخالقهم، ومن هنا قال النبى ﷺ : « العلماء ورثة الأنبياء »[١]، فمن أراد أن ينال الحظ الأوفى من ميراث رسول الله ﷺ فعليه العلم بالقرآن والسنة .

ودلالة أخرى يقدمها لنا هذا الموقف الكريم؛ حيث يقدم لنا درسًا عظيمًا فى فقه الدعوة إلى الله عز وجل، وأهمية اجتهاد الداعى إلى الله فى اصطفاء الأسلوب الحكيم الذى يناسب حال من يدعوهم .

فالدعوة ليست كلمات محفوظة يلقيها خطيب مُفَوَّهٌ على الناس، وإنما الداعى كالطبيب يتخير من الدواء (نوعًا وكمًا) ما يناسب حال المريض ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [البقرة/٢٦٩] .

(١) رواه البزار ورجاله موثقون ، قاله الهيثمى فى المجمع (١ / ١٣١) .

وقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة فى القرآن الكريم. قال تعالى :

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل/١٢٥].

٣٠ - كيف تصلى يا حاتم ؟

دخل رجل على حاتم الأصم، فوجده يصلى صلاة يظهر عليها الخشوع.. فأعجب بصلاته، وسأله : كيف تصلى يا حاتم ؟

فقال حاتم الأصم :

«إذا أردت الصلاة قمتُ إلى الوضوء، فأسبغت الوضوء، ثم جئت الموضع الذى أريد الصلاة فيه، فأجلس حتى تجتمع جوارحى، ثم أقوم إلى الصلاة فأجعل الكعبة بين عينى، وأجعل الصراط تحت قدمى، وأجعل الجنة عن يمينى، والنار عن شمالى، وملك الموت من ورائى، والله ناظر إلىَّ، ثم أُكبِّر تكبيراً بتحقيق، وأقرأ بترتيل، وأركع بتواضع، وأسجد بخشوع، وأفعل ذلك فى صلاتى كلها، ثم أتبعها الإخلاص، ثم أخرج من صلاتى لا أدرى أقبلها الله منى أم لا ؟!».

(*) ذكره أبو الليث السمرقندى فى تنبيه الغافلين (٤٢٦).

هذا موقف كريم، يقدم لنا إجابة شافية لسؤال يتكرر كثيراً من غالب الناس، الذين يشكون من كثرة الانشغال بأمور الدنيا داخل الصلاة، ويسألون : كيف نصلى صلاة خاشعة ؟ !. ويصف لنا حاتم فى بيانه هذا أن التحضير للصلاة أمر مهم، والاستعداد للصلاة يبدأ من الوضوء، والسنة تؤكد هذا؛ فالنبى ﷺ يقول : « ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تُؤْتَ كبيرة، وذلك الدهر كله »(١).

ومن حسن الاستعداد للصلاة أن يجلس الإنسان فى مصلاه حتى ينقطع عن شواغل الحياة، وهمومها ومشاكلها، ويتهيأ للدخول فى الصلاة بين يدى الله تعالى.

فإذا قام للصلاة تذكر الكعبة بين عينيه واستحضرها، ثم يتذكر الصراط وأنه تحت قدميه، وأن الجنة تدعوه عن يمينه وأن النار عن يساره، وأن هذه الصلاة آخر صلاة له؛ فملك الموت يطلبه من ورائه، ومهما كان الناظرون والحاضرون المشاهدون له فى صلاته فحسبه أن الله رقيب عليه.

هذا الاستحضار والتهيؤ والاستعداد يدفع العقل والقلب إلى الاشتغال بأمر الصلاة. ثم إذا كبر للصلاة تكبيرة الإحرام فإنه يكبر بتحقيق. أى بتحقيق معنى « الله أكبر »، أى : الله أكبر من أى شيء يَشغلنى فى صلاتى.

ثم إذا قرأ القرآن بترتيل حسن، يشتغل فيه بمعنى ما يقرأ من الآيات؛ فإذا ركع تواضع لربه، وإذا سجد خشع لربه. ثم يتابع هذه الأعمال فى صلاته كلها، ويظنها آخر صلاة له، أى : صلاة مُودِّع.

---

(١) أخرجه مالك فى الموطأ (١/٥٥ / ح ٢٩) ومسلم فى « الطهارة » باب « فضل الوضوء والصلاة عقبه » (١/٣/١١٢ مع النووى)

ثم يسلم ويخرج بعد صلاته مُشفقًا على نفسه أن يكون بصلاته نقص، أو مر به خاطر لا يرضاه الله تعالى، أو حدث منه ما يجعلها غير جديرة بالقبول.

يخرج من صلاته وهو يتمنى أن تكون صلاته أكثر خشوعًا وإخلاصًا لربه، لا يتباهى بأنه صلى والناس نيام، أو أنه صلى صلاة متقنة، والناس غير ذلك. وإنما يتواضع ويخشع فيكون من أهل قوله تعالى :

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون/ ١ : ٢].

ومن أهل قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٦٠ : ٦١].

٣١ - إن الله لا يعجل لعجلة أحدكم

لما اشتد أذى المشركين للمسلمين، جاء بعض الصحابة - رضى الله عنهم - إلى النبى ﷺ، وكان متوسداً بردة له فى ظل الكعبة. فقالوا له:

يا رسول الله، ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟

فقال لهم النبى ﷺ:

«والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الدين ولكنكم تستعجلون، وإنَّ الله لا يعْجَلُ لعجلة أحدكم حتى تبلغ الأمور ما أراد الله».

(*) أخرجه البخارى (٤/٢٤٤، ٩/٢٦)، وأحمد فى «المسند» (٤/٢٥٧).

هذا موقف لصيق بحياتنا المعاصرة، وبخاصة شبابنا الواعد . فكثيراً ما نتعجل النتائج، وتدور بذهن الشباب خاصة خواطر وأفكار، كلها يقع فى إطار هذا الموقف النبوى الكريم.

من هذه التساؤلات التى تتكرر :

لماذا الصبر ؟!

لما لا نبطش ؟ وما دمنا على حق ، ألا يُعد الصبر موقفًا سلبيًّا ؟!

ويأتى هذا الموقف ليؤكد لنا جملة من الحقائق بشأن الصبر؛ فالأمور تسير وِفقَ مراد الله وحكمته، وفعل الحكيم كله حكمة؛ لذلك قال النبى ﷺ لمن يتعجل النصر : « والله ليتمن الله هذا الدين ولكنكم تستعجلون . . » .

إن نظرة الإسلام للصبر نظرة إيجابية، فالصبر الإيمانى قوة صامتة، تُمكِّن الإنسان من التحكم فى نفسه والسيطرة عليها . إن الصبر فى الإسلام سمو بمشاعر النفس لترتبط بتوجيه الله تعالى وتستجيب لأمره؛ فالصبر طاقة إيمانية تُخلِّص الإنسان من دوافع الانتقام والانكباب وراء الصيت والشهرة .

ونصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة توضح أبعاد نظرة الإسلام الإيجابية للصبر .

فعن الصبر كقوة تسيطر على النفس ونوازعها، يقول النبى ﷺ : « ليس الشديد بالصرَعة، وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب »(١) .

وعن الصبر كطاقة فى التحمل، يقول النبى ﷺ : « القابض على دينه كالقابض على جمر »(٢) .

---

(١) أخرجه البخارى (٨/ ٣٤) ، ومسلم فى « البر والصلة » (ب ٣٠ رقم ١٠٧، ١٠٨) .
(٢) أخرجه الترمذى (٢٢٦٠) .

وعن الصبرَ كطاقة دافعة لنيل العلا وتحقيق الطموحات، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت/٣٥].

وعن الصبر كلون من الثبات أمام الكوارث المفاجئة، يقول النبى ﷺ : «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[١].

فينبغى للمؤمن أن يوقن بأن أحداث الحياة تكون وفق تقدير دقيق ومحكم من الله تعالى. قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر/٤٩].

وإننا نسعى ونأخذ بالأسباب، لكن النتائج على الله عز وجل .. وقد يكون تأخر النتائج التى نسعى من أجلها ولها، فيه حكمة لله تعالى وفيه خير لنا.

---

(١) أخرجه البخارى (٢ / ١٠٠)، ومسلم فى «الجنائز» (١٥) باختلاف يسير.

٣٢ - أى المال خير ؟!

كان فقراء المهاجرين يسيرون مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال المهاجرون :

لو نعلم أى المال خير ؟!.

فقال عمر :

إن شئتم سألت لكم رسول الله ﷺ .

فلما سأل عمر النبى ﷺ أجابه النبى ﷺ وقال :

«ليتخذ أحدكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا وزوجة مؤمنة» .

(*) أخرجه أحمد فى المسند (٥ / ٢٨٢)، وأبو نعيم فى الحلية (١ / ١٨٣) .

هذا الموقف يشير إلى لون من المسارعة والمسابقة فى فعل الخيرات بين أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر فقراء المهاجرين إلى المال، كان فى إطار الحرص على الأعمال الصالحة، وأفضلها درجة عند الله تعالى، وبخاصة أن هناك عبادات لا تقوم إلا بالمال، مثل الحج والعمرة والزكاة.

وضَّح رسول الله ﷺ أن أبواب الخير فيها متسع لكل راغب فى التقرب إلى الله تعالى، وأن من حرم المال؛ فباب الذكر مفتوح وباب الشكر مفتوح.. وهكذا، حتى إن المتتبع لهدى رسول الله ﷺ يرى أن طرق الخير كثيرة، ومن ضاق عليه باب، فأمامه أبواب كثيرة ميسورة حتى قال النبى ﷺ: «وتبسمك فى وجه أخيك صدقة»(١)، وإن لم يجد المؤمن شيئًا مُتاحًا بين يديه يتقرب به لله تعالى، أو ضعف عن أفعال الخير والبر، فرسول الله ﷺ يرشده بأن الإمساك عن الشر صدقة.

أيضًا يشير هذا الموقف إلى تأكيد فضل ذكر الله تعالى، وهو ما أشار إليه النبى ﷺ بقوله: «ليتخذ أحدكم لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا».

والمؤمن حين يتأمل العبادات التى افترضها الله تعالى على عباده، يرى أن للذكر مزية على سائر العبادات. فقد جعل الله لكل عبادة حدًا معلومًا؛ فالصلاة لها حد معلوم فى أوقات معلومة، وهكذا الحج وهكذا الصيام.

أما الذكر فلم يقيده الله بحد ولا وقت، بل جعله مطلقًا، وطالبنا به على قدر الوسع والطاقة، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الأحزاب/ ٤١ : ٤٢].

وتشير الأحاديث النبوية إلى أن حياة القلب .. حياة الروح لا تقوم إلا بذكر

---

(١) أخرجه الترمذى (ح ١٩٥٦).

الله تعالى، وأن حاجة القلب والروح إلى ذكر الله تعالى أشد من حاجة البدن إلى الطعام والشراب، من ذلك قول النبى ﷺ : «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مثل الحى والميت»(١).

كما تفيدنا السنة أن الذكر يأتى فى مقدمة الأعمال الصالحة، التى ترقى بالعبد لأفضل الدرجات والمنازل عند الله تعالى، من ذلك قول النبى ﷺ : «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»(٢).

وهذا الموقف بدلالاته الإيمانية يلتقى مع موقف فقراء المهاجرين مع رسول الله ﷺ، حين سألوه : ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال النبى ﷺ : «أو ليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون به، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهى عن منكر صدقة»(٣).

وفى هذا بيان من رسول الله ﷺ لكثرة طرق الخير، وأن ذكر الله تعالى يأتى فى قمة أبواب الخير التى تُقرب إلى الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخارى (١٠٧/٨).

(٢) أخرجه مسلم فى «الذكر والدعاء» (ب ١١ رقم ٣٩).

(٣) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (ح ٢٢٨)، ومسلم (٩١/٧/٣ مع النووى).

٣٣ - ومن خير من أبى سلمة ؟ !

لما مات أبو سلمة ﷺ قالت امرأته :

إنا لله وإنا إليه راجعون . اللهم إنى أحتسب عندك مصيبتى . وسكتت .

فقال بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - لها :

أكملى الدعاء وقولى : وأبدلنى خيراً منه .

فقالت لهم :

ومَنْ خيرٌ مِنْ أبى سلمة أول من هاجر مع رسول الله ﷺ ؟ .

فقالوا لها :

قولى ذلك امتثالاً لهدى رسول الله ﷺ ، ففعلت ، فكان من أمرها بعد ذلك أن تزوجها رسول الله ﷺ .

(*) رواه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه، وذكره ابن سعد فى الطبقات (٨/٨٧)

إنه موقف إيمانى كريم يحمل دلالات نافعة، من أهمها:

الدلالة الأولى : الإرشاد إلى السلوك الإيمانى للمؤمن عند المصيبة، وهو التزام الصبر واحتساب البلاء عند الله تعالى، وذلك عملاً بقول الله تعالى : ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾ [البقرة/١٥٦ : ١٥٧].

الدلالة الثانية هى: أن نلوذ بالله تعالى، وأن نلجأ إليه ونحن على يقين من أن كل شىء مرتبط بقدره، وأن كل شىء نرى لأنفسنا حقًّا فيه، فإن رباط الله به أوثق، وأن حق الله فيه أسبق فإذا أعارنا الله ولدًا أو زوجًا، أو مالاً أو غير ذلك ثم استرد الله عاريته؛ ينبغى أن يكون منا التسليم والدعاء.

ومن هدى النبى ﷺ أن يقول المؤمن عند المصيبة : ﴿**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾ اللهم إنى أحتسب عندك مصيبتى فأجرنى عليها، وأبدلنى خيراً منها»(١)، ولما قالت ذلك أم سلمة مؤمنة مسلِّمة أمرها لله تعالى، كان من فضل الله عليها ما فاق خيالها، وفاق توقعات عقلها، فقد تزوجها رسول الله ﷺ، وأبدلها الله زوجًا خيراً من زوجها الذى فُقد ورحل عنها، وصارت من أمهات المؤمنين -رضوان الله عليهم أجمعين.

وفضلاً عن الثواب العاجل على الصبر فإن الله ادخر من عظيم الجزاء فى الآخرة للصابرين، وفى الحديث الشريف قال ﷺ : «إن الله لا يرضى لعبده المؤمن إذا ذهب بصفيه من أهل الأرض فصبر واحتسب ثوابًا دون الجنة»(٢).

إلى أى حد يصل ثواب هذا الصبر وهذا الامتثال ؟!

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائى والترمذى.
(٢) أخرجه النسائى (٤ / ٢٣).

ويجيبنا عن هذا السؤال رب العالمين فإن الله عز وجل قد جعل الحسنة بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء، لكن الصبر جعل الله تعالى الجزاء والمثوبة عليه بغير حساب لقوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر/ ١٠]، وهذا من سعة فضل الله وكرمه.

الدلالة الثالثة هي : امتثال أدب الدعاء لله تعالى، حتى وإن ظهر للإنسان أن الأسباب عاجزة، أو أن الظروف المحيطة لا تؤدى إلى الإجابة، وذلك لأن الأمور بيد الله تعالى، والله على كل شيء قدير.

يستفاد ذلك من قول الصحابة لأم سلمة : أكملى الدعاء امتثالاً لهدى رسول الله ﷺ . والله سبحانه وتعالى لا يهمل دعوة صادقة، دعاه بها عبدٌ من عباده، وفى الحديث الشريف قال النبى ﷺ : « ما من مؤمن يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا كان له بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل الله دعوته له فى الدنيا، وإما أن يصرَف عنه السوء بمثلها، وإما أن يدخرها له عنده يوم القيامة »[١].

وهذا ما حدث مع أم سلمة - رضى الله عنها - حين امتثلت الدعاء لله عز وجل، وقالت : « أبدلنى خيراً منه »، وكان من أمرها بعد ذلك أن تزوجها رسول الله ﷺ ، وصارت بهذا الفعل من أمهات المؤمنين - رضى الله عنهن - وهذه الدعوة قد عُجِّلَت لأم سلمة - رضى الله عنها - فقد نالت جزاءها فى الدنيا جزاءً حسنًا، فتزوجت من رسول الله ﷺ ، ولها ثواب الصابرين فى الآخرة إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ١٨)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٤٩٣)، وذكره الحافظ فى الفتح (١١/ ٩٦).

٣٤ - خالط الناس بشرط . . .

مَرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعبٍ فيه عين من ماء عذبة، فأعجبته، فقال :

لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشِعب، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فقال له النبى ﷺ :

«لا تفعل، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله، أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة ؟ اغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فَواق ناقة وجبت له الجنة».

(*) أخرجه الترمذى (رقم ١٦٥٠) ، وأحمد فى المسند (٢/ ٥٢٤).

هذا الموقف يحمل فقهًا هاديًا للمسلم، فالمتدبر للموقف يرى فيه مفاضلة بين أمرين :

الأول : اعتزال الناس للسلامة من شرورهم والتفرغ للصلاة والذكر والصوم.

الثانى : مخالطة الناس وتحمل الأذى منهم، مع إرشادهم ونفعهم، والجهاد فى سبيل الله.

ولا شك أن الناس متفاوتون فى درجة تحملهم وصبرهم، فقد يكون اعتزال الناس لائقًا بالضعفاء، ومن لا طاقة لهم على التحمل والصبر والمجاهدة؛ لكن أهل العزم من الرجال يليق بهم أن يسلكوا السبيل الأعلى والأفضل، وهو مخالطة الناس مع تحمل ما يصدر منهم من أذى، مع الإرشاد والنصح والمجاهدة كى نقيم دين الله تعالى، وفى هذا استجابة لأمر الله فى قرآنه : ﴿ **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ** ﴾ [الشورى/١٣].

ولو تهرَّب كل مسلم من هذه الأمانة - أمانة الجهاد والمجاهدة، أمانة الدعوة والإرشاد - فمن يحمى الحق ؟! ومن يدعو إلى الخير ؟! ومن ينشر الفضيلة ؟

لذلك لما رأى النبى ﷺ ببصيرته المؤيدة بنور الله تعالى أن السائل من أولى العزم، وله طاقة فى التحمل أرشده النبى ﷺ إلى اختيار الأفضل والأعلى، ونهاه عن الركون إلى الراحة.

وذلك لأن المسلم صاحب رسالة فى الحياة، ولابد من القيام بواجب هذه الرسالة من التحمل والجلد والصبر والمجاهدة والجهاد فى سبيل الله.

يتأكد هذا المعنى من قول النبى ﷺ للرجل السائل : «لا تفعل، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عامًا، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟!».

فالمسلم حين يخالط الناس بأدب الإيمان، يعود مريضهم، ويواسى محتاجهم، ويرشد جاهلهم، ويحضر مجالس الذكر معهم، ويحضر جنائزهم، وينصر ضعيفهم، حين يفعل المسلم ذلك يكون عنصراً مؤثراً فى مجتمعه.

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : « المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أفضل من المؤمن الذى لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم »[1] .

والبصيرة الثانية من فقه هذا الموقف هى أدب المؤمن فى الرجوع بفكره وكل شأنه إلى هدى سيدنا رسول الله ﷺ، يستشيره ويقتدى به، ولا يقدم هوى نفسه أبداً على هدى رسول الله ﷺ، يظهر ذلك من قول الرجل : لن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ .

وهكذا ينبغى على المؤمن أن يراجع خواطره بعرضها على الشرع، وألا يقدم الإنسان رأيه أو فكره على قرآن الله أو سنة نبيه، بل شأن المؤمن الأتباع من السمع والطاعة، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الحجرات/ ١] .

---

(١) أخرجه الحافظ فى « الفتح » (١٠ / ٥١٢)، وأبو نعيم فى « الحلية » (٧ / ٣٦٥) .

٣٥ - يصوم عن الحلال ويفطر على الحرام !!

جاء رجل يستأذن رسول الله ﷺ في امرأتين صامتا، فدعا النبي ﷺ المرأتين، ودعا ﷺ بإناء فارغ. ثم قال ﷺ لإحداهما: «قيئى». فقاءت قيحًا ودمًا أسود، ثم قال للثانية: «قيئى»، فقاءت مثل الأولى، فدهش الصحابة من أمر المرأتين.

فقال النبي ﷺ:

«إن هاتين المرأتين صامتا عن الحلال وأفطرتا على ما حرم الله، جلست إحداهما إلى الأخرى تغتاب الناس».

(*) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٤٣١).

هذا الموقف يتضمن دلالتين مهمتين بشأن عبادة الصيام:

أولاهما : خطورة المعاصى على الصوم، فالصوم الذى يُرجى قبوله عند الله تعالى، هو الصوم الذى تصوم فيه جوارح الإنسان كلها عن جميع المعاصى، بالإضافة إلى الامتناع عن شهوتى البطن والفرج.

وقد أخبر النبى ﷺ أن غياب هذه الحقيقة عن صوم العبد يحرمه من فضل الصيام، قال ﷺ : «رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش»[١]، وقال ﷺ : «إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يفسق، فإن سابه أحد أو شاتمه فليقل إنى امرؤ صائم، إنى امرؤ صائم»[٢].

وقد يتبين لنا من الموقف أن المرأتين أضرتا بصيامهما، بسبب الوقوع فى الغيبة والنميمة.

ثانيتهما : الحقيقة الجوهرية فى عبادة الصوم، التى قد تغيب عن كثير من الناس، وهى أن الله أمرنا بالصيام بالامتناع عن الحلال من الطعام والشراب، وشهوة الفرج من خلال الأزواج فترة من الوقت، أما الحرام فالمؤمن ممتنع عنه فى رمضان وفى غير رمضان.

فالغيبة حرام فى رمضان وفى غير رمضان، وهكذا سائر المحرمات.

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢/٣٧٣)، والحاكم فى المستدرك (١/٤٣١) بلفظ مشابه، وهو عند البيهقى فى السنن الكبرى (رقم ١٦٩٠) بنفس هذا اللفظ.
(٢) أخرجه أحمد (٢/٤٤٣) وأصله فى الصحيحين.

٣٦ - حسن الهيئة من الإيمان

دخل رجل بهيئة بَذَّة (رَثَّة) والنبى ﷺ يأمر الناس بالصدقة، فتصدَّق الناس. فأعطاه النبى ﷺ ثوبين، ثم قال :

تصدقوا، فطرح الرجل أحد ثوبيه.

فقال النبى ﷺ :

«أترون إلى الذى رأيته بهيئة بَذَّة فأعطيته ثوبين، ثم قلت : تصدقوا، فطرح أحد ثوبيه !! خذ ثوبك !».

(*) أخرجه أبو داود فى كتاب «الزكاة» باب «الصدقة عن ظهر غنى» وكذلك الحاكم، والبيهقى.

هذا موقف تربوى يصحح فهمًا معوجًّا شاع بين بعض الناس، حين يحسبون أن إهمال الهيئة وترك العناية بها من التدين أو الزهد فى الدنيا . وهذا من وهمهم؛ فالإسلام يريد أن يمحو من المجتمع مظاهر البؤس والفاقة .

وقد لا يبالى بعض الناس أن يعيش طاويًا عاريًا، بَيْدَ أن أمثال هؤلاء ينبغى ألا يفرضوا مذهبهم فى الحياة ويحمّلوه على تعاليم الدين نفسه، فإن الإسلام يوجب أن يملك الإنسان من متاع الدنيا ما يرفع رأسه ويحفظ وجهه . وكره النبى ﷺ من الرجل أن يتصدق بما عنده، ويدع نفسه محتاجًا .

فعن جابر رضي الله عنه قال : « جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال : يا رسول الله ﷺ، أصبت هذه من معدن فخذها فهى صدقة ما أملك غيرها! فأعرض عنه . فأتاه من قِبَلِ ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، فأتاه من ركنه الأيسر، فقال مثل ذلك، فأعرض عنه ثم أتاه من خلفه، فقال مثل ذلك، فأخذها النبى ﷺ فخذفه بها، فلو أصابته لأوجعته، وقال : «يأتى أحدكم بجميع ما يملك فيقول : هذه صدقة، ثم يقعد يتكفف الناس ! خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى »(١) .

وعلى المرء أن يتعرف المطالب المعقولة لأهله وولده، وأن ينفق عن سعة فى قضائها، فليس من الدين أن يدع المرء زوجته أو بنيه أو بناته فى حال قلقة من الاحتياج والضيق، ثم يضع ماله فى مصرف آخر، مهما كان خطره، فروابط الأسرة أولى بالعناية وأحق من غيرها، قال رسول الله ﷺ : « دينارٌ أنفقته فى سبيل الله، ودينار أنفقته فى رقبة (أى فى تحرير عبد)، ودينارٌ تصدقت به على أهلك، أعظمها أجرًا الذى أنفقته على أهلك »(٢) .

(١) أخرجه البخارى (٢ / ١٣٩، ٧ / ٨١) ، ومسلم فى « الزكاة » (ب٣٢ رقم ٩٥) .
(٢) أخرجه مسلم فى « الزكاة » [باب « فضل النفقة على العيال » (٣ / ٧ / ٨٢)] .

والإسلام بهذا الإرشاد الدقيق، يريد أن يرتب النفقات المشروعة ترتيبًا مثمرًا صالحًا؛ فإن الأسرة قوام المجتمع الكبير، والخلية الحية التى يتكون منها بناؤه الضخم؛ فتوجيه العناية إليها أولاً أجدى على الأمة كلها من حرمانها وتحويل حقوقها عنها.

ثم إن فى هذا الإرشاد زجرًا لطائفة من الناس يجنحون إلى الإسراف خارج بيوتهم، وبين أصدقائهم أو الغرباء عنهم، فإذا دخلوا إلى أهلهم كانوا أمثلة سيئة للتقتير والبخل !

وأقرباء المسلم أجدر الناس بالإفادة من فضول ماله، ومن حقهم أن ينصرف إليهم أى عطاء تجود به يده. وهذا أول ما يتبادر إلى الفهم السليم، فإنه إذا كان المحتاج لصيقًا بك، فلا معنى لمجاوزته والذهاب بالخير إلى آخر قصىّ، بل إن ذلك قد يزرع الضغينة فى نفوس المحرومين ويشعرهم بأن إهمالهم متعمدٌ للنكاية بهم.

فإذا كان التنكيل بذوى القربى هو ما يقصده المعطى، فإن صدقته ترد عليه وتتحول وبالاً. وفى الحديث : «يا أمة محمد، والذى بعثنى بالحق، لا يقبل الله صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صلته، ويصرفها إلى غيرهم، والذى نفسى بيده: لا ينظر الله إليه يوم القيامة»(١).

وعن زينب الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود - رضى الله عنهما - قالت : قال رسول الله ﷺ : «تصدَّقْنَ يا معشر النساء، ولو من حليكنَّ»، قالت : فرجعت إلى عبد الله بن مسعود فقلت له: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإن رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأته فَسَلْه، فإن كان ذلك يجزى عنى، وإلا صرفتها إلى غيرك، فقال عبد الله : بل ائتيه أنت ! وقالت : فانطلقت فإذا امرأة

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط بسند ضعيف، قاله الهيثمى فى المجمع (٣/ ١٢٠).

من الأنصار حاجتها حاجتي، وكان رسول الله ﷺ قد ألقيت عليه المهابة، فخرج علينا بلال، فقلت له : ائت رسول الله، فأخبره أن امرأتين بالباب يسألانك : أتجزىء الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما؟ ولا تخبره من نحن.

قالت : فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال رسول الله ﷺ : «من هما؟» فقال : امرأة من الأنصار وزينب، فقال رسول الله ﷺ : «أي الزيانب؟» قال : امرأة عبد الله بن مسعود، فقال : لهما أجر القرابة وأجر الصدقة»(١).

وقال رسول الله ﷺ : «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى القريب صدقتان : صدقة وصلة»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باب «الزكاة على الزوج والأيتام» (٣/٣٨٤/ح١٤٦٦ مع الفتح).

(٢) أخرجه الهيثمي في «المجمع» (٣/١١٩) وقال : رواه الطبراني في الأوسط والكبير وفيه من لم أعرفهم.

٣٧ - خيط بين المصلى وحجرة الصدقة

لمَّا كُفَّ بصرُ الصحابى الجليل حارثة بن النعمان الأنصارى ﷺ جعل خيطًا بين مصلاه إلى باب حجرته، ووضع عنده وعاء فيه تمر ونحو ذلك من الصدقات، فإذا جاء مسكينٌ يطلب صدقة، أخذ حارثة التمر من الوعاء ثم أمسك بالخيط حتى يصل إلى باب الحجرة، فيناول المسكين الصدقة بيده.

فقال له أهله :

نحن نكفيك هذا.

فقال :

لا ، فإنى أودُّ أن أفوز بالثواب، ثم ذكر قول رسول الله ﷺ :

«إن صدقة المسلم تزيد فى العمر، وتمنع ميتة السوء، ويُذْهِبُ الله بها الكِبْرَ والفقر والفخر».

(*) ذكره فى «أسد الغابة» (١/ ٤٢٨).

هذا الموقف به عظات غالية ودروس تربوية عالية :

أولاها : هذا الحرص الواضح من الصحابى الجليل حارثة بن النعمان ﵁ على نيل ثوابَ تقديم الصدقة بيده، مما دفعه إلى اتخاذ خيط يقوده من مصلاه إلى الباب كى يناول المسكين أو السائل الصدقة بنفسه .

وهكذا المؤمن لا يدَّخر وسعًا فى فعل خير يستطيعه . هذه النفس الصافية التى تدرك أن الصدقة عمل صالح، كما أن مناولة الصدقة فعل صالح أيضًا يُثاب عليه المسلم؛ وذلك لما فيه من رعاية لحال السائل واهتمام بشأنه، وتقدير لمشاعره، ويُظهر لنا هذا الموقف كيف أن الإسلام قدَّم رعاية المشاعر على العطاء، قال الله عز وجل :

﴿ **قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى** ﴾ [البقر/٢٦٣] .

ثانيتها : هى الحرص على سرِّية الصدقة؛ لما لها من ثواب عظيم .

ويلتقى هذا الموقف مع مواقف كثيرة لأصحاب النبى ﷺ وصحابياته فى تقديم الصدقات محفوفة بعطاء الحب ورعاية المشاعر، حتى يظن المسكين أنه هو المتفضل بقبوله لهذه الصدقة، وكانت السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ تُطيِّب الصدقة بالعطر ثم تقدمها للفقير .

كل هذا نابع من إيمانٍ راسخ فى قلب المؤمن بأن الغنىَّ مختبرٌ من الله تعالى بماله، والفقير مختبر من الله تعالى بفقره؛ يقول ابن عباس – رضى الله عنهما –: ولو شاء لجعلنا أغنياء لا فقير فينا، ولكن اقتضت حكمته أن يبتلى بعضنا ببعض .

ولقد بين القرآن الكريم أن أفضل نفقة ينفقها العبد فى حاجاته المختلفة

- هى النفقة فى سبيل الله، قال تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة/ ٢٦١].

ويؤكد الحديث النبوى الشريف أن ما نقدمه من صدقة هو الذى يُدَّخر لنا عند الله يوم القيامة، فى حين أن ما ننفقه فى الطعام والشراب والملبس وغيرها من متاع الدنيا - هو- إلى زوال.

أعطى النبى ﷺ السيدة عائشة - رضى الله عنها - شاة مذبوحة كى تفرقها على الناس. ثم سألها النبى ﷺ : «ماذا صنعت فى الشاة ؟» فقالت: ذهبت كلها غير كتفها، فقال لها النبى ﷺ : «بل بقيت كلُّها غير كتفها»[1]. ثم تلا قوله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل/٩٦].

(١) أخرجه الترمذى فى «صفة القيامة» باب «منه» (٤/ ٦٤٤/ ح ٢٤٧٠)، و أحمد فى المسند (٦/ ٥٠) ، وقال الترمذى : حديث صحيح.

٣٨ - ربح البيع أبا يحيى

لما أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، عزم صهيب الرومى على الهجرة، لكن قريشًا صدَّته عن غايته وأقامت عليه الرقباء، فلجأ إلى الحيلة وتسلل من بينهم، لكنهم أدركوه فى طريقه، وكانت المواجهة بينهم وبينه.

فقالوا له : لا ندعك يا صهيب تفوز منا بنفسك وبمالك. لقد أتيت مكة فقيرًا فاغتنيت.

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن تركت لكم مالى أتخلُّون سبيلى؟

قالوا : نعم، فأخذوا ماله وتركوه لهجرته.

فلما بلغ صهيب قباء، ورآه الرسول ﷺ بَشَّره بقوله: «ربح البيع أبا يحيى» (ثلاثًا). وكان جبريل قد أخبر رسول الله ﷺ بتضحية صهيب.

(*) ذكره ابن سعد فى «الطبقات» (٣/١٦٣).

هذا موقف عظيم يقدم لنا الأسوة والقدوة، فى معنى التضحية بمتاع الدنيا فى سبيل رضا الله عز وجل.

فصهيب الرومى جاء مكة فقيراً فاغتنى بها، وأصبح ذا مال وسعة من العيش، لكنه لم يركن إلى رغد العيش الذى جاءه بعد حرمان.

لم يركن إلى الغنى بعد الفقر، لكنه آثر حب الله ورسوله، وهانت الدنيا برخص المال أمام رضا الله عز وجل، فترك ماله لقريش وفر مقابل أن يتركوه لهجرته، كى يدرك رسول الله ﷺ، ولقد أخبر الله تعالى الرسول ﷺ بتضحية صهيب، فلما بلغ صهيب قُباء، ورآه الرسول ﷺ استقبله بحفاوة وفرح وسرور، ثم بشَّره بأن الله قد تقبل منه، فقال له : « ربح البيع أبا يحيى.. ربح البيع أبا يحيى ... ربح البيع أبا يحيى » وفى التكرار تأكيد البشرى.

وأنزل الله فى هذا الموقف الكريم لصهيب قرآنًا يُتلى، فيه مدح لهذا الصحابى الكريم، وسلوكه الإيمانى؛ كى يتأسى المؤمنون الصادقون به فى كل زمان ومكان ما دامت آيات الله تُتْلى إلى يوم القيامة.

قال تعالى :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة/٢٠٧].

٣٩ - أثر الصفح والعفو

ذهب فُضالة بن عُمَير الليثى قاصداً قتل النبى ﷺ أثناء طوافه بالبيت، فلما دنا منه قال الرسول ﷺ : «أفُضالة ؟ !». قال: نعم فُضالة يا رسول الله.

قال ﷺ : «ماذا كنت تحدِّث به نفسك ؟

قال: لا شيء، كنت أذكر الله.

فضحك النبى ﷺ ثم قال: «أستغفر الله».

ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فما كان من فُضالة إلا أن قال:

والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله أحبُّ إلىَّ منه.

وأسلم فُضالة بهذا الصفح الكريم، وزالت من قلبه العداوة، وحلَّت محلها محبة رسول الله ﷺ.

(*) البداية والنهاية لابن كثير (٤/ ٣٠٨).

هذا الموقف يحمل فيضًا كريمًا من سماحة رسول الله ﷺ عفوه، وحرصه على الآخر، وأنه كان يقابل الإساءة بالإحسان.

لقد قدم ﷺ أعظم المناهج التربوية للمصلحين، ووصف لهم سبل الهداية التي يتم بها إنجاز أخطر وأعظم عملية تغيير للإنسان: من الضلال إلى الهدى، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الكفر إلى الإيمان، وهذه حقيقة أكدها القرآن الكريم في حق المصطفى ﷺ، قال تعالى:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران/ ١٦٤].

وأمام هذه المهمة السامية والرسالة العالية، ألا وهي هداية الناس، يوضح لنا رسول الله ﷺ - من خلال هذا الموقف - أنه لا مكان لنزغات النفس وظهور الأنانية، وهكذا كان شأنه ﷺ أنه كان لا ينتصر لنفسه، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتقم لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله.

لقد باع نفسه لله: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** [الأنعام/ ١٦٢].

ولا غرابة بعد ذلك أن نرى النبي ﷺ قد ألزم نفسه التواضع، وكان يقول: «إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»[١].

ودلالة أخرى في هذا الموقف: هي استعانة الداعية والمصلح والمربِّي بالله -عز وجل- في معالجة فكر ونفس ومشاعر من أمامه؛ كي لا يرى لنفسه فضلاً

(١) الشفا، القاضي عياض (١/ ١٨٨، ٢٦٣).

فى هذا التحول النورانى، وذلك التغير الإيمانى، بل ينسب الفضل لله عز وجل؛ لذلك دعا ﷺ له بالهداية : « اللهم اهد قلبه » .

أيضًا هناك دلالة أخرى فى هذا الموقف النبوى الكريم، وهى إرشاد الحائر الضال إلى ما يصلح شأنه من ذكر أو دعاء أو عمل صالح؛ لذلك قال النبى ﷺ لفضالة : « استغفر الله يا فضالة » .

ثم تأمل – رحمك الله – فى هذا الموقف النبوى الكريم، كيف قابل النبى ﷺ رغبة القتل من فضالة بالابتسامة الحانية، والكلمة الطيبة والدعاء، واليد الحانية التى كانت بلسمًا سكن به قلب فضالة، وتحوَّل الموقف من العداوة إلى المحبة، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ ... **ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت/٣٤] .

٤٠ - رعاية الخصوصية النفسية

لما انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وحان وقت الصلاة.. قام بلال ﷺ يؤذن فى الناس، فلمَّا وصل إلى قوله: «أشهد أن محمداً رسول الله».

خنقته العبرات .. واحتبس صوته. ثم أذَّن بعد ذلك ثلاثة أيام، فكان كلما وصل إلى قوله :

«أشهد أن محمداً رسول الله» بكى وأبكى .. فطلب بلال من أبى بكر ﷺ أن يُعفيه من الأذان، وأن يأذن له فى الخروج إلى الجهاد، والمرابطة فى بلاد الشام، فتردد الصديق أبو بكر ﷺ.

فقال له بلال : إن كنت اشتريتنى لنفسك فأمسكنى، وإن كنت قد أعتقتنى لله فَخَلّنِى لمن أعتقتنى له.

فقال له أبو بكر : ما أعتقتك إلا لله، وأذن له فى ترك الأذان والخروج إلى الجهاد.

(*) ذكره فى أسد الغابة (١/٢٤٤).

الناس لهم مشاربٌ مختلفة وميول متباينة، لذلك لا يمكن أن نطبع الناس بطابع واحد، بل لابد من مراعاة الفروق بين الأفراد ومن هنا تأتى فكرة الخصوصية للإنسان فى آرائه الخاصة فى حدود وإطار: لا ضرر ولا ضرار. ولقد نهى الإسلام عن كل ما ينال أو يعتدى على خصوصية الإنسان.

والموقف موضوع الحديث يعالج فكرة الخصوصية النفسية للإنسان، فنجد سيدنا بلالاً رضي الله عنه حين فاضت مشاعره، لم يستطع أن يغالبها أو أن يتحكم فيها، فغلبته مشاعره وهو يؤذن بعد وفاة النبى ﷺ؛ فبكى واحتبس صوته. فلما تكرر منه ذلك، ولم يعد يحتمل الأذان فى غياب رسول الله ﷺ استأذن أبا بكر رضي الله عنه فى أن يترك المدينة وينضم لإخوانه المجاهدين فى سبيل الله والمرابطين فى الشام.

ولقد رأى الصديق أبو بكر رضي الله عنه برحابة نفسه وقوة روحه أن يستبقى بلالاً ليرفع الأذان كما كان يرفعه على عهد رسول الله ﷺ، وهذه طاقة خاصة لأبى بكر، ومَنْ كأبى بكر رضي الله عنه فى طاقته الخاصة، التى لم تُتَح لكثيرين ؟! ألم يأت بكل ماله مرات ومرات لرسول الله ﷺ كى ينفقه فى سبيل الله ألم يقف فى لحظة الحزن الشديد عندما أعلن خبر وفاة رسول الله ﷺ وقد اضطربت مشاعر المسلمين، حتى إن عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه، أمسك بالسيف، وقال: من قال إن محمداً قد مات قطعت عنقه، فقام الصديق أبو بكر بثبات، وتلا قول الله تعالى: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾** [آل عمران/١٤٤].

فهذا هو أبو بكر رضي الله عنه فى همته وثباته، فى حين أن بلالاً رضي الله عنه رجلٌ تغلبه مشاعر فياضة فى حب رسول الله ﷺ، فلم يستطع أن يسلك مسلك أبى بكر رضي الله عنه.

ولمَّا كـان أبو بكر ﷺ له سبق فـضل على بلال ﷺ لما أعتقه من الرق، وقع فى نفس بلال أنه لا يستطيع أن يرد كلام أبى بكر بسبب هذا الفضل السابق لأبى بكر على بلال. إن بلالاً يحس بضغط أدبى؛ بسبب فضل أبى بكر السابق عليه فى عتقه. فواجه بلالٌ نفسه ليحسم الأمر على نفسه، وقال لسيدنا أبى بكر ﷺ: إن كنت قد اشتريتنى لنفسك فأمسكنى، وإن كنت أعتقتنى لله فخلِّنى لله. وهنا أوضح أبو بكر لسيدنا بلال بأنه أعتقه لله، وأذن له فى الخروج من المدينة إلى المجاهدين والمرابطين فى الشام رعاية لخصوصية مشاعر بلال ﷺ.

وهذا درس قَيِّم يعلمنا أدبًا من آداب الإسلام السامية، وهو مراعاة خصوصية الغير فى مشاعره، وفى اختياراته فى حدود : لا ضرر ولا ضرار.

اللم أدبنا بأدب سيدنا رسول الله ﷺ وخلِّقنا بخلقه. يا رب العالمين.

٤١ - تعال نؤمن ساعة

كان عبد الله بن رواحة إذا لقى الرجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال :

تعال نؤمن بربنا ساعة .

فقال ذلك ذات يوم لرجل ، فغضب الرجل وجاء إلى النبى ﷺ فقال :

يا رسول الله ، ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة ؟ !

فقال النبى ﷺ :

«يرحم الله ابن رواحة ! إنه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة» .

(*) أخرجه أحمد فى المسند (٣ / ٢٦٥) .

هذا الموقف يقدم لنا عظات هادية فى رحاب فضل مجالس الذكر، وكيف أن هذه المجالس تحبها الملائكة وتتباهى بها.

ولكى ندرك منزلة الذكر بين العبادات يكفى أن نتأمل أن الله – عز وجل – حين افترض على عباده كل عبادة من العبادات وأمرهم بها، جعل لها حدًّا معلومًا؛ فالصلاة عبادة محددة فى أوقات محددة، وكذلك الزكاة والصيام، والحج، فى حين أنه لمَّا أمر الله عباده المؤمنين بالذكر، جعله على قدر الوسع والطاقة، ولم يجعل له حدًّا محدودًا ولا وقتًا معلومًا.

قال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً**﴾ [الأحزاب/ ٤١ – ٤٢].

وجعل الله الذكر غذاء للقلوب والأرواح، بل إن حاجة القلب إلى ذكر الله تفوق حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، للدرجة التى يعبر فيها النبى ﷺ عن الفرق بين الذاكر والغافل، بقوله ﷺ :

« مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه: مثل الحى والميت »(١).

كما يتبين لنا فى هذا الموقف أن الملائكة تحب مجالس الذكر، وتحفُّها وتتباهى بأهلها، والأحاديث فى ذلك كثيرة، منها قوله ﷺ :

« ما اجتمع قومٌ يذكرون الله – عز وجل – إلا حفَّتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده »(٢).

ومن دلالات الموقف أيضًا : حرص عبد الله بن رواحة رضي الله عنه على تذكير إخوانه بذكر الله – عز وجل – وهذا شأن المؤمن الذى يعين أخاه على الطاعة،

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه أيضًا.

وبخاصة فى أوقات الغفلة عن ذكر الله، وهذا من باب التواصى بالحق والتعاون على الخير. وفى هذا روى ابن أبى الدنيا عن أبى قلابة قال :

« التقى رجلان فى السوق، فقال أحدهما للآخر : تعال نستغفر الله فى غفلة الناس، ففعلا . فمات أحدهما، فلقيه الآخر فى النوم فقال : علمت أن الله غفر لنا عشية التقينا فى السوق » .

أيضًا تخبرنا السنة المطهرة بأن الله جعل ملائكة يلتمسون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسًا تنادوْا: هلموا، حتى إذا انتهى المجلس صَعِدوا يرفعون أحوال الذاكرين إلى الله عز وجل، ويسألون ربهم الجنة ويتعوذون ربهم من النار، فينعم الله بواسع مغفرته ورحمته، قائلاً :

« أشهدكم – يا ملائكتى – أنى قد غفرت لهم » .

فتقول الملائكة : يا رب ، فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة .

فيقول الله عز وجل : « وله قد غفرت، هم القوم لا يشقى جليسهم »[1].

هذا فضلاً عن ثمرات الذكر فى الدنيا من طمأنينة القلب وراحة النفس.

قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد/٢٨] .

---

(١) أخرجه البخارى (٤/٢١٠١)، ومسلم (٤/٢٦٢٨) .

٤٢ - دعوة النبى ﷺ لأم أبى هريرة

كان أبو هريرة رضي الله عنه كلما دعا أمه إلى الإسلام نهرته، حتى دعاها ذات يوم، فأسمعته فى رسول الله ﷺ ما يكره.

فذهب أبو هريرة رضي الله عنه من فوره يبكى لرسول الله ﷺ راجيًا إياه قائلاً : ادعُ الله أن يهدى أم أبى هريرة، فدعا لها رسول الله ﷺ.

فلما عاد أبو هريرة رضي الله عنه إلى المنزل، فوجد الباب مردوداً. فقالت له أمه : مكانك يا أبا هريرة. وعجلت إلى خمارها بعد اغتسالها ثم فتحت لولدها أبى هريرة، وقالت :

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

فرجع أبو هريرة رضي الله عنه يبكى فرحًا إلى رسول الله ﷺ ويخبره بهذا الخبر.

(*) رواه مسلم فى «الفضائل» رقم ١٠٨.

هذا موقف إيمانى عظيم يحمل دلالات هادية منها:

أن الإنسان لا يسلم من بعض المتاعب التى تشق عليه، وقد يعجز الإنسان بما بين يديه من أسباب متاحة أن يعالج هذه المتاعب، وهنا ينبغى على الإنسان أن يسارع بالتوجه إلى الله تعالى وحده بالدعاء؛ فالله وحده هو القادر، هو القريب، هو المجيب، هو الذى يملك أن ينجز ما نعجز عنه من أمور، وللمؤمن أن يطلب الدعاء من أهل الصلاح والفلاح والتقوى، ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة/٢٧]، وقد بشر القرآن الكريم كل من التجأ بالدعاء إلى الله تعالى، فقال عز وجل :

﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾ [البقرة/١٨٦].

هذا الموقف يستفاد منه أمور كثيرة، فى بدايتها يستفاد منه البر بالأم، كان أبو هريرة رضي الله عنه حريصًا على البر بأمه، وكان حريصًا على أن يقدم لها أسباب الهداية، فكان يُذكِّرها بحال رسول الله ﷺ، وكان يذكِّرها بخلق رسول الله ﷺ، ويذكِّرها بآيات القرآن الكريم، ولكنها كانت مُعرِضة، غير راغبة، فعزَّ ذلك على أبى هريرة رضي الله عنه؛ فلما كرر على أمه الدعوة إلى الإسلام وذكر لها رسول الله ﷺ نالته بشىء من السوء فى الكلام، فخاف أبو هريرة على أمه أن ينزل قرآن فى شأنها، فتعجل من فوره وذهب مسرعًا إلى رسول الله ﷺ يعرض أمر أمه على الرسول بأسلوب يستعطف فيه النبى ﷺ، فيطلب الدعاء من رسول الله ﷺ لأمه، فأكرمه رسول الله ﷺ فدعا لها بالهداية واستجاب له الله عز وجل.

وهنا يظهر أثر الإيمان فى الإنسان، فأبو هريرة لم يقابل إعراض أمه بإعراض مثله، ولا عزف عن تكرار الدعوة لأمه كى تدخل الإسلام، بل كان ينطلق فى

ذلك كله من حقيقة كبرى وهى بالإيمان بالله عز وجل، والإيمان يفرض عليه حسن العشرة والبر بأمه، ثم نأتى إلى فضيلة الدعاء، فإنها تأخذ حيزاً بارزاً ينبغى أن يلتفت إليه المؤمن، وأشار إليه سيدنا محمد ﷺ مبشراً كل من اتجه بالدعاء لله قائلاً :

« ما من مؤمن يدعو بدعوة ليس بها إثم أو قطيعة رحم إلا كان له بها إحدى ثلاث : إما أن يعجل الله دعوته له فى الدنيا، وإما أن يصرف عنه من السوء بمثلها، وإما أن يدخر له دعوته إلى يوم القيامة »[1] .

فالنبى ﷺ يبين لنا أنه لا يكون إهمال لأى دعوة يتوجه بها الإنسان لله عز وجل، فإما أن يعجل الله له الدعوة فى الدنيا فتقبل حاجته، وإما أن يصرف عنه من السوء بمثلها، ويكون المؤمن فى هذه الحالة محتاجًا إلى صرف هذا السوء لأنه لا يحتمله، أو أن يدخر الله عز وجل له ثواب ذلك إلى يوم القيامة.

وهذا درس للدعاة، يتعلمون منه أنهم مهما بلغت المعصية وأن الإنسان مهما بلغ به الإعراض عن الهداية والرشاد، فإن باب الرحمة وباب التوبة وباب الهداية مفتوح أمامه، فهداية الله قد تأتى فى أى أوان وفى أى مكان.

---

(١) سبق تخريجه.

٤٣ - يوم عيد وخُبْزٌ خَشِنٌ

دخل بعض الصحابة على الإمام على - كرم الله وجهه- فى يوم عيد، فوجدوه يأكل خبزاً فيه خشونة، فاعترضوا عليه قائلين:

«يا أمير المؤمنين يوم عيد وخبز خشن ؟!»

فقال لهم :

«اليوم عيد لمن ؟! اليوم عيد لمن ؟! اليوم عيد لمن قُبِلَ بالأمس صيامه وقيامه. عيد لمن غفر ذنبه، وشكر سعيه، اليوم لنا عيد، وغداً لنا عيد، وكل يوم لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد».

(*) الخطب المنبرية للأستاذ / محمد أبو الفضل، ص ١١٩.

هذا الموقف العظيم يحمل دلالات هادية :

أولاها : إظهار حقيقة إيمانية بشأن فرحة العيد وبشأن مشاعر المسلمين فيه، فالإسلام دين الفطرة التى فطر الناس عليها، فهو لا يصادر المشاعر، ولا يحجب العواطف، وإنما يهديها ويوجهها توجيهًا إيمانيًا، لتعود بالخير على صاحبها وتبنى فيه القيم الإيمانية؛ ولتكون هذه المشاعر وسيلة قرب لله تعالى، وتتربى فينا عاطفة الامتثال لأوامر الله عز وجل. وفى إطار هذا المفهوم الإيمانى الذى يشير إليه موقف الإمام علىّ ﷺ نجد أن الله قد ربط العيدين فى الإسلام بطاعتين عظيمتين؛ فعيد الفطر ارتبط بطاعة الصيام، وعيد الأضحى ارتبط بطاعة الحج؛ ليتعلم المؤمن أن الفرح والسعادة يكون بإتمام الأعمال الصالحة كما يحب ربنا ويرضى.

قال الله تعالى : ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس/٥٨].

ويقال أيضًا : ليس العيد لمن لبس الجديد، ولكن العيد لمن خاف يوم الوعيد، ولذلك أشار الإمام على - كرم الله وجهه - إلى هذا المعنى أن يوم المؤمن إذا كان فى طاعة، وفى حب الله وإخلاص له يكون له يوم عيد.

ربط الإمام على - كرم الله وجهه - الفرح بالعيد بطاعة الله عز وجل؛ لأن فرح المؤمن بعيد الفطر ليس لأنه قد انتهى من الصيام، وانقطع عنه الجوع والعطش، وإنما لأن الله تعالى وفقه إلى طاعة الصيام، ولذلك فالمؤمن يتمنى أن تكون السنة كلها رمضان.

● إن أعياد المسلمين كلها أعياد ربانية من اختيار الله رب العالمين، يشاركنا فيها الفرحة أهل السماء، وهى أعياد تبدأ بالتكبير والصلاة إعلانًا عن فرحة التوفيق بالانتصار على النفس والهوى والشيطان، وحمداً لله تعالى على

فضله وإعانته على ذكره وشكره وحسن عبادته، ومن شكر نعمة الله على توفيقه ألا يعيش المسلم فرحة العيد وحده، بل يشرك معه الفقراء والمساكين، ويكون التزاور والتراحم والترويح بما أحل الله من الطيبات، وقد أوضح الإمام عليّ -كرم الله وجهه - فى هذا الموقف أن أكل الطيبات أو عدم أكل الطيبات ليس هو المظهر الوحيد للعيد، ولكن المظهر الحقيقى أو حقيقة العيد هى ألا يعصى المؤمن ربه، وأن يكون على طاعة دائمة مع الله وحب مع رسوله ﷺ، فيوضح هذا الموقف هذه الحقيقة الإيمانية من قول الإمام على - كرم الله وجهه -: فكل يوم لا نعصى الله فيه فهو لنا عيد.

فليس معنى العيد فى ضوء هذه العبارة كما يحسب بعض الغافلين انفلاتًا من كل قيد أو انطلاقًا للشهوات وقطعًا للصلة بالله تعالى، بل النجاة والسلامة من الذنوب والآثام من أهم المعانى الإيمانية للعيد عند المسلمين، وهذا ما تشير إليه أحاديث النبى ﷺ، وتعلم الإمام عليّ هذه الحقائق من سيدنا رسول الله ﷺ؛ فتأسى بها واهتدى بها، واقتدى بها وأراد أن يعلمها للأمة.

ومظاهر الفرحة فى العيد كما وضحها الإسلام متنوعة ومتعددة، ولها جوانب، فهنالك الجانب المادى المتمثل فى الطعام إن توفر للإنسان والملبس الجديد إن توفر للإنسان، وفى التزاور وفى الترويح بشرط أن يكون ذلك من جانب الحلال الذى أحله الله عز وجل. وهناك جانب إيمانى، وهو أن تبدأ الفرحة بالتكبير بصلاة العيد، وذكر الله سبحانه وتعالى. ولها جانب اجتماعى آخر وهو الإحسان والتصدق على الفقراء والمساكين واليتامى؛ كى يكفيهم مذلة السؤال فى هذا اليوم.

إذًا نرى الفرحة فى العيد بكل هذه الأبعاد، ولكن لا يريد الإسلام من المسلم بعد أن أتم صيامًا وقيامًا، وبعد أن عاش حياة إيمانية فى رمضان أن ينفلت زمامه ويلهو مع اللاهين ويكون مع الغافلين ويقع فى كثير الذنوب والآثام. والحمد لله رب العالمين.

٤٤ - إنها سرٌ !

كـان أنس ﵁ يلعب مع الغلمان ؛ فأرسله رسول الله ﷺ في بعض حاجته ، فتأخر أنس عن أمه، فسألته عن سبب تأخره، فقال لها :

بعثني رسول الله ﷺ في بعض حاجته.

فقالت له:

وما حاجته ؟! فتوقف أنس وامتنع عن الإجابة.

فقالت له أمه:

ما الأمر يا ولدي؟

فقال :

إنها سر.

فقالت له :

لا تخبرني بسر رسول الله ﷺ .

(*) رجال حول الرسول، ترجمة أنس ﵁.

هذا الموقف يعالج عادة سيئة استحكمت فى كثير من الناس، وهى التطلع بحرص إلى معرفة الأسرار، حتى شاع بين الناس أن إفشاء الأسرار لون من التقرب والمودة مع من يحبون، وندرك هذا من الكلمة الشائعة على لسان عامة الناس فى مثل هذا الموقف حين تقول لهم : إن هذا الأمر سر، فيقولون : أسرٌ عليَّ.. وهل بيننا أسرار؟! والحق أن السر باب من أبواب الوفاء بالعهد والأمانة، وكشف السر خيانة يأثم الإنسان بها عند الله تعالى، ويأخذ حكم السر كل مسألة استشعر الإنسان حرص صاحبها على عدم إشاعتها بين الناس لقول النبى ﷺ : «إذا حدث الرجل أخاه ثم التفت كان الحديث أمانة»(١) وقد يتهاون البعض فى إفشاء الأسرار الخاصة بالحياة الزوجية ظنًا منهم أنها ملك لهم. وهذا حرام لورود تشديد النهى عنه فى السنة النبوية، قال رسول الله ﷺ :

«إن من شر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضى إلى المرأة وتفضى إليه ثم ينشر سرها»(٢).

أيضًا من دلالات الموقف تأدب الأم بأدب الإيمان، فحينما علمت أنه سر، قالت لولدها : «لا تخبرنى بسر رسول الله ﷺ».

وفى ضوء هذا الموقف نود أن نتعرف على مزيد من الأمثلة التى توضح ما لحفظ السر من قيمة بالغة فى حياتنا الإسلامية.

نعم لنا أسوة فى حرص صحابة رسول الله ﷺ على حفظ الأسرار، روى البخارى من حديث عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - أن عمر رضي الله عنه حين تأيمت بنته حفصة، بمعنى: «أنها أصبحت لا زوج لها».

---

(١) أخرجه الترمذى (رقم ١٩٥٩)، وأبو داود (رقم ٤٨٦٨).
(٢) أخرجه ابن أبى شيبة فى المصنف (٤/ ٣٩١).

قال : لقيت عثمان بن عفان رضي الله عنه فعرضت عليه حفصة، فقلت إن شئت أنكحتك حفصة. قال عثمان : سأنظر في الأمر. يقول سيدنا عمر رضي الله عنه : فلبثت ليالي، ثم لقيني فقال : قد بدا لي ألاّ أتزوج يومي هذا. فلقيت أبا بكر فقلت :

يا أبا بكر إن شئت أنكحتك حفصة، فصمت أبو بكر رضي الله عنه فكنت عليه أوجد مني على عثمان. ثم لبثت ليالي، ثم خطبها رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال :

لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة ؟ فقلت : نعم.

قال أبو بكر : فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت على إلا أنني كنت علمت أن النبي ﷺ ذكرها فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ ولو تركها النبي ﷺ لقبلْتُها(١).

(١) ذكره ابن سعد في الطبقات (٨/ ٨٢).

٤٥ - وماذا أقول لله عز وجل ؟!

بينما كان الفاروق عمر بن الخطاب ﷺ يسير من المدينة إلى مكة لقضاء عمرة، أصابه وأصحابه جوع شديد فمروا بشاب يرعى الغنم، فسأله سيدنا عمر أن يبيع لهم شاة.

فقال الشاب :

إنما أنا أجير عليها.

فأعجب عمر من أمانته، وأحب أن يتأكد منها، فاختبره قائلاً : قل لسيدك :

أكلها الذئب.

فقال الشاب :

وماذا أقول لله عز وجل ؟!

ثم ذهب عمر لسيده بمكة فاشتراه وأعتقه وقال له : مثلك ينبغي ألا يكون عبداً لغير الله عز وجل.

(*) راجع درة الناصحين، ص ١٢٠.

هذا الموقف الكريم يحمل دلالات هادية منها :

هذا الضمير اليقظ الذى تصان به حقوق الناس، وتحفظ به من دواعى الخيانة أو التفريط والإهمال، والأمانة من أوضح علامات صدق الإيمان، قال رسول الله ﷺ : «لا إيمان لمن لا أمانة له»[١]، رفض هذا الشاب أن يبيع الشاة؛ لأنه لا يملكها وأعلن خوفه من الله تعالى، واستشعر المسئولية عنها، وهذا المعنى الإيمانى يؤكده رسول الله ﷺ بقوله : «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»، إلى أن قال ﷺ : «والخادم فى بيت سيده راع وهو مسئول عن رعيته»[٢].

وكما أن الأمانة من علامات الإيمان الصادق، فإن ضياع الأمانة من علامات الساعة، فقد جاء رجل يسأل رسول الله ﷺ : متى الساعة ؟!

فقال له ﷺ : «إذا ضُيِّعَتْ الأمانة فانتظر الساعة».

فقال الرجل : وكيف إضاعتها ؟

قال ﷺ : «إذا وُسِّدَ الأمر لغير أهله فانتظر الساعة»[٣].

أيضًا من دلالات الموقف وعظاته البالغة بيان الجزاء الأوفى من الله تعالى، لمن ترك الحرام مخافة الله عز وجل، فإن الله تعالى يبدله خيراً منه، فالشاب حين ترك بيع الشاة بدراهم معدودة مخافة الله عز وجل، عوضه الله خيراً كثيراً، فقد اشتراه سيدنا عمر ثم أعتقه، ونال العبد حريته. وورد فى الأثر: «من ترك شيئًا من الحرام مخافة الله عز وجل أبدله الله خيراً منه فى الحلال».

وهذا الموقف يجعلنا نقف وقفة إعجاب بهذا البطل، الشاب التقى العفيف النقى الذى كان عنده سلطان من ضميره، فلم يفرط فى الأمانة التى

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٣/١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١).
(٢) أخرجه البخارى (٢/٤٤١/٨٩٣ مع الفتح)، ومسلم (٤/١٢/٢١٣ مع النووى).
(٣) سبق تخريجه.

أمره الله بأدائها، كما يقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ [النساء/٥٨]؛ هذا البطل الشاب يجعلنا نتعرف على هذه الأمانة وهى سلطان المراقبة على الضمير، وهى تتمحور فى ثلاثة محاور :

المراقبة من النفس، ثم المراقبة من الله، ثم المراقبة من الناس. وفى ضوء هذه المعانى : أحب أن أذكر حقيقة إيمانية، وهى أن كل الفضائل من الإخلاص والأمانة والصدق والوفاء بالوعد، وغير ذلك أساسها المتين الإيمان بالله عز وجل، فكلما زاد الإيمان زاد التمسك وزاد الالتزام بهذه الفضائل، فهذا انعكاس لمستوى الإيمان نغبطه عليه.

ومن دلالات الموقف أيضاً، ما نستفيده من موقف سيدنا عمر رضي الله عنه، فقد وقف بجانب الشاب لأمانته وطاعته؛ كى يشعر الشاب بتقدير أهل الإيمان له، ويكون ذلك حافزاً له ولغيره على التمسك بالفضائل، وهذا من باب التعاون على فعل الخيرات وترك المنكرات، قال الله تعالى : ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ** ﴾ [المائدة/٢].

وفى هذا أيضاً تنمية للفضائل فى المجتمع وتزكية الصالحين فى الحياة، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه.

وخلاصة هذا الموقف هو : أننا نريد أن يتعلم منه شبابنا أن الأمانة كانت بالنسبة لهذا الشاب طوق أمان، جعله يفوز بالعتق من العبودية، وهذا ما فعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يتولانا ويرضى عنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٤٦ - دع للصلح موضعًا

شتم رجل أبا ذر الغفارى ﷺ فقال له أبو ذر:

يا هذا لا تستغرق فى شتمنا ودع للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه.

فهدأ الرجل وكف عن الشتم.

(*) تنبيه الغافلين للسمرقندى، ص ٢١٢.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية فى رحاب الأسوة الحسنة، والقدوة الصالحة فى التعامل مع الناس، فالمؤمن لا يشارك المسيء ولا يجاريه بل يلتزم بهدى القرآن الكريم، ويتأدب بأدب نبى القرآن وصاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ﷺ، فأبو ذر لم يقابل السيئة بالسيئة، بل اهتدى لقول الله تعالى : ﴿ **وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ** ﴾ [فصلت/٣٤]، أيضًا يشير الموقف إلى ثمرة الالتزام بحسن الخلق؛ حيث إن الرجل الشاتم هدأ وكف عن شتمه، وتحول الموقف من البغضاء والعداوة إلى المودة والصفاء، وهذه حقيقة يؤكدها القرآن الكريم، قال الله تعالى : ﴿ **فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت/٣٤].

وكما أن لحسن الخلق أثرًا محمودًا فى إصلاح العلاقات بين الناس، فإن لحسن الخلق أثرًا فى رفع منزلة العبد عند الله تعالى، وعند رسوله ﷺ.

قال رسول الله ﷺ :

«إن أحبَّكم إلىَّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا»(١).

وحين سئل النبى ﷺ : أى المؤمنين أفضل إيمانًا؟

قال ﷺ : «أحسنهم خلقًا»(٢).

وفى ضوء هذا الموقف نود أن نتعرف على الآثار التى تترتب على سوء الخلق لا سيما وقد تعلمنا من سيرة رسول الله ﷺ، وفى موقف آخر مشابه لهذا الموقف أن الرسول ﷺ قد أقبل عليه رجل سيىء الخلق، فعندما دنا منه، بشَّ فى وجهه وحدثه بكلام طيب، ثم قال للسيدة عائشة- رضى الله عنها - عندما تعجبت من صنيعه :

«إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من خافه الناس أو اتقاه الناس لفحشه».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢/٤٧٢)، وأبو داود (٤/٢١٩/ح ٤٦٨٢).

وكما رغب رسول الله ﷺ فى حسن الخلق فقد حذر ﷺ من سوء الخلق؛ لأن سوء الخلق يفسد العمل الصالح، ولقد قيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل، وهى سيئة الخلق تؤذى جيرانها بلسانها، فقال ﷺ :

«لا خير فيها هى من أهل النار»(١).

وفى الموقف أيضًا دلالة عظيمة، وهى أن الشتم والطعن واللعن ليس من أخلاق المؤمن، ولقد قال النبى ﷺ :

«ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء»(٢).

وهكذا يظهر لنا أن حسن الخلق يبلغ بالعبد المنازل العالية عند الله عز وجل، وعند رسول الله ﷺ، وإن العبد ليبلغ درجة الصائم القائم بحسن خلقه، ويظهر لنا أيضًا أن سوء الخلق يفسد العمل الصالح، وينتكس بالعبد إلى منازل سيئة مع الكفار، والمنافقين - والعياذ بالله تعالى - والمؤمن لسانه طاهر زكى، رطب بذكر الله تعالى، لا يعرف الطعن واللعن ولا الفحش.

ونتعرف على خلق المؤمن بمعاملته، والمعاملة الطيبة هى التى تهدف إلى الإصلاح بين الناس عن طريق حسن الخلق، وعن طريق مقابلة الشر بالإحسان وعدم مقابلته بالإساءة، امتثالاً لقول المولى عز وجل :

﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت/٣٤]، وهكذا كانت سيرة النبى ﷺ مثالاً ونموذجًا يحتذى فى جذب جميع الناس إليه وإلى الإسلام بحسن خلقه وبكلامه الطيب وسيرته الحسنة.

اللهم رطِّب ألسنتنا بذكرك، وطهرها من كل مكروه وسوء، وأدبنا بأدب سيدنا محمد ﷺ وخلِّقنا بخلقه، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة بسند صحيح، قاله المنذرى فى الترغيب والترهيب (٣/٣٥٦).
(٢) سبق تخريجه.

٤٧ - لو أقسم على الله لأبره

كان عمر بن الخطاب ﷺ كلما جاء أمداد أهل اليمن سألهم : أفيكم أويس بن عامر ؟ وذلك لأن رسول الله ﷺ قال :

يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبَرَّه، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

فلما التقى به عمر بن الخطاب ﷺ سأله أن يستغفر له، فاستغفر له أويس.

فقال له عمر ﷺ : أين تريد؟

قال : الكوفة.

قال عمر ﷺ : ألا أكتب لك إلى عاملها (أى: إلى واليها).

فقال أويس : بل أكون فى عموم الناس أحب إليَّ.

(*) أخرجه مسلم (١٦/١٤٢/ ح ٢٢٥ مع النووى).

هذه البشرى العظيمة التى بشر بها رسول الله ﷺ أويس بن عامر القرنى، قرنها رسول الله ﷺ وربطها بسبب هذه البشارة، يظهر ذلك من قوله ﷺ : «له والدة هو بها برٌّ» .

من هنا فهذه البشارة تظهر لنا دلالة عظيمة على أن البر بالوالدين بابٌ عظيم من الأبوب التى ننال بها رضوان الله تعالى وفضله، ولنتحصل بها على أعلى المنازل . ولنتأمل كيف أن سيدنا عمر رضي الله عنه وهو من المبشرين بالجنة ، قد نصحه رسول الله ﷺ أن يطلب من أويس أن يستغفر له؛ أى : يلتمس منه الدعاء ؟! وفى هذا عظيم الدلالة على هذه المكانة العالية التى آتاه الله إياها، وتفضَّل بها على أويس ببركة بره بأمه، أى: أنه وصل إلى الحد الذى جعل دعوته مستجابة على الفور.

وأود فى هذا الإطار، أن أقرن هذا الموقف بمواقف أخرى إيمانية تظهر أثر الإيمان وأثر أخلاق الإسلام بين الولد وأمه وبين الولد وأبيه، فالبر بالوالدين فضيلة ومنزلة قرآنية قرنها الله سبحانه وتعالى بعبادته : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء/٢٣] .

وحين نتأمل أحوال الصالحين من نجوم الهداية الذين تربوا فى مدرسة رسول الله ﷺ ، فضرب بهم المثل فى البر بالوالدين، وبخاصة الأم، أخص بالذكر منهم الخليفة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذى كان يتحسر على أنه ليس له أم يبرها، وعثمان بن عفان رضي الله عنه الخليفة – صهر رسول الله ﷺ – لم يتجرأ أن يرفع بصره إلى أن يلتقى ببصر أمه، تواضعًا لها وخشية من الله عز وجل؛ لأن الله حرم حدة البصر للوالدين، أيضًا حارثة بن النعمان رضي الله عنه الذى كان يطعم أمه، ويقوم على خدمتها ولا يراجعها فى كلام تقوله؛ خوفًا أن تتضايق أو تتذمر، والحسن بن على – رضى الله عنهما – كان يمتنع أن يجلس إلى مائدة

أمه؛ حتى يكون أسرع إلى تلبية حاجتها، ويقول فى ذلك: أخاف أن آكل معها فتقع عيناها على شيءٍ من الطعام وأنا لا أدرى، فتسبق إليه يدى فآكله.

وفى رحاب الهدى والإيمان يأخذ البر وجوهًا متعددة من: الإكرام والرعاية وحسن الصحبة، والعناية وجميل المعاشرة، وإظهار الوقار والاحترام للآباء والأمهات. كل ذلك فرضه الله عز وجل، وكلما ازداد إيمان المؤمن ازداد بره بوالديه.

وعلى الجانب الآخر نلمس تواضع أويس، حينما قال له عمر ﷺ: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ فرفض وفضل أن يكون فى عموم الناس، ولم يحب أن يتميز على أحد من أهل اليمن، أو من أقرانه، أو من أصحابه، وهو فى ذلك يتأسى بسيدنا النبى ﷺ، فقد كان رسول الله ﷺ لا يحب أن يتميز على أحد من أصحابه، بل حتى فى الأعمال الشاقة حينما كانوا فى صحراء وأرادوا أن يأكلوا، ووزع النبى ﷺ الأدوار فى العمل، اختار لنفسه أصعب وأشق الأعمال، فقال: «علىَّ جمع الحطب»، وكان إذا جلس إلى أصحابه جلس كأحدهم؛ فسيدنا أويس يتأسى هنا بسيدنا رسول الله ﷺ، لا يتعالى على إخوانه ولا يتمايز عليهم.

٤٨ - رقية عجــوز

عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود ﷺ قالت : كان عبد الله إذا جاء داره، فانتهى إلى الباب فتنحنح وأحدث صوتًا يعرف به كراهة أن يرى أمرًا لا يحبه من أهله.

تقول زوجه زينب : وإنه جاء ذات يوم، وعندى عجوز ترقينى من الحمرة (وهو مرض يصيب الجلد) فأدخلتها تحت السرير، فدخل ابن مسعود ﷺ فجلس إلى جانبى فرأى فى عنقى خيطًا.

فقال : ما هذا الخيط ؟!

فقلت : خيط رُقِىَ لى فيه.

فأخذه وقطعه؛ ثم قال : إن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك، ثم قال لى : إنما كان يكفيك أن تقولى مثل قول رسول الله ﷺ : «أذهب البأس، رب الناس، اشف وأنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا».

(*) أخرجه البخارى (٧/١٥٧، ١٧٣)، ومسلم فى «السلام» (٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩).

يقدم لنا هذا الموقف دروسًا نافعة فى الأخلاق والعقيدة منها :

أنه من سنة الهادى البشير سيدنا محمد ﷺ أن يُعْلِمَ الإنسان أهله قبل أن يدخل عليهم كى تتهيأ له زوجه فى الصورة التى يستحسنها ويحبها، فيكون هذا من دواعى زيادة الألفة، وتنمية المودة بينهما، وحتى لا يقع بصر الإنسان إذا دخل فجأة على شىء يكرهه من زوجه، فتنقص المودة، ويؤثر هذا على ما بينهما من ألفة، لذلك كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذا أتى منزله أعلم أهله وتنحنح قبل أن يدخل، وهذا أدب إيمانى رفيع أوصى به رسول الله ﷺ، وقد فعله رسول الله ﷺ، فقد كان حينما يعود من سفرٍ أو رحلة، أو غزوة ينزل فى أقرب مسجد من البيت ثم يرسل إلى أهله، ثم بعد ذلك يذهب إلى أهله. ولنا فى ذلك أسوة وقدوة فى سيدنا رسول الله ﷺ.

على الجانب الآخر، فقد قام ابن مسعود رضي الله عنه بالمعالجة لتنبيه زوجه إلى هذا الخطأ، فلما رأى ابن مسعود الرقية التى صنعتها العجوز لزوجه بدأ ينتقل بحال أهله إلى هدى سيدنا رسول الله ﷺ، فكان منه المسارعة والمبادرة إلى هدى النبى ﷺ، والدافع له فى ذلك هو أنه يخاف على أهله من إثم المخالفة وعقوبة المعصية، وهو سلوك إيمانى نابع من هدى القرآن الكريم لقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم/٦].

وأول حقوق المرأة على زوجها أن يُعَلِّمها أمر دينها، وأن يكون عونًا لها على الطاعة، وقد كانت معالجة ابن مسعود لهذا الموقف بحكمة إيمانية عظيمة، وذلك من خلال الحوار المقنع مع زوجه زينب، فقد وضح لها الحكمة من أخذه الخيط وتقطيعه، وذلك بقوله : «**وإن آل عبد الله لأغنياء عن الشرك**»، وهو فى هذا مستجيب لهدى رسول الله ﷺ فى قوله ﷺ : «**إن الرقى**

والتمائم والتِّوَلَة شرك »[١] ولعل من المفيد للقارئ هنا أن نوضح دلالات ألفاظ هذا الحديث لتحقيق الفائدة فيه :

التمائم : جمع تميمة، وهى الخرزات، كانت العرب يعلقونها على أولادهم، لتحفظهم من العين فى زعمهم، أى : الحسد .

التِّولة : بكسر التاء وفتح الواو ما يحبب المرأة إلى زوجها من السحر وغيره، وربما شغلت بعض النساء بهذه الأمور، وقول النبى ﷺ : «إن الرقى شرك »[١] . المقصود بالرقى هنا الرقية التى تتم بالاستعانة بغير الله ، وهذا هو المحرم من الرقية، أما الرقية الحلال فهى التى تكون بالقرآن الكريم، أو بما ورد من دعاء سيدنا رسول الله ﷺ فى صحيح السنة النبوية المطهرة، وهى التى نصح بها عبد الله بن مسعود امرأته بقوله : إنما كان يكفيك قول رسول الله ﷺ : « أذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك شفاءً لا يغادر سقمًا » .

لا شك أن هذه التربية الإسلامية تعمق صلة المؤمن بالعقيدة وتقوى معنى التوكل واليقين عند المؤمن، ولنا أسوة فى سيدنا رسول الله ﷺ حين يبين لنا أن الرقى المحرمة التى فيها استعانة بغير الله تعالى، تنافى التوكل على الله تعالي، وفى حديث التوكل، جاء فيه وصف لحال السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب .

قال النبى ﷺ فى وصفهم : « هم الذى لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون »[٣] .

وفى القرآن الكريم وفى السنة المطهرة ما يغنى عن هذا كله .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٠ / ٢٦٢) .
(٢) سنن أبى داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠) .
(٣) أخرجه البخارى (١٠ / ١٣٠، ١٣١)، ومسلم (٢٢٠) .

٤٩ - تزفزف من الحمى

دخل رسـول الله ﷺ ذات يوم على أم السـائب وهى تزفزف - أى : ترتعد- ؛ فقال لها :

«مالك يا أم السائب تزفزفين ؟!».

فقالت :

من الحُمَّى لا بارك الله فيها وأخزاها الله.

فقال ﷺ :

«يا أم السـائب لا تَسُبِّى الحُمَى ؛ فإنها تُذْهب خطايا ابن آدم كما يُذْهِب الكير خبث الحديد».

(*) أخرجه مسلم فى «البر والصلة» (ب ١٤ رقم ٥٣).

هذا الموقف ذو دلالة أخلاقية عميقة تتصل بجملة من أصول العقيدة، كانت أم السائب تزفزف، أى : ترتعد، وكان فى جوابها لرسول الله ﷺ ما يعبر عن ألمها من مرض الحمى، وبدرت منها عبارة لا تتناسب ولا تليق بإيمان المؤمن، لأن المؤمن يعلم ويوقن أن الأمور لا تؤثر بذاتها، وإنما التأثير لقضاء الله وقدره، فلمَ التعجل بسبِّ الحمى أو بسب المرض عامة، أو بسبِّ الأيام أو بسبِّ الزمن، أو بسبِّ أى حدث من أحداث الحياة ؟! وفى الحديث : قال النبى ﷺ : «إن الله يقول : يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر»[١].

أى أن المؤثر فى أحداث الحياة هو قضاء الله وقدره، فأم السائب هنا لم تنتبه لهذا المعنى وسبَّت الحُمى، فوجهها النبى الأمين معلم البشرية ﷺ ألا تفعل ذلك، وبيَّن لها الحكمة من وراء عدم سب الحمى.

وقد أرشد النبى ﷺ فى حديث من أحاديثه إلى أن المؤمن دائمًا أمره خير، إذا أصابته سراء كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء أيضًا كان خيرًا له، لأن فى كليهما الخير والثواب، فهو الرابح فى النهاية وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن.

فالحقيقة أن هذا الموقف يعلمنا ويهدينا إلى أن ما صدر من أم السائب من سبّ ولعن للحمى أسلوب لا تقبله أخلاق الإسلام، موضحًا أن تحمل الإنسان فى صبر وجلد من مكفرات الذنوب، وليس هناك مسلم يستغنى عن مغفرة الله وعفوه عن ذنوبه، فالحمى فى حقيقتها بمثابة من يحسن إلى المحموم؛ حيث تكون سببًا فى تكفير ذنوبه وفى تحصيل عفو الله سبحانه وتعالى، ومن هنا ينبغى للمؤمن أن يتيقن أنه لن يتحصل على عفو الله إلا بالرضا بقضاء الله وقدره، فإن تبرم أو تضجر أو تأفف أو أظهر عدم الرضا، فالخسارة خسارته، أولاً الخسارة المعنوية؛ مما يترتب على شدة التبرم والألم

(١) أخرجه البيهقى (٣/ ٣٦٥).

فى الدنيا، وزيادة المرض، وزيادة الإحساس به، والخسارة يوم القيامة، فهو خاسر لثواب الله، ولعفو الله سبحانه وتعالى.

وهذا لا يعنى أن الإنسان لا يحاول إن كان مريضًا أن يدفع المرض أو يحاول العلاج، أو يأخذ دواء، لأن هذا له أصل آخر من أصول الإيمان نبه عليه سيدنا رسول الله ﷺ فى حديثه الذى يقول فيه : « تداووا عباد الله فإن الله خلق الداء وخلق له الدواء »[١]؛ فإذا كان الصبر وسيلة لتحمل آلام المرض وتخفيفها من الناحية المعنوية؛ فالدواء وسيلة أخرى لتخفيف هذه الآلام من الناحية المادية، وهذا من عظمة الإسلام حين يراعى هذه الجوانب ويكون التكامل بينهما.

يبقى لنا من هذا الموقف جانب من الأدب النبوى الذى أرشد إليه النبى ﷺ وهو ألا يسب الإنسان المرض، لماذا ؟!

لأنه إذا تدبر الإنسان وتأمل هذه المسألة وجد أنه من العبث واللغو أن يشغل المريض نفسه بسب المرض، ولعن الألم، لأن الألم فى حقيقته رحمة من الله تستوجب الشكر وتستبعد اللعن؛ فالمريض لا يستدل على وجود المرض إلا بالألم، فالألم فى حقيقته يشير إلى حقيقة العلة التى يعانيها المريض، كى يبحث عن العلاج والدواء، هذا فضلاً عن دور الألم فى تحريك إحساسنا ومشاعرنا نحو المرضى كى نتعاطف معهم ونكون عونًا لهم.

---

(١) رواه أحمد فى المسند (ح ١٧٩٨٦)، وأبو داود (رقم ٣٨٥٥)، والترمذى (رقم ٢٠٣٨)، وصححه ولفظه : « يا عباد الله تداووا ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له شفاء إلا داءً واحدًا ، قالوا : وما هو ؟ قال : الهرم ».

٥٠ - من فقه الضروريات

أخذ المشركون عمار بن ياسر رضي الله عنه فلم يتركوه حتى نال من رسول الله ﷺ وذكر آلهتهم بخير.

فلما أتى النبى ﷺ قال له :

ما وراءك يا عمار ؟

قال عمار :

شرٌّ يا رسول الله ، ما تركونى حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير.

قال النبى ﷺ :

«كيف تجد قلبك ؟»

قال عمار :

مطمئن بالإيمان.

قال النبى ﷺ :

«فإن عادوا فَعُد».

(*) انظر أسباب النزول للواحدى، ص ١٦٢.

هذا الموقف أنزل الله فيه قرآنًا يُتلى، يعلمنا فقه الضرورات، وكيف أن المسلم ينبغى أن يكون مرنًا يتفادى الضرر. وقد اعتمد النبى ﷺ هذا الفهم وأرشد إليه عمار بن ياسر؛ ليمحو مشاعر اللوم والتبكيت التى كانت تملأ نفسه؛ بسبب اضطراره لأن ينال من رسول الله ﷺ بالقول كى يسلم من أذى المشركين وينجو من كيدهم له. فبيَّن له النبى ﷺ أن الكلام الذى خرج منه فى حال الاضطرار لا يؤاخذه الله عليه، وإنما الاعتبار والمؤاخذة تكون على ما يعتقده الإنسان بقلبه.

ولا شك أن هذا الموقف يُبصِّر المؤمن بفقه الضرورات، وفى القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة/١٧٣].

لكن ينبغى أن يعلم المؤمن أن الضرورة تُقدَّر بقدرها، ولا يجوز للإنسان أن يتمادى أو أن يبالغ؛ فأكل الميتة مثلاً مباح عند الضرورة، وهى خوف الموت جوعًا، لكن يأكل الإنسان منها بقدر ما يبقى على حياته فقط.

أما عن القرآن الذى نزل بشأن هذا الموقف بين عمار وسيدنا رسول الله ﷺ، فهو قول الله تعالى: ﴿**إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ**﴾ [النحل/١٠٦].

ويعبر رسول الله ﷺ بأن ما ذهب إليه عمار من دفع الأذى والضرر عن نفسه لون من الرشد فى الفهم، فقد أخرج الترمذى عن عائشة - رضى الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما خُيِّر عمار بين أمرين إلا اختار أرشدهما»(١).

---

(١) أخرجه الترمذى (رقم ٣٧٩٩)، والحاكم (٣/٣٨٨).

ومن دلالات هذا الموقف : أن العبرة ليست بالألفاظ والكلمات، وإنما العبرة بحقائق الأشياء. وقد نبهنا النبى ﷺ إلى هذه الحقيقة حين وضح لنا أن قومًا يستحلون الخمر يسمونها بغير اسمها[١]، قال ﷺ :

«إن قومًا من أمتى يستحلون الخمر، يسمونها بغير اسمها»، فتغيير الأسماء والكلمات لا يغير من الحكم على حقيقة الأشياء.

أيضًا فى هذا الموقف: بيان أن أسلوب السيطرة على الإنسان عن طريق الجسد بتعذيبه أو ضربه سيطرة ضعيفة واهية لا تُغَيِّر منه تغييرًا حقيقيًّا، وقد لجأ الكفار إلى هذا الأسلوب مع المسلمين بالتعذيب والإهانة والقتل، وفى المقابل نجد النبى ﷺ يسلك سبيل السيطرة على العقل والقلب من خلال الخطاب الفكرى وخطاب المشاعر بآيات الله تعالى.

وفى هذا أسوة حسنة للدعاة أن يتوجهوا بدعوتهم إلى مخاطبة العقل والقلب؛ لأن هذا الأسلوب له ثمرة طيبة فى التغيير والتحول بالإنسان من الشر إلى الخير.

(١) رواه النسائى (٨/٢١٣)، وابن ماجه (٣٣٨٥).

٥١ - من أدب الاختلاف

عندما أمر رسول الله ﷺ المجاهدين الخارجين من المدينة ألا يصلوا العصر إلا فى «بنى قريظة»، تأوَّل بعضهم الأمر على أن ذلك حثٌّ على الإسراع فى السير، ولما أدركهم العصر وقفوا وصلوا فى الطريق. فى حين وقف البعض الآخر عند ظاهر النص وانتظروا حتى وصلوا.

ولما عُرِض الأمر على الرسول ﷺ قَبِلَ فهم الفريقين، ثم صفَّهم بإزاء العدو جيشًا واحدًا.

(*) أخرجه البخارى (٢/١٩، ٥/١٤٣)، ومسلم فى «الجهاد» (باب ٢٣ رقم ٦٩).

هذا الموقف العظيم يحمل دلالات متنوعة، أهمها هذا الفقه الذى يقدمه لنا رسول الله ﷺ؛ ليكون أسوة لنا فى علاج الخلاف العلمى، وجمع المؤمنين صفًّا واحدًا أمام عدوهم، فقد جمع الله بين أتباع هذا الدين بروح الأخوة، فلا تناحر ولا شقاق. قال الله تعالى: ﴿**وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا**﴾ [آل عمران/١٠٣].

وأخوة الدين تفرض التناصر بين المسلمين لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وهل هان المسلمون أفرادًا وأممًا إلا حين وهنت وضعفت أواصر الأخوة بينهم، وشاع بينهم الخلاف والتنافر والتدابر؟! وحسبنا أن نتأمل كيف أن أواصر الأخوة فى الله هى التى أقامت هذا المجتمع الإيمانى فى المدينة أول مرة، وعليها اعتمد رسول الله ﷺ فى تأسيس أمته.

ويزكى الخطاب القرآنى روح الجماعة فى الأمة، حيث وجَّه الخطاب إلى الجماعة فى كل الأوامر والنواهى الواردة، من ذلك قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾، تكررت فى سياق التشريع القرآنى للأمة، وفى الدعاء: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ [الفاتحة/٥:٦].

وفى السنة النبوية ما يؤكد هذه الحقيقة، حيث أرشدنا النبى ﷺ إلى أن نعمِّم فى الدعاء ولا يكون الدعاء خاصًّا بالإنسان الفرد فقط، وزكى الإسلام فى أتباعه روح العمل الجماعى ونهاهم عن التفرق والتمزق؛ كى لا يكونوا فريسة سهلة لأعدائهم.

من ذلك قوله ﷺ: «الشيطان يَهُمُّ بالواحد والاثنين، فإذا كانو ثلاثة لم يَهُمُّ بهم»(١). وقوله ﷺ: «يد الله على الجماعة، ومن شذَّ شذَّ فى النار»(٢).

٥٢ - من حقوق إخوة الإيمان

كعادة عمر بن الخطاب ﷺ أنه كان يتتبع أخبار الرعية، وكان له صديق من أهل الشام يزوره كل عام، فلما غاب عن موعد زيارته، سأل عمر أصحابه : ما فعل فلان ابن فلان ؟

قالوا له : يا أمير المؤمنين لقد تتابع هذا الرجل فى شرب الخمر. فدعا عمر كاتبه وأملى عليه هذه الرسالة :

«من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام الله عليكم، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو، غافر الذنب ، وقابل التوب، شديد العقاب، ثم قال عمر لأصحابه : ادعوا الله لأخيكم بالتوبة.

فلما بلغت الرسالة الرجل جعل يرددها ويقول : غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذّرنى ربى عقوبته، ووعدنى أن يغفر لى. وتاب الرجل وحسنت توبته.

(*) عبقرية عمر، ص ٦٩.

ما أكرمه من موقف عُمرى يفيض بالحكمة ويتسم بالبصيرة، فسيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يستشعر أمانة المسئولية، ويدرك أن كل من ولى من أمر المؤمنين شيئًا فى أى موقع أو عمل؛ فقد جعله الله تعالى راعيًا لهم قائمًا على شئونهم، وأن الله تعالى سيحاسبه على هذه المسئولية، وفى الحديث النبوى الشريف : « كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته : الأمير راع، والرجل راع على أهل بيته، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته »(١).

لذلك رأينا أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يداوم على تتبع أحوال الرعية.

ودرس آخر يستفاد من هذا الموقف وهو : أن المؤمن الصادق لا يترك صاحبه فى شدته، وأخطر الشدائد الوقوع فى معصية الله تعالى. وفى الحديث النبوى الشريف : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا »، فقال الصحابة : ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا ؟!

فقال صلى الله عليه وسلم : « تحجزه عن المحارم »(٢).

وفى الموقف نرى سيدنا عمر يسارع بأمرين :

الأول : بذل النصيحة كتابة لبعد المكان بينهما، مستعينًا فى نصيحته بهدى القرآن الكريم، فهو خير سبيل للداعية وأصدق منبع لكل مصلح.

الثانى : هو طلب الدعاء من الصالحين الحضور لأخيهم الذى أسرف على نفسه، ووقع فى شرب الخمر، أن يمن الله عليه بالتوبة الصادقة، وفى هذا بصيرة إيمانية من سيدنا عمر رضي الله عنه، ففى الحديث النبوى الشريف : « دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة »(٣).

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه البخارى (١٢/٣٣٨/ ح ٦٩٥٢ مع الفتح).
(٣) أخرجه مسلم فى «الذكر والدعاء» (ب ٢٣ رقم ٨٨).

وكما رأينا فى الموقف، فقد استجاب الله تعالى لهذه الدعوات الصالحة، ونفع الله بهذه الرسالة العمرية الحكيمة الهادية.

فما أن بلغت الرسالة الرجل حتى وقعت فى قلبه وجعل يرددها، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب، قد حذرنى ربى عقوبته، ووعدنى أن يغفر لى، وتاب المذنب وأصبح فى صفوف الصالحين.

٥٣ - توفيق الله لك

روى أن الحكيم الترمذى رأى عنده تلميذًا معجبًا بنفسه مفتونًا بعمله، لا يكف عن مدح نفسه وتزكيتها.

فاعترضه الحكيم الترمذى، وقال له :

يا ولدى نظرت إلى عملك، ولم تنظر إلى توفيق الله لك سبحانه.

(*) العبادة والعباد، ص ٥٩.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية، من أهمها: معالجة إعجاب المرء بنفسه، حين يفخر على إخوانه بأعماله، ويفتن بنفسه، وهى حالة متكررة شائعة بين الناس. والمسارعة بتزكية النفس، والإعجاب بها من أشد أمراض القلوب إهلاكًا؛ لأنها تُورِّث الغرور، والغرور مقبرة النجاح.

ومن هدى القرآن الكريم ألا نسارع بتزكية أنفسنا؛ لأن الله سبحانه وتعالى وحده هو العليم بحال أمورنا، قال الله تعالى: ﴿ **فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ** ﴾ [النجم/ ٣٢].

وما يتمتع به الإنسان من نعم، هى فى حقيقتها من فضل الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل/ ٥٣]، وما فيه الإنسان من صلاح وفلاح ليس لأنه متميز على الناس، فكلنا لآدم وآدم من تراب، والحق أن هذا الصلاح وذلك الفلاح من فضل الله وتوفيقه، قال الله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا** ﴾ [النور/ ٢١]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود/ ٨٨].

والعبد الموفق من الله ينسب الفضل لصاحب الفضل وهو الله رب العالمين؛ فيقول كما قال سيدنا سليمان - عليه السلام -: ﴿ **هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ** ﴾ [النمل/ ٤٠]، وحكى القرآن الكريم حال الصالحين حينما يفعلون الخيرات، وكيف أنهم لا يعرفون التباهى بها، أو الإعجاب بشأنها بل يخافون أن يكون قد دخلها رياء أو نقص ولقد سألت السيدة عائشة - رضى الله عنها - رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون/ ٦٠].

قالت : يا رسول الله، هل هو الرجل يسرق ويزنى ويفعل السيئات، ويخاف إن رجع إلى ربه أن يعاقبه على هذه السيئات؟ فقال النبى ﷺ : «لا يا عائشة بل هو الرجل يقوم ويصلى ويفعل الخيرات ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه ذلك.. يا عائشة أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون»[١]، وهكذا يظهر لنا من موقف الحكيم الترمذى أنه نبه هذا الرجل إلى هذه العلة الخطيرة وهى ألا يفتن المرء بعمله وألا يعجب بنفسه، بل على الإنسان أن ينظر إلى توفيق الله وإلى فضل الله، وإلى نعم الله، ونعم الله - عز وجل - تستوجب الشكر لا الإعجاب والغرور.

وفى صدر هذا الموقف نتعلم حقيقة ينبغى أن ينتبه إليها كثير من الدعاة، وهى أنهم عندما يرون عيبًا ما فى شخص يُقبل على العلم ويُقبل على الدين، فمن واجبهم أن يوجّهوا هذا الإنسان إلى خطورة هذا المرض أو هذا العيب أو هذا الداء الذى تمكن منه. فالمعلم أو الأستاذ أو الداعية ليس واجبه فقط أن يقدم أدبًا وخلقًا وتربية لتلاميذه وإلى طلبة العلم عنده، ومن هنا كان واجب العالم أن يكون أسوة وقدوة فى البداية، ثم بعد ذلك من واجبه هذا البناء الإيمانى، وهذا الإيمان الفكرى فى رحاب القرآن والسنة، لكل طالب علم؛ حتى يواكب هذه المعارف لون من الأدب النبوى ولون من الخلق القرآنى الذى يصاحب هذه المعارف؛ كى تكون نافعة لصاحبها، وكى تكون مقبولة عند الله عز وجل.

وأعتقد أن هذا الموقف يوضح أن الحكيم الترمذى كان طبيبًا بالنسبة لهذا التلميذ الذى قد تمكن داء العُجب وداء الكبر منه، وهذا مرض خطير إذا تمكن من الإنسان جعله ينسب كل شيء إليه، وينسى فضل الله عليه، ولا

---

(١) سبق تخريجه

شك أن أمراض القلوب من أخطر الأمراض التى يتعرض لها المبتدئ بالعلم ويلبس إبليس على طالب العلم بهذه الأمور؛ حتى يفسد عليه ثواب العلم، وثواب البحث، وثواب طلب العلم، ومن هنا لا يتنبه إلى هذه الأمراض الخفية إلا العالم الفاهم الراعى الناضج الذى يبصر بعين الخبرة، ويبصر بعين الله عز وجل هذه العلل الخفية فى طلبته، حتى يوجه ويغير بهدى سنة رسول الله ﷺ.

وفى ضوء هذا الموقف يمكننا أن نتطرق إلى حقيقة مفادها، أنه إذا كان الطبيب من واجبه أن يعالج الأمراض الظاهرة، فمن واجب الحكيم والعالم أن يعالج أمراض النفس الخفية.

٥٤ - معروف الكرخى يدعو للعصاة

كان معروف الكرخى قاعداً على نهر دجلة، فمر به شباب فى مركب يضربون الملاهى ويشربون الخمر.

فقال أصحاب معروف الكرخى له :

هؤلاء يعصون الله فادعُ عليهم.

لكن معروفًا رفع يديه، وقال :

اللهم أسألك أن تفرحهم فى الآخرة كما فرحتهم فى الدنيا.

فاعترض أصحابه عليه، وقالوا له :

إنما قلنا لك ادع عليهم وليس لهم.

فقال معروف :

إذا فرحهم الله فى الآخرة تاب عليهم فى الدنيا، وأصلحهم ، ولم يضرهم بشىء.

(*) حلية الأولياء ، ترجمة معروف الكرخى.

في هذا الموقف دلالات هادية، هي منهج تربوى في الإصلاح:

أولى هذه الدلالات: أن الدعاء على المخطئ لا يصلح، وإنما إعانة المخطئ على التوبة والإقلاع عن المعصية هو الدليل القويم للإصلاح والتربية، وينبغي على العاقل ألا يكون ساخطًا ناقمًا فقط على الظواهر السلبية من حوله، بل يهتم بالعلاج متأسيًا بهدى سيدنا رسول الله ﷺ حين قال: «سددوا وقاربوا»(١). والقدوة الصالحة في سيدنا رسول الله ﷺ، صاحب الخلق العظيم الرءوف الرحيم بأمته، فحين دعا أهل الطائف، وبالغوا في إلحاق الأذى به تضرع إلى ربه، ونزل سيدنا جبريل -عليه السلام- يعرض عليه أن يطبق على الكفار الجبلين، وأن يهلكهم، فقال النبي محمد ﷺ: «لا يا أخى يا جبريل لعل الله أن يجعل في أصلابهم ذرية توحد الله»(٢).

ولم يتعجل سيدنا رسول الله ﷺ الدعاء عليهم، بل كان من خلقه العظيم أنه ادخر دعوته المستجابة شفاعة لأمته يوم القيامة، وفي القرآن الكريم منهج قويم في مقابلة السيئة بالحسنة، ويبين القرآن هذا الأثر العظيم، وهذه النتيجة التي ينتظرها الإنسان المؤمن حين يقابل السيئة بالحسنة، واستمع إلى قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ [فصلت/٣٤]، هكذا تنقلب العداوة إلى مودة حين تقابل السيئة بالحسنى.

ثاني هذه الدلالات: أن الاشتغال بالدعاء على العصاة والاشتغال بإدانتهم إنما هو لون من مساعدة الشيطان وتقديم العون لإبليس كي يسيطر عليهم، ولكن الصواب أن الاشتغال بالدعاء لهم، والإعانة لإصلاح المخطئ فيه ثواب

(١) أخرجه البخاري (١/١٦)، (٨/١٢٣).
(٢) سبق تخريجه.

من الله عز وجل، كما أنه يخشى على من يشتغل بالدعاء على غيره أن تقع منه شماتة؛ فيعاقبه الله عز وجل، ولنا فى الحديث الذى رواه مسلم عبرة وعظة. قال رجل فى عهد سيدنا محمد ﷺ : والله لا يغفر الله لفلان. فقال الله عز وجل لسيدنا النبى ﷺ : «من ذا الذى يتألى علىَّ - أى من ذا الذى يحلف على الله عز وجل ألا يغفر لفلان - يا محمد قُلْ له إنى قد غفرت له وأحبطت عمله»[١]، فأبلغه النبى ﷺ .

وهنا تحذير من الله تعالى، يبلغه لنا رسول الله ﷺ بأن الاشتغال بالتغالى بالحكم على الناس وإساءة الظن بهم، واستعجال العقوبة لهم، ربما أصاب الناس بإحباط العمل واستعجال العقوبة من الله عز وجل عليه لا على من دعا عليه، بل الصواب أن يشتغل الإنسان بالدعاء بالإصلاح والهداية ونحو ذلك.

إذًا فواجب الداعية أن يأخذ بيد المخطئ أو بيد العاصى حتى ينقذه إلى بر الأمان.

(١) أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث ابن مسعود ، قاله الزبيدى فى شرح الإحياء (٩/١٨٨).

٥٥ - نصيحة أم توبيخ ؟!

كـان الإمـام الشـافعى - رحـمـه الله - فى مـجلس علم يُعلِّم الناس، فـاعـتـرضـه رجل بـكلام غليـظ يتـتـبع فـيـه الهفوات.

فقال له الشافعى معلمًا :

تَعَـهَّـدْنى النصـيـحـةَ فى انْفـرادٍ

وجنِّبـنى النصـيـحـةَ فى جَـمَـاعَـةْ

فـــإنَّ الـنَّصـحَ بـيـنَ الـنَّـاسِ لوْنٌ

من التـوبيـخ لا أرضَى سَــمَــاعَــهْ

(*) راجع ديوان الإمام الشافعى / قافية الهاء.

هذا الموقف فيه تربية كريمة وتوجيه لسلوك المؤمن تجاه ما يسمو به، فلا ينبغي أن يقف المؤمن عند الهفوات، وإنما سبيل المؤمن أن يصطفى أحسن ما قيل، امتثالاً بهدى القرآن الكريم حين مدح عباده الفائزين بهداه، قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر/١٨].

فى هذه الآية يقول ابن عباس رضي الله عنهما :

هو الرجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ ، فيحدث بأحسن ما سمع، ويكف عما سواه؛ وذلك لأن المؤمن حريص على فعل ما هو أكثر ثوابًا عند الله عز وجل، ولا ينشر إلا الخير.

ولقد روى الطبرانى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إن أحبكم إلىَّ أحاسنكم أخلاقًا الموطأون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلىَّ المشاءون بالنميمة، المفرقون الأحبة، الملتمسون للبرءاء العيب»، وهكذا نرى أن التماس العيوب للغيبة ومحاولة تتبع الهفوات والاشتغال بها سلوك نهى عنه الرسول ﷺ وتأسى الإمام الشافعى فى موقفه بسنة رسول الله ﷺ .

وفى الحديث أن النبى ﷺ قال: «إن من أحبكم إلىَّ وأقربكم منِّى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن من أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون». قالوا : يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال ﷺ : «المتكبرون»[١].

وفى هذا الموقف أيضًا نتعلم أدبًا كريمًا من آداب النصيحة، وهو تجنب تقديم النصيحة فى ملأ من الناس؛ لأن فى ذلك إساءة للمشاعر، ونوعًا من التوبيخ نهى عنه رسول الله ﷺ ، كما أن المراد بالنصيحة هو الإصلاح، وليس

(١) مجمع الزوائد للهيثمى (٨/٢١).
(٢) أخرجه الترمذى (٤/٣٧٠/ح ٢٠١٨)، وقال: حسن صحيح.

التعالى أو التفاخر بالعلم، أو إعلام الناس بهفوة هذا أو سقطة هذا.

روى البخارى فى الأدب المفرد من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيه عيبًا أصلحه»[١]، يضاف إلى ما سبق أن تقديم النصيحة فى ملأٍ من الناس فيه فتنة للناصح، فربما دخله شىء من الزهو أو الافتخار. والأسوة الحسنة والقدوة الصالحة لنا جميعًا فى تقديم النصيحة هو سيدنا رسول الله ﷺ فكان ﷺ إذا أراد أن يصحح أمرًا أو ينصح أحدًا، قال ﷺ: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا»[٢] ولا يخصص أحدًا بعينه.

هذا ما تعلمناه فى هذا الموقف، وهو أن النصح على الملأ قد يصادر المشاعر الإنسانية، ويجعلها تنفر وتضيق بالنصيحة ولا تتقبلها، أما النصح فى السر فيعد لونًا من ألوان الهداية والمحبة بين الناس.

فإبداء النصيحة على الملأ يأتى بنتيجة عكسية، ولا ينال الناصح من المنصوح إلا الإعراض، وجرح المشاعر، ونحو ذلك من الأمور التى لم تكن من هدى النصيحة، ولم تكن من قصد النصيحة، وإنما حين تكون النصيحة فى حدود الانفراد بين الناصح والمنصوح بعيداً عن الناس، فإنها تحقق النتيجة المرجوة، وبعيداً عن الرياء أيضًا، ويجد المنصوح سبيلاً ليتفهم الخطأ أو العيب الذى وقع فيه، ويعود عنه، أما حين تنصح الإنسان المذنب أو المخطئ فى ملأ من الناس؛ فإن الشيطان يتخذ ذلك وسيلة ليعلى من مشاعر التعظيم للنفس، وتنعكس النصيحة.

والأمر الثانى: أن الإخلاص فى تقديم النصيحة يجعلنا نبتعد بالنصيحة عن الشهوة وعن الملأ وكل هذه الأمور التى يُخشى أن يدخل الرياء فى قلوب الناصحين بسببها.

اللهم أدبنا بأدب القرآن وخلقنا بخلق سيدنا محمد ﷺ

---

(١) رواه أبو داود (ح ٤٩١٨) والبيهقى (٣/٣٧٥). (٢) تكرر فى أكثر من حديث.

٥٦ - وبقيت أنا وأنت

دخلت أم سعد بنت سعد بن الربيع رضي الله عنه على أبي بكر الصديق رضي الله عنه فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه. فدخل عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال:

يا خليفة رسول الله، مَنْ هذه ؟

قال أبو بكر :

هذه بنت من هو خير مني ومنك.

قال عمر : من ؟!

قال أبو بكر :

رجل قُبِضَ على عهد رسول الله ﷺ، وتبوأ مقعده في الجنة، وبقيت أنا وأنت.

(*) ذكره ابن حجر في الإصابة (ج ٣ / ص ٧٧).

دلالات هذا الموقف تربى فينا خلق الوفاء وإعلاء شأن من ضحوا فى سبيل الله تعالى؛ بأن نكرمهم ونرعاهم فى أبنائهم وأسرهم.

وسعد بن الربيع أنصارى ﷺ، ومن الذين آووا ونصروا رسول الله ﷺ، وجاهدوا فى الله حق جهاده. ولقد افتقده الرسول ﷺ فى غزوة أحد وقال: من يأتى بخبر سعد بن الربيع، فبحث عنه أُبىّ بن كعب فوجده بين الشهداء وبه رمق الحياة، فقال له أُبىّ: بعثنى إليك رسول الله ﷺ. فقال سعد: أقرئه منى السلام، وأخبره أنى قد طُعنت اثنتى عشرة طعنة، وأنى قد أنفذت مقاتلى – أى قتلته – وأخبر قومك يا أُبىّ، أنهم لا عذر لهم عند الله تعالى إن قُتل رسول الله ﷺ وواحد منهم حى. ثم فارقت روحه جسده ﷺ.

فلما بلغ النبى ﷺ خبره ومقالته أثنى عليه خيراً، وتلا قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران/١٦٩].

لذا كان سيدنا أبو بكر ﷺ يكرم سعد بن الربيع فى أولاده، وفاءً له بما ضحى وقدم، فقيمة المرء فى قدر عطائه وتضحيته من أجل أمته ودينه ومقدساته.

ودلالة أخرى فى هذا الموقف تلمح من قول أبى بكر ﷺ لعمر ﷺ عن سعد بن الربيع الأنصارى الشهيد: رجل قبض على عهد رسول الله ﷺ وتبوأ مقعده فى الجنة، وبقيت أنا وأنت.

فمع مكانة سيدنا أبى بكر ﷺ وقربه من الله ورسوله ونزول آيات القرآن الكريم تزكيه، وبشرى رسول الله ﷺ له بأنه من أهل الجنة، مع هذه المكانة السامية فى منازل المقربين والسابقين، نجد فى هذا الحذر الذى يخالطه

التـواضع من سيـدنا أبي بكر رضي الله عنه ؛ فهو لا يرى نفسه خيرًا من غيره من الصحابة، وبخاصة أولئك الذين استشهدوا وكان لهم حسن الخاتمة، في حين أنه ما زال في دار الاختبار والفتن، وهذا حال من مدحهم الله في قرآنه بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٦٠ : ٦١].

أيضًا هناك دلالة تستفاد من هذا الموقف، وهي أن العبرة بالخواتيم، فقد خُتم لسعد بن الربيع بالشهادة في سبيل الله وحاز المنزلة العالية في الجنة في حين أن من لا يزال حيًّا يرزق في الدنيا فهو لا يدري بماذا يختم له، وهل سينال الشهادة أم لا ؟

ومن دعاء الحبيب المصطفى ﷺ : «اللهم اجعل خير عمري آخره وخير أيامنا يوم لقائك»[١]، وقال ﷺ : «إنما الأعمال بالخواتيم»[٢].

وهذا يحمل المؤمن على مواصلة التقرب إلى الله، عملاً بقول الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر/٩٩] أي : حتى يأتيك الموت، وتكون الخاتمة. فمن خُتم له بخير كان من الصالحين.

نسأل الله تعالى أن يجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائه.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط وفيه أبو مالك النخعي وهو ضعيف، قاله الهيثمي في المجمع (١٠/١١٣)

(٢) رواه البخاري (٨/١٥٥).

٥٧ - هكذا تُمحق بركة الوقت

شكا أحد طلاب العلم إلى أستاذه وشيخه سرعة انقضاء الوقت دون إنجاز عمل، فقال له شيخه :

لعلَّك تؤخر صلاة الصبح إلى ما بعد شروق الشمس؛ فالوقت يبارك فيه بطاعة الله، وتمحق بركته بمعصية الله.

(*) الغزالى فى الإحياء ١ / ٣١٠.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية منها :

الدلالة الأولى : إحساس طالب العلم بسرعة مرور الوقت، دون أن ينجز شيئًا ينتفع به فى دنياه أو آخرته.

هذا الإحساس يدل على يقظة الطالب وحرصه على وقته، وهكذا شأن المؤمن حريص على وقته وعمره؛ لأنه يصغى إلى قول النبى ﷺ : «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسألَ عن أربع: عن عمره فيمَ أفناه، وعن شبابه فيمَ أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيمَ أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»(١).

الدلالة الثانية : بصيرة الشيخ وإدراكه – بتوفيق الله له – سبب هذه الظاهرة . وليس فيما قاله الشيخ رجمًا بالغيب، ولكنه لمَّا عَرَض هذه الظاهرة على القرآن والسنة وجد لها تفسيرًا وتعليلاً فى قول رسول الله ﷺ، فذكره الشيخ ولم يجزم؛ فلعلَّ سببًا آخر كان وراء محق بركة الوقت، فكان توفيق الله تعالى للشيخ فيما اختار من سنة رسول الله ﷺ .

والحديث الذى أشار إليه الشيخ فى جوابه هو موقف سيدنا رسول الله ﷺ من السيدة عائشة – رضى الله عنها – لمَّا رآها قد نامت حتى شروق الشمس دون أن تصلى الصبح . فقال لها :

«قومى اشهدى رزق ربك ولا تكونى من الغافلين؛ فإن الله يُقَسِّم أرزاق الناس ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»(٢).

ومعلوم أن الجادين والكُسالى يتمايزون فى هذا الوقت، فيُعطى كل امرئٍ حسب استعدادهِ من خير الدنيا والآخرة.

أيضًا يرتبط جواب الشيخ مباشرة بالحديث النبوى الذى دعا فيه النبى ﷺ للمبكرين بالبركة. وهو قوله ﷺ : «اللهم بارك لأمتى فى بكورها»(٣).

---

(١) سنن الترمذي (٢٤١٧).
(٢) أخرجه البيهقى، راجع الترغيب والترهيب (٢/٥٣١).
(٣) رواه الترمذى (ح ١٢١٢)، وأبو داود (ح ٢٦٠٦).

الدلالة الثالثة: بيان الشيخ للقاعدة العامة لمحصول الانتفاع بالأوقات وربطه بالطاعة، وعدم الانتفاع بالأوقات وربطه بالمعصية. وهذا فى إطار حديث رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان فتكون السنة كالشهر، والشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم، ويكون اليوم كالساعة، وتكون الساعة كالضَّرمة من النار»[١].

وهو من نبوءات النبى ﷺ حيث تمحق بركة الوقت بسبب كثرة المعاصى.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٥٣٧)، والترمذى (ح ٢٣٣٢) وذكره الحافظ فى الفتح

٥٨ - أنا فجر جديد

اعتاد رجل تضييع أوقاته بين اللهو والكسل والخمول، وكان كلما حَدَّثَه أهله أن يُقلع عن حاله تلك التى خسر بسببها أعمالاً كثيرة وأرباحًا طائلة، قال لهم:

العمر طويل والأيام آتية وسوف أعمل.

فحضره الحسن البصرى ﷺ فاعترضه بقوله المأثور:

«يا هذا، ما من يوم ينشق فجره إلا نادى منادٍ: يا ابن آدم أنا خلق جديد، وعلى عملك شهيد، فاغتنم منى؛ فإنى لا أعود إلى يوم القيامة.

(*) ذكره ابن رجب فى (جامع العلوم والحكم) ص ١١٤٢.

هذا موقف فيه فقه ووعى بأهمية العمر والزمن، ويوضح أهمية عمارة الأوقات بصالح الأعمال، والمتأمل لأيام العمر وكيف مضت، وكيف أن عامة الناس يحسبون أعمالهم بالأيام والشهور والسنوات، فى حين أن المقابل أن أهل الحكمة والصلاح يحسبون أعمارهم بقدر ما ينجزون بها من أعمال عظيمة تنفع فى دنياهم، وخيرات يثابون عليها فى أخراهم، والمتأمل لأيام العمر يدرك هذه الحقيقة التى أشار إليها الحسن البصرى، وهى أن كل شىء يفقده الإنسان يتعلق بعودته أمل إلا العمر، فإنه إن مضى لا يعود أبداً، فكل لحظة من لحظات الحياة نعمة أنعم الله بها على الإنسان، وهى فرصة لإنجاز الخيرات، وفعل الصالحات.

وأيضًا يشير الموقف إلى تعطيل عمارة الأوقات بالعمل الصالح ويأتى فى قمة هذه المعطلات تلك العادة التى استحكمت فينا، إنها عادة التسويف والتأجيل لما يطلب إنجازه من أعمال، لا لسبب سوى التكاسل والتراخى، وتضيع آلاف الساعات وتفقد عشرات الأيام دون إنجاز عمل، ونحن نسمع فى مجتمعنا المعاصر من يؤجل فعل خير أو ترك منكر إلى أيام قادمة كقولهم: من أول الشهر سأصلى، من أول الأسبوع سأستذكر، حين تتحول أحوالى سأقلع عن التدخين، أو سأتصدق ... إلى آخر هذه الأمور التى هى من وسوسة إبليس وخداعه للإنسان.

فالحكمة تقول: «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد»، فالتسويف يؤدى إلى تراكم الأعمال على الإنسان وإلى عدم قدرته على إنجازها فيما بعد، ولا شك أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد علَّما المؤمن أن يوزع الأعمال على الأوقات، كما وزع الله الصلوات الخمس على الأوقات، ووزع أعمالاً كثيرة على وقت المسلم اليومى فى ليله وفى نهاره، وليتنا نتعلم هذا السلوك

الإيمانى فى حياتنا العملية، وأنه مع التسويف تضيع خيرات كثيرة، والقرآن الكريم ينقلنا من هذا التراخى وذلك التسويف إلى الجدية والمبادرة لفعل الخيرات والمسارعة إلى الصالحات، قال الله تعالى :

﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البقرة/١٤٨].

ويقول الله تعالى :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران/١٣٣]،

ويقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة/٩].

فتأمل أيها المؤمن قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا ﴾ .. وقوله : ﴿ وَسَارِعُوا ﴾ ، وقوله : ﴿ فَاسْعَوْا ﴾ وكلها أوامر تحث الإنسان على أن يسارع إلى فعل الخيرات وإلى هدى القرآن وإلى سنة رسول الله ﷺ، وفى الحديث النبوي الشريف يقول الرسول ﷺ : «بادروا بالأعمال سبعًا : هل تنظرون إلا فقرًا مُنسيًا، أو غنًى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مُفَنِّدًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال ؟! فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر»(١).

إن ظروف الغد والمستقبل ليست ملكًا لأحد، وأمرها إلى الله تعالى، لذا ينبغى اغتنام الفرصة التى بين أيدينا، والنبى ﷺ يقول : «اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك

(١) المستدرك للحاكم (٤/٣٠٦).

قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[١].

وفى الحقيقة إن كان الإنسان جاداً فى سيره إلى الله تعالى، فعليه أن يستعين بالله ولا يعجز، وليبدأ الآن وليس غداً، فالغد ليس ملكًا لنا، وقد أشار الحسن البصرى رحمه الله إلى ضرورة أن يسارع المؤمن إلى استغلال وقته والاستفادة منه فى فعل الخيرات، لأنه كما يقول الشاعر :

من كُلِّ شيءٍ إذا ضَيعْتَهُ عِوَضٌ ... وما من اللهِ إن ضيَّعتَهُ عِوَضُ

أى أن المؤمن يجب عليه أن يستغل وقته فى فعل الخيرات.

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/٣٠٦)، وأبو نعيم فى الحلية (٤/١٤٨)، وذكره الحافظ فى الفتح (١١/٢٣٥).

٥٩ - البيئة علم إسلامى

اعتاد رجل من السلف الصالح العناية بالطريق الذى أمام بستانه، فكان يُعْنى به بنفسه فيُنحِّى (يُبعد) الأحجار والشوك وما يلقى فيها من الفضلات والأذى، فقال له صاحبه:

لم تشغل نفسك بالطريق، فبستانك أولى باهتمامك!!

فقال له:

إن إزالة الأذى عن طريق الناس عمل صالح، فقد قال رسول الله ﷺ:

«بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخَّره، فشكر الله له، فغفر له».

(*) أخرجه البخارى (٢/١٦٣/ ح ٦٥٢ مع الفتح)، ومسلم (٦/١٦/١٧١).

هذا الموقف يربطنا بأدب إسلامى رفيع وخلق إسلامى قويم فى التعامل مع البيئة التى من حولنا، وينتفع الناس بها، سواء أكانت هذه البيئة طريقًا يسير الناس فيه أو شجرة يستظل الناس بها أو هواءً يستنشقه الناس، ونحو ذلك؛ حيث يتعامل المسلم مع هذه الأشياء على أنها نعم تفضل الله بها علينا.

وكى يستمر الانتفاع بهذه النعم شرع الله هديًا للتعامل مع البيئة يتركز فى محاور ثلاثة :

الأول : تشريع وقائى للبيئة :

فقد نهانا الله عن الإفساد فى الأرض، وعاقب المفسد فى البيئة فى الدنيا والآخرة، فأما العقوبة العاجلة فى الدنيا، فبالضرر الناتج عن الإفساد من التلوث ومسببات الأمراض، قال تعالى : ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ [الروم/ ٤١].

ومن هدى الإسلام الوقائى للبيئة نهى رسول الله ﷺ عن التغوط فى طريق الناس أو قطع شجرة يستظل بها الناس، وكذلك نهى الإسلام عن التلوث الصوتى، فقال تعالى : ﴿ **وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ** ﴾ [لقمان/ ١٩].

والقاعدة الإسلامية فى التشريع الوقائى هى قول رسول الله ﷺ : «لا ضرر ولا ضرار»[(١)]؛ فكل ما يتسبب فى إضرار الغير من أدخنة السجائر مثلاً أو عادم السيارات أو إلقاء الفضلات الضارة أو تلويث المياه الجارية، كماء النيل عندنا كل هذا منهىٌّ عنه فى القرآن والسنة كتشريع وقائى للبيئة.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١٣)، وابن ماجه (ح ٢٣٤٠).

الثانى : تشريع علاجى :

فكما أمرنا الله تعالى ألا نتسبب فى الإضرار بالبيئة وأن نحافظ عليها، فقد أمرنا أن ندفع الضرر عنها إذا تعرضت للعدوان من الغير، وجعل إزالة الضرر عن البيئة عملاً صالحًا ننال به رضا الله تعالى.

وفى الحديث النبوى الشريف، قال رسول الله ﷺ : « وتميط الأذى عن الطريق صدقة »[١]، ومن ذلك الحديث النبوى الذى ورد بالموقف، وهو قوله ﷺ : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخَّرَهُ فشكر الله له، فغفر له ».

الثالث : تشريع للتعمير :

ويظهر ذلك من خلال الترغيب فى الإضافة للبيئة ليكون الإنسان دعمًا لها لا عبئًا عليها، فالنبى ﷺ قال : « من غرس غرسًا أو زرع زرعًا، فأكل منه إنسان أو طير أو حيوان كان له به صدقة »[٢].

ومن الهدى النبوى المبارك قول رسول الله ﷺ : « إذا قامت الساعة، وفى يد أحدكم فسيلة، فليغرسها »[٣].

---

(١) أخرجه البخارى (٦/١٠٠/ ح ٢٨٩١ مع الفتح)، ومسلم (٣/٤/٩٤ مع النووى).
(٢) أخرجه أحمد (٦/٤٤٤)، والبخارى (٥/٥/ح ٢٣٢٠)، ومسلم (٤/١٠/٢١٣).
(٣) راجع الكامل لابن عدى (٦/٢٢٩٤).

٦٠ - من تلبيس إبليس

اعتاد رجل أن يعتذر عن ارتكابه المعاصي ؛ بأن رحمة الله وسعت كل شيء ، فاعترضه الحسن البصري رضي الله عنه .

وقال له :

هذا من تلبيس إبليس عليك ؛ إنما الرحمة للمتقين ، ألم تقرأ قول الله تعالى :

﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ؟ [الأعراف/١٥٦] .

(*) جامع العلوم والحكم ٣/ ٦٣ .

هذا موقف إيمانى يحمل دلالات هادية تعالج وهمًا من أوهام العصاة، وتعالج فهمًا معوجًا لمعنى الرحمة عند بعض الغافلين حين يتخذون الرحمة سلمًا للمعصية، وسبيلاً للسلامة من العقاب وحجتهم: يا أخى نحن بشر ولسنا ملائكة، ورحمة الله عز وجل واسعة، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [الأعراف/١٥٦] .

والحق أن هذه الأقوال ومثلها من تلبيس إبليس للناس، وليس معنى سعة رحمة الله أن يفتح الباب أمام العصاة، وليست الرحمة عاطفة لاعقل معها أو شفقة تتنكر منها ؟!.

ولقد ضرب الإمام الغزالى – رحمه الله – مثلاً للذين يتعللون أن رحمة الله وسعت كل شيء فلا يبالون مع ذلك بفعل المنكرات وارتكاب المعاصى . قال رحمه الله : لو أن هناك قاعة تسع ألف جالس، ولكن لا يؤذن بدخول هذه القاعة إلا لمن يحمل بطاقة محددة، فإذا رفض البعض حمل هذه البطاقة المحددة، وحرم من الدخول هل ذلك عيب فى سعة القاعة أم العيب فى تكاسلهم عن استيفاء الشروط؟! وليت هؤلاء يقرأون الآية لآخرها، قال تعالى : ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف/١٥٦].

إذًا فطريق الوصول إلى رحمة الله تعالى كما توضح الآيات الكريمة لأهل الإيمان والتقوى والاقتداء بهدى رسول الله ﷺ، ويؤكد هذا المعنى آية أخرى تشير إلى رحمة الله عز وجل قريبة من المحسنين، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [الأعراف/٥٦]، وفى المقابل يبين الله فى الحديث القدسى أن العدالة لا تساوى فى عطاء الرحمة بين الصالح والطالح.

قال الله تعالى فى حديثه القدسى : « ما أقل حياء من يطلب جنتى بغير عمل، كيف أجود برحمتى على من بخل علىّ بطاعتى » .

ويجب أن يتنبه المؤمن إلى أن الرحمة قد تأخذ شكلاً قاسيًا وصورة مؤلمة في ظاهرها في بعض الأحوال؛ فرحمة الطبيب بالمريض مثلاً أن يمد المشرط ليستأصل الداء، وقد يدفع الأب ولده إلى المدرسة وإلى العمل في جو ممطر أو في حرٍّ وازدحام، ومثل ذلك من الأفعال التي يكون في ظاهرها الشدة والألم، ولكن يكمن في باطنها الرحمة، فحين يؤخذ على يد المسيء ويعاقب على إساءته لينتظم العمل، فذلك عين الرحمة.

ولا شك أن مجال الرحمة في الإسلام واسع ممتد، فيكون بالتعاطف مع أهل الاحتياج والإعذار من الفقراء والمساكين والأرامل والمصابين، والمرضى، ونحو ذلك، ويمتد مجال الرحمة فيشمل مجال الحيوان والطير، فلا نحمل عليه فوق طاقته أو نتركه بدون طعام ولا شراب، ونحو ذلك، في الحديث أن النبي ﷺ قال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب ثم خرج، وإذا كلبٌ يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم سقى الكلب، فشكر الله تعالى له، فغفر له» قال الصحابة: يا رسول الله وإن لنا لفي البهائم أجرًا ؟ قال ﷺ: «في كل كبد رطبة أجر»(١).

ورحمة الإنسان بنفسه: أن يلزمها طاعة الله تعالى وأن يباعد بينها وبين المعاصي، هذا هو مجال الرحمة، أما أن ينتقل مجال الرحمة بوهم فاسد عند بعض الغافلين وبعض العصاة من هذه المساحة الطيبة الودودة التي فيها هذه المشاعر النبيلة الحميمة إلى مجال المعصية، ويتخذ الرحمة لتكون سبيلاً إلى فعل المعاصي، فهذا فهم فاسد عالجه الإمام الحسن البصري، وبين أنه من فعل الشيطان ووسوسته، وقال له: هذا من تلبيس إبليس عليك، ولعل الحسن

(١) أخرجه البخاري (١/ ٤٥٢/ ح ٦٠٠٩ مع الفتح)، ومسلم (٥/ ١٣/ ٢٤١، ٢٤٢).

البصرى رضي الله عنه قد أراد بهذا المقال : «هذا من تلبيس إبليس عليك» أن الخطورة كل الخطورة تكمن فى أن يستمر المرء على معصيته بحجة أن رحمة الله واسعة فينتهى مآله إلى النار، وهذا مكمن الخطورة، ولكن على الإنسان أن ينتبه، وأن يبادر بالتوبة والمغفرة حتى يثوب إلى رشده، لقوله تعالى:

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين/١٤] أعاذنا الله من ذلك المصير.

٦١ - لا تعلّق القلب برضا الناس

اعتاد رجل السعي فى طلب رضا الناس تحصيلاً للمنافع من أحد الأغنياء، فوقع بسبب ذلك فى ذنوبٍ كثيرةٍ، منها الظلم، وإهمال الفرائض، والكذب .. وما إلى ذلك، وبسبب وشايةٍ وصلت عنه إلى هذا لرجل الغنى غضب عليه وأبعده، فجعل يتوعد الواشي بالانتقام، فرآه أحد الصالحين من علماء السلف فنصحه قائلاً :

«هلا انتهيت من تعلق قلبك بالناس والدنيا، والله لو شغلت نفسك برضا ربك لحقق لك مرادك، وأغناك من فضله».

ففعل الرجل ما نصحه به العالم فأغناه الله من فضله.

(*) بعث معاوية بن أبى سفيان إلى عائشة – رضى الله عنها – قائلاً : اوصينى بوصية وأوجزى. قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أسخط الله برضا الناس وكله إلى الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس والسلام». أخرجه ابن حبان (رقم ١٥٤١).

هذا موقف إيمانى يحمل من دلالات الهداية والرشاد الكثير، ومن يتأمل الحياة يجد أن هذا الموقف يتكرر كثيراً، وإن كان بصورٍ مختلفة، ووجوه متباينة، فكلنا يرى هذه المغريات التى تغشى الناس بضيائها من بعيد، كمغريات المال والمنصب والشهرة والقوة، وغير ذلك من زينة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، وكم من أناس انساقوا أمام هذه المغريات؛ طلبًا لرضا الناس، وتحقيقًا للمصلحة المادية، فكانت خسارتهم عظيمة، وفى قمة هذه الخسارة خسارتهم لرضا الله تعالى، والمؤمن العظيم إذا رأى نفسه متحيراً بين الله والناس جاهد نفسه وهواها واستعان بالله واستعاذ به، وعلم يقينًا أن كل ما فاته دون الله تعالى فهو يسير، وأن كل ما جاء به سوى الله قليل.

يقوى هذا المعنى ويؤيده حديث رسول الله ﷺ :

«من أسخط الله فى رضا الناس سخط الله عليه وأسخط عليه من أرضاه فى سخطه، ومن أرضى الله فى سخط الناس رضى الله عنه وأرضى من أسخطه فى رضاه؛ حتى يزينه ويزين قوله وعمله»[1].

وإلى هذا المعنى تشير آيات القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿ **أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة/١٣]، وقوله تعالى: ﴿ **يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ** ﴾ [النساء/١٠٨].

والمتأمل لواقع حياة صحابة رسول الله ﷺ الذين تركوا أموالهم وديارهم يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا. ماذا كانت النتيجة لموقفهم هذا ؟! لقد نصرهم الله سبحانه وتعالى وأيدهم بجنده وأعزهم بعزته، وعطَّر الله ذكرهم فى الدنيا والآخرة ، وجعلهم مصابيح هداية للناس فى كل زمان ومكان، وفى المقابل نجد أن هناك الملايين من الناس اندثروا فى التراب، فلا ذكر لهم فى الدنيا، ولا

(١) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير يحيى بن سليمان الحضرى وقد وثقه الذهبى. قاله الهيثمى فى المجمع (١٠/٢٢٧).

حظاً لهم فى الآخرة، بل وربما كان بعضهم كالمنافقين موضع لعنة إلى يوم القيامة، وهذا يظهر لنا ويوضح كيف أن سعى العبد إلى رضا الله عز وجل يأتى له بكل خير، يضاف إلى هذا أن إرضاء الجميع غاية مستحيلة، وليست مطلباً لعاقلٍ أبداً؛ لذلك لا ينبغى للإنسان أن يجعل الناس أمله فى المقدمة، بل عليه أن يجعل رضا الله تعالى هدفه ومقصده، يقول سيدنا رسول الله ﷺ : «لا يكن أحدكم إمعة، تقول: إن أحسن الناس أحسنت معهم، وإن أساءوا أسأت معهم، ولكن وطِّنوا أنفسكم على تقوى الله وطاعته»[1].

نعم لا ينبغى للإنسان العاقل المسلم أن يتلون أو يتقلب مع تيار المصالح المادية، يصفق لكل قائم ويتمسح بكل قوى، ويتساقط صريعًا على أعتاب المنافع الدنيوية، لقد رفع النبى ﷺ بصائر المؤمنين إلى المنزلة العالية: إلى الإيمان بالله تعالى، فلا يصدر من المؤمن إلا ما وافق إيمانه.

وهكذا يعلمنا هذا الموقف أنه إذا كانت لكل إنسان غاية فى هذه الحياة الدنيا، فلابد أن يسلك لها الوسائل الشريفة التى تقربه من الله عز وجل، وتباعده عن الشيطان، حتى لا يغترف من الذنوب والآثام ما يبعده عن دائرة الإيمان ويوقعه فى سخط الله عز وجل.

---

(١) أخرجه الترمذى (ح ٢٠٠٧).

٦٢ - بل الدنيا هى التى زهدت فيك

كان أحد علماء السلف يعلم تلاميذه فى مجلس علم، فأقبل عليه رجلٌ فى ثيابٍ رثةٍ متسخةٍ وهيئةٍ غير محمودة، وما إن انتهى إلى المجلس حتى أقبل على الناس بطلب منهم الصدقات، فأشار إليه العالم، وقال له :

اجتهد فى طلب عمل شريف؛ لتقوم بحاجتك بدلاً من التعرض لسؤال الناس.

فأنكر الرجل ذلك وقال :

إنى زاهدٌ فى الدنيا.

فقال له العالم :

بل الدنيا هى التى زهدت فيك.

(*) الخلال فى جزء الحث على التجارة، ص ٧٩.

هذا الموقف يصحح مفهومين من المفاهيم الخاطئة التى شاعت بين كثير من الناس :

الأول : عدم التمييز بين الدنيا المحمودة التى أوصى الله بها وبين الدنيا المذمومة التى حذَّرنا الله منها.

فالدنيا المحمودة هى التى تعين على طاعة الله تعالى، وفيها نفع للعباد وعمارة للبلاد، وتكون من حلال، وقد قال تعالى ﴿**وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ [القصص/٧٧].

وقد علمنا القرآن الكريم أن نسأل الله تعالى الدنيا المحمودة، قال الله تعالى: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [البقرة/٢٠١].

كما يبين لنا القرآن الكريم أن التقرب إلى الله عز وجل كما يتم بالعبادات والشعائر فإنه كذلك يتم بكل عمل من الخيرات فى دنيا الناس ينفع الناس فى شتى نواحى حياتهم.

قال الله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [الحج/٧٧].

فدلت الآية على أن التقرب لله عز وجل، كما يتم بالركوع والسجود والعبادة، فإنه كذلك يتم بالعمل النافع وبفعل الخيرات فى الدنيا.

وهذه الدنيا المحمودة التى أشار إليها العالم فى هذا الموقف، حينما قال: بل الدنيا - أى : المحمودة - هى التى زهدت فيك؛ لأنك لم تسلك سبيل الخير وأبوابه، ونبه هذا الرجل الذى اشتبه عليه الموقف فى حقيقة الزهد إلى أن يسلك سبيلها وأن يحصلها طاعة لأمر الله عز وجل.

أما الدنيا المذمومة فهى كل ما يشغل الإنسان من طاعة ربه ويلهيه عن ذكر الله تعالى، وتلك هى الدنيا التى حذرنا الله تعالى منها، ففى شأنها يقول ربنا جل شـــأنه: ﴿**فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ**﴾ [لقمان/٣٣].

ولعل العالم الجليل الذى أوصى الرجل بضرورة البحث عن عمل كان يعلم جيداً قيمة العمل وأهميته فى حفظ ماء الوجه وحفظ الإنسان من التعرض لمذلة السؤال، وهذا موقف مطابق لتوجيه رسول الله ﷺ للرجل الذى جاء يسأل ويتذلل بالسؤال بين يدى رسول الله ﷺ، وأمام الصحابة، فأراد النبى ﷺ أن يحول هذه الحالة المستهلكة المتذللة بالسؤال إلى حالة منتجة كريمة عزيزة عفيفة، وهذه هى الطاقة التى تنمى وتستخدم وتوجه، وجاء له النبى ﷺ بقَدوم، وقال له: «اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك إلا بعد خمسة عشر يومًا»(١) وعاد الرجل بعدها بهيئة كريمة، وبربح وفير.

إذًا فليس مفهوم الزهد فى الدنيا أن يُقبل الرجل بثياب رثَّة متسخة وهيئة غير محمودة، وهذا ما فعله الرجل، وفهم خطأ أن الزهد هو أن يرتدى هذه الملابس، وصحح له هذا المفهوم، بأن دله على سبيل العمل الشريف الذى يمكن أن يقتات منه حاجاته، ويوفر له كل أسباب الراحة فى هذه الحياة.

وهذا هو المفهوم الثانى الذى يعالجه هذا الموقف، وهو بيان حقيقة الزهد فى الدنيا وإنه لا يعنى خلو اليد منها، بل امتلاكها مع عدم الافتتان بها، فمن ملك الدنيا فى حلال ولم تفتنه الدنيا ولم تشغله عن طاعة ربه، وقدم أوامر الله على هواه فهو زاهد فى الدنيا، أما مَن تعلق قلبه بالدنيا وخلت يده منها، فهو مفتون بها، مشغول بأمرها، فليس بزاهدٍ فيها.

---

(١) سنن أبى داود (١٦٤١).

وهكذا يظهر لنا من خلال هذا الموقف أن الدنيا فيها جانب محمود ينبغي للإنسان أن يسعى لتحصيله كي يحفظ كرامته، وألا يظهر الإنسان بين الناس بصورة غير مقبولة، بل عليه أن يأخذ زينته، وعليه أن يحرص على جماله، وعليه أن يحرص على أن يكون إنسانًا نافعًا، إنسانًا كله عطاء، ينفع الناس بما ينجز من أعمال، يعطف على المساكين، يمد يده للمحتاجين. هذا هو الإنسان الذى يعالجه هذا الموقف الطيب من علماء السلف الصالح رحمهم الله، ورضى الله عنهم ونفعنا بعلمهم.

٦٣ - رب كريم .. وعبد لئيم

رأى أحد الصالحين رجلاً لا ينقطع عن المعاصي، وقد غمره الله بنعيمٍ ظاهرٍ، وقد تعجَّب الناس من أمره، فقال لهم الرجل الصالح :

«لا تعجبوا من أمره، ربٌّ كريمٌ وعبدٌ لئيم !» .

فسمع الرجل العاصي هذه الكلمة، فتأثر وبكى وطلب من الرجل الصالح أن يدعو له بقبول توبته، وغفران ذنوبه .

فقال له :

يا هذا، أين أنت من فضل الله تعالى في قوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ ! [هود/٩٠] .

(*) الإحياء ٣/٢١٦ .

هذا موقف يحمل دلالات هادية، فى قمتها بيان لفضل عظيم من أفضال الله على عباده جميعًا، ألا وهو قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** ﴾ [هود/ ٩٠].

والمتأمل لأحول الناس يرى أنه قد جرت العادة أن يتودد الأدنى إلى الأعلى، فيتودد الفقير إلى الغنى، ويتودد أصحاب الحاجات إلى من بيدهم قضاء هذه الحاجات، وهكذا حال عامة الناس، أما الصالحون فيتوددون إلى الله عز وجل بفعل الطاعات، وترك المنكرات.

وأن يتودد العبد إلى خالقه ورازقه؛ فهذا أدب وشرف، أما أن يتودد الله الغنى المتعال القوى العزيز إلى عباده الفقراء، فهذا منة وفضل، وكما ظهر من الموقف، فقد تحبب الله وتودد إلى عبده بستره، فلم يفضحه بين خلقه وتودد فتاب عليه، وأصلح حاله.

وأما قول الرجل الصالح فى وصف كرم الله تعالى على عبده فى مقابل تمادى المذنب فى تفريطه : «رب كريم وعبدٌ لئيم»، وفى هذه المقابلة بين كرم الله البالغ وإعراض العبد وإسرافه على نفسه تحريك لمشاعر الإيمان، ونوازع الخير داخل العبد الغافل، وفيها أيضًا إيقاظ له من غفلته لإخلاص الناصح لكلمته الحكيمة، نفع الله بها وتاب على العبد العاصى ببركتها.

كما يستفاد من قول الرجل الصالح : أين أنت من فضل الله فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** ﴾؟ أن فى ذلك تذكيرًا لكل تائب بأن رحمة الله فى انتظاره، وهو على موعد مع العفو والمغفرة والرحمة، وهذا من ود الله تعالى لعباده، والمتأمل لآيات الله فى كتابه الكريم، يجد أنها فتحت أبواب الأمل والرجاء للتائبين، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ**

أنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر/٥٣].

وقول الله تعالى : ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [الفرقان/٧٠].

ومن ود الله سبحانه وتعالى فى يوم القيامة أنه يدنى عبده إليه، كما ورد فى الحديث الصحيح، فيقرره بذنوبه كلها ذنبًا ذنبًا، حتى يظن العبد أنه قد هلك، حينئذ يقول الله عز وجل له:

«عبدى، سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ولا أفضحك بين خلقى»(١).

ومن ود الله سبحانه وتعالى أنه يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل، ومن وده سبحانه وتعالى أنه من أعرض وتولى عنه ناداه من قريب، ومن أقبل عليه تائبًا تلقاه من بعيد.

ومن وده سبحانه وتعالى ألا يعجل العقوبة، بل جعل لملك الحسنات سلطانًا على ملك السيئات، فإذا اقترف العبد خطيئة أمر ملك الحسنات ملك السيئات أن ينتظر، لعل العبد يستغفر أو يتوب، فإن تاب كتبها ملك اليمين حسنة، وإلا كتبها ملك السيئات سيئة واحدة.

ومن وده سبحانه ما ألقى فى قلب الأم والأب من مودة وحنان نحو الأبناء، ومن وده سبحانه أن جعل بين الزوجين مودة ورحمة، قال تعالى :

﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ [الروم/٢١].

---

(١) مشكاة المصابيح للتبريزى (٥٥٥١).

فكل ود بين العباد هو من ود الله سبحانه وتعالى، وهذا من سعة فضل الله ورحمته. ويعجب ربنا عز وجل فى حديثه القدسى من عباده الذين لا يلتفتون إليه بالشكر فيقول:

«أخلق ويعبد غيرى، وأرزق ويشكر سواى، خيرى إلى العباد نازل، وشرهم إلىَّ صاعد، أتقرب إليهم بنعمى وأنا الغنى عنهم، ويتوددون إلىَّ بالمعاصى، وهم أحوج شىء إلىَّ!»(١).

إذا ما تأمل العبد كيف يتودد الله إليه فى مقابل جحود العبد وإسرافه على نفسه، فما من شك أن العبد سيخجل من رحمة الله وسعة فضله، وتتحول مشاعره من المعاصى، ومن مخالفة الله عز وجل إلى مبادلة الله، وداً بود، وتنشط عند العبد المشاعر الودودة الرحيمة.

(١) أخرجه الحكيم الترمذى فى النوادر، والبيهقى فى شعب الإيمان عن أبى الدرداء. راجع كنز العمال (ح ٤٣٦٧٤)

٦٤ - بركــة الشــــورى

نزل النبى ﷺ بجيشه عند أقرب ماء من مياه بدر، فقام الحباب بن المنذر وقال:

يا رسول الله ﷺ، أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فقال النبى ﷺ :

«بل هو الرأى والحرب والمكيدة».

فقال الحباب بن المنذر :

فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فنبنى عليه حوضًا، ونُخَرِّب من ورائه، فنشرب ولا يشربون.

فقال له النبى ﷺ :

«لقد أشرت بالرأى».

(*) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٤ / ١٨٠).

هذا الموقف يعلمنا درسًا فى فضل المشورة، وأن الإنسان ينبغى ألا يتركها مهما كان علمه وقدره، وذلك لأن المشورة تتيح للإنسان الإفادة والانتفاع بعقول مَنْ حوله من أهل الخبرة والرأى.

ومن السنة قبل أن يشرع الإنسان فى عمل ذى بال أن يُغنى بأمرين هما: الاستشارة، والاستخارة.

فأما الاستشارة فتكون بسؤال أهل الذكر، أهل العلم، فى المجال الذى يريده، فإن كان أمر عمله أو مشروعه فى الهندسة سأل المهندسين، وإن كان فى الطب سأل الأطباء ... وهكذا، حتى يقف الإنسان على الحقائق النافعة وأسباب النجاح، ويتجنب أسباب الخسارة والضلال.

ولقد رأينا فى الموقف النبى ﷺ يمدح رأى الحباب بن المنذر، ويأخذ به، وأفاد ﷺ من خبرة الحباب بن المنذر العسكرية.

أما عن الاستخارة، فإنه بعد سؤال الإنسان أهل العلم والخبرة فى مجال مشروعه أو عمله المستقبلى، فعليه أن يستخير ربه، وذلك لأننا جميعًا نتحرك فى إطار محدود الأسباب، فى حدود الظاهر لنا، أما تقلبات الحياة فعلمها ونتائجها عند الله تعالى، فلا يعلم الغيب إلا الله، وعقل الإنسان يخطئ ويصيب.

ومن هنا كان على المؤمن أن يستخير ربه، كى ينال توفيق الله تعالى، وإذا كان العاقل منا حريصًا على الإفادة ممن يفوقه علمًا وخبرة، فكيف بالإنسان يغفل عن طلب المعونة ممن بيده الأمر كله، وهو على كل شىء قدير، وبكل شىء عليم ؟! وتكون الاستخارة كما وردت فى السنة، قال النبى ﷺ : «إذا هَمَّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل : اللهم إنى

أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك إن كنت تعلم أن هذا الأمر خيرٌ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاقدره لى ويسره لى، ثم بارك لى فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لى فى دينى ومعاشى وعاقبة أمرى، فاصرفه عنى واصرفنى عنه، واقدر لى الخير حيث كان، ثم رضِّنى به» قال: ويسمى حاجته(١).

وحسبنا أن الشورى أمر قرآنى، قال تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ [آل عمران/١٥٩].

قال تعالى: ﴿ وأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى/٣٨].

● دلالة أخرى تستفاد من الموقف من قول الحباب بن المنذر: أرأيت هذا المنزل يا رسول الله، أمنزلاً أنزلكه الله؟ ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ وفى هذا بيان أن الاستشارة والاستخارة لا تكون فى الأمور التى ورد فيها بيان حاسم من القرآن والسنة، فلا استشارة أو استخارة فى أن يصلى الإنسان الفرائض أو أن يتقرب إلى الله بصوم أو بصدقة، أو أن ينتهى عن منكر نهى الله عنه.

وإنما تكون الاستشارة والاستخارة فى الأمور التى تتعلق بالمستقبل، ولا يستطيع الإنسان حسب نتائجها، ولم يرد فى شأنها نص قاطع، مثل: السفر والزواج، وتغيير العمل... ونحو ذلك.

---

(١) رواه البخارى (١١/١٨٧/ح ٦٣٨٢) من حديث جابر.

٦٥ - طريق الفلاح

كان الصحابة - رضى الله عنهم - جلوسًا حول رسول الله ﷺ، فسمعوا دويًّا كدوى النحل عند وجه النبى ﷺ، ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال :

«اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنَّا، وأعطنا ولا تَحْرِمْنا، وآثِرْنا ولا تُؤْثِرْ علينا، وارْضَ عنا وأرضنا».

فسأله الصحابة عن الأمر.

فقال النبى ﷺ :

«لقد أُنْزِلَ علىَّ عشر آيات من أقامهنَّ دخل الجنة، ثم قرأ ﷺ : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر.

(*) أخرجه الترمذى (رقم ٣١٧٣)، وأحمد (١/ ٣٤).

فى هذا الموقف بيان لجملة من الحقائق الإيمانية :

أولاها : أن الوحى كانت له علامات يعرف بها الصحابة اللحظات القدسية التى تنزل فيها الآيات على قلب سيدنا رسول الله ﷺ . وظهر لنا فى هذا الموقف الذى يبسطه لنا بمزيد من التفصيل والتوضيح الإمام أحمد فى مسنده، حيث يروى قول الصحابة رضى الله عنهم:

وكنا نسمع صوتًا (دويًا) كدوىّ النحل عند وجهه ﷺ إذا نزل عليه الوحى. وهذه علامة مسموعة، وأخبرت السنة المطهرة أن هنالك علامات أخرى مرئية مشاهدة، من ذلك أن رسول الله ﷺ كان يتصبب عرقًا، وهناك صورة أخرى كان الوحى يأتى فيها على هيئة رجل مشرق الوجه، من ذلك ما ورد فى حديث الإسلام والإيمان والإحسان، حيث جاء رجل فاقترب من رسول الله ﷺ بهيئة طيبة حسنة، وقال : يا رسول الله أخبرنى عن الإسلام، فأجابه النبى، ثم قال: أخبرنى عن الإيمان، ثم أخبرنى عن الإحسان، فلما انتهى، قال النبى ﷺ للصحابة – رضى الله عنهم – : « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم »(١).

وباب الوحى واسع له تفصيله وبيانه فى مباحث علوم القرآن.

ثانيتهما : حرص صحابة رسول الله ﷺ على معرفة الرسالة الإلهية التى حملها الوحى لسيدنا محمد ﷺ، لذلك سألوا رسول الله ﷺ فى الموقف عن سبب التفاته للقبلة ودعائه بعد انتهاء الوحى من تبليغ الرسالة، وهذا هو التأسى والاقتداء والاهتداء فى أمر الدين، فالمرجعية فيه لله وللرسول ﷺ .

ثالثتهما : مضمون الرسالة التى حملها الوحى واستبشر بها النبى ﷺ وهى الآيات العشر الأولى من سورة المؤمنون، والبشرى التى تعلقت بهذه

---

(١) أخرجه مسلم (١/٢/١٥٦، ١٥٧ مع النووى).

الآيات، وهى قوله ﷺ : «من أقامهنَّ دخل الجنة».

وفى هذا تأكيد للحقيقة الإيمانية التى تكررت فى آيات القرآن الكريم، وهى أن بركة القرآن لمن يعمل به، فلا يكفى حفظ الآيات فقط أو العلم بها فقط، وإنما المطلوب بعد العلم العمل، وإلا كان العلم بالآيات حُجة على الإنسان، وفى هذا يقول النبى ﷺ : «والقرآن حُجة لك أو عليك»[١].

وتؤكد الآيات العشر الحقائق التالية :

أولاً : أن الفلاح للمؤمنين.

ثانيًا : أن للإيمان تكاليف، والقيام بتكاليف الإيمان هو عين التحقق بحقائق الإيمان.

ثالثًا : أن الصلاة هى مفتاح أوصاف المؤمنين، وأيضًا هى الختام والتاج لأعمالهم.

رابعًا : أن أهل الإيمان يتنزهون عن لغو الكلام، ولغو العمل، وهم دائمون فى فعل الخيرات وإيتاء الزكاة.

خامسًا : أن أهل الإيمان يحفظون أعراضهم، ولا ينظرون لغير حلالهم.

سادسًا : أن أهل الإيمان أهل أمانة وعهد صادق.

فمن تحقق بهذه الأوصاف وجبت له البشرى فى قول النبى ﷺ : «من أقامهنَّ دخل الجنة».

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب «الطهارة» باب «فضل الوضوء» (٣/٩٩/ح ١ مع النووى).

٦٦ - من سوء الخاتمة

عجز غلام عند موته عن النطق بالشهادتين، فَعُرِضَ أمر الغلام على النبى ﷺ، فحضر رسول الله ﷺ إلى الغلام، وعلم أنه كان عاقًا لأمه، فدعاها النبى ﷺ، وقال لها:

سامحى ولدك وارضى عنه، وإلا قذفناه فى النار.

فَرَقَّ قلب الأم وسامحت ورضيت عن ابنها.

فقال النبى ﷺ للغلام:

«قل: لا إله إلا الله».

فنطق الغلام:

لا إله إلا الله.

فقال النبى ﷺ:

«الحمد لله أنقذه بى من النار».

(*) رواه أبو داود فى السنن (ب٥)، وأحمد (٣/٢٢٧)، وعند البخارى: الحمد لله الذى أنقذه من النار. (٢/١١٨).

هذا الموقف يحذرنا من عقوق الوالدين، وبخاصة الأم، ويتأكد هذا التحذير من خلال الدلالات الآتية :

الدلالة الأولى : أن من عقوبة عقوق الوالدين سوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى، وظهر لنا من الموقف كيف أن الشاب العاق لأمه قد عجز لسانه عن النطق بالشهادتين، وهذه عقوبة من العقوبات العاجلة فى الدنيا لمن عَقَّ والديه أو أحدهما، هذا فضلاً عن عقوبة الآخرة بالحرمان من الجنة، فقد أخرج النسائى عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ قال : « لا يدخل الجنة عاق لوالديه »(١).

وحسب المؤمن تحذيرًا من عقوق الوالدين قول رسول الله ﷺ :

« ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » قلنا : بلى يا رسول الله. قال : « الإشراك بالله وعقوق الوالدين » وكان متكئًا، فجلس وقال : « ألا وقول الزور، وشهادة الزور. ألا وقول الزور، وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت(٢).

ويظهر من الحديث الشريف أن عقوق الوالدين جاء معطوفًا على الإشراك بالله تعالى، وفى هذا دلالة واضحة على خطورة العقوق، وأنه فى سياق أكبر الكبائر ، هذا فى مقابل أن الأمر فى القرآن الكريم بالبر بالوالدين جاء فى سياق الأمر بتوحيد الله تعالى :

قال تعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا** ﴾ [الإسراء/٢٣ : ٢٤].

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٠٣، ٦/٤٤١).
(٢) أخرجه البخارى (٥/٣٠٩/ح ٢٦٥٤)، ومسلم (٢/٨١ مع النووى).

الدلالـة الثـانيــة : ظهر من المـوقف هذه الرحـمة الفيـاضـة، وهذا الحنان العظيم فى قلب أم علقـمة، فلـم تقبل أن يعـذب ولدها فى النار، بسبـب عقـوقه لهـا، بل غـفرت وسامحت، فانطلق لسـان علقـمة بالشـهادتين، وفى هذا إشـارة إلى أن الأم بقلبها الحنون العطوف الرحيم تستحق هذه المكانة التى أكرمها الله بها، فجعل رضاها من رضا الله، وجعل غضبها من غضب الله.

الدلالة الثـالثة : حكمة رسول الله ﷺ فى علاج الموقف، وكيف استطاع ببصيرته أن يكسر حـاجز الحزن والألم الذى ملأ قلب أم علـقمة، بسبب عـقوق ولدها لـهـا، وذلك عـن طريق إحـضـار نـار مـشـتـعلة أمـامـهـا، ثـم قـال لـهـا : إمـا المسامحة وإما أن نقذف علقمة فى النار، فرقَّ قلبها وسامحت.

وفى هذا أسوة للدعاة وأهل التربية فى علاج النفوس حين يشتد بها الألم والعتاب والحزن ... فلابد من البحث عن مفتاح هذه الشخصية، والتعرف على الباب الذى يمكن للإنسان أن يدخل إليها منه ويؤثر فيها.

فالدخول إلى الأمر من باب العطف والرحمة والشفقة على ولدها كان له أبلغ الأثر فى تحويل مشاعر الأم من الغضب والحزن إلى المسامحة والعطف.

٦٧ - علامَ التعالى ؟!

مَرَّ رجل يتباهى، يظهر عليه آثار الترف والغنى، فقال النبى ﷺ لرجل يجلس عنده: ما رأيك فى هذا الرجل ؟

فقال : هذا رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِىٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شَفَعَ أن يُشفَّع، فسكت رسول الله ﷺ .

ثم مر رجل آخر تبدو عليه أمارات الفقر؛ فقال النبى ﷺ للرجل الذى يجلس عنده : «ما رأيك فى هذا الرجل؟» .

فقال : هذا رجل من فقراء المسلمين، إن خطب لا يُزوَّج، وإن شفع لا يُشفَّع، وإن قال لا يُسمع لقوله .

فقال النبى ﷺ : «هذا خير من ملء الأرض من ذاك الأول» .

(*) أخرجه البخارى (٩/٣٥/ ح ٥٠٩١ مع الفتح) .

هذا موقف تربوى عظيم يحمل دلالات هادية منها :

الدلالة الأولى : الأسلوب التربوى من رسول الله ﷺ فى التعليم وإظهار الحقائق بشكل ملموس، تتجسد به المعانى وتثبت فى ذهن المتعلم، فيكون أجدى وأنفع من الكلام المجرد . وهذا اتجاه تربوى محمدى من بين اتجاهات تربوية كثيرة تظهر فى السنة المطهرة، وتطلب من الباحثين فى التربية ومناهجها أن يتوفروا لها بالبحث والدراسة؛ كى تنتفع الأمة والدنيا كلها بهدى رسول الله ﷺ فى مناهج التربية .

فالملاحظة السريعة تُظهر أن النبى ﷺ كان يستخدم الحوار المقنع، ويلجأ إلى الاستدلال، كما يقدم الأسوة والقدوة فيما يقول، كما كان يستعين بالوسائل التوضيحية التى كانت تتناسب مع البيئة فى عصره ﷺ، من ذلك رسمه ﷺ على الأرض خط الأجل وخط الأمل، واستخدام الحصى والعصا فى بعض البيانات العملية، وغير ذلك كثير تفيض به سنة الهادى البشير سيدنا محمد ﷺ، وكل هذا يكشف عن حرص رسول الله ﷺ على أمانة تبليغ الدعوة ووصولها سهلة ميسرة إلى قلوب الناس وعقولهم، قال ﷺ :

« إن الله لم يبعثنى مُعنتًا ولا مُتعنتًا، ولكن بعثنى معلمًا ميسرًا »(١) .

وفى هذا أسوة للدعاة والمعلمين فى اصطفاء ما يناسب المتلقى للعلم من وسائل وأساليب .

الدلالة الثانية : وهى تمثل بيانًا عمليًا لتأكيد مفهوم إيمانى، وهو أن منازل الناس وأقدارهم عند الله تعالى، لا تتأتى من مظاهرهم، فقد تكون المظاهر مضللة خادعة، ولا تتأتى من أموالهم ولا من متاع دنياهم، وإنما الذى

---

(١) أخرجه مسلم فى « الطلاق » (رقم ٢٩) .

يضع الإنسان فى المقدمة عند ربه هو صدق إيمانى بالله تعالى، وصلاح عمله، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات/١٣].

ولذا قال النبى ﷺ بعد أن مر الرجل المتباهى، ثم مرَّ الرجل الصالح المتواضع الفقير : «إن هذا الرجل – أى الصالح الفقير – خير من ملء الأرض من مثل هذا، أى الرجل المتباهى الغنى»، وذلك لأن الناس كلهم لآدم، وآدم من تراب، فعلام التباهى، وفيم التفاخر ؟!

حكى أن أحد الصالحين رأى عالمًا أصابه الزهو بعلمه، والفخار بذكائه، فأحب أن يعظه، فسأله عن تفسير ثلاث آيات من القرآن الكريم :

الأولى : عن قول الله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا** ﴾ [النحل/٧٨].

الثانية : عن قول الله تعالى : ﴿ **وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴾ [النحل/٧٠].

الثالثة : عن قول الله تعالى : ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء/٨٥].

فأدرك العالم الموعظة وقال : «بين جهل البداية وجهل النهاية علم قليل. فسبحانك يارب، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

وهكذا ينبغى ألاَّ يتعالى الإنسان بما عنده من نعم، لأن النعم من فضل الله، قال تعالى : ﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ** ﴾ [النحل/٥٣]، كما ينبغى على الإنسان ألا يسخر ممن هم دونه فى صحة أو مال أو علم، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ**

مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات/ ١١].

نسأل الله أن يهدينا وأن يتولانا وأن يرضى عنا.

٦٨ - فقه الأولويات

خرج عبد الله بن المبارك فى قافلةٍ للحج، فمرَّ ببعض البلاد، فمات طائرٌ كان معهم، فأمر بإلقائه فى مكانٍ يلقى الناس فيه فضلاتهم، فإذا جارية تأتى فتأخذ الطائر الميت، فسألها عبد الله بن المبارك عن سبب أخذها الميتة.

فأخبرته الجارية بأنهم وقعوا فى الاضطرار ولا يجدون طعامًا منذ أيام.

فأعطاها عبد الله بن المبارك نفقة الحج ثم رجع، وقال:

هذا أفضل من حجتنا هذا العام.

(*) حلية الأولياء، ترجمة ابن المبارك.

في هذا الموقف درس عظيم في فقه الأولويات، فالأعمال الصالحة تتفاوت في المنازل والدرجات .. والنبي ﷺ قال :

« الإيمان بضع وسبعون شعبة. أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق »(١).

وكان الصحابة - رضي الله عنهم - حريصين كل الحرص على معرفة أفضل الأعمال عند الله تعالى، وعلى معرفة أحب الأعمال عند الله تعالى، وذلك لأن أحب الأعمال وأفضلها أرجى للقبول عند الله تعالى؛ ولذلك كثرت أسئلتهم عن أفضل الأعمال وأحبها.

ومن تتبع ما جاء في القرآن والسنة في هذا المعنى يرى أن الشرع وضع لنا جملة من المعايير لبيان الأفضل والأولى والأحب إلى الله تعالى : فصلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، والفرائض مقدمة على النوافل ... وهكذا؛ فالموقف الذي بين أيدينا هو تطبيق عملي وأسوة وقدوة في هذا المعنى.

فإن عبد الله بن المبارك لما خرج في قافلة للحج، ومر ببلد، وماتت دجاجة من الطيور التي مع القافلة، أمر عبد الله بن المبارك وكيله أن يلقي بها في مكان يلقي الناس فيه فضلاتهم على مقربة من طريق القافلة، وكانت المفاجأة إذ أقبلت جارية تأخذ هذه الدجاجة الميتة وتسرع بها إلى دارها القريبة، فتحرك قلب عبد الله بن المبارك، وأحسّ أن ضائقة وراء أمر الجارية، فذهب إليها وسألها، فأخبرته الجارية بأنها وإخوتها قد حلت لهم الميتة منذ ثلاثة أيام لوقوعهم في الاضطرار، فليس عندهم طعام ولا مال، فقد جاء لصوص فقتلوا أباهم وأخذوا ماله، فتأكد عبد الله بن المبارك من ضائقة هذه الأسرة، وأنها

(١) أخرجه البخاري (١/٦٧/ح ٩ مع الفتح)، ومسلم (١/٢/٣ مع النووي)

أولى بنفقة حجه، حيث إن حجه كان تطوعًا، فقد أدى حجة الفرض؛ فأعطاهم نفقة الحج ثم رجع، وقال: هذا أفضل من حجنا هذا العام.

وهذا الفهم فقه دعا إليه القرآن الكريم، حين بيَّن الله أن جنس أعمال الجهاد فى سبيل الله، وإعانة المجاهدين أفضل من جنس أعمال الحج، قال تعالى :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [التوبة/١٩].

ثم يقول ربنا مؤكداً فى الآية التالية أفضلية الجهاد وأولويته :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة/٢٠].

وهذه دعوة قرآنية إلى المتطوعين بالحج كل عام أن يوجهوا هذه النفقة إلى رعاية البائسين من المرضى والمحتاجين، وإخواننا فى الأرض المحتلة الذين يجاهدون اليهود من أجل الأقصى والقدس، فالنفقة فى هذه الوجوه أفضل وأولى.

٦٩ - عموم المغفرة لحجاج بيت الله الحرام

لما نزل النبى ﷺ بالمزدلفة أثناء الحج جعل يدعو لأمته، ثم ابتسم النبى ﷺ، فقال بعض أصحابه :

يا رسول الله، ما أضحكك؟! أضحك الله سنك يا رسول الله.

فقال النبى ﷺ :

«تبسمت من عدو الله إبليس، حين علم أن الله عزَّ وجلَّ قد استجاب لى فى أمتى وغفر للمذنبين، هوى إبليس يدعو بالثبور والويل، وأخذ يحثو التراب على وجهه ورأسه.. فتبسمت مما يصنع من جزعه».

(*) ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات، ص ٢١٣.

في هذا الموقف العظيم بشرى من رسول الله ﷺ بعموم المغفرة لحجاج بيت الله الحرام، حتى المظالم والتبعات؛ فقد وضحت السنة أن الله تعالى يتحمل عن الحاج هذه التبعات. وفي هذا قال النبي ﷺ، عشية عرفات: «معاشر الناس، أتاني جبريل آنفًا وأقرأني من ربي السلام، وقال: إن الله عزَّ وجلَّ غفر لأهل عرفات وأهل المشعر الحرام وضمن عنهم التبعات».

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، هذا لنا خاصة؟

فقال النبي ﷺ: «هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة»(١).

فقال سيدنا عمر رضي الله عنه: كَثُرَ - والله - خير الله وطاب.

والنبي ﷺ حريص على بيان صفة الحج الذي تتأتى به عموم المغفرة، قال ﷺ: «من حج فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»(٢).

وقال ﷺ: «... والحج المبرور، ليس له جزاء إلا الجنة»(٣).

وقال ﷺ: «من قضى نسكه، وسَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه»(٤).

ودلالة أخرى في هذا الموقف، وهي شدة غيظ الشيطان، وبخاصة في يوم عرفة؛ لما يرى من تنزل الرحمات وعموم المغفرة من الله على عباده حجاج بيته الحرام، وفي هذا يقول ﷺ: «ما رُئي الشيطان يومًا هو أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله تعالى عن الذنوب العظام»(٥).

وفي هذا تأكيد لعداوة الشيطان للإنسان، وأنه ليسوؤه كل الإساءة أن

---

(١) راجع التمهيد لابن عبد البر (١/١٢٩) (٢) أخرجه أحمد (٣/٤٨٤).
(٣) أخرجه البخاري (٣/٢)، ومسلم في الحج (٤٣٧).
(٤) راجع كنز العمال (ح ١١٨١٠). (٥)

يكون الإنسان طائعًا مستغفرًا تائبًا. ومن هنا ينبغي على الإنسان أن يحذر هذا العدو الذي حذرنا الله تعالى منه؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف/٢٢]. وقال عز وجل : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء/٥٣].

وقوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس/٦٠].

لذا أمرنا القرآن ألا نتبع وسوسته وحيله ومكره، قال تعالى : ﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة/٢٠٨].

وأمرنا القرآن أن نستعين بالله تعالى لدفع مكره ووسوسته، قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت/٣٦].

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس/١ : ٦].

٧٠ - مراعاة أصحاب الأعذار

رأى كُثير بن جهمان سيدنا عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - يمشى فى المسعى بين الصفا والمروة.

فقال له :

أتمشى فى السعى بين الصفا والمروة ؟

فقال ابن عمر :

لئن سعيت فقد رأيت رسول الله ﷺ يسعى، ولئن مشيت لقد رأيت رسول الله ﷺ يمشى، وأنا شيخ كبير».

(*) أخرجه الترمذى (ح ٨٦٤).

هذا الموقف في فقه التيسير على أصحاب الأعذار من المرضى وكبار السن، وتجنب أذى الغير بالمزاحمة والمدافعة، وعدم تحميل النفس فوق طاقتها من المشقة. وفيه هدى كريم لحجاج بيت الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة/٢٨٦].

إنَّ الناس تتفاوت قوتهم وطاقاتهم؛ ولذلك كان النبي ﷺ يجيب عن السؤال الواحد بإجابات متعددة رعاية لحال السائل وظروفه، فحين سُئل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله وتكرار السؤال، أجاب ﷺ الشاب الجلد القوى بالجهاد فى سبيل الله، وأجاب من يقوم على رعاية أبويه لكبرهما بأن جهاده فى البر والإحسان لوالديه، ويفتى الشيخ الهرم الذى لا يستطيع الجهاد فى ساحة الحرب بأن أفضل العمل له هو ذكر الله تعالى ... وهكذا.

والموقف تطبيق عملى وأسوة حسنة فى هذا المعنى، فحين رأى الرجل ابن عمر يمشى فى المسعى، والمسعى بين الصفا والمروة حركة السير فيها نوعان :

الأول : المشى فى الذهاب والإياب بين الصفا والمروة ما عدا المسافة المحددة بين الميلين الأخضرين، فيسن الهرولة فيها إذا بلغها الإنسان، وهو ما يسمى بالرمل.

فإذا عجز الإنسان عن الهرولة بين الميلين الأخضرين؛ بسبب عجز أو ضعف أو ازدحام فلا يدافع ولا يؤذى غيره بل عليه بالمشى.

ويقوى هذا المعنى ويؤكده قول رسول الله ﷺ لسيدنا عمر رضي الله عنه فى أثناء الحج:

« يا عمر : إنك رجل قوى، لا تزاحم على الحجر، فتؤذى الضعيف، إن وجدت خلوة فاستلمه، وإلا فاستقبله وكبر»[١].

ومن هنا قرر الفقهاء أن تقبيل الحجر سنة، فى حين أن إيذاء الغير جناية وذنب.

فعلى الحاج أن يلزم السكينة والتؤدة وأن يتجنب مدافعة إخوانه بل يتحمل ويصبر دون جدال أو مدافعة، فالطمأنينة والسكينة والخشوع من علامات فقه المؤمن للعبادة، وصدق إخلاصه لله تعالى فيها.

وكان من وصايا رسول الله ﷺ لحجاج بيت الله تعالى أن يلزموا السكينة، وذكر الله، ويتجنبوا إيذاء الغير والجدل؛ قال ﷺ : « يا أيها الناس عليكم بالسكينة؛ فإن البر ليس بالإيضاع»[٢] والإيضاع هو الإسراع.

يضاف إلى هذا ما يحدث فى منى، عند رمى الجمرات من أجساد تعتصر من شدة الزحام، وقد تزهق بعض الأرواح، فكل هذا مخالف لهدى الحبيب المصطفى ﷺ فى التيسير، وبخاصة عند اشتداد الزحام، ولنا أسوة فى حضرته ﷺ ؛ فقد جاءه سائل فى الحج، يقول: يا رسول الله، لم أُشعِر فنحرت قبل أن أرمى، فقال النبى ﷺ : « ارم ولا حرج»، فما سُئل النبى ﷺ يومئذ عن شىء قدم ولا أخر؛ إلا قال : « افعل ولا حرج»[٣].

اللهم فقِّهنا فى ديننا وخلِّقنا بخلق رسول الله ﷺ .

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (١/ ٢٨).
(٢) رواه أبو داود فى « المناسك » (ب ٦٤)، والترمذى (ح ٨٨٥).
(٣) أخرجه البخارى (١/ ٣١، ٤٣، ٢/ ٢١٥) ، ومسلم فى « الحج » (رقم ٣٢٧، ٣٢٨، ٢٣١، ٣٣٣).

٧١ - يُبْعَثُ مُلبيًا

بينما رجل واقف مع رسول الله ﷺ بعرفة، إذ وقع عن راحلته، فكسرت عنقه ومات.

فقال النبى ﷺ :

«اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه فى ثوبيه، ولا تمسوه بطيب، ولا تخمروا رأسه؛ فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة ملبيًا».

(*) أخرجه مسلم فى «الحج» (١٤/ ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٧، ٩٩).

هذا الموقف يبين لنا فضل من مات أثناء الحج، وأنه يبعث يوم القيامة ملبيًا؛ يقوم بين الناس فى أرض الموقف، وهو يقول : لبيك اللهم لبيك ...إلخ، وفى هذا ما فيه من حسن الخاتمة، وعظيم الجزاء الأوفى فى يوم القيامة بدخول الجنة، وحصول عفو الله، وعموم مغفرته لمن مات وهو يحج.

كما يشير الموقف إلى فضل التلبية، وأنها شعار الحج، وقد أخرج ابن ماجة وغيره عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : «أتانى جبريل فأمرنى أن آمر أصحابى أن يرفعوا أصواتهم بالإهلال والتلبية؛ فإنها شعار الحج»(١)، ومعلوم أن الجهر للرجال والسر للنساء.

أيضًا أخرج الطبرانى أن رسول الله ﷺ قال : «ما أهلَّ مهل قط وإلاَّ بُشِّر، ولا كبَّر مكبر قط إلا بُشِّر». قيل : يا رسول الله، بالجنة ؟ قال : «نعم»(٢).

ونص التلبية هو : «**لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك**».

ويقولها المحرم عند الشروع فى الإحرام وهو الميقات لم يتجاوزه، ويستحب تكرارها ورفع الصوت بها وتجديدها عند كل مناسبة من نزول أو طلوع أو ركوب أو إقامة صلاة أو فراغ منها أو ملاقاة الرفاق .. ونحو ذلك.

وتظل التلبية على لسان الحاج حتى يصل إلى منى بعد الوقوف بعرفات، والوقوف بالمزدلفة، فعندما يصل إلى منى يرمى جمرة العقبة بسبع حصيات ويكبر، ومن هذه اللحظة تنقطع التلبية مع آخر حصاة، ويبدأ التكبير : **الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر، ولله الحمد**».

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ٥٦).
(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط بإسنادين رجال أحمد هما رجال الصحيح. قاله فى المجمع (٣/ ٢٢٧).

كما يشير الموقف إلى فضل ثياب الإحرام، وأنها يكفن بها الحاج إذا مات وهو محرم؛ فهي ثياب شهدت طاعة من أعظم الطاعات، ونالت بركة الذكر والتلبية والصلاة، فهي شاهد خير لصاحبها.

وهكذا كان ذكر الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين - ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين- يعلمون أن الأشياء تُبارك بالطاعة، وبأهل الطاعة، يشهد لذلك ما رواه البخارى عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ ببردة منسوجة، فقالت : نسجتها بيدى لأكسوكها، فأخذها النبى ﷺ محتاجًا إليها، فخرج إلينا وإنها لإزاره، فقال فلان : اكسنيها، ما أحسنها! فقال : «نعم» فجلس النبى ﷺ فى المجلس، ثم رجع فطواها، ثم أرسل بها إليه، فقال له القوم: ما أحسنت ! لبسها النبى ﷺ محتاجًا إليها، ثم سألته، وعلمت أنه لا يرد سائلاً، فقال : إنى والله ما سألته لألبسها، إنما سألته لتكون كفنى، قال سهل : فكانت كفنه(١).

---

(١) راجع مجمع الزوائد ، باب «اللباس» الحديث الأول.

٧٢ - يا خير من دفنت بالقاع أعظُمهُ

قال العتبى : كنت جالسًا عند قبر النبى ﷺ ، فجاء أعرابى فقال :

السلام عليك يا رسول الله. قال الله تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء/٦٤]، وقد جئتك مستغفرًا ربى لذنبى، مستشفعًا بك إلى ربى ثم أنشأ يقول :

يا خَيْرَ من دُفِنَتْ بالقاعِ أَعْظُمُهُ
فطابَ من طِيبِهِنَّ القاعُ والأَكَمُ

نفسى الفداءُ لِقَبْرٍ أنتَ ساكِنُهُ
فيه العفافُ وفيه الجُودُ والكَرَمُ

ثم انصرف الأعرابى، فغلبنى النوم، فرأيت النبى ﷺ ، فقال لى : يا عتبى !! الحق الأعرابى فبشره أن الله قد غفر له».

(*) يؤيد هذا الموقف حديث الضرير فى التوسل به ﷺ .

هذا الموقف يفيض بدلالات إيمانية فى رحاب الحبيب الشفيع سيدنا محمد ﷺ منها :

فضل زيارة النبى ﷺ ؛ فهى سنة أجمع عليها جمهور العلماء، ويقول النبى ﷺ - فيما رواه البيهقى والدارقطنى وغيرهما عن ابن عمر - رضى الله عنهما - : « من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى »(١)، قال الحافظ ابن حجر : « إنها من أفضل الأعمال وأجل القربات الموصلة إلى ذى الجلال، وإن مشروعيتها محل إجماع ».

وقال الإمام القسطلانى : إن زيارة قبره الشريف ﷺ من أعظم القربات، وأرجى الطاعات، والسبل إلى أعلى الدرجات، ومن اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربقة الإسلام، وخالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام.

وهى لا تختص بالحاج أو المعتمر، ولكنها فى حقهما أكد لقوله ﷺ : « من حج ولم يزرنى فقد جفانى »(٢).

يظهر من الموقف ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن من أدب وإجلال لحضرة النبى ﷺ أثناء الزيارة، فحرمة رسول الله حيًّا كحرمته ميتًا، وقد قال الله تعالى : **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾** [الحجرات/٢].

والسنة فى الزيارة أن يغتسل المؤمن فى مسكنة بالمدينة، ويتوجه إلى المسجد النبوى، فيصلى ركعتين تحية المسجد، ثم يأتى فى أدب وسكينة قبر رسول الله ﷺ فيقف عند وجهه، وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل جدار القبر، وليس من السنة أن يمس الجدار، ولا أن يقبله، بل الوقوف من بعد

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٣/٤٥٧).
(٢) الدر المنثور (١/٢٣٧).

أقرب للاحترام والتوقير، ثم يسلم على النبى ﷺ؛ يقول : السلام عليكم يا رسول الله، أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت فى الله حق جهاده. ويثنى على رسول الله ﷺ بما أثنى الله به عليه، وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام، فيقول : السلام عليك يا رسول الله - من فلان ... ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على سيدنا أبى بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله ﷺ، ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على سيدنا عمر رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب سيدنا أبى بكر رضي الله عنه، ثم يرجع إن تيسر له فيقف عند رأس رسول الله ﷺ ويستقبل القبلة ويحمد الله ويمجده ويكثر الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ثم يقول : اللهم إنك قلت وقولك الحق : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء/ ٦٤].

اللهم إنا قد سمعنا قولك، وأطعنا أمرك، وقصدنا نبيك، مستشفعين به إليك فى ذنوبنا، وما أثقل ظهورنا من أوزارنا، تائبين من زللنا، معترفين بخطايانا وتقصيرنا، فتب اللهم علينا وشفع نبيك فينا، وارفعنا بمنزلته عندك، اللهم اغفر للمهاجرين والأنصار، واغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين.

ثم يأتى الروضة ويصلى فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع، فإن لم يكن حافظًا لدعاء القرآن والسنة، فليكثر من ذكر الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ.

فالروضة بقعة مباركة، لقوله ﷺ : « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة، ومنبرى على حوضى »[١].

---

(١) أخرجه البخارى (٢/ ٧٧، ٣/ ٢٩، ٨/ ١٥١، ٩/ ١٢٩)، ومسلم (رقم ٥٠٠، ٥٠٢).

٧٣ - حياة الشهيد عند ربه

لما استشهد عبد الله بن عمرو بن حرام ﷺ يوم أحد، قال النبى ﷺ لابنه جابر ﷺ:

«يا جابر : ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك ؟»

قال جابر : قلت : بلى يا رسول الله.

فقال النبى ﷺ : «لقد كَلَّم الله أباك، فقال له : يا عبدى تَمَنَّ علىَّ أُعْطك !!

فقال : يا رب تحيينى فأُقتل فيك ثانية.

قال الله تعالى له : إنه سبق القول منى أنهم إليها لا يرجعون».

وأنزل الله قوله :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران/ ١٦٩].

(*) رواه أحمد (٣ / ٣٦١) بسند حسن، والترمذى فى التفسير (٤ / ٨٤) وحسنه.

في هذا الموقف بيان لمكانة الشهيد عند الله تعالى؛ ولأجل هذه المكانة كان الصحابة يتسابقون ويتنافسون ويسارعون لنيل الشهادة في سبيل الله، فقد روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: قال رجل: أين أنا يا رسول الله إن قتلت ؟ قال ﷺ : «في الجنة». فألقى الرجل بتمرات كنَّ في يده، ثم قاتل حتى قُتل[١].

ومن دلالات هذا الموقف : أن الشهيد سعيدٌ باستشهاده، وأنه يتمنى أن يرد إلى الدنيا ليقتل في سبيل الله مرة ثانية، كما أن الشهيد يحب أن يُعلم إخوانه النعيم الذى يتقلب فيه في الجنة؛ لذلك قال عبد الله : يا رب أبلغ من ورائي. كيف لا والشهيد حي عند ربه ؟ قال تعالى : ﴿ **وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة/ ١٥٤].

ومن دلالات هذا الموقف أيضًا أن الإسلام يربي في أتباعه روح التضحية والفداء، فإما النصر وإما الشهادة؛ قال تعالى :

﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ** ﴾ [التوبة/ ٥٢].

ورغبت الآيات أهل الإيمان في الجهاد، وجعلت فيه عزهم، قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ * لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ**

(١) رواه مسلم (١٣/ ٤٥، ٤٦).

قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ * لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ ﴾ [الحشر/ ١٠ : ١٤].

وأنذرت وحذرت من ترك الجهاد، وجعلت في تركه ذلهم، قال تعالى : **﴿ إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾** [التوبة/ ٣٩].

٧٤ - رياضة فى بيت النبى ﷺ

خرجت السيدة عائشة (رضى الله عنها) مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره، وكانت سريعة الحركة خفيفة، وهى آنذاك جارية. فقال النبى ﷺ للناس :

«تقدموا»، فتقدموا، ثم قال :

«تعالى أسابقك». فسابقته فسبقته، فسكت ﷺ. حتى إذا امتلأت وزاد وزنها، وكانا فى سفرة أخرى، قال النبى ﷺ للناس : «تقدموا» فتقدموا، ثم قال :

«تعالى حتى أسابقك» فسابقته فسبقها، فجعل يضحك ويقول :

«هذه بتلك».

(*) أخرجه أحمد فى المسند (٦/ ٢٦٤).

هذا موقف نبوى كريم يحمل دلالات تربوية هادية :

أولاها : هذا الود وهذا الحنان، وهذه الملاطفة التى كانت من رسول الله ﷺ لعائشة – رضى الله عنها – ليضرب للأزواج المثل ويقدم لهم الأسوة الحسنة فى حسن العشرة وملاطفة الزوجات.

ثانيتها : أن رسول الله ﷺ يقدم لنا أسلوبًا حكيمًا فى الترويح عن الأهل، وبخاصة فى الأوقات التى تتسم بالشدة والصعوبة، كأيام السفر، أو العمل الشاق ونحو ذلك؛ فالنبى ﷺ حين دعا عائشة إلى أن تسابقه كان فى سفر.

وفى الأثر: «روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت عميت»(١).

ويستفاد من هديه ﷺ فى هذا الموقف أن أسلوب الملاطفة والترويح يُهون الصعاب ويدخل السرور على الصاحب.

ثالثتها : فى الموقف إشارة إلى لون من ألوان الرياضة، وهو المنافسة فى الجرى، وهو من جملة سنته ﷺ التى تحث المسلم على الرياضة والعناية بجسده؛ لأن الجسد نعمة من نعم الله تعالى.

وفى هذا الإطار نجد سيدنا عمر رضي الله عنه يحثنا على تعليم أولادنا السباحة والرماية وركوب الخيل. وحين تصدى فارس مصارع لرسول الله ﷺ صارعه النبى ﷺ فصرعه رسول الله ﷺ.

---

(١) هو من قول الإمام على – عليه السلام – ويشهد له ما ورد من حديث أنس بلفظ: «روحوا القلوب ساعة فساعة». أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب (١/٣٩٣)، وفيه الوليد بن محمد الموقرى وهو متروك.

٧٥ - أثر الصفح والعفو

ذهب فَضالةُ بن عُمَيْر الليثى قاصداً قتل النبى ﷺ أثناء طوافه بالبيت، فلما دنا منه قال الرسول ﷺ : «أفضالة ؟!» قال : نعم فضالة يا رسول الله.

قال : ماذا كنت تحدِّث به نفسك ؟

قال : لا شيء، كنت أذكر الله !

فضحك النبى ﷺ ثم قال : استغفر الله.

ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فما كان من فضالة إلا أن قال : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خَلقِ الله أحب إلىَّ منه.

وأسلم فضالة بهذا الصفح الكريم، وزالت من قلبه العداوة، وحلت محلَّها محبة رسول الله ﷺ.

(*) ابن حجر فى الإصابة (٥ / ٢١١).

هذا الموقف يحمل فيضًا كريمًا من سماحة رسول الله ﷺ وعفوه، وحرصه على الآخر، وأنه كان يقابل الإساءة بالإحسان.

لقد قدم ﷺ أعظم المناهج التربوية للمصلحين، ووصف لهم سبل الهداية التى يتمُّ بها إنجاز أخطر وأعظم عملية تغيير للإنسان : من الضلال إلى الهدى، ومن الفساد إلى الصلاح، ومن الكفر إلى الإيمان، وهذه حقيقة أكدها القرآن الكريم فى حق المصطفى ﷺ، قال تعالى :

﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران / ١٦٤].

وأمام هذه المهمة السامية والرسالة العالية، ألا وهى هداية الناس، يوضّح لنا رسول الله ﷺ – من خلال هذا الموقف – أنه لا مكان لنزغات النفس وظهور الأنانية، وهكذا كان شأنه ﷺ أنه ما كان ينتصر لنفسه، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتقم لنفسه، إلا أن تنتهك حرمةٌ من حرمات الله.

لقد باع نفسه لله : ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأنعام/ ١٦٢].

ولا غرابة بعد ذلك أن نرى النبى ﷺ قد ألزم نفسه التواضع، وكان يقول: «إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد»(١).

ودلالة أخرى فى هذا الموقف: هى استعانة الداعية والمصلح والمربِّى بالله (عز وجل) فى معالجة فكر ونفس ومشاعر من أمامه؛ كى لا يرى لنفسه فضلاً فى هذا التحول النورانى، وذلك التغير الإيمانى، بل ينسب الفضل لله عز وجل؛ لذلك دعا ﷺ لفضالة بالهداية : «اللهم اهد قلبه».

---

(١) طبقات ابن سعد (١ / ١ / ٤، الدر المنثور ٦ / ١١١).

أيضًا هناك دلالة أخرى فى هذا الموقف النبوى الكريم، وهى إرشاد الحائر الضال إلى ما يصلح شأنه من ذكر أو دعاء أو عمل صالح؛ لذلك قال النبى ﷺ لفضالة : «استغفر الله يا فضالة».

ثم تأمل – رحمك الله – فى هذا الموقف النبوىّ الكريم، كيف قابل النبى ﷺ رغبة القتل من فضالة بالابتسامة الحانية، والكلمة الطيبة والدعاء، واليد الحانية التى كانت بلسمًا سكن به قلب فضالة، وتحوَّل الموقف من العداوة إلى المحبة، وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت/٣٤].

٧٦ - لا أسبقه إلى خير أبداً

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق، ووافق ذلك مالاً عندى، فقلت :

اليوم أسبق أبا بكر رضي الله عنه فجئت بنصف مالى، فقال رسول الله ﷺ :

« ما أبقيت لأهلك ؟ » قلت : مثله .

وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبا بكر، ما أبقيت لأهلك ؟ » .

قال : أبقيت لهم الله ورسوله .

فقال عمر :

لا أسبقه إلى خير أبداً .

(*) أبو داود : (رقم ١٦٧٨)، والترمذى (٣٦٧٥)، والحاكم (١ / ٤١٤) .

هذا الموقف يحمل لنا هديًا وفقهًا فى همم الرجال الأفذاذ فى الإنفاق ابتغاء مرضاة الله تعالى ؛من أجل بناء الأمة ورفع شأنها .

ونحن فى هذا الموقف نعيش مع هؤلاء الصحابة – رضى الله عنهم – وقد مضوا إلى ربهم، وبقيت آثارهم فيها الأسوة والقدوة، كما قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام/ ٩٠] .

فأين نحن – المسلمين – من هذه القيم ؟!

أين نحن من هذه القدوة ؟

بل أين نحن من هذا الواجب ؟

إن النفقة ابتغاء مرضاة الله لا تقتصر على الضعفاء والمرضى وأصحاب الحاجات كما هو شائع بين الناس فى زماننا المعاصر، بل تمتد الصدقة فى الإسلام لتشمل كل ما ينهض بأمتنا ويرفع من شأنها بالإنفاق على بناء العقول والقلوب .

نحن بحاجة إلى أن نصعد بالعمل التطوعى خطوة لنتجاوز مجال الإيواء وحفظ الحياة وتخفيف آلام المنكوبين إلى صنع الحضارة؛ كى يستعيد المسلمون دورهم المتقدم فى الحياة، وما أحوج المسلمين لهذا الدور فى عالم العولمة حيث السيادة لثقافة الأقوى والأعلم والأغنى، أما الضعيف المتأخر فليس له إلا موائد الهبات والمنح والإعانات، وبهذا يكون الضعيف تابعًا للأقوى الذى يملك العلم والحضارة .

وحين يرقى وعى الأمة ليدرك دوره المعاصر فسيدرك أن الصدقات فى الإسلام شرعت وفاءً بحاجات الأمة، وقد جعل الله تعالى من بين مصارف الزكاة والصدقات مِصرفًا يشمل هذه الجوانب التى تعود بالنفع على المجتمع والأمة معًا، هذا المصرف هو : فى سبيل الله .

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة/ ٦٠].

٧٧ - تضحية وفداء

حمل مصعب بن عمير رضي الله عنه اللواء يوم أُحد ، فلما خالف الرماةُ أمر رسول الله ﷺ وتحول النصر إلى هزيمة ، تكاثر المشركون على مصعب فضربه أحدهم على يده اليمنى فقطعها ، فأخذ مصعب اللواء بيده اليسرى ، فضربه المشركون على يده اليسرى ، فقُطعت ، فضم مصعب اللواء إلى صدره بعضديه ، ثم حملوا عليه حتى استشهد ، فلم يترك مصعب اللواء حتى استشهد .

(*) راجع أسد الغابة [٤ / ٤٠٦]، سيرة ابن هشام [٢ / ٧٣، ١٢٢].

هذا الموقف يعلمنا درسًا فى معنى التضحية والفداء فى سبيل الله تعالى كما يظهر لنا هذا الموقف البناء الإيمانى لشخصية المؤمن، ذلك البناء الذى يهيئ المؤمن – فى ساحة المواجهة والقتال – إلى التعلق بالله تعالى، لذلك لا يرضى المؤمن إلا بإحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة/ ٥٢].

وفى عرض تفاصيل موقف سيدنا مصعب ﷺ توضيح لدرس التضحية والفداء، وإظهار لموعظة غالية فى عُلو همة المؤمن فى ساحة الجهاد.

ففى غزوة أحد، وقف رسول الله ﷺ بين صفوف المسلمين، ينظر إلى الوجوه المؤمنة ليختار من بينها من يحمل الراية، وينادى النبى ﷺ :

« يا مصعب ، تقدم واحمل اللواء ».

وتبدأ المعركة، ويشتد القتال، ويخالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، ويغادرون موقعهم فى أعلى الجبل بعد أن رأوا المشركين ينسحبون منهزمين، وبسبب هذه المخالفة تحول نصر المسلمين إلى هزيمة، حيث أسرعت فرسان قريش تأتى المسلمين من أعلى الجبل، وحدث شيء من الذعر والفوضى، وأشاع المشركون أن رسول الله ﷺ قد قُتل.

وأدرك مصعب بن عمير الخطر الغادر، فرفع اللواء عاليًا، وأطلق تكبيرة قوية كزئير الأسد، ومضى يصول ويجول، وكل همه أن يلفت نظر الأعداء إليه ويشغلهم عن رسول الله ﷺ.

وإنه لموقف مشهود لمصعب. يدٌ تحمل الراية، ويد تضرب بالسيف، ولكن الأعداء يتكاثرون عليه، ومصعب بن عمير يرفع الراية بيمينه، ويضرب بالسيف بيساره، ويتلو قول الله تعالى :

﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ [آل عمران / ١٤٤] .

حتى جاءه فارس مشرك من بين هؤلاء الذين تكاثروا عليه وأحاطوا به لقتله، فضرب اليد اليمنى لمصعب، والتي بها الراية فقطعها، فسقطت يد مصعب ولم تسقط الراية، لقد التقطها بيساره، فضربه الفارس على يده اليسرى فقطعها، فسقطت يده اليسرى ولم تسقط الراية؛ لأن مصعباً قد حنا على الراية بصدره وضمها بعضديه، حتى أجهز المشركون على مصعب، فلم يترك الراية حتى استشهد .

٧٨ - ابدأ بنفسك

جاء رجل لابن عباس - رضى الله عنهما - وقال له : إنى أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، فقال له : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله تعالى، فافعل، وإلا فابدأ بنفسك.

قال الرجل : وما هى ؟

قال : قوله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة/٤٤].

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف/٢-٣].

وقوله تعالى : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود/٨٨].

فقال الرجل : أبدأ بنفسى.

(*) الإحياء [٤/٢١٣].

هذا الموقف يحمل دلالات هادية لأهل الدعوة والإرشاد :

أولاً : أهمية القدوة الصالحة والأسوة الحسنة فيمن يتصدى للدعوة والإرشاد، فعلى الداعية أن يبدأ بنفسه، حتى يكون كلامه موافقًا لحاله، فيرى الناس فيه الأسوة والقدوة، وبهذا يكون لكلامه أبلغ الأثر فى النفوس، ومن الحكم المأثورة فى هذا المعنى قولهم : « حال رجل فى ألف رجل أبلغ من كلام ألف رجل فى رجل ».

ثانيًا : الأسلوب الحكيم فى الإقناع، والذى يقوم على بيان الحجة البالغة التى تستند إلى آيات القرآن الكريم. وهكذا نتعلم من الصحابة - رضى الله عنهم - الأسلوب العلمى فى التفكير ومعالجة الأفكار وإقامة الحوار، فالعلم حقائق نتوصل إليها بالأدلة الصحيحة، بعيداً عن الهوى. وهكذا ينبغى أن يكون حال أهل الدعوة فى معالجة الأفكار والمشاعر بأسلوب مقنع يقوم على تقديم الدلائل والبراهين، وأن نثير انتباه العقل إلى الحقائق النافعة، وأن نلفت نظر المحاور إلى النتائج المترتبة على رأيه.

ثالثًا : الآيات التى اتخذها ابن عباس - رضى الله عنهما - برهانًا لنصيحته يدور معناها حول أهمية القدوة الصالحة والأسوة الحسنة فى الداعية، فالآية الأولى هى قوله تعالى : ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ**﴾ [البقرة/٤٤]. أى ليس من شأن العاقل أن يأمر الناس بالبر ويدعوهم إلى الخير ويهمل نفسه.

والثانية قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف/٢، ٣].

فهذا إنكار - من الله تعالى - على من وعد وعداً أو قال قولاً ولم يفِ به؛ لأن ذلك من علامات النفاق.

والآية الثالثة هي قوله تعالى : ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود/٨٨].

وفي الآية بيان لحال نبي الله شعيب مع قومه، وذكره الله في القرآن كي نتأسى به في الدعوة إلى الله تعالى، ومعنى الآية: أي لم أكن أنهاكم عن شيء وأرتكبه، وإنما قصدي ومرادي إصلاح حالكم مع الله، وأستمد عوني وتأييدي في ذلك من الله تعالى، فعلى الله توكلي في كل أموري وإليه المرجع والمآب.

٧٩ - مفتاح الرضا

مات ابنٌ للحُسين بن على - رضى الله عنهما - فلم يُر عليه كآبة، فعُوتِب فى ذلك، فقال:

إنَّا - أهلَ البيت - نسأل الله تعالى فيعطينا، فإذا أراد ما نكره - فيما نحب - رضينا.

(*) أخرجه الترمذى (٢٣٠٥).

هذا الموقف يعلمنا أدب الرضا بقضاء الله وقدره، فالمؤمن يرضى بما يرضى الله به، وهذه أخلاق آل بيت المصطفى ﷺ، فهى من أخلاق جدهم ﷺ . رضاهم فى رضا الله عز وجل، فهم موقنون بأن المعطى هو الله تعالى، فإذا استرد الله عاريته وأخذ ما أعطاه، فالمؤمن الموفق يسلم لمولاه، ويرضى قلبه بما قدَّره الله وقضاه.

والرضا درجة لا تتأتى إلا لخواص المؤمنين، فالرضا درجة أعلى من الصبر، فالصبر تسليم بقضاء الله مع وجود الحزن والألم، ومع التألم والحزن يلزم الإنسان نفسه هدى الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فى القول والفعل عند وقوع البلاء، وفى هذا مجاهدة للنفس.

وفى المقابل نجد أن الرضا فيه تسليم كامل دون تألم أو حزن أو جزع، لأن برد الإيمان يطفئ نار المصيبة، ويتجلى الله بلطفه وكرمه على هذا القلب المؤمن فيملؤه رضًا بقضاء الله وقدره.

وقد جعل الله جزاء الرضا من جنسه، فمن رضى فله الرضا، قال الله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ . ثم بيَّن ربنا سبيل الرضا، فقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة/٨].

وثمرات الرضا بقدر الله فينا طيبة، تطيب بها حياة المؤمن فى الدنيا، وتورثه المنازل العالية والدرجات العظيمة فى الجنة يوم القيامة، فمن رضى بقدر الله فى رزقه جعل الله غناه فى قلبه، وفى الحديث النبوى الشريف، قال النبى ﷺ : « وارْضَ بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »(١).

ومن رضى عن الله فى كل قضائه وقدره، فقد بشره الله بالفوز العظيم يوم القيامة، قال الله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة/١١٩].

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٠٥).

وأنعم عليهم برضاه، ونسبهم إلى نفسه، ووصفهم بالفلاح، فقال الله تعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة/ ٢٢].

وليعلم المؤمن أن أفضل حال له هو ما اختاره الله سبحانه وتعالى، فينبغي ألاَّ تلعب الأهواء بعقولنا وقلوبنا، فكم من شيء من زخرف الدنيا أحببناه وطلبناه، فلما تحقق لنا أصابنا بسببه الشقاء والعناء، وسبحان الله القائل: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة/ ٢١٦].

٨٠ – دَعُوا التصنُّع

رأت السيدة عائشة – رضى الله عنها – رجلاً متماوتًا، فقالت:

ما بال هذا ؟

فقالوا :

إنه يُظهر الصلاح.

فقالت :

كان عمر رضي الله عنه أصلح منه، كان إذا مشى أسرع، وإذا أطعم أشبع، وإذا تكلم أسمع، فَدَعُوا التصنُّع ؛ فإن الله لا يقبل من متصنّعٍ عملاً.

(*) راجع عمر بن الخطاب ، لابن الجوزى.

إن هذا الموقف يحمل بصائر هادية تصحح الخلل الذى يقع فيه بعض العامَّة، وهو تكلف إظهار الخشوع والخضوع فى الحركات والسكنات والأقوال والأفعال، بل وربما بالغ بعضهم فى إهمال هيئته ومظهره.

وفى الموقف الذى بين أيدينا أنكرت السيدة عائشة - رضى الله عنها - على هذا الرجل الذى يتكلف ويتصنع فى حركاته ومظهره ليظهر فى ثياب الخاشعين المتبتلين يظهر هذا من قولها : «ما بال هذا؟»، ثم وضَّحت - رضى الله عنها - حقيقة الصلاح والخشوع، وأنه يكون فى الجدِّية والالتزام وترك التكلف والتصنُّع؛ كى يكون مظهر الإنسان معبراً عن جوهره، ويكون خشوع الجوارح تعبيراً عن خشوع القلب؛ فالإسلام ينكر الزيف فى الأفعال والأقوال، فى الحركات والسكنات، ويربِّى فى أبنائه الصدق.

ومن بصائر هذا الموقف الهادية أن السيدة عائشة - رضى الله عنها - أوضحت حقيقة إيمانية بقولها : «فدعوا التصنُّع؛ فإن الله لا يقبل من متصنعٍ عملاً»، هذه الحقيقة هى أن التصنع باب من أبواب الرياء، وأن الله - عزَّ وجلَّ - لا يقبل عمل المرائين الذين أشركوا مع الله عز وجل غيره فى أعمالهم، وفى هذا يقول النبى ﷺ : «إن الله أغنى الشركاء عن الشرك»(١) ... الحديث.

ولقد حدد الإسلام وصفين للعمل الذى يرجى له القبول عند الله تعالى :

الوصف الأول : صلاحية العمل، وذلك بموافقته هدى القرآن وسنة رسول الله ﷺ.

والوصف الثانى : هو إخلاص العمل لله، كما يتضح من قول الله تعالى : **﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾** [الكهف/ ١١٠].

---

(١) سبق تخريجه.

٨١ - ما قلت شيئًا من عندى

شكا رجل إلى الحسن البصرى الجُدُوبة، فقال له : استغفر الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال له الحسن البصرى :

استغفر الله.

وقال له آخر :

ادع الله أن يرزقنى ولدًا، فقال : استغفر الله.

فسُئِلَ عن ذلك ، فقال :

ما قلت شيئًا من عندى، إن الله تعالى يقول :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح/ ١٠:١٢].

(*) راجع الطبرى فى التفسير.

هذا الموقف يوضح لنا فضل الاستغفار، حيث إن الذنوب من أكبر العوائق والحجب التى تمنع خيرًا كثيرًا، قال الله تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى/ ٣٠].

وإن العبد لَيُحْرَمُ الرزق بالذنب يصيبه؛ لذلك كان الاستغفار من أعظم السبل التى تُرجى بها إزالة الحُجُب والعوائق التى تمنع الإنسان من خير كثير.

ينطلق الحسن البصرى - فى هذا الموقف - فى نصحه للسائلين من منطلق إيمانى ووعى بحقائق القرآن الكريم، فقد قال الله عز وجل: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾.

ويقول النبى ﷺ: «من لَزِمَ الاستغفار جعل الله له من كل ضيقٍ مخرجًا، ومن كل همٍّ فرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب»[(١)].

لذلك نصح الحسن من شكا إليه الفقر بالاستغفار، ومن رغب فى الولد بالاستغفار أيضًا ... وهكذا.

وعن أثر الاستغفار فى محو الذنوب يقول النبى ﷺ فيما يرويه عن ربه: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتنى ورجوتنى غفرت لك على ما كان منك ولا أُبالى، يا ابن آدمَ، لو بلغت ذنوبك عَنان السماء ثم استغفرتنى غفرتُ لك ولا أُبالى، يا ابن آدم، إنك لو أتيت بقُراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشركُ بى شيئًا لأتيتك بقُرابها مغفرة»[(٢)]. وقراب الأرض يعنى: ملء الأرض.

---

(١) رواه أبو داود (رقم ١٥١٨)، ابن ماجه (رقم ٣٨١٩).

(٢) راجع مجمع الزوائد (١٠/ ٢١٥)، والحديث صحيح.

والاستغفار من ألوان الذكر التى كان النبى ﷺ حريصًا عليها فى اليوم والليلة، قال ﷺ : «والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[١].

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٢ / ٤٥٠)، وابن ماجه (رقم ٣٨١٦).

٨٢ - آه من بُعْدِ السفـر

لمَّـا مـرض أبـو هريرة ﷺ مـرض المـوت، بكـى، فقيـل له:

ما يبكيك يا أبا هريرة ؟!

فقال :

أما إنى لا أبكى على دنياكم هذه، ولكننى أبكى لبعد السفـر وقلة الزاد، ونفس مقبلة علـى الرحمن، ولا أدرى أإلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ؟

ثم دعا ربه قائلاً :

اللهم إنى أحب لقـاءك فـأحب لقـائى، وعَـجِّل لى فيـه.
ثم فارق الحياة بعدها.

(※) ابن رجب الحنبلى فى جامع العلوم والحكم، الحديث (رقم ٢٩).

هذا الموقف يفيض بأنوار الإيمان، ويظهر لنا أثر هذا النور إذا دخل القلب وهو موافق لهدى الحبيب المصطفى ﷺ، وما أحوجنا جميعًا إلى مثل هذا الدعم المعنوى الإيمانى الذى يُقربنا من الله تعالى، ويرفع من همتنا فى فعل الصالحات وترك المنكرات. وقد أخرج الحاكم فى المستدرك عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

لقد قرأ النبى ﷺ قول الله تعالى: ﴿**أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ**﴾ [الزمر/٢٢].

ثم قال ﷺ: «إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح»، فقالت الصحابة: وهل لذلك من علامة يُعرف بها يا رسول الله ؟ فقال النبى ﷺ: «نعم، التجافى فى دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل الرحيل»[(١)].

قد تسيطر النزوات والشهوات والرغبات على بعض الناس فتحولهم إلى قيمة استهلاكية تجعلهم عبئًا على مجتمعهم وتحرمهم من المشاركة فى فعل الخيرات من صدقة أو تعليم أو إصلاح. فإذا استجابوا لهدى الله تعالى ولسنة الرسول ﷺ تحولت حياتهم إلى نعيم، وتصبح لحياتهم قيمة عند الله وعند الناس، ينتفع بهم مجتمعهم ويسعد بهم فضلاً عن سعادتهم ورضاهم.

قال الله تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ [الأنعام/١٢٢].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾ [الأنفال/٢٤].

وهكذا صنعت تعاليم الإسلام وهدايات القرآن والسنة فى سيدنا

---

(١) المستدرك ٤/٣١١.

أبـــى هـريـرة رضي الله عنه حالة من التجافى والبعد عن الأطماع والرغبات والنزوات والشهوات فى دار الغرور، وحالة من الإنابة والخضوع لله والتبتل إليه والخوف والخشوع مع الرجاء والأمل فى رحمة الله تعالى، وتذكر الموت والاستعداد له بفعل الصالحات وترك الموبقات.

وعلى هذا المنوال وبنفس الأسلوب يكون إكـــرام كل من أقـبل على الله تعالى جادًا صادقًا، فله البشرى، قال ﷺ: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[1].

---

(١) أخرجه البخارى فى مواضع (١/ ١٠، ١٢، ٩/ ٢٥).

٨٣ - دأب الصالحين

أشفق بعض الصحابة على سيدنا عمر رضي الله عنه من اشتغاله في نهاره بمصالح الرعية، فإذا جاء الليل أطال قيام الليل، فلما حدثوه في ذلك، قال لهم :

«إذا نمتُ بالنهار ضيعتُ رعيتي، وإذا نمت بالليل ضيعتُ نفسي».

(*) راجع : أسد الغابة (٣/٦٤٢).

هذا الموقف العمرى يحمل فقهًا عظيمًا فى فضل قيام الليل، وأهمية حرص المؤمن عليه حتى مع اجتهاده فى عمله فى نهاره، وأن الصالحين فى هذه الأمة لا يمنعهم جهدهم بالنهار من قيام الليل، وكذلك لا يؤثر قيامهم الليل فى درجة إجادتهم واجتهادهم فى أعمالهم بالنهار.

وحسب أهل قيام الليل من الثناء ما مدحهم الله به فى قرآنه، ووعدهم به من المثوبة، قال الله تعالى :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة/١٦، ١٧].

ولقد مدح الله عباد الرحمن بأن نهارهم كله طاعة وتواضع بين الناس، وليلهم سجود وتعبد، قال تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفرقان/٦٣، ٦٤].

ويُعَدُّ ترك قيام الليل نقصًا فى صاحبه؛ لقول النبى ﷺ عن عبد الله بن عمر: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل»[١] فكان عبد الله بعدها لا ينام من الليل إلا قليلاً.

وهناك أسباب معينة على قيام الليل ، وأهمها :

١ - الحرص على الحلال فى المطعم والمأكل والمشرب.

٢ - ترك الفضول واللغو من الكلام والعمل أثناء النهار، فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

(١) البخارى (٢/ ٦١، ٦٩)، ومسلم (١٩٢٨، ١٩٢٩).

٣ – الراحة فى وقت القيلولة إن أمكن ذلك.

٤ – النوم مبكرًا وعدم تضييع الوقت فيما لا يفيد، فإذا نام الإنسان متأخرًا ضيع على نفسه قيام الليل وصلاة الفجر.

٥ – النوم على السنة : بأن يتوضأ ويذكر الله تعالى ويقرأ الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين ويمسح جسده ثم يسمِّى الله تعالى، ويدعو بدعاء النبى ﷺ : «باسمك اللهم وضعت جنبى وبك أرفعه»[١]. إلى آخر الدعاء.

٦ – ثم يسامح كل المسلمين ولا يجعل فى قلبه حقدًا ولا حسدًا لأحد أبدًا.

٧ – وأن ينوى الاستيقاظ لقيام الليل وصلاة الفجر، ويطلب ذلك من ربه بقلبه.

ويبشرنا رسول الله ﷺ بأن من قام الليل نال من الخير والبر الكثير، قال النبى ﷺ : «إن من الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كُلَّ ليلة»[٢].

---

(١) أخرجه الدارمى (٢ / ٢٩٠).
(٢) رواه مسلم (رقم ٥٢١)، وأحمد (٣ / ٣٤٨).

٨٤ - كما بررت بى

ظَلَّ أبو هريرة رضي الله عنه طوال حياته بارًّا بأمه، فكان كلما أراد الخروج من البيت وقف على باب حجرتها، وقال :

السلام عليكم يا أمَّاهُ ورحمة الله وبركاته.

فتقول أمه :

وعليك السلام يا بُنى ورحمة الله وبركاته.

فيقول لها :

رحمك الله كما ربَّيتِنى صغيراً.

فتقول أمه :

ورحمك الله كما بَرَرْتَ بى كبيراً.

(*) راجع: الإصابة ، ترجمة : أبى هريرة.

هذا الموقف أسوة أخلاقية وقدوة إيمانية في البر بين الآباء والأبناء. وبرُّ الأبناء ما هو إلا ثمرة لبرٍّ سابق من الآباء، وهذا هدى إيماني أرشدنا إليه الإسلام الحنيف، فقد أمرنا رسول الله ﷺ بالبر بالأبناء، بداية من اختيار الزوجة الصالحة، التي هي الأم المربية بعد ذلك، وكذلك أرشدنا رسول الله ﷺ باصطفاء أفضل الأسماء وأحسنها لأبنائنا، ثم تربيتهم بأدب القرآن والسنة، ويبين المصطفى ﷺ أنه ما نَحَلَ - أي ما أعطى - والد لولده أفضل من أدب حسن. فإذا كان برُّ الآباء سابقًا على هذا النحو الذي أرشد إليه رسول الله ﷺ، فإن الثمرة والنتيجة له بر الأبناء للآباء.

وبشأن بر الأبناء بالآباء فقد أمر الله به، وعظم من شأنه، فجعله في سياق الأمر بالتوحيد وعبادة الله تعالى وعدم الشرك به، من ذلك قول الله تعالى: **﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾** [لقمان/١٤].

وقوله تعالى: **﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾** [الإسراء/٢٣/٢٤].

وفي السنة النبوية المطهرة بيان ومزيد توضيح لبر الوالدين وبخاصة الأم. من ذلك:

ما أخرج مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبي ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟

فقال: «الصلاة على وقتها» قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «ثم بر الوالدين».

قلت: ثم أيٌّ؟ قال: «ثم الجهاد في سبيل الله»[1].

(١) راجع: الترغيب والترهيب (٣/٥٢٥).

وهنا فقه يجب أن نتنبه إليه وهو أن الله تعالى يقوى ويدعم العلاقات الودودة الحميمة بين أفرادالأسرة، التى يقوم الترابط فيها على قيم الإيمان والخلق والوفاء؛ رغبة فى مرضاة الله تعالى، بدلاً من قيم المصالح والمنافع، فإذا كبر السن ووهن العظم أخرج الأبناء الآباء إلى دور غريبة، يعيشون كمن انقطع أصله ورحمه.

وفى هذا حماية لكيان الأسرة المسلمة؛ لأن ترابط هذا الكيان بالإيمان والخلق والبر فيه استقرار نفسى للمسلم، كما أن فيه التراحم والتعاطف، وإن من يُضيع أباه أو أمه أو يعقُّهما، فهو إلى تضييع مجتمعه ووطنه أسرع.

٨٥ – اليهود أهل غدر وبهتان

لما أسلم عبد الله بن سلام، كتم إسلامه عن اليهود فترة من الزمن، ثم قال لرسول الله ﷺ : ادع زعماء اليهود وسلهم عن منزلتي عندهم قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنهم إن علموا أني أسلمت عابوني، فلما سألهم النبي ﷺ عن عبد الله بن سلام قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبرُنا وعالمنا.

فقال النبي ﷺ : «أفرأيتم إن أسلم أفتسلمون؟».

فقال اليهود : حاشا لله، أعاذه الله من أن يُسلم. فخرج إليهم عبد اللهِ بن سلام، وقال لهم : يا معشر اليهود، اتقوا الله وآمنوا برسوله الذي تجدونه عندكم في التوراه ، وإني قد أسلمت.

فقال اليهود : كذبت ، والله إنك لشرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا، وعابوه.

(*) راجع البخاري، كتاب المناقب، مناقب عبد الله بن سلام.

هذا الموقف يكشف لنا عن أسلوب اليهود فى مواجهة الحقائق، فإنهم ينكرون الحق الواضح، ويضللون، وأن الجدال بالباطل من طبعهم، من وافقهم فى طغيانهم وإفسادهم مدحوه، ومن خالفهم فى ضلالهم عابوه، حتى الأنبياء لم يسلموا منهم، عابوهم، وقتلوهم.

وفى ثنايا الموقف – الذى بين أيدينا – مواعظ وعبر للمسلمين، ودروس تكشف لنا عن طبيعة أعداء الدين، فلا نُخدع.

لقد أسلم عبد الله بن سلام لما رأى النبى ﷺ يدعو إلى الفضائل وينهى عن الرذائل ويبشر من آمن بالجنة، ولقد أسلم أهل بيته معه.

وطلب عبد الله بن سلام من أهله أن يكتموا إسلامه عن اليهود. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهتان وباطل، وإنى أحب أن تدعو رؤساءهم إليك، وأن تسترنى عنهم فى حجرة، ثم تسألهم عن منزلتى عندهم قبل أن يعلموا بإسلامى، ثم تدعوهم إلى الإسلام، فإنهم إن علموا أنى أسلمت عابونى، ورَمَوْنى بكل نقيصة وبهتان.

فأدخلنى رسول الله ﷺ فى بعض حُجُراته، ثم دعاهم إليه وأخذ يحضهم على الإسلام، ويحبب إليهم الإيمان، ويذكرهم بما عرفوه فى كتبهم من أمره ﷺ.

فجعلوا يجادلونه بالباطل، فلما لم يستجيبوا لرسول الله ﷺ، قال لهم: ما منزلة ابن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وابن حبرنا، وعالمنا وابن عالمنا.

قال النبى ﷺ: «أفرأيتم إن أسلم، أفتسلمون؟».

فقالوا: حاشا لله، ما كان ليسلم، أعاذه الله من أن يسلم. فخرج إليهم عبد الله بن سلام وقال لهم: يا معشر اليهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به

محمد، فوالله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله، وتجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة باسمه وصفته، وإني أشهد أنه رسول الله وأومن به، وأصدقه.

فانقلبوا رأسًا على عقب، وتحولوا عن عبد الله بن سلام وحملوا عليه بكلام شديد، فقالوا: كذبت، والله إنك لشرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا، ولم يتركوا عيبًا إلا عابوه به.

وهذا هو طبع اليهود في التضليل والجدال بالباطل، ونسج التهم حول الزعماء إذا خالفوهم أو أظهروا إفسادهم، كذلك يزرعون الفتن ويشعلونها بين الشعوب كي تضعف وتذل لهم، ويدبرون المؤامرات، ويلفقون التهم للتخلص من العناصر المؤثرة في الصراع معهم، ويفسدون في الأرض بإشاعة المخدرات بين أبناء شعوبنا، ونشر الثقافات الانحلالية بين أبنائنا، فليحذر شباب أمتنا؛ فإن عدونا غادر ماكر يكيد لنا في كل لحظة، ولنتمسك بهدى القرآن والسنة فهما حصن لنا من كل مكروه وسوء.

٨٦ - تميل حينًا وتستقيم أحيانًا

جاء رجل إلى الحسن البصرى، فقال : يا أبا سعيد، ما تقول فى رجل يذنب ثم يتوب ؟

قال الحسن : لم يزدد بتوبته من الله إلا قربًا.

قال الرجل : ثم عاد فى ذنبه ، ثم تاب.

قال الحسن : لم يزدد بتوبته إلا شرفًا عند الله تعالى فإن مثل المؤمن مثل السنبلة تميل حينًا وتستقيم أحيانًا، ثم قرأ قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف/ ٢٠١].

(*) الإحياء (٣/ ١١٧).

هذا الموقف يوضح لنا جانبًا من جوانب كرم الله الغفور الرحيم، حيث تتجدد توبة الله على عباده، فالرجل الذى أذنب ثم تاب، ثم عاد إلى الذنب ثم تاب – أخبر الحسن البصرى بأن توبته المتكررة تزيده من الله قربًا وشرفًا، وهذا شأن المبتدئ فى الطاعة حديث العهد بالتوبة، فقد تغلبه نفسه فيعود فى لحظة غفلة إلى الذنب، ثم لا يلبث أن يتنبَّه ويستيقظ فيندم ويتوب، وهكذا حتى تتحوَّل نفسه من النفس اللوامة إلى النفس المطمئنة، التى تطمئن للخير وتستقر عليه وتنقطع عن الشر ولا تميل إليه. وهذه الفترة – فى رحلة المجاهدة من المؤمن – والتى يُغالب فيها شهواته وأهواءه ونزواته – هى أشبه بفترة التدريب والمحاولة الجادة، وفيها يقول النبى ﷺ: «ما أصرَّ من استغفر، وإن عاد فى اليوم سبعين مرة»(١). أى: لا يُعَدُّ من المصرين المقيمين على المعصية ما دام يستغفر الله، وإن كثرت ذنوبه.

وينبغى أن نميِّز بين الرجوع للذنب فى غفلة، وبين الاستهتار والاستخفاف بفعل العاصى، فالمستغفر العاصى المقيم على المعصية بإصراره عليها، يحذره النبى ﷺ بقوله: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والتائب من الذنب وهو معاود إليه كالمستهزئ بربه»(٢).

كما يعلمنا الموقف أن المؤمن يسارع إلى التوبة إذا حدث منه ذنب، وحسبُنا ترغيبًا فى المسارعة بالتوبة قول النبى ﷺ: «إذا تاب العبد أنسى الله الحَفَظَة ذنوبَه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض، حتى يلقى الله عز وجلَّ وليس عليه شاهد بذنب»(٣).

ولقد وعد الله التائبين إذا صدقوا فى توبتهم أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يبدل سيئاتهم حسنات. قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [الفرقان/٧٠].

---

(١) رواه أبو داود فى «الدعاء» (٤٠)، والترمذى (رقم ٣٥٥٩)

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٢٥٠). (٣) راجع الترغيب والترهيب (٤/٩٤).

وترغيبًا فى التوبة والمغفرة جعل الإسلام لكل مسلم ثلاثة أنهار يتطهر فيها من الذنوب والآثام النهر الأول : هو نهر التوبة، يقول ﷺ : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له »، والنهر الثانى : هو نهر الحسنات، يقول الله عز وجل: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود/١١٤].

والنهر الثالث : هو نهر الابتلاءات التى تحط الذنوب والخطايا، يقول ﷺ : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، فى جسده وفى ماله وفى ولده حتى يتركه وما عليه خطيئة »[١].

---

(١) أخرجه أحمد (٢١/٢٨٧، ٤٥٠).

٨٧ - بم تقضى ؟

لما بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه قاضيًا إلى اليمن، سأله ﷺ : «بم تقضى يا معاذ ؟».

قال معاذ : بما فى كتاب الله.

قال : «فإن لم تجد ؟».

قال معاذ : بما فى سنة رسول الله ﷺ .

قال : «فإن لم تجد ؟».

قال معاذ : أجتهد رأيى.

فقال النبى ﷺ : «الحمد لله الذى وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يحب الله ورسوله».

(*) أخرجه ابن أبى شيبة (٧ / ٢٤٠).

هذا الموقف يحمل فقهًا هاديًا للأمة، حيث يوضح لنا مرجعية المؤمن فى شئون حياته، وأنها تعود إلى هدى القرآن الكريم، ثم إلى السنة النبوية المطهرة، ثم اجتهاد أهل الذكر والعلم. ولقد قدَّم سيدنا معاذ رضي الله عنه كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على الاجتهاد بالرأى؛ ليُرسى بهذا قاعدة فقهية هى أنه «لا اجتهاد مع النص القرآنى أو نص السنة المطهرة».

وليس للمؤمن أن يعدل عن هدى الله وسنة الرسول ﷺ ولا أن يقدم رأيه واجتهاده على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، قال الله تعالى:

﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ [الأحزاب/٣٦].

وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ** ﴾ [الحجرات/١].

ودلالة أخرى فى هذا الموقف، وهى الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص، وباب الاجتهاد فيه تيسير على الأمة لاستيعاب كل جديد من أمور الحياة، وللمجتهد إذا أصاب أجران، وإذا أخطأ أجر واحد.

وهذا الموقف بهذه المحاور الثلاثة يضع منهجًا إسلاميًّا للقضاء والقُضاة فى الأمة الإسلامية، يحقق لها أمنها ويقيم العدالة بين أفرادها، ويتحقق به استقرار الحياة وأمنها. وهذا شأن من استجاب لهدى القرآن والسنة، قال الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال/٢٤].

٨٨ - أتدعونى إلى الخطأ ؟!

سأل رجل الحسن البصرى :

يا أبا سعيد ، ما تقول فى رجل مات وترك أبيه وأخيه؟

فقال الحسن : ترك أباه وأخاه.

فقال له : فما لأباه وأخاه ؟

فقال له الحسن : إنما هو : فما لأبيه وأخيه ؟

قال الرجل : يا أبا سعيد ، ما أشدَّ خلافك علىَّ

فقال له الحسن البصرى : بل أنت أشد خلافًا علىّ، أدعوك إلى الصواب وتدعونى إلى الخطأ !

(*) السمير المهذب (٣ / ٢٢).

هذا الموقف يبين لنا حرص السلف - رحمهم الله - على اللغة العربية، وتجنب الخطأ فى قواعدها : نحوها وصرفها وأصواتها ومعانيها؛ إذ هى لغة القرآن، والحرص عليها حرص على الوسيلة التى نفهم من خلالها كتاب الله، ونقف على أسراره وهداياته المباركة.

لذلك لم يقبل الحسن البصرى رضي الله عنه سؤال السائل على ما فيه من خطأ حين قال الرجل : «ما تقول فى رجل مات وترك أبيه وأخيه؟» والصواب: وترك أباه وأخاه؛ لأنهما من الأسماء الخمسة، وهما هنا فى موقع المفعول به فيستحقان النصب بالألف. ولذلك صحَّح له الحسن البصرى خطأه. ولمَّا أخطأ الرجل فى السؤال الثانى، وقال: فما لأباه وأخاه؟ والصواب: فما لأبيه وأخيه، حيث إن الكلمتين مسبوقتان باللام فتستحقان الجر بالياء. وقد صحَّح له الإمام خطأه ثانية وأرشده إلى الصواب.

وهكذا كانت اللغة العربية حية على لسان أسلافنا، وكان الوقوع فى الخطأ شيئًا لا يقبل ؛ لذلك لانت لهم اللغة وطاوعتهم، فاللغة ممارسة واستعمال.

ولعل هذا يدفع همتنا للعناية باللغة العربية، لتعود حية على الألسنة وترقى إلى مستواها الفصيح، وتأخذ مكانها فى حياتنا بديلاً عن ركاكة العامية التى تعدُّ عدوانًا على الفصحى.

وما أود أن أشير إليه هنا هو لفت الانتباه إلى حقيقة مهمة تتضح من خلال السؤال التالى :

لماذا نحن مَهَرة فى الحديث بالعامية، فى حين أن الفصحى عصية علينا، رغم أن لها قواعد تدرس بالمدارس والجامعات ولها نصوص مضبوطة ؟

إننا مهرة فى العامية لأننا نستعملها ونمارسها، بينما استعصت علينا الفصحى بسبب هجرنا لها فى محافل الدرس والمحاضرات والحوارات...إلخ.

وأود أن أشير – هنا أيضًا – إلى أن استقامة اللسان العربى مرهونة بالقرآن الكريم، بما له من حلاوة لا تنقضى وفصاحة بسيطة تخاطب كل العقول.

٨٩ - أهديت إليَّ حسناتك

قيل للحسن البصرى : إن فلانًا اغتابك .

فبعث إليه طبق حلوى ، وقال :

بلغنى أنك أهديت إليَّ حسناتِكَ فكافأتُك .

(*) السمير المهذب (٣/ ١٢١) .

هذا الموقف من الحسن البصرى - رحمه الله - أسوة وقدوة فى الخلق الحسن الذى يسمو بصاحبه إلى قمة إيمانية هى أن تحسن إلى من أساء إليك. فهذا رجلٌ قد اغتاب الحسن حيث ذكره بسوء فى غيبته، فلمَّا علم بذلك عامل المغتاب بمنطق الإيمان، وقابل السيئة بالحسنة، فجهَّز طبقًا من الحلوى وبعث به إلى المغتاب، وقال له : «بلغنى أنك أهديت إلىَّ حسناتك فكافأتك».

وهذا شأن الصالحين الذين تأدَّبوا بأدب القرآن والسنة. قال الله تعالى فى هذا المنهج الإيمانى : ﴿ **وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت/٣٤].

ويعلمنا الموقف أيضًا ألا نجارى الآخرين فى معصية أو فى سوء، كما ينبغى ألا يخرجنا سفه السفهاء عن أدب الإيمان وحسن الخلق، وكما أخبرنا الحبيب النبى ﷺ : «ليس المؤمن بالطعَّان ولا اللَّعان ولا الفاحش البذىء»[١].

ومن دلالات الموقف أيضًا ما فيه من تربية للمسىء، حيث نبَّه الحسن البصرى المغتاب إلى خسارته بارتكاب معصية الغيبة، وأن المغتاب - بهذه المعصية - قد خسر جزءًا من حسناته، وفى هذا تعليم وتربية بأسلوب حكيم وموعظة نافعة.

وقريبٌ من هذا الموقف ما حدث مع رجل صالح أبلغه آخرٌ بأن إنسانًا شتمه وسبَّه، فقال له : بلِّغ صاحبى أن الموت يعمُّنا، وأن القبر يضمنا، وأن القيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا وهو أحكم الحاكمين.

(١) رواه الترمذى، وقال : حديث حسن.

٩٠ – أفلح إن صدق

جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ يسأله عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «خمس صلوات فى اليوم والليلة».

فقال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : «لا ، إلا أن تَطَوَّع».

قال رسول الله ﷺ : «وصيام رمضان».

قال : هل عليَّ غيره ؟

قال : «لا، إلا أن تطوع».

وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة. قال: هل عليَّ غيرها ؟

قال : «لا، إلا أن تطوع» فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص.

قال رسول الله ﷺ : «أفلح إن صدق».

(*) النسائى (١/٢٢٨، ٨/١١٩)، والحافظ فى الفتح (١/١٠٦).

هذا الموقف يعرض للمنهج الإسلامى الذى يقوم على التيسير ورفع الحرج، وعدم التكليف بما لا يُستطاع.

فالإسلام درجات متفاوتة، وقد أوضح النبىﷺ للسائل الحد الأدنى للتكاليف بعد الإيمان، وهو أداء الفرائض المفروضة على كل مسلم ومسلمة، وأعلى منه التطوع بالنوافل، ثم المزيد من البر والإحسان، ومنازل شتى لأهل العمل وأصحاب العزائم والهمم يتنافسون ويتسابقون فى إدراكها وتحصيل خيرها.

لكن النبى ﷺ- وهو المعلم الهادى - أرشد سائله إلى الحد الأدنى، تيسيراً على أمته، وأكَّد هذا فى مواقف أخرى فعن أبى ثعلبة الخشنى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحرَّم حرمات فلا تنتهكوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تسألوا عنها»(١).

وقال عبيد بن عمير : إن الله أحلَّ وحرَّم، فما أحلَّ فأحلُّوه، وما حرَّم فاجتنبوه، وترك بين ذلك أشياء لم يحلِّلها ولم يحرمها، فذلك عفو من الله، ثم تلا قول الله تعالى : ﴿**يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة/١٠١].

ويفهم من هذا الموقف أن المؤمن إذا أدى ما عليه من فرائض ولم يزد عليها كان من المفلحين؛ لأنه أتى بما فرض عليه. ولا يفهم من هذا الحديث - بطبيعة الحال - أن من يزيد على الفرائض ليس مفلحاً، فبديهى أن من يفعل الواجب والمندوب معاً أفضل ممن يفعل الواجب فقط.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/١٢٢)، وذكره الحافظ فى الفتح (١٣/٢٦٦).

كما يستفاد من هذا الموقف ضرورة تبشير الناس والابتعاد عن التنفير، كما أمرنا النبى ﷺ فيما رواه الشيخان : «يسروا ولا تعسّروا، وبشّروا ولا تُنَفِّروا»[١].

(١) سبق تخريجه.

٩١ - خبأنا لك هذا

قَسَّم النبى ﷺ أثوابًا، ولم يرسل إلى مَخْرَمَة منها، وكان رجلاً أعمى مشاحنًا فقال لولده: خذ بيدى إلى النبى ﷺ.

فلما طرق عليه بابه خرج النبى ﷺ، وعلى يده ثوب منها.

فقال ﷺ : «خبأنا لك هذا يا مخرمة».

فلما أخذه قال النبى ﷺ : «رَضِى مَخْرَمَة».

(*) البخارى فى مواضع منها: (٣/٢٠٩، ٢٢٦ - ٤/١٠٦ - ٧/١٨٦ - ٨/٣٨)، ومسلم فى الزكاة (١٢٩، ١٣٠).

هذا الموقف يُعلمنا فقهًا من فقه الدعوة إلى الله عز وجل، ويوضح لنا أسلوبًا حكيمًا لاستمالة القلوب، فقد طبع الله النفوس على حب من يتألفها ويستميلها، وجعلها تنفر ممن يهاجمها ويعيبها.

ولعلَّ مما يوضح ذلك ما جاء من أمر الله تعالى للنبيين الكريمين موسى وهارون – عليهما السلام – بالرفق واللين مع واحد من جبابرة خلقه هو فرعون، قال لهما الله عز وجل :

﴿ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه/ ٤٣، ٤٤].

وهو أمر مشترك عام فى أساليب خطاب الأنبياء والرسل لأقوامهم برفق ولين، وما قولهم : « يا قوم » ، وقول إبراهيم – عليه السلام – لأبيه : « يا أبتِ »، وقول نوح – عليه السلام – لابنه : « يا بُنَيَّ » – إلا نماذج واضحة تنطق بالرفق والحب والاستئلاف. وبمثل هذه الدعوات الكريمة يقترب البعيد ويعود الشارد. وتتفتح القلوب والأسماع لدعوة الله.

ومن ذلك قول النبى الكريم ﷺ لأبى سفيان يتألفه وكان حديث عهدٍ بالإيمان : « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن »(١).

إنَّ هذه الدعوات الرقيقة تستميل القلوب إلى وجه الحق وتردهم ردًا جميلاً، بخلاف ما يفعله المتشددون ناسين قول النبى ﷺ : « يسِّروا ولا تُعسِّروا، وبشروا ولا تنفِّروا » (٢).

ولقد كان هذا منهج النبى ﷺ فى دعوته إلى الإسلام، يبين من مبادئه ما

---

(١) أخرجه مسلم فى الجهاد (ب/ ٣١ – ٨٤، ٨٦).
(٢) سبق تخريجه.

يكون أقرب إلى النفوس وأدنى إلى عاداتها، والإسلام غنى بالمبادئ التى تألفها القلوب وتحبها؛ لأنه دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فإذا آنس الداعى ممن يدعوهم ألفةً ورغبة فى التعرف على حقائق الدين وأسراره فصَّل لهم ذلك، اقتداءً بهديه ﷺ فى التَّحبُّب إلى الناس وتبشيرهم، والابتعاد عن التعسير والتشدد والتنفير.

٩٢ - الوثيقة العمرية فى فتح بيت المقدس

اتجه الفتح الإسلامى لبلاد الشام فى سنة ١٥ هـ بعد وفاة الرسول ﷺ بخمسة أعوام، وفتح مدينة القدس وتخليصها من ظلم الرومان وقد تفاوض أهلها مع الفاتحين المسلمين بأن تكون المدينة تحت حمايتهم وإمرتهم، واشترط حاكمها أن يتسلم المدينة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه، فأرسل أبو عبيدة بن الجراح بالوثيقة التى اتفق عليها معهم، وكانت الوثيقة العمرية نموذجًا للمعاهدات السياسية فى ظل حضارة الإسلام وتسامح المسلمين، فرحب عمر وسافر إلى بيت المقدس.

(*) راجع أسد الغابة (٣/٤٠٢).

هذا موقف إسلامى خالد يظهر من خلاله فضل حضارة الإسلام، وما تتميز به من احترام الآخر، احترام إنسانيته، لا تسامح الضعيف المغلوب على أمره.

كما يدل هذا الموقف العمرى على التزام المسلمين بعهودهم وعلى أن قوة الفاتحين المسلمين كانت لأهداف إنسانية سامية تُخلِّص الشعوب من المستغلين لثرواتها والمحتلين لأرضها، كما أنها كانت تحارب الذين يصدون الدعوة الإسلامية ويقفون فى وجهها حماية لمصالحهم الظالمة فى استعباد الشعوب.

ولم تكن قوة الحضارة الإسلامية قطٌّ أداة لقهر أحد أو جبره على الدخول فى الإسلام، بل تركت الدخول فى الإسلام طواعية لمن يرغب فى ذلك، امتثالاً لقول الله تعالى : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة/٢٥٦].

والمتدبر لما جاء بهذه الوثيقة يتأكد له أن المسلمين حين ملكوا أحسنوا ولم يسيئوا ولم يدمروا ولم يظلموا، فى حين أن غيرهم - كما يصنع اليهود الآن - ملكوا فأساءوا ودمروا.

ومن نص الوثيقة العمرية:

هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وسائر ملتها، ولا يكرهون على دينهم، ولا يُضام أحد منهم.

ولما شاء الله تعالى رد الحملة الصليبية وأعاد صلاح الدين الأيوبى القدس إلى الإسلام إلى أمانها وكرامتها، وكانت لديه الدوافع القوية للانتقام بسبب بشاعة ما ارتكبه الصليبيون من جرائم لا تليق بإنسانية الإنسان، إلا أن صلاح الدين لم يحاول أن يتشفى، بل حرَّر القدس وأعادها للإسلام دون أن

يقتل أو أن يعتدى على طفل أو شيخ أو عجوز، ولاقى أهل القدس من لطف وتسامح صلاح الدين فوق ما انتظروه، وكل ذلك مرده ومرجعه إلى رسول الله ﷺ حين فتح مكة وأقبل أهل مكة فى خوف من أن يبطش بهم، فقال لهم بلطفه وسماحته ﷺ : «ماذا تظنون أنى فاعل بكم؟». قالوا : أخٌ كريم وابن أخ كريم.

فقال ﷺ لهم : «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[١].

---

(١) البيهقى (٩/١١٨).

٩٣ - أبو اليسـر

كان لأبى اليسر كعب بن عمرو دَيْن على رجل، فأتاه يتقاضاه من أهله، فخرجت إليه جارية الرجل تقول : ليس مولاى ها هنا، وكان مولاها بالداخل، وسمع أبو اليسر صوته فناداه : اخرج؛ فقد سمعتُ صوتَك. فخرج الرجل كاسف البال يتألم من عذاب التخجيل والخجل.

فسأله أبو اليسر : ما الذى حملك على ما صنعت ؟

فقال الرجل : العُسرة.

فَلَطَّف أبو اليسر للرجل القول، وقال له : اذهب فلك ما عليك.

(*) راجع: أسد الغابة (٥/٣٣٣).

هذا الموقف الإيماني يفيض بالدلالات الهادية، وقبل الشروع في بيان دلالات الموقف، أود أن نتعرف على صاحب هذا الموقف النبيل: إنه أبو اليسر، كعب بن عمرو: من بني كعب بن سلمة، وهو صحابي أنصاري خزرجي، كان بدريًّا من أهل بدر الذين رضي الله عنهم، ونصرهم وهم أذلة، وأيَّدهم بالملائكة، وهو ممن شهد بيعة العقبة الأخيرة، وكانت حياته سلسلة من الجهاد المتواصل والعطاء السخي لدعوة الله تعالى.

ومن بين مواقفه الإيمانية هذا الموقف، الذي يحمل لنا دلالات هادية، ويقدم لنا دروسًا تربوية هادفة.

أولها : أبو اليسر رجل يهتدي بسنة النبي ﷺ في إقراض أصحاب الحاجات، فثواب القرض يعلو ثواب الصدقة، وفي الحديث النبوي الشريف: «مكتوب على باب الجنة: العطية بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر»[١].

أبو اليسر رجل يتابع الحقوق المالية التي تخصه، وهذا فهم إيماني صائب، للمحافظة على الحقوق من الضياع بسبب الإهمال وعدم المتابعة، فالحرص على الحق والمطالبة به أمر إيماني لا غبار عليه، بل أمرنا به، من ذلك قول النبي ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[٢].

ثانيها : غير أن متابعة الحقوق والحرص على استردادها يُصاحبه روح الإيمان الودودة العطوفة التي تراعي ظروف الناس وأحوالهم في الشدائد، وفي هذا استجابة لهدى قرآني كريم أمرنا الله به في قوله تعالى :

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:٢٨٠].

---

(١) أخرجه الربيع بن حبيب في مسنده (١ / ٧٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٧٩).

فالتيسير في التقاضي عمل صالح يُضاف ثوابه إلى ثواب القرض الحسن، وفي الحديث الشريف : « من أنظر معسراً أو وضع له كان في ظل الله يوم القيامة »[١].

ثالثها : التثبت من أحوال الناس ومعرفة الأسباب والدوافع التي تمنعهم من السداد والوفاء ومحاولة العلاج؛ لذلك سأل أبو اليسر الرجل : ما الذي حملك على ما صنعت؟ فلما أجاب الرجل بأن السبب العسرة وضيق الحال، عفا أبو اليسر عنه، وأسقط الدَّيْن الذي على الرجل.

والتثبت من أحوال السائل - إذا كان ذلك في الاستطاعة، وبصورة كريمة لا تنال من كرامته - تجعل الصدقة تصل إلى مستحقيها، بدلاً من وصولها إلى أهل الحيلة والمكر، فالمؤمن كيِّس فَطِن.

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٧٤).

٩٤ - بهذا آخيتك

ركب عقبة بن عامر إلى مسلمة بن مُخَلَّد، فقال له : أتذكر يوم قال رسول الله ﷺ :

«من علم عن أخيه سيئة فسترها، ستره الله بها من النار يوم القيامة ؟».

قال : نعم.

قال : فلهذا آخيتك.

(*) أخرجه أحمد في المسند (٤ / ١٠٤)، وراجع المجمع (١ / ١٣٤).

هذا موقف تربوى هادف، يظهر من خلاله عظيم خلق الصحابة وعظيم أدبهم، كيف لا وقد كانت أخلاقهم من أخلاق حبيبهم ونبيهم وقدوتهم رسول الله ﷺ ؟!.

كانوا – رضى الله عنهم – ينصحون ولا يفضحون، يصلحون ولا يعيبون، تأسيًا بهدى حبيبهم المصطفى ﷺ : «المؤمن مرآة المؤمن إذا رأى فيه عيبًا أصلحه»(١).

وكان بين الصحابيين الكريمين عقبة بن عامر ومسلمة بن مخلد تناصح وإصلاح فى ستر من الناس.

وما أطيب قول الإمام الشافعى فى هذا المعنى؛ قال :

تَعَهَّدْنى النصيحةَ فى انفرادِ ... وجنِّبنى النصيحةَ فى الجماعهْ

فإنَّ النُّصْحَ بينَ الناسِ نوعٌ ... من التوبيخ لا أرضى استماعَهْ

ونتعلم من هذا الموقف أن التناصح بين الإخوان يكون بالموعظة الحسنة التى تدخل القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، دون زجر أو تأنيب، ودون فضح للأخطاء التى قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق فى الموعظة كثيرًا ما يهدى القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة.

ويكون التناصح أيضًا بالجدال بالتى هى أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل وتقبيح، حتى يطمئن المنصوح إلى الناصح، بأن الهدف هو النصيحة وليس التشفى أو العلو والغلبة؛ لأن النفس الإنسانية قد يصيبها العناد والكبرياء، فتدافع عن الباطل كى لا تشعر بالهزيمة، وربما تختلط الأمور عند بعض الناس، فيعتبر النزول عن الرأى تنازلاً عن قيمته وكرامته الشخصية.

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩١٨).

ومن هنا أمرنا الإسلام بأن نراعى الآخر حين يكون منا دعوة أو تناصح أو إصلاح، وإلى هذه المعانى والقيم يشير قول الله تعالى :

﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل/١٢٥].

٩٥ - رضيناه حكمًا

جَـدَّدت قـريش بناء الكعبـة، وأرادت إعـادة الحـجـر الأسـود إلى مكانه، فـاختـلفت القبـائل فـيـمن يكون له شرف حمل الحجر الأسود ووضعه فى مكانه بالكعبة، ثم اتفقوا على أن يُحَكِّموا أول داخل عليهم من باب شيبة، فكان أول داخل هو سيدنا محمد ﷺ، فقالوا:

هذا هو الأمين، رضيناه حكمًا. فبسط النبى ﷺ رداءه ووضع فيه الحجر، ثم قال:

«لتأخذ كل قبيلة بطرف من الثوب». فرفعوه جميعًا حتى انتهوا إلى موضعه، فأخذه رسول الله ﷺ ووضعه مكانه.

(*) السيرة النبوية (١/ ١٢٧).

هذا الموقف يحمل دلالات هادية منها:

أولاً : فطنة النبى ﷺ لروح القبلية من التعالى والتفاخر التى تسود بين أهل مكة، وكم كانت هذه القبلية سببًا للتنازع والتناحر والتقاتل !! على نحو ما ظهر فى الموقف عن اختلاف القبائل فيمن يكون له شرف حمل الحجر ووضعه فى مكانه بالكعبة ليكون له الذكر والثناء بين القبائل يتباهى ويتعالى ويفتخر بذلك، وقد وصل بهم الخلاف إلى درجة كاد معها أن ينشب القتال بينهم، فقد قربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دمًا ثم تعاقدوا مع بنى عدى على الموت، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمسًا، دون أن يردها إلى الوفاق أى رأى أو تدبير، حتى كان خمود الفتنة على يد رسول الله ﷺ . وما من شك فى أن هذه الروح هى روح الجاهلية وأخلاقها، وقد عالجها الإسلام وعلمهم التواضع والتسامح والإيثار والتخلّى عن التنازع والأهواء المضلة.

ثانيًا : حكمة النبى ﷺ فى معالجة الموقف وفض التنازع بينهم، حيث قام حكم رسول الله ﷺ على العدل، وإقامة العدل بين الشركاء، وهذه أسرع السبل لتحقيق الرضا والأمن، فى حين أن اختلال ميزان العدالة هو الذى يجلب المصائب ويتولد عنه الشحناء والحقد والرغبة فى التشفى والانتقام، ولذلك نرى فى الموقف أن رسول الله ﷺ حقق العدالة بين القبائل المتشاحنة حيث بسط رداءه ووضع الحجر فيه، وأتاح لهم جميعًا المشاركة فى حمل الحجر.

ثالثًا : موقف قبائل قريش من رسول الله ﷺ حين دخل عليهم من باب المسجد، إذ قالوا : إنه الأمين، رضينا به حكمًا. فهذا القول منهم يشير إلى ما كانت عليه حياة المصطفى سيدنا محمد ﷺ قبل النبوة. فقد كان ﷺ صاحب فكر صائب ونظر سديد، لأن الله قد حباه بحظ وافر من الفطنة والذكاء والحكمة والسداد، ولأنه ﷺ لم يتأثر بأخلاق الجاهلية فى شىء؛ فقد أحاطه

الله تعالى بحفظه وعنايته، وكان النبى ﷺ يتمتع فى قومه بأخلاق فاضلة وشمائل كريمة، فكان أحسنهم خلقًا وأصدقهم حديثًا وأعفَّهم نفسًا وأكرمهم خيرًا وأوفاهم عهدًا وآمنهم أمانة؛ لذلك سماه قومه بـ «الأمين» لما رأوا فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية.

والخلاصة : أن هذا الموقف المحمدى درس قيم فى فقه تدبير الأمور وسياسة القضايا وقطع دابر الخصومات، وأن الأساس فى تكوين شخصية سيدنا محمد ﷺ أنه نبى ورسول يرعاه ربه ويتولاه بالحفظ والعناية. كما يعبر الموقف عن مدى سمو منزلته ﷺ بين رجال قريش على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم.

٩٦ - إن كان قال فقد صدق

لما أخبر النبى ﷺ الناس بأمر الإسراء والمعراج فى صبيحة اليوم التالى لهذه الرحلة المباركة، أسرع بعض المشركين إلى أبى بكر رضي الله عنه يخبرونه بما قاله النبى ﷺ من أمر الإسراء والمعراج رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه.

فقال أبو بكر :

إن كان قال ذلك لقد صدق، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك.

(*) أسد الغابة (٥/٣٧).

في هذا الموقف الإيماني لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه دلالات هادية منها:

الأولى : أدب التلقي عن الله وعن رسول الله ﷺ، فحين يُسند الفعل لله، فينبغي أن يكون التسليم والتفويض والسمع والطاعة، فإن الله على كل شيء قدير، وفعل الحكيم كله حكمة؛ لذلك نرى سيدنا أبا بكر رضي الله عنه في هذا الموقف يعلمنا درسًا في حسن التلقي عن رسول الله ﷺ، فقد أعلن تصديقه للنبي ﷺ في أمر الإسراء والمعراج، وكان رضي الله عنه كلما أخبر النبي وأجاب عن أسئلة المشركين حين سألوه أن يصف لهم المسجد، قال أبو بكر : صدقت صدقت، فسمي الصِّدِّيق.

وهذا شأن أهل الإيمان يتلقون أوامر الله بالامتثال والطاعة، ولا يجدون في نفوسهم غضاضة من أمر الله تعالى، بل إنهم يستشعرون حلاوة الإيمان في قلوبهم بالامتثال لأمر الله تعالى، والقرآن الكريم يوضح لنا أن المؤمن ليس له أمام أمر الله تعالى إلا التسليم والامتثال، قال تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب/٣٦].

ويستفاد من هذا أن التسليم لحكم الرسول ﷺ الذي قضى الله به من أساسيات الإيمان، وأن أوامر الله لا تُناقش وليست مواطن للمجادلة ولا مواضع للمناقشة.

الثانية : الثبات على الحق وعدم التأثر أمام الضغوط والحيل والمكر، فالمؤمن يقظ حذر ، ثابت على الحق، لا تنهار قيمه ولا مبادئه؛ لينال نصيبًا وافرًا من تأييد الله له، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : **﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾** [إبراهيم/٢٧].

الثالثة : درس للدعاة والمصلحين، بأن طريق الدعوة والإصلاح أمامه عقبات من أهل الباطل والشرك، وهذه سنة الله فى خلقه، فليصبر الدعاة كما صبر أولو العزم من الرسل، وليستعينوا بالله تعالى، ليمدهم كما أمد نبيه ﷺ من فيض عطائه وواسع فضله وتأييده، فيكون لدعوتهم الفلاح.

وفى الموقف نرى المشركين واليهود يثيرون ضجة واسعة على النبى ﷺ حين أخبرهم بأمر الإسراء والمعراج ويقودون حملات التشكيك فى صدقها، ثم ذهبوا إلى أبعد من ذلك بالتحدى وسؤال النبى ﷺ أن يصف لهم معالم المسجد الأقصى، وهكذا الجولة بين الخير والشر قائمة إلى يوم القيامة ليخلص أهل الحق لحقهم فينالهم من تأييد الله ونصره.

٩٧ - فجلاَّه الله له

لما أصبح رسول الله ﷺ صبيحة الإسراء والمعراج، وأخبر قومه بما أراه الله عز وجل ، ركز المشركون أسئلتهم لرسول الله ﷺ عن بيت المقدس، فجلاه الله له، وجعل يخبرهم عنه، فلا يستطيعون أن يردوا من ذلك شيئًا.

(*) راجع : تفسير الطبرى ، سورة الإسراء.

هذا موقف يفيض بالدلالات والأسرار، وبخاصة تلك الدلالات المتعلقة بمستقبل الأقصى مع الإسلام والمسلمين، لقد حاول اليهود والمشركون التشكيك فى أمر الإسراء والمعراج، لكن العناية الإلهية كشفت للنبى ﷺ مرادهم، وأمدته العناية الربانية بمعالم بيت المقدس فأجابهم ﷺ عن كل سؤال.

وربما عجزت عقول المشركين عن فهم دلالة الإسراء بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى، وعن تسميته مسجداً ولم يكن ساعتها تحت سلطان المسلمين، وربما عجزت عقول المشركين عن إدراك دلالات صلاة النبى ﷺ بالأنبياء فيه إمامًا. لكن المتأمل لسورة الإسراء والمتدبر فى سياق آيات هذه السورة يرى إجابات شافية وتفسيرات واضحة لهذه التساؤلات وتلك الأمور، لقد ذكر الله تعالى قصة الإسراء فى آية واحدة فقط فى صدر سورة الإسراء، ثم أخذ فى ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم إلى أن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم.

والله تعالى يشير بهذا الأسلوب وهذا التعاقب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الإنسانية بسبب ما ارتكبوه من جرائم، وأن الله سينقل هذا المنصب فعلاً إلى رسول الله ﷺ، فقد آن الأوان لانتقال القيادة إلى أمة وصفها الله بقوله : ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ [آل عمران/ ١١٠]، أمة تتدفق بالخير والبر والحق والعدل والرحمة، بعد أن ملأ اليهود التاريخ بالغدر والخيانة والإثم والعدوان والطغيان والفساد، ولكن كيف تنتقل هذه القيادة والرسول ﷺ يطوف جبال مكة مطروداً من قومه ؟ والله تعالى يجيبنا من خلال القرآن فقد أنزل ساعتها قرآنًا يحمل الإنذار والوعيد بزوال طغيان المشركين، من ذلك قوله تعالى :

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ الإسراء/١٦].

وبجانب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين القواعد والمبادئ التى تقوم عليها حضارة الإسلام، وفى هذا إشارة إلى بزوغ حضارة الخير والبر حضارة الإسلام.

كما يظهر من الموقف أن إسلامية المسجد الأقصى حقيقة قرآنية، وقد بشر النبى ﷺ بأن العاقبة للمسلمين فى المواجهة المرتقبة بين المسلمين واليهود، وأن الجمادات والأشياء سوف تتعاطف مع المسلم وتخبر عن مكان اليهودى ؛ ليتمكن منه المسلم فيقتله.

٩٨ - ذهب المفطرون بالأجر

كنا مع رسول الله ﷺ فى السفر، فمنا الصائم ومنا المفطر. فنزلنا منزلاً فى يوم حارّ، أكثرنا ظلاً صاحب الكساء. ومنا من يتقى الشمس بيده، فسقط الصُوَّام، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب.

فقال رسول الله ﷺ : «ذهب المفطرون بالأجر».

(*) أخرجه البخارى (٤ / ٤٢)، ومسلم فى الصيام (ب/ ١٦ رقم ١٠٠، ١٠١).

هذا الموقف يعلمنا درسًا قيمًا فى فقه العبادة، وأن أمر العبادة ليس مقصوراً على العبادات المفروضة من الصلاة والصيام والزكاة والحج، بل يمتد معنى العبادة ليشمل كل فعل صالح من الأعمال النافعة التى تعود بالخير على الإنسان ومجتمعه، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الحج/٧٧].

وفى الموقف الذى بين أيدينا قام المفطرون بخدمة الصُوَّام، وأنجزوا الأعمال المطلوبة فى هذا الحين، فأعلن النبى ﷺ أنهم فازوا بالأجر، ومن هنا ندرك أن العامل فى مصنعه، والفلاح فى حقله، والمعلم فى مدرسته، حين يصحح كل منهم النية فى عمله بأن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى، فإن هذا العمل يكون عبادة.

ولقد رفع النبى ﷺ اليد المنتجة الكادحة العاملة النافعة أمام الصحابة، حين التقى بسيدنا سعد بن معاذ وكانت بيده خشونة من فلاحة الأرض وسقيها، فَقبَّل النبى ﷺ يده وقال : «هذه يد يحبها الله ورسوله». فالإسلام يعلى من قيمة العمل والعاملين.

ومن دلالات الموقف التربوية : مراعاة الفروق الفردية فى قدرات أفراد المجموعة حين يتولى الإنسان قيادتهم والإشراف عليهم، فالصحابة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ منهم من كان صائمًا، ومنهم من كان مفطراً، دون أن يشق النبى ﷺ على أحد أو يلزمه بالصوم، ما دام الأمر فى إطار النافلة، فكل إنسان يأخذ منها على قدر طاقته.

وحين اشتد الأمر ودعت الحاجة إلى بعض الأعمال، أسندت الأعمال لمن يقوى عليها ويستطيع إنجازها، وهذا من حكمة رسول الله ﷺ . وهنا درس فى الإدارة من حضرته ﷺ يعلِّمنا كيف نُوزع الأدوار.

ومن دلالات الموقف التربوية أيضًا : إعلان النبى ﷺ أن المفطرين قد

ذهبوا بالأجر اليوم، وفى هذا تقدير منه ﷺ لما بذلوا من جهد، وأن الثواب ليس فقط لهؤلاء الصوَّام العُبَّاد، بل للمكافحين العاملين ثواب وأجر عظيم.

والمكافأة والثواب من عوامل التشجيع ورفع معنويات العامل ودفعه إلى الاجتهاد فى عمله.

٩٩ - هل أضعناك يا فتى ؟

كان للإمام أبى حنيفة النعمان جار يلهو ويغنى :

أضـاعُـونى وأىَّ فـتًى أضـاعـوا

لـيـوم كـريـهـة وسـداد ثَغْـر

وكان الضيق يصيب أبا حنيفة بسبب إزعاج الفتى وضجيجه في وقت الليل. ورغم ذلك كان أبو حنيفة صابراً محتسباً.

وذات يوم وضع رجال الشرطة هذا الفتى المزعج فى الحبس، فلما علم أبو حنيفة بأمر حبسه، شفع له، ثم قال له هاديًا ومعلمًا : هل أضعناك يا فتى ؟

فقال الفتى : لا والله !

وانتهى الفتى عن لهوه وكفَّ عن إزعاجه.

(*) ذكره ابن حجر فى : الخيرات الحسان بمناقب الإمام أبى حنيفة النعمان ، ص ٧٠ .

هذا الموقف يعلمنا كيف نعالج الأمور حين تكون مشكلة بين من تجمعهم صلة أو علاقة من العلاقات الإنسانية، كعلاقة الجوار، وعلاقة أخوة الإيمان، وعلاقة العلم فالعلم بين أهله رحم، وعلاقة قرابة النسب ... ونحو ذلك.

والموقف يتناول علاقة الجوار، تلك العلاقة التى اهتم بها الإسلام اهتماماً بارزاً، فقد جاءت التوصية بحق الجار فى سياق كريم يأمر فيه الله تعالى عباده بحقه وحق الوالدين والأقربين، قال الله تعالى :

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النساء/٣٦].

والنبى ﷺ يعظم حق الجار، قال ﷺ : « ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه »(١) أى : سيجعل له نصيباً من الميراث كالأقارب.

وما من شك فى أن الإحسان إلى الجار ورعاية حقوقه وتحمل أذاه يؤدى إلى حصول المحبة والألفة والمودة بين أفراد المجتمع، ويصبح المجتمع أسرة كبيرة تواجه ظروف الحياة من يسر وعسر.

والنبى ﷺ جعل الإحسان إلى الجار علامة على خيرية الإنسان وأمارة على صلاحه، من ذلك قوله ﷺ : « خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره »(٢).

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال : يا رسول الله، إن فلانة تكثر من صلاتها وصيامها، غير أنها تؤذى جيرانها بلسانها. فقال النبى ﷺ : « هى فى

(١) أخرجه البخارى (٨/١٢)، مسلم البر والصلة ب٢٤ رقم ١٤٠، ١٤١.
(٢) أخرجه الترمذى (رقم ١٩٤٤)، وأحمد (٢/١٦٨).

النار »، فقالوا : يا رسول الله إن فلانة تصلى المكتوبات ولا تؤذى جيرانها »[١].

فقال النبى ﷺ : « هى فى الجنة »[٢].

وهكذا يكون إيذاء الجار سببًا فى دخول النار، والإحسان إلى الجار سببًا فى دخول الجنة.

وفى الموقف فضيلة من فضائل الإحسان إلى الجار، وهى أن الجار إن عصى الله فيك فينبغى أن تطيع الله فيه، وهذا ما فعله أبو حنيفة مع الفتى اللاهى، وهذا منهج قرآنى، قال الله عز وجل: ﴿ **وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت/٣٤].

أيضًا : نتعلم من الموقف متى نسدى النصيحة، واصطفاء الموقف المؤثر لذلك، فالإمام أبو حنيفة ما كان يستطيع أن يعظ هذا اللاهى إلا بعد هذا الموقف.

---

(١) رواه أحمد ٢ / ٤٤٠.	(٢) سبق تخريجه.

١٠٠ - طفل نابه

كان أبو يزيد البسطامى طفلاً نابهًا، أرسله أبوه إلى معلم يعلمه القرآن، فلما قرأ الطفل : أول سورة المزمل : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [المزمل/ ١، ٢].

فقال لوالده : لم لا تقوم الليل يا والدى استجابة لأمر الله تعالى؟ فقال والده : هذا خاص برسول الله ﷺ.

فلما وصل الطفل فى التلاوة إلى قوله تعالى من نفس السورة : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل/ ٢٠].

فقال الطفل لوالده : يا والدى، لا خير فيمن لا يقتدى بالنبى ﷺ وصحبه والذين آمنوا معه.

(*) حلية الأولياء - ترجمة أبى اليزيد.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية، ودروسًا تربوية هادية.

أولها : اصطفاء النبهاء لرسالة القرآن والدعوة، كما صنع والد أبى يزيد البسطامى، حيث أرسله إلى معلم يعلمه القرآن.

ثانيها : إتاحة الفرصة لأبنائنا للحوار معنا والإعلان عن آرائهم وأفكارهم، فلا نحجر على آرائهم أو نصادر أفكارهم بحجة أنهم صغار، كما ينبغى أن نأخذ بحجتهم وبرأيهم إذا كان صوابًا.

وهذا المعنى يظهر من الموقف حين سأل أبو اليزيد الطفل والده، لما قرأ قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ : لم لا تقوم الليل؟

وأجاب والده بأن ذلك خاص برسول الله ﷺ.

ولكن ما إن وصل الطفل أبو يزيد إلى قوله تعالى فى السورة نفسها : ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ** ﴾ [المزمل/ ٢٠].

فقال الطفل لوالده : لا خير فيمن لا يقتدى بالنبى ﷺ وصحبه والذين آمنوا معه.

ثالثها : يؤكد الموقف أهمية قيام الليل، تلك السُّنَّة التى تنادى المسلمين، بعد أن هجرها غالب المسلمين إلا من أنعم الله عليهم بها.

ومن وصف القرآن لأهل الإيمان، قوله تعالى :

﴿ **كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الذاريات/ ١٧، ١٨].

﴿ **وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا** ﴾ [الفرقان/ ٦٤].

وفى الحديث النبوى، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : « كان النبى ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له : لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال ﷺ : « أفلا أكون عبداً شكوراً »(١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام »(٢).

وحسب من حافظ على قيام الليل أن يفوز بساعة إجابة الدعاء التى أخبر عنها النبى ﷺ بقوله : « إن فى الليل لساعة، لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة، إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة »(٣).

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٦٣، ٦/١٦٩، ٨/١٢٤)، ومسلم فى صفات المنافقين (٧٩، ٨٠، ٨١).

(٢) الترمذى (رقم ١٨٥٤)، وابن ماجه (رقم ١٣٣٤، ٣٢٥١، ٣٢٥٢).

(٣) سبق تخريجه.

١٠١ - التثبت من الأخبار

أرسل النبى ﷺ الوليد بن عقبة لجمع صدقات بنى المصطلق، فلما سمع القوم خرجوا للقائه تعظيمًا لأمر الله ولرسوله، فهابهم، فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله، فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ، وقال : إن بنى المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلى.

فغضب النبى ﷺ وهمَّ أن يغزوهم، فأسرع وفد من القوم إلى رسول الله ﷺ وقصوا عليه الأمر، وبينوا أنهم تلقَّوْه الصدقة فرجع، وتعوذوا بالله من غضب الله ورسوله.

(*) راجع تفسير الطبرى، وابن كثير (سورة الحجرات، آية / ٦).

هذا الموقف يحمل دلالات نبوية هادية :

الأولى : أهميـة التثبت من الأخبـار ومصـادر المـعلومـات حتى لا نبنى أحكامًا خاطئة على الأخبار غير الصحيحة أو المعلومات المضللة، وكثيرة هى الأخبار عبر وسائل الإعلام المختلفة وشبكات الإنترنت.

وعلى المسلم أن يكون حذرًا من الشائعات والأخبار الكاذبة، وعليه أن يتثبَّت ويتأكد قبل أن يسهم بحسن نية فى إشاعة الخبر الكاذب.

وهذا ما وجهنا القرآن الكريم إليه من خلال هذا الموقف، فحين رجع بنو المصطلق إلى رسول الله ﷺ ووضحوا له الأمر بأنهم تلقوا الوليد بن عقبة بالصدقة تعظيمًا لأمر الله ولرسوله، وتعوذوا بالله من غضب الله ورسوله. أنزل الله قـوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ**﴾ [الحجرات/ ٦].

الثانية : الأثر السيئ للأخبار الكاذبة، فنرى فى الموقف أن الحرب كادت أن تقوم بين رسول الله ﷺ وهؤلاء القوم.

الثالثة : خطورة الانقياد وراء وسوسة الشيطان وحديث النفس.

ففى هذا الموقف نرى أن الوليد بن عقبة انقاد لوسوسة الشيطان، وبنى على الوسوسة والأوهام أحكامًا مضللة.

والمؤمن كيِّس فطن ينبغى أن تقوم أحكامه على الحقائق والأدلة الصحيحة وليس على حديث النفس أو وسوسة الشيطان، وليدفع المؤمن عن نفسه هذه الوسوسة بذكر الله تعالى، والاستعانة بالله من الشيطان الرجيم.

١٠٢ - يا ودود

كان أبو معلَّق الأنصارى فى سفر فقطع عليه لص الطريق، يريد ماله وقتله، فقال أبو معلق له: خذ أموالى ولا تقتلنى، فأبى اللص، فقال أبو معلق له : دعنى أصلى. فتركه اللص يصلى. حتى إذا كان فى السجدة الأخيرة دعا ربه فى خشوع قائلاً :

يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعَّال لما تُريد، أسألك بعزتك التى لا ترام، وملكك الذى لا يضام، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك، أن تكفينى هذا اللص، يا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى، وكرر الدعاء ثلاثًا فإذا بفارس يأتى من حيث لا يدرى يضرب اللص. وانصرف الأنصارى آمنًا.

---

(١) أسد الغابة (٥/ ٢٩٥).

هذا الموقف يوضح لنا حقيقة مهمة، وهى : فضل دعاء المضطر، فنرى أن هذا الأنصارى يقع فى هذا الاضطرار عندما خرج عليه لص فاجر لا يكتفى بسلب ماله فقط، بل يريد مع ذلك قتل الأنصارى.

ولما لم تنجح محاولة الأنصارى فى إقناع اللص بأن يكتفى بالمال ويرجع عن نية القتل، طلب من اللص أن يمهله لصلاة ركعتين، وقام الأنصارى يصلى حتى إذا كان فى الركعة الأخيرة دعا ربه دعاء المضطر فى خشوع وخضوع : « يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعَّال لما تريد، أسألك بعزتك التى لا ترام، وملكك الذى لا يُضام، وبنورك الذى ملأ أركان عرشك، أن تكفينى هذا اللص، يا مغيث أغثنى يا مغيث أغثنى » والله تعالى يقول فى كتابه : ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ** ﴾ [النمل/٦٢].

واستجاب الله للأنصارى ورزقه بفارس يدفع عنه هذا اللص ويقتله.

ما أحوج المؤمن إلى اللجوء إلى الله تعالى فى أوقات الشدائد.

أيضًا يظهر من هذا الموقف أن صلاح الإنسان فى أوقات الرخاء يعود عليه بالمعونة والتأييد فى أوقات الشدة.

فمن تعرَّف على الله فى الرخاء تعرَّف الله عليه فى الشدة، ومن هنا كان صلاح الأنصارى وحرصه على مرضاة ربه فى أوقات الرخاء ذخراً له عند ربه.

١٠٣ - فأذن له النبى ﷺ

جـاء رجل من بنى عـامـر إلى بيت النبى ﷺ ، فـقـال الرجل : ألِج ؟

فقال رسول الله ﷺ لخادمه :

اخرج وعلِّمه الاستئذان .

فقال له : قل :

السلام عليكم ، أأدخل ؟

فسمعه الرجل ، فقال :

السلام عليكم ، أأدخل ؟

فأذن له النبى ﷺ فدخل .

(*) أخرجه الطبرانى فى الكبير (١٩ / ١٨٧) ، وابن سعد فى الطبقات (٥ / ٣٣٨) .

هذا الموقف يعلمنا أدبًا من آداب التعامل، هو أدب الاستئذان، فالإسلام الحنيف يحترم ويراعى خصوصية الغير، ومن مظاهر مراعاة خصوصية الغير أن يستأذن الإنسان غيره فى الدخول عليه فى أماكنه الخاصة كمنزله أو مكتبه ونحو ذلك. وهذا هدى قرآنى مبارك، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا** ﴾ [النور/٢٧].

وعبر القرآن عن الاستئذان بالاستئناس؛ لأنه يوحى بأن القادم أو الداخل يستأنس بأهل البيت كما يستأنس أهل البيت به، الاستئذان والسلام يحصل بهما مودة ورضا.

ومن أدب الاستئذان إذا قيل له: من بالباب؟ لا يجيب بلفظ «أنا» حيث لا تحصل به معرفة محددة بالإنسان المستأذن، بل يذكر اسمه، لأن المقصود بالاستئذان التوضيح والإفصاح وليس الإيهام.

لأجل هذا أمرنا الإسلام بادب الاستئذان والسلام، وعلمنا أنَّ لا ندخل إلا إذا أذن لنا، والاستئذان ثلاث فقط، فلا يواصل الإنسان الاستئذان أكثر من ثلاث لما فيه من إزعاج وإلحاح لا يليق بالمؤمن، وإذا لم يؤذن له، وقيل ارجع، فليرجع دون غضب ودون ضجر، فإن هذا أزكى وأطهر للمستأذن.

قال الله تعالى : ﴿ **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ** ﴾ [النور/٢٨].

ومن آداب الاستئذان ألاَّ يستقبل المستأذن الباب بوجهه، ولكن يجعل الباب عن يمينه أو عن يساره.

١٠٤ - أوى إلى الله

بينما رسول الله ﷺ جالس فى المسجد، والناس معه، إذْ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجة فى الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر، فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ، قال :

«ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله إليه، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه».

(*) أخرجه البخارى (١ / ٢٦، ١٢٨)، ومسلم فى السلام (٢٦).

هذا موقف يقدم لنا دروسًا إيمانية هادية :

الأول : فضل حلق الذّكر، فمنزلتها عند الله تعالى عاليه وغالية، وأهلها مبشرون بمغفرة واسعة وجنة عالية، وفى الموقف رأينا أن من التحق بالحلقة فى أى مكان بها نال حظًا من رضوان الله وفضله.

فالرجل الأول الذى رأى فُرجَة فجلس فيها، أخبر النبى ﷺ عنه بأنه رجل أوى إلى الله فآواه الله إليه. أى : تولاه بالرعاية وقرَّبه لرحمته وفضله وإحسانه.

والرجل الثانى الذى استحيا فجلس فى آخر الحلقة، أخبر النبى ﷺ بأنه رجل استحيا فاستحيا الله منه، وهذا تعبير من باب المشاكلة فى اللغة العربية، حيث يكون الجزاء من جنس العمل، والمعنى أن الله سيكرمه، ولن يرده ولن يحرمه من واسع فضله.

الدرس الثانى من الموقف : أن المُعرِض عن الذكر وحلق الذكر والذاكرين محروم من فضل الله وسعة رحمته.

وفى هذا الموقف أخبر النبى ﷺ عن الرجل الذى أعرض بأنه أعرض فأعرض الله عنه، أى حرم نفسه بإعراضه، حرم نفسه من فيوضات الله ورحماته التى تتنزل على الذاكرين، وعلى حلق الذكر برحمات واسعة. من ذلك قول النبى ﷺ «لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده»[1].

الدرس الثالث : أن الناس فى الطاعة منازل ودرجات، وكلها يرجى لها القبول والثواب عند الله تعالى، وفى هذا مراعاة من الداعية لأحوال الناس المتفاوتة، كى يتعامل معها بحكمة.

---

(١) سبق تخريجه.

الدرس الرابع : هو التوجيه التربوى التعليمى من رسول الله ﷺ حيث اتخذ النبى ﷺ من الموقف العملى وسيلة إيضاح تربوية للمعانى الإيمانية.

وهذا من هديه ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى. حيث نوَّع ﷺ أساليب الدعوة، فكان ﷺ يدعو إلى الله تارة بالنصيحة وتارة بالإشارة، وتارة بالهدية، وتارة بالإكرام، وتارة بالموقف العملى، وتارة بالترغيب، وتارة بالترهيب... وهكذا حسب ما يقتضيه الحال.

١٠٥ - إن ربك لبالمرصاد

حَرَّض أبو جهل قومه على إيذاء النبى ﷺ ، فعمد عقبة ابن معيط إلى أحشاء وأمعاء جمل ، فحملها وألقاها على رسول الله ﷺ وهو ساجد ، حتى جاءت فاطمة - رضى الله عنها - وأبعدت القذر عن رسول الله ﷺ .

فقام النبى ﷺ وقال :

«اللهم عليك بالملأ من قريش» وسمى أقوامًا .

قال ابن مسعود :

فرأيتهم جميعًا قتلوا يوم بدر.

(٭) أخرجه البخارى (٤ /١٢٧، ٥ /٥٧)، ومسلم فى الجهاد (١٠٨).

هذا موقف نبوى مبارك يعلمنا التضرع إلى الله تعالى والدعاء. فالإنسان لا يسلم ولا يخلو من وجود بعض المتاعب التى تثقل عليه، ويعجز بما بين يديه من أسباب خاصة أن يدفع هذه المشكلات. وهذا الموقف يعلمنا كيف نصنع إذا ضاقت بنا السبل وأحاطت بنا المخاوف. فنرى فى الموقف أن عقبة بن معيط تحامل بالأذى على رسول الله ﷺ وألقى على رأسه وهو ساجد أحشاء وأمعاء جمل، ولم يجرؤ أحد أن يقترب من رسول الله ﷺ كى يرفع هذا الأذى عن رأسه خوف بطش قريش وأهل الكفر، حتى جاءت فاطمة بنت رسول الله ﷺ فرفعت هذا الأذى عن أبيها.

فقام النبى ﷺ يدعو ربه على من صنع به هذا الصنيع قائلاً: اللهم عليك بالملأ من قريش، وسمى أقوامًا.

وكان العون الإلهى والانتقام الإلهى من أهل الشر والكفر.

قال ابن مسعود: فرأيتهم جميعًا، أى: رأى كل من دعا عليه المصطفى ﷺ قد قُتلوا يوم بدر. وصدق الله العظيم: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾ [الفجر/١٤].

وقد أخبر الحبيب النبى ﷺ أنه ما من مؤمن يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا كان له بها إحدى ثلاث:

- إما أن يعجل الله له دعوته فى الدنيا: أى يحقق له ما دعا به.
- وإما أن يصرف عنه من السوء بمثلها.
- وإما أن يدخرها له يوم القيامة[١].

والله تعالى يقول: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة/١٨٦].

---

(١) سبق تخريجه.

١٠٦ - بقيت كلها

دفع النبى ﷺ شاةً للسيدة عائشة - رضى الله عنها - كى توزعها على الفقراء، وبعد وقت يسير سأل النبى ﷺ عائشة عن توزيع لحم الشاة، فقالت :

ذهبت كلها ولم يبق غير كتفها.

فقال النبى ﷺ :

«بل بقيت كلها ولم يذهب غير كتفها»، ثم قرأ قول الله تعالى :

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل/٩٦].

(*) أخرجه الترمذى (رقم ٢٤٧٠)، وراجع الترغيب والترهيب (٢/ ٦).

هذا الموقف المبارك يقدم لنا الأسوة والقدوة فى السخاء والعطاء والادخار للدار الآخرة الباقية، ويؤكد الحقيقة الإيمانية والهدى القرآنى بشأن ثواب النفقة فى سبيل الله.

فهنالك فى حياتنا نفقات كثيرة، لكن نفقة واحدة من بين النفقات هى التى يباركها الله تعالى، قال الله تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [البقرة/ ٢٦١].

أيضًا ما ننفقه فى سبيل الله تعالى وابتغاء مرضاته، هو الذى يبقى، أما ما عداه من مطعم أو مشرب أو ملبس ونحو ذلك من شئون الدنيا فيفنى.

قال الله تعالى : ﴿ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ** ﴾ [النحل/٩٦].

وجاء الموقف نموذجًا عمليًّا وتطبيقًا لهذا المعنى، فلما سأل النبى ﷺ السيدة عائشة عن توزيع لحم الشاة، قالت : ذهبت كلها ولم يبق غير كتفها، أى: تم توزيعها صدقة ما عدا لحم الكتف، لكن النبى ﷺ لم يرضه هذا التعبير الذى قالته السيدة عائشة، وقال لها مصححًا ومعلمًا ومرشدًا:

قولى يا عائشة : بقيت كلها ولم يذهب غير كتفها. فما تم إبقاؤه للطعام هو الذى ذهب، أما ما تم التصدق به فهو الذى بقى لنا ثوابًا عند الله تعالى يدخره لنا ليوم القيامة.

ومن هنا كان على المؤمن أن يقدم أفضل ما عنده للنفقة، وأن يجعل الصدقة فى مقدمة نفقاته لينال ما عند الله من خير.

قال الله تعالى :﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ [آل عمران/ ٩٢].

وقد يحسب بعض الناس أن ثواب الصدقة فى الآخرة فقط، والحق أن

للصدقة جزاءً فى الدنيا أيضًا. قال الله تعالى :

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [سبأ/٣٩].

١٠٧ - بالإيمان يتجدد الأمل

رأى إبراهيم بن أدهم رجلاً تبدو عليه علامات الضيق والحزن فقال له :

يا أخى ، إنى سائلك عن ثلاث فأجبنى :

الأولى : أيحدث فى هذا الكون شىء لا يريده الله عز وجل ؟ قال الرجل : لا .

فسأله الثانية :

أينقص شىء من رزقك قدَّره الله لك ؟ قال الرجل : لا

فسأله الثالثة :

أينقص من عمرك لحظة كتبها الله لك ؟ قال الرجل : لا .

فقال إبراهيم بن أدهم للرجل :

«فعلام الحزن يا رجل ؟ ! !» .

(*) تنبيه الغافلين ، ص ٢١٣ .

هذا الموقف يحمل دلالات هادية فى فقه معالجة الهموم ودفع الكآبة عن النفس.

وأولى هذه الدلالات: اهتمام المسلم بأمر أخيه المسلم، فإبراهيم بن أدهم حين رأى الرجل تبدو عليه علامات الهم والحزن أسرع إليه يسأله عن سبب همه وضيقه، كى يخفف عنه ويرى كيف يمكن مساعدة الرجل وإعانته، مع الدعاء له.

وهكذا ينبغى أن يكون المؤمن، يهتم بإخوانه، يخفف عنهم، ويتعرف على أحوالهم لإعانتهم، أما ما شاع فى حياتنا المعاصرة من السؤال العاجل إذا التقى الواحد منا بصاحبه سأله : كيف حالك ؟ ثم يجيب بنفسه : بخير والحمد لله، ثم ينصرف، دون أن ينتظر إجابة أخيه ويطمئن على أحواله.

فمثل هذا السؤال العاجل يتحلل به الإنسان من واجباته الاجتماعية وحقوق أخوَّة الإيمان، وكى لا يتهم الإنسان بالتقصير فى حق صاحبه. أما أهل الإيمان فإنهم يسألون باهتمام ورغبة فى إعانة من يسألون، وهذه الروح الودودة الحميمة من سنة الهادى البشير سيدنا محمد ﷺ، وفى الحديث: «مَثل المؤمنين فى تَوَادّهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[1].

الدلالة الثانية : دور الداعية، فالداعية كالطبيب يداوى جراحات النفوس بهدى القرآن الكريم والسنة النبوية، فحين علم إبراهيم بن أدهم ما بالرجل من ضيق وما أصابه من هم أقبل عليه يسأله عن ثلاثة أشياء لا يمكن الإجابة عنها إلا بالنفى، لأنها مما قدَّره الله عزَّ وجلَّ، ولا قدرة لأحد على تغييره أو تبديله.

وفى هذا حكمة غالية، حيث كان الخطاب بشكل مقنع كما يلفت انتباه المهموم إلى حقائق عالية خالدة فى هذا الكون أمرها بيد الله الخالق وحده،

(١) أخرجه مسلم فى البر والصلة (٦٦).

ليبث الطمأنينة والرضا فى قلب المهموم حيث قال ابن أدهم:

المسألة الأولى : أيحدث فى هذا الكون شيء لا يريده الله عز وجل ؟

المسألة الثانية : أينقص شيء من رزقك قدره الله لك ؟

المسألة الثالثة : أينقص من عمرك لحظة كتبها الله لك ؟

وتتأكد هذه المعانى وينتبه المهموم إلى هذه الحقائق، حيث كانت إجابته على الأسئلة الثلاثة بقوله : لا.

وارتقى إبراهيم بن أدهم بالرجل إلى قمة إيمانية بسؤاله : فعلام الحزن يا رجل ؟!

الدلالة الثالثة : نتعلم من هذا الموقف أنه بالإيمان يتجدد الأمل، فرجاء المؤمن فى الله لا ينفد، وأمل المؤمن فى ربه لا ينقطع.

وفى الحديث : «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»[1].

فإن كانت الأمور بيد الله تعالى فلنجعل الهموم همًّا واحداً هو مرضاة الله تعالى، فمن جعل الهموم همًّا واحداً استراح ونجا من السقوط فى هوة اليأس والإحباط. والمؤمن يتجدد أمله بتجدد الأنفاس، ثقة منه ويقيناً فى الله تعالى. إن الله على كل شيء قدير.

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٠٥، ٢٢٠٦).

١٠٨ - كيف الخلاص ؟

لقى القاضى عياض ﷺ شيخًا يستند على عصاه، فقال له :

كم بلغت من العمر يا رجل ؟

قال الرجل : ستين سنة.

قال القاضى:

لك فى طاعة الله ستون عامًا ؟ توشك أن تصل.

فبكى الرجل قائلاً :

لقد ضاعت فى المعصية، ولا أدرى ماذا يفعل الله بى ؟

قال القاضى :

ألا أدلك على الخلاص ؟ :

أَصْلِحْ ما بقى يُغْفَرْ لك ما مضى.

(*) جامع العلوم والحكم (٣ / ٩٢).

هذا الموقف يقدم لنا حقيقة إيمانية غالية، ويقف بمن تفلتت أعمارهم فى الزلات والمعاصى على سبيل الخلاص وطريقة النجاة.

ما أسرع مرور العمر، وإنها لحسرة وندامة أن تمر الأيام ويمضى العمر فى غفلة، وإثم ومعصية، ولقد حذرنا القرآن الكريم من انقضاء العمر فى المعاصى والذنوب دون توبة صادقة؛ فنأتى يوم القيامة يأكلنا الندم وتعذبنا الحسرات، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر/٥٣ : ٦٠].

فعلى العاقل أن يبادر بالتوبة فى الدنيا؛ كى يفوز بالغفران والرحمة فى الآخرة، والسبيل العملى لذلك هو ما دلنا عليه الموقف، حيث قال القاضى للرجل الذى تفلت منه العمر فى المعاصى : ألا أدلك على الخلاص؟ أى النجاة: أصلح ما بقى يغفر لك ما مضى.

ويقول النبى ﷺ : «إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله عز وجل وليس عليه شاهد بذنب»(١).

---

(١) راجع الترغيب والترهيب (٤ / ٩٤).

ووعد الله من تاب وآمن وعمل صالحًا أن يبدل سيئاته حسنات، قال تعالى في سياق الحديث عن عباد الرحمن :

﴿ إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان/ ٧٠].

كما يستفاد من الموقف أن يغتنم المؤمن ما بين يديه من فرص للطاعة والاستغفار والتقرب إلى الله تعالى. فاغتنام الفرص هدى إسلامى كريم، وفى الحديث النبوى الشريف : «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز»[١].

وفى الحديث أيضًا : «اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك»[٢].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) راجع الترغيب والترهيب (٤/ ٢٥١).

١٠٩ - هلك مَنْ قبلَنا

سرقت امرأة من بنى مخزوم، وهم من أشراف قريش، فتشفَّع قومها للرسول ﷺ بأسامة بن زيد، فلما تكلم أسامة مع رسول الله ﷺ، غضب النبى ﷺ وقال :

«أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟! إنما هلك الذين من قبلكم ؛ لأنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذى نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها».

(※) أخرجه البخارى (٤ / ٢١٣، ٨ / ١٩٩)، ومسلم فى الحدود (ب٢ رقم ٩٢٨).

في هذا الموقف عبر وعظات غالية، ودروس تربوية هادية، منها:

أن الناس سواسية أمام ميزان العدالة، يستوى فى الخضوع لها الملك المتوج والفقير البائس، وينبغى ألا يختل ميزان العدالة فى يد القاضى مهما كانت الدوافع والأسباب.

وجاءت آيات القرآن الكريم لتؤكد الأمر الإلهى بالعدل، من ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل/ ٩٠].

وفى هذا الموقف نرى أنه عندما سرقت امرأة من بنى مخزوم وهى قبيلة من أشراف قريش، وخاف قومها أن يلحق بهم عار وسوء بين القبائل، فهداهم تفكيرهم إلى أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ وابن حبه؛ ليشفع لهم عند رسول الله ﷺ فى شأن هذه المرأة، وظنوا أن الرسول ﷺ سيقبل شفاعته لمكانته الغالية عنده، فلما كلم أسامة الرسول ﷺ فى شأن المرأة المخزومية التى سرقت، غضب النبى ﷺ وقال: «أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة؟!».

ولم يقبل النبى ﷺ أن يختل ميزان العدالة لأجل أحد.

ويمتد معنى العدالة إلى جوانب حياتنا، فلا يقتصر على المحاكم فقط، فالأب قاضٍ فى بيته والمدرس قاض بين تلاميذه والمدير قاض بين موظفيه، وفى الحديث عن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية فى بيت زوجها، ومسئولة عن رعيتها، وكلكم راع ومسئول عن رعيته»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

وفى الموقف أيضًا بيان لأثر اختلال ميزان العدالة فى المجتمع، حيث قال النبى ﷺ لأسامة بن زيد :

« إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » .

ثم أقسم النبى ﷺ بربه بأنه لا مجاملة لأحد، ولا شفاعة فى حد لأحد حتى ولو كان شريفًا مكرمًا، فقال ﷺ :

« لو أن فاطمة بنت محمد ﷺ سرقت (وحاشاها أن تسرق) لقطع محمد يدها » .

وهكذا أكد النبى ﷺ من خلال بيانه أثر الظلم، وكيف أن اختلال ميزان العدالة فى الأمم السابقة قد أهلكهم . لأن المظلوم إذا تأكد له ضياع حقه وأصابه اليأس لجأ إلى طرق خاصة للانتقام والتشفى ولا تؤمن العاقبة لمثل هذه الأفعال . فالعدل أساس الأمن، وهذه حقيقة تؤكدها آيات القرآن الكريم، قال الله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام / ٨٢] .

١١٠ - مهلاً لِمَ تبكِي ؟

دخل الصُّنابحى على عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو فى أنفاسه الأخيرة قبل الموت فبكى.

فقال له عبادة :

مهلاً، لم تبكى ؟ فوالله لئن استُشْهِدْتُ لأشهدن لك. ولئن شُفِّعت لأشفعن لك. ولئن استطعت لأنفعنك.

ثم قال :

ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه نفع إلا حدثتكموه. إلا حديثًا واحداً وإنى محدثكموه الآن :

قال رسول الله ﷺ :

«من قال لا إله إلا الله دخل الجنة».

(*) صحيح مسلم، كتاب الإيمان (٢٠٧١).

فى هذا الموقف دخل الصنابحى – وهو من أئمة التابعين – على عبادة بن الصامت رضي الله عنه وهو آخر من مات من الصحابة على قول له، فبكى، لأنه كان آخر من بقى من صحابة رسول الله ﷺ، فقال الصحابى الجليل: لم تبكى؟ فليس هناك سبب يحملك على البكاء، فإن كنت تخشى الآخرة فإن صحبتك لى سوف تكون خيرًا لك – إن شاء الله – فلئن استشهدت لأشهدن لك، أى : لو كنت ممن قال الله فيهم : ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ** ﴾ [البقرة/١٤٣]، فسوف تكون ممن أشهد لهم، ولئن شفعت لأشفعن لك؛ أى : لو كنت من الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : «لكل مؤمن شفاعة»[١]، فسوف تكون ممن أشفع فيهم عند الله سبحانه. ولئن استطعت لأنفعنك، فإن الرجل ينتفع يوم القيامة بأصحابه الصالحين، وبآبائه الصالحين، وبذريته الصالحين، فله منهم نصيب لأنهم من أعماله الخيِّرة، ولذا قال النبى ﷺ : «لا تصاحب إلا مؤمنًا»[٢].

ثم يبين له أنه ينبغى ألا يحزن وألاَّ يفكر فى أنه بموت الصحابة سوف ينقطع العهد برسول الله ﷺ، فإنه ما من حديث إلا حدث به إلا واحدًا خاف أن يحدث به لأنه ربما لا يفطن الغافلون إلى معناه، ألا وهو قوله ﷺ : «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، والمعنى أن كل من قال كلمة الإخلاص وعمل بحقها دخل الجنة؛ فقد روى الإمام البخارى فى صحيحه معلقًا عن ،وهب بن منبه رضي الله عنه قيل له : أليست لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال : «بلى، ولكل مفتاح أسنان فإذا وجدت فُتح الباب وإلا فلا»[٣].

ونتعلم من هذا الموقف فضل صحبة الصالحين، حيث إن لهم شفاعة يوم القيامة.

---

(١) تذكرة الموضوعات ٢٢٧.
(٢) أخرجه الترمذى (رقم ٢٣٩٥)، وأبو داود (رقم ٤٨٣٢).
(٣) البخارى تعليقًا فى كتاب الإيمان.

كما يبين لنا الموقف فضل كلمة الإخلاص، لا إله إلا الله، وأن ثوابها الجنة بشرط أن يعمل المسلم بحقها من إحلال الحلال وتحريم الحرام.

كما يتضح لنا من الموقف أن بركة العلم فى العمل به.

١١١ - رجل بألف

عزم المسلمون على فتح مصر التى بشرهم رسول الله ﷺ بها، فاتجه إليها عمرو بن العاص رضي الله عنه بجيش كبير، ولكن عندما وصل إلى مشارف مصر رأى كثرة عدد الروم فطلب مدداً من عمر بن الخطاب رضي الله عنه واستجاب عمر لرأى عمرو، وكتب له:

إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألفٍ رجلٌ بمقام ألف.

من هؤلاء الأربعة عبادة بن الصامت الذى وجهه عمرو على رأس جيش إلى الإسكندرية ففتحها.

(*) فتوح البلدان (جـ٦ /٢٧٨).

هذا موقف يعلمنا فقه المواجهة، وأن القائد ينبغى ألا يدخل معركة لا يملك فيها أسباب النصر، فلا مكان للعواطف الهائجة ولا الانفعالات الطائشة، وإنما الحكمة وتقدير الموقف، ومعرفة حجم العدو وقراءة أبعاد المعركة قبل وقوعها، كل هذه الملامح من صفات القائد الذكى الفطن. ومن هنا لم يبدأ عمرو بن العاص فتح مصر إلا بعد تحديد حجم العدو ومعرفة قوته وتقدير القوة اللازمة لتحقيق النصر عليه.

فلما رأى عمرو بن العاص قوة الروم وكثرتهم، طلب مدداً من المقاتلين من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمده بأربعة آلاف، على كل ألف رجل بألف، إشارة إلى كفاءة المقاتلين ومهارتهم وصدقهم وشجاعتهم.

واستفاد عمرو بن العاص من هذا التقييم لهذه القوة الخاصة، التى أرسلها سيدنا عمر لتقوية جيشه عند فتح مصر، فوجه رجلاً من الأربعة الأفذاذ الذين زكاهم سيدنا عمر وجعل الواحد منهم بمقام ألف. ومنهم سيدنا عبادة بن الصامت، الذى قاد فرقة من الجيش فتح بها الإسكندرية، وكانت بداية مباركة لفتح مصر وتخليصها من سيطرة الرومان وظلمهم للمصريين؛ بما فرضوه من ضرائب باهظة وأحكام جائرة ونهب لثروات مصر.

ولم يفرض الفاتحون المسلمون الإسلام على أحد من أهل مصر، لكن أهل مصر لما رأوا أخلاق الفاتحين من صحابة رسول الله ﷺ وقيم الخير والعدل دخلوا فى دين الله أفواجًا.

١١٢ - لا يُدْخِل جوفه إلا طيبًا

شـرب أبـو بكر الصـديق رضي الله عنه شـربة مـن لبن، فأخـبـره غـلامـه أنـه تكهن لقـوم فـأعطوه اللبن، فـأدخل أبو بـكر إصبـعه فـي فـمـه، وجعل يتـقـيـأ حتـى أوشكت نفـسـه أن تخرج، ثم قال :

«اللهم إنـي أعتـذر إليك مـمـا حـمـلت العروق وخـالط الأمعاء».

فبلغ رسـول الله صلى الله عليه وسلم ما حـدث من أبـي بكر رضي الله عنه فـقـال صلى الله عليه وسلم :

«أو ما علمتم أن الصديق لا يُدخل جوفه إلا طيبًا».

(*) ذكره الغزالي في الإحياء، راجع إتحاف السادة المتقين (٦ / ١٠).

هذا موقف إيمانى يفيض بالدلالات الهادية ومنها :

حرص المؤمن على الحلال فى مطعمه ومشربه وسائر شأنه، والحذر من الحرام ومن الشبهات. وفى الموقف نرى أبا بكر رضي الله عنه وضع إصبعه فى حلقه وجعل يتقيأ حتى أخرج كل ما دخل جوفه من شربة لبن، لمَّا علم أن غلامه جاء به من طريق به شبهة؛ حيث قام غلامه بأعمال الكهان والدجالين مقابل هذا اللبن. ولم يكتف أبو بكر بذلك، بل استغفر ربه من اليسير من شربة اللبن الذى خالط الأمعاء وجرى بالعروق؛ وذلك لأن الحلال باب القبول والإكرام، وفى الحديث النبوى الشريف قال ﷺ : «إن الله تعالى طيب لا يقبل من الأعمال إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا**﴾ [المؤمنون/ ٥١]، وقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾ [البقرة/ ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنَّى يُستجاب له»(١).

وبيّن النبى ﷺ أن ينابيع الحكمة ونور الله فى القلب، يتأتَّى بالحرص على الحلال، قال ﷺ : «من أكل الحلال أربعين يومًا نوَّر الله قلبه، وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»(٢).

والحرص على الحلال طريق لإجابة الدعاء، قال النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضي الله عنه حين سأله أن يدعو له كى يكون مستجاب الدعوة، قال له ﷺ : «يا سعد، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة»(٣).

وحذرنا رسول الله ﷺ من كسب الحرام مهما كانت الدوافع حتى وإن أنفق فى الصدقات أو فى باب من أبواب البر، قال ﷺ : «من أصاب مالاً من

(١) أخرجه مسلم فى الزكاة (٦٥).
(٢) إتحاف السادة المتقين (٦/ ٧).
(٣) سبق تخريجه.

مأثم، فوصل به رحمًا، أو تصدق به، أو أنفقه فى سبل الله، جمع الله ذلك جميعًا ثم قذفه فى النار »(١).

فى هذا الموقف أهمية تزكية المواقف الإيمانية من الدعاة والعلماء وأولى الأمر والحث عليها، فحين علم رسول الله ﷺ بأمر أبى بكر الصديق وحَذَره من الشبهة وإخراج بعض اللبن من بطنه، أثنى عليه وقال ﷺ : « أوما علمتم أن الصِّدِّيق لا يدخل جوفه إلا طيبًا » .

(١) إتحاف السادة المتقين (٦/ ٩).

١١٣ - يُبخِّلان ابني عليَّ

كان قيس بن سعد - رضى الله عنهما - في جيش العسرة، وكان ينحر ويُطعم حتى استدان بسبب ذلك، فقال أبو بكر وعمر - رضى الله عنهما - :

إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه، فمشيا فى الناس يقولان ذلك، فلما سمع والده سعد، قام خلف النبى ﷺ وقال : «من يعذرنى من ابن أبى قحافة وابن الخطاب ؟

(*) راجع أسد الغابة (٤ / ١٢٥).

هذا الموقف الإيمانى درس فى العطاء والنجدة والتضحية من أجل نصرة الأمة، وما من شك فى أن هذه النماذج الإيمانية هى الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة لنا فى البناء والتنمية والإعداد، حين نتأسى بهم ونقدم مصلحة الجماعة والمجتمع والأمة على مصلحة الفرد، ونعلم ونوقن أن جميع صور الإقدام المخلص والتضحية والعطاء والنجدة صفقة رابحة مباركة عقدها الله مع عباده المؤمنين الصالحين، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ [التوبة/ ١١١].

وما من شك فى أن ساعات الشدة التى تمر بالأمم تجعل الأمة فى أشد الحاجة إلى مواقف التضحية والفداء والنجدة؛ كى تدفع شرور الأعداء، وتمكِّن للحق على الأرض بعزة وأمان.

ومن هنا رأينا – فى الموقف – الصحابى المبارك : قيسًا ووالده سعداً يضربان المثل فى قيمة العطاء، حيث مر المسلمون بشدة فى جيش العسرة، وأقبل قيس ليطعم أصحابه وجنود الجيش، وكان ذلك يتكلف الكثير، واستمر الصحابى الكريم قيس ينحر الذبائح ويطعم الجيش، حتى نفد ماله فاستدان، فقال أبو بكر وعمر – رضى الله عنهما – : إن تركنا هذا الفتى أهلك مال أبيه. فمشيا فى الناس يقولان ذلك، فلما سمع سعد قام خلف النبى ﷺ وقال: من يعذرنى من ابن أبى قحافة وابن الخطاب؟ يُبخِّلان علىَّ ابنى!.

فقال النبى ﷺ : « دعوه ؛ فإن الجود من شيمة هذا البيت ».

والذى أود أن أشير إليه هنا هو أن الصحابى الكريم قيس بن سعد بن عبادة كان يستدين وعنده من عروض التجارة والأملاك ما يسد به هذا الدين. أى لم يكن أمره انفعالاً لا يعرف التدبير، أو تهوراً تمليه العاطفة فى غيبة العقل. ولذلك أقره النبى ﷺ على ذلك لعلمه بحاله ومكانته المالية بين قومه.

١١٤ - استطلاع ذكى

أمسك الصحابة بغلامين لقريش بالقرب من مكان جيش المسلمين الذى كان يتأهب للقتال فى غزوة بدر.

فخاطب النبى ﷺ الغلامين قائلاً : أخبرانى عن قريش. قالا : هم وراء هذا الكثيب بالعدوة القصوى.

فقال لهما : كم القوم ؟ قالا : كثير.

فقال لهما : ما عِدَّتهم ؟ قالا : لا ندرى.

فقال لهما : كم ينحرون كل يوم ؟

قالا : يومًا تسعًا ويومًا عشراً.

فقال النبى ﷺ : القوم ما بين التسعمائة إلى الألف.

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟

قالا : عتبة وشيبة ابنا ربيعة وعدُّوا رجالاً منهم.

(*) السيرة النبوية (١ / ٢١١).

في هذا الموقف دروس تربوية هادية، تشتد إليها الحاجة في حياتنا المعاصرة، فالنبي ﷺ يعلمنا الأخذ بأسلوب التفكير العلمي في معالجة الأحداث وإدارة شئون الحياة، بعيداً عن العشوائية والانفعال الطائش، أو الاندفاع المتهور.

بل إننا نرى رسول الله ﷺ في هذا الموقف يقوم باستطلاع ذكي يستطيع من خلاله أن يحصل على معلومات خطيرة ومهمة بشأن العدو.

فسأل الغلامين عن مواقع العدو، وعن عددهم، وحين عجز الغلامان عن تقدير العدد، استخدم رسول الله ﷺ أسلوب الاستدلال والاستنباط، فسألهم: كم ينحرون في اليوم؟ فأجاب الغلامان: ينحرون تسعًا أو عشراً من الإبل، ومعلوم عند العرب أن الواحدة من الإبل تكفي مائة فرد.

وهنا تم التقدير القائم على الحساب العلمي الدقيق، فقال ﷺ: «القوم بين التسعمائة إلى الألف»، ثم سأل النبي ﷺ الغلامين عن العناصر المؤثرة في صفوف جيش الأعداء، فأخبر الغلامان بوجود عتبة وشيبة ابني ربيعة وعدًا أقوامًا.

وهكذا يكون سلوك المؤمن في معالجة الأحداث يتحرى الأخذ بالأسباب، فهذا نبي الله ورسوله ﷺ قد بشره الله بالنصر، وهو مع ذلك لا يألو جهداً في الأخذ بالأسباب، فما بالنا في حياتنا المعاصرة نريد أن ننجز الأشياء بعصا سحرية من الغيب دون جهاد أو تضحية، نطلب النصر ولا نأخذ بأسبابه، ونطلب التقدم ولا نأتي دواعيه، سبحانك ربنا، ورحماك ربنا، فما أعجب حالنا!!

إن الله عز وجل كما أمرنا أن نؤمن بالغيب كلفنا الأخذ بالأسباب، وجعل فعل السبب طاعة وترك السبب معصية والاعتماد على السبب شركًا بالله تعالى.

١١٥ - لو كانت لكِ مائة نفس

كان سعد بن مالك - وهو ابن أبى وقاص - بارًّا بأمه، فلما أسلم قالت أمه له:

لَتَدعنَّ دينك هذا أو لا أطعم، ولا أشرب حتى أموت، فَتُعيَّر بى، فيقال : هذا قاتل أمه.

فقال سعد :

إنى لا أدع دينى هذا لشيء.

فمكثت أمه ثلاثة أيام دون أن تأكل حتى اشتد جهدها، فقال سعد لأمه:

والله لو كانت لكِ مائة نَفْسٍ فخرجت نَفْسًا نَفْسًا ما تركتُ دينى هذا لشيء، فكلى. فأكلت.

(*) راجع أسد الغابة (٢ / ٢١٦).

هذا الموقف يحمل دروسًا إيمانية فى المعاملة بين الآباء والأبناء:

الدرس الأول : أهمية البر بالأم، فقد رأينا فى الموقف أن سعد بن مالك كان بارًا بأمه، ولقد وصى الله فى القرآن الكريم بالبر بالوالدين وبخاصة الأم، من ذلك قول الله تعالى : ﴿ **وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ** ﴾ [لقمان/١٤].

الدرس الثانى : درس فى العقيدة ومراتب الإيمان، فإن كان الله قد أمر بالبر بالوالدين، وجعله فى سياق الأمر بتوحيد الله والإيمان به، فقال جل شأنه : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ [الإسراء/٢٣]. إلا أن البر بالوالدين ينبغى أن لا يتقدم على حق الخالق سبحانه وتعالى، فالله سبحانه هو الخالق للأبناء والآباء، والله سبحانه صاحب الفضل على الجميع. فالابن يطيع والديه في كل شيء إلا فى ما يغضب الله الخالق، وهذا أدب مع الله الخالق سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ** ﴾ [التوبة/٢٤].

وهذا ما ينبغى أن يكون عليه قلب المؤمن وعقله، كى ينال فضل الله تعالى، من كمال الإيمان به، ومن حلاوة الإيمان فى القلب، لقول النبى ﷺ لسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قال له: يا رسول الله إنى أحبك أكثر من مالى وأهلى إلا نفسى التى بين جنبى.

فقال له النبى ﷺ : «لن يؤمن أحدكم (أى: لن يكمل إيمان أحدكم) إلا إذا كنتُ أحبَّ إليه من ماله وولده ونفسه التى بين جنبيه» فقال سيدنا عمر:

الآن يا رسول الله. أى : الآن أنت أحب إلىَّ من أهلى ومالى وولدى ونفسى التى بين جنبى، فقال له النبى ﷺ : «الآن يا عمر»[١] أى : الآن كمل إيمانك يا عمر.

أيضًا قول النبى ﷺ : «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[٢].

(١) أخرجه البخارى (١/ ١٠)، ومسلم فى الإيمان (٧٠)، وأحمد فى المسند (٣/ ١٧٧) وغيرهم باختلاف يسير.

(٢) سبق تخريجه.

١١٦ - الحــذر

فى أثناء الهجرة النبوية الشريفة، وفى الطريق إلى المدينة، بعد خروج النبى ﷺ وصاحبه أبى بكر الصديق من الغار، جعل أبو بكر يلتفت يمينًا مرة ويسارًا مرة وخلفه مرة.

فقال له النبى ﷺ :

«لا تخف يا أبا بكر».

فقال أبو بكر : ي

ا رسول الله ، أنا لا أخاف على نفسى؛ فإنى إن هلكتُ هلك فرد واحد، وإنما أخاف عليك يا رسول الله؛ فإنك إن هلكت هلكت الأمة بأسرها.

(*) راجع أسد الغابة (١ / ٣٤).

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية، أهمها :

● الحذر فى حياة الإنسان، فالمفروض فى العاقل الحذر، كى لا يقع فريسة لمكر عدوه وكيده، وهذا شأن المؤمن، يكون واعيًا بما حوله من أحوال وشئون، فإن الله يحب عبده الكَيِّس الفطن الحذر، كما رأينا فى هذا الموقف من سيدنا أبى بكر وهو يلتفت حوله حذراً وخوفًا على رسول الله ﷺ .

وفى الحديث قال النبى ﷺ : «المؤمن كيِّس حذر»(١) .

وكان سيدنا عمر بن الخطاب يقول : لست بالخب، ولكن الخب لا يخدعنى، أى : لست بالماكر المخادع، ولكن الماكر لا يستطيع خداعى .

نعم فليس الإيمان وسيلة للغفلة والسذاجة والانخداع، بل الإيمان طريق لمزيد من الحذر واليقظة والانتباه، والله تعالى يقول : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا** ﴾ [المائدة/٩٢] .

ومعنى الحذر يمتد فى حياة المسلم ليشمل جوانب كثيرة، فالمؤمن يحذر عدوه ويحذر نفسه الأمَّارة بالسوء، ويحذر شيطانه، ويحذر أخطاء الآخرين، ويحذر أكثر ما يحذر من مخالفة أوامر الله عز وجل، قال تعالى : ﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ [النور/٦٣] .

وقال تعالى : ﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ** ﴾ [آل عمران/٢٨] .

وقوله تعالى : ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ [البقرة/٢٣٥] .

● أيضًا يظهر من الموقف درس التضحية من أجل الأهداف الغالية

---

(١) أخرجه الحافظ فى الفتح (١٠/ ٥٣٠) .

والمقاصد السامية، فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يضحى من أجل رسول الله ﷺ ويبين أنه يعلم أن حياة رسول الله ﷺ حياة للأمة كلها، وأن النبى ﷺ يمثل الأمة كلها، وليس عاديًا.

ويظهر هذا من قول أبى بكر حين سأله النبى ﷺ : لِمَ تلتفت يا أبا بكر؟ قال: يا رسول الله ، أنا لا أخاف على نفسى فإنى إن هلكتُ هلك فرد واحد، وإنما أخاف عليك فإنك إن هلكتَ هلكَتْ أمة بأسرها.

ويمثل هذه التضحيات وهذه الهمم العالية تُبنى الأمم وتتقدم المجتمعات وتتسيد العالم، حين نقدم مصلحة الأمة على المصلحة الشخصية، ونقدم النفع العام على النفع الخاص. والرجال مواقف ومعادن لا تظهر إلا فى أوقات الشدائد.

١١٧ - اجعل لنا من نفسك يوماً

جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله ، ذهب الرجال بحديثك ، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلِّمُنا مما علمك الله .

قال ﷺ :

«اجتمعن يوم كذا وكذا» .

فاجتمعن ، فأتاهن النبى ﷺ فعلمهن مما علمه الله .

(*) البخارى (١/ ١٩٥)، ومسلم (١٦/ ١٨١).

هذا الموقف يحمل دلالات هادية، أهمها :

الدلالة الأولى : إظهار فضل العلم، وبخاصة العلم الذى فرضه الله على عباده، وجعله فرض عين على كل مسلم ومسلمة، وهو العلم الذى تصح به العقيدة وتصلح به العبادة، كيف لا، والله تعالى لما أراد أن يجعل لآدم -عليه السلام- منزلة عالية، لم يجعل ذلك له بمال ولا سلطان، وإنما بالعلم.

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة/ ٣٠ : ٣٢].

والدلالة الثانية : هى أن الله تعالى حين أمر حبيبه المصطفى ﷺ بأن يدعو ربه لطلب الزيادة، لم يأمره بالدعاء بطلب الزيادة من مال ولا سلطان، وإنما أمره بطلب الزيادة فى العلم. قال تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه/ ١١٤].

وقد أدركت الصحابية الفُضلى هذا الفضل للعلم فذهبت لرسول الله ﷺ تطلب منه أن يجعل للنساء مجلسًا يعلمهن فيه مما علمه الله.

وما من شك فى أن للعلم أهمية بالغة فى تشكيل عقلية المؤمن وبناء شخصيته، كى يقوم تفكيره وقوله وفعله على علم وبصيرة. بدلاً من عشوائية التفكير أو الانصياع وراء العادات والتقاليد أو اتباع الهوى... وغير ذلك.

الدلالة الثالثة : أهمية تعليم المرأة فى المجتمع المسلم، كى ينهض المجتمع بجناحيه، فالمرأة هى الأم وهى الزوجة وهى الأخت، وهى التى حباها الله بفضل الأمومة والتربية بدون علم، لذلك استجاب النبى ﷺ وجعل لهن مجلسًا يكون فيه التعليم المباشر والحوار المباشر معهن، وبأن يقوم الزوج بتعليم زوجه ما تعلمه من رسول الله ﷺ.

وهذا درس للدعاة أن يجعلوا نصيبًا وافيًا للنساء من الدروس والمحاضرات تأسيًا برسول الله ﷺ، والمتأمل لتاريخ الدعوة؛ يرى بوضوح أن كثيراً من الصحابيات قمن بواجب الدعوة، ورواية السنة النبوية المطهرة، وبخاصة ما يتصل بشئون النساء، والسيدة عائشة - رضى الله عنها - خير نموذج لهذا. كما قامت المرأة فى تاريخ الدعوة بدور بطولى رائع فى التضحية والجهاد، ومن هؤلاء السيدات أسماء بنت أبى بكر وأم كلثوم بنت عقبة، وأم سليم، وأم عمارة، وأم ذر، وأم حرام بنت ملحان ... وغيرهن.

كل ذلك يؤكد مشاركة المرأة وإسهامها فى بناء الأمة، وحسبنا أن نقرأ قول الله تعالى : ﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ** ﴾ [آل عمران/ ١٩٥].

١١٨ - الانهيار

وجد النبى ﷺ امرأة تبكى عند قبر ، فقال لها :

«اتقى الله واصبرى» .

ولم تكن تعرفه ﷺ ، فقالت له :

إليك عنى ، فإنك لم تُصَبْ بمصيبتى .

ثم عرفته ، فاعتذرت له قائلة : لم أعرفك .

فقال لها الرسول ﷺ :

«إنما الصبر عند الصدمة الأولى» .

(*) البخارى (٢ / ١٠٥) ، ومسلم فى الجنائز (١٤) .

إن هذا الموقف يقدم لنا قيمة غالية فى حياة الإنسان، ألا وهى قيمة التماسك وقت المحن، وعدم الانهيار أمام الشدائد، فإنه لا ينهار على الطريق من أول صدمة إلا الضعفاء، ويتخطاهم الزمن ويطويهم التاريخ كأنهم لم يكونوا شيئًا مذكوراً !!

وحين نسأل أنفسنا: ما الذى يحمينا من الجزع والانهيار عند الشدائد ؟

إنه الصبر، وقد مدح القرآن من واجهوا الشدائد بصبر ويقين، قال الله تعالى: ﴿ **وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ** ﴾ [البقرة/١٧٧].

والذى يقوى صبر الإنسان هو الإيمان بالله تعالى، فكلما زاد الإيمان زاد المؤمن يقينًا وصبراً.

وأود أن أشير إلى حقيقة مهمة بشأن الشدائد والمصائب، وهى أن أكثر الناس تعرضًا للشدائد هم الأقوياء والقادة وأصحاب الرسالات من الدعاة والمصلحين والعلماء الذين لا يعيشون لأنفسهم وإنما لشعوبهم، ومن هنا كان الأنبياء هم أشد الناس بلاء، قال النبى ﷺ : «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة (أى: ضعف) ابتلى على حسب دينه، فما يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة»[١].

وهذا رسول الله ﷺ تعرض لما لم يتعرض له مصلح أو نبى، فقالوا فيه ما قالوا من أنه شاعر وساحر وكاهن ومجنون... إلخ، وقالوا إفكًا فى أهل بيته أم المؤمنين السيدة عائشة – رضى الله عنها – ما قالوا. وقالوا فى حق الله تعالى: «إن الله فقير»، والملائكة بنات الله... إلخ ما قالوا مما يؤذى النبى ﷺ.

فيصبر النبى ﷺ ويرشده الله إلى أبواب تقوية الصبر وإزالة الضيق، وذلك

(١) راجع كنز العمال (رقم ٣٢٥٣، ٣٢٥٥، ٦٧٨٣).

بكثرة التسبيح لله والصلاة تضرعًا إلى الله وشغل النفس بما هو أعلى، ألا وهو الإعداد للقاء الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر/٩٧/٩٩].

وهكذا يربى الإيمان فينا الصبر، والصبر يعطينا قوة التحمل والمواجهة ليس مع الناس وأحداث الحياة فقط، بل مع شرور النفس الأمارة بالسوء، لقوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»[1].

(١) أخرجه البخارى (١٠/٥١٨)، ومسلم (٤/٢٠١٤).

١١٩ - إنها الرحمة

دخل عبد الرحمن بن عوف على رسول الله ﷺ وولده إبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان الدمع.

فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه :

حتى أنت يا رسول الله؟!

فقال ﷺ :

«يا ابن عوف، إنها الرحمة».

ثم قال ﷺ :

«إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا: إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

(*) أخرجه أبو داود (٣١٢٥).

هذا موقف نبوى كريم تتجلى فيه مظاهر الرحمة وأثرها فى العطف على الغير، كيف لا وصاحب الموقف هنا هو من أرسله ربه رحمة لسائر العوالم من إنسٍ وجن، ونبات وطير، وحيوان وجماد، وغير ذلك، قال الله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء/١٠٧].

ووصفه ربه بالرحمة فى معالجة شئون أصحابه وأمته، قال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران/١٥٩].

وظهرت آثار رحمته ﷺ فى شفقته على أمته وخوفه عليها من أن تقع فى مشقة أو ضيق، فكان اليسر والتيسير منهجه، قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة/١٢٨].

ويعلمنا رسول الله ﷺ أن معنى الرحمة ومداها يمتد ليشمل القريب والغريب، وربط بين منسوب الإيمان والرحمة، فقال ﷺ : «لن تؤمنوا حتى تراحموا» (أى : لن تؤمنوا إيمانًا كاملاً)، قالوا : يا رسول الله كلنا رحيم، فقال النبى ﷺ : «إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه، ولكنها رحمة العامة»[1].

ونتعلم من الموقف أن الإسلام لا يصادر المشاعر ولا يمنع العواطف، وإنما يهذبها فى إطار ما يرضى الله عز وجل، ولعل بعض الصحابة حين رأى دموع الحزن من سيدنا رسول الله ﷺ أصابته الدهشة، وقال: حتى أنت يا رسول الله؟ **وكأنه يفهم أن العظماء ليس لهم إظهار ذلك، وكأن جمود المشاعر أمام الحوادث من سمة القادة والعظماء، فصحح النبى ﷺ هذا المفهوم وبيَّن أن**

(١) راجع الترغيب والترهيب (٣/ ٢٠١).

الإنسان لا تصادر مشاعره ولا دموعه ولا عواطفه، وإنما المطلوب أن تجرى هذه المشاعر وتلك العواطف فى حدود ما يرضى الله عز وجل، ولا تدفع الإنسان مع الانفعال بها إلى شيء يغضب الله تعالى.

وهذا هو قول النبى ﷺ : « يا ابن عوف إنها الرحمة، إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا : إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ».

اللهم صلِّ على صاحب الخلق العظيم وعلى آله وصحبه وسلم.

١٢٠ - كيف تركتَ أصحابك ؟

دخل شـقـيق البلخى رضي الله عنه على إبراهيـم بن أدهم فـقـال له : كيف تركت أصحابك يا إبراهيـم ؟

قال :

تركتهم إن أُعطُوا شكروا وإن مُنِعُوا صبروا.

قال :

هكذا حال العامة.

لقـد تـركت أصـحـابى إن مُنـعـوا شكَروا ، وإن أُعْطُوا آثروا غيرهم على أنفسهم.

(*) تنبيه الغافلين ، ص ١٨٩ .

هذا موقف كريم يحمل هديًا وفقهًا فى واحدة من مكارم الأخلاق التى نبعت فى رحاب هدى صاحب الخلق العظيم، الذى بعثه الله ليتمم الله مكارم الأخلاق، نبى الله ورسوله، سيدنا محمد ﷺ، ونتعلم من الموقف أن أصحاب الهمم العالية لهم من مكارم الأخلاق ما يعبر عن كمال إيمانهم بالله وصدق أسوتهم برسول الله ﷺ .

فإذا كان شأن عامة المسلمين أنهم إن أُعْطُوا شَكَروا وإن مُنعوا صَبَروا، وهو ما عبر عنه إبراهيم بن أدهم. فإن أصحاب الهمم الإيمانية العالية ومكارم الأخلاق السامية أخلاقهم ترقى إلى مستوى الأحسن والأكمل والأفضل، وهو ما عبر عنه شقيق البلخى بقوله : لقد تركت أصحابى إن مُنعوا شكَروا، وإن أُعطوا آثروا غيرهم على أنفسهم.

كما يلفت الموقف انتباهنا إلى خلق الإيثار، ولقد مدح الله السابقين الأولين بخلق الإيثار، قال تعالى : ﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [الحشر/ ٩].

وقال تعالى : ﴿ **وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا** ﴾ [الإنسان/ ٨].

وفى خلق الإيثار لون من التضحية من أجل الغير رغبة فيما عند الله من خير ومثوبة، قال تعالى :

﴿ **وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ [البقرة/ ١١٠].

ولنا أسوة فى خلق الإيثار عند الإمام على رضي الله عنه حين نام فى فراش رسول الله ﷺ ليلة الهجرة فداءً لرسول الله ﷺ . وهكذا يؤثر المسلم غيره على نفسه، ويجود حتى بنفسه، وهذا غاية الجود والإيثار.

وتقدم لنا السنة النبوية المطهرة الأسوة والقدوة من إيثار الرسول ﷺ وإيثار صحابته الكرام، فعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : جاء رجلٌ إلى النبى ﷺ فقال : إنى مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت : والذى بعثك بالحق ما عندى إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن جميعًا مثل ذلك : لا والذى بعثك بالحق ما عندى إلا الماء.

قال النبى ﷺ : «من يضيف هذا الليلة ؟ فقال رجل من الأنصار : أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته : هل عندك شىء ؟ فقالت : لا، إلا قوت صبيانى. قال : علِّليهم بشىء وإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئى السراج وأريه أنَّا نأكل؛ فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين (أى جائعين)، فلما أصبح غدا على النبى ﷺ، فقال : «لقد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»(١).

(١) أخرجه البيهقى (٤ / ١٨٥)، وراجع تخريج الإحياء (٣ / ٢٥٢).

١٢١ - خصلة تستر سائر العيوب

اجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفى، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب ؟

قال : هى أكثر من أن تحصى، غير أن به خصلة لو استعملها سترت سائر عيوبه.

قال : وما هى ؟

قال : حفظ اللسان.

(*) القراءة الرشيدة ، ص ١٩ .

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية :

الأولى : ما ينبغى أن تكون عليه مجالسنا من الاشتغال بالحوار المفيد، والمناقشة النافعة.

قال الله تعالى : ﴿ **لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ** ﴾ [النساء/١١٤].

الدلالة الثانية : أن الموقف يقدم لنا هديًا أخلاقيًا عظيمًا، وهو حفظ اللسان عن كل ما نهى الله عنه من غيبة أو نميمة أو كذب أو إفك أو بهتان، أو قول زور، أو إشاعة فتنة، أو لغو الكلام، والقرآن يبين لنا أن المؤمن معرض عن لغو الكلام، فقال الله تعالى فى أوصاف المؤمنين المفلحين:

﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ** ﴾ [المؤمنون/٣].

وفى الحديث النبوى الشريف، قال النبى ﷺ : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[١]، وفى الحديث قال النبى ﷺ : «كل كلام ابن آدم عليه لا له، إلا أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله عز وجل»[٢].

وقال الحكيم : احفظ لسانك، واعلم أن ذكر الناس داء، وذكر الله عز وجل دواء.

فعلى المؤمن أن ينظر إلى نعمة اللسان القادر على البيان التى ميز الله بها الإنسان، ليستعملها فيما يرضى الله عز وجل من نشر العلم وتعليم القرآن، وذكر الله تعالى، والدعوة إلى الله عز وجل.

الدلالة الثالثة : هى أثر حفظ اللسان فى ستر العيوب، فإن الإنسان مخبوء تحت لسانه إذا تكلم ظهر واتضح حاله، وظهرت أخطاؤه.

---

(١) البخارى (٨/١٣، ٣٩/١٢٥)، ومسلم فى الإيمان (٧٤).
(٢) الترمذى رقم (٢٤١٢)، والنووى فى الأذكار (٢٩٧).

ومن هنا فإن حفظ اللسان عن كثرة الكلام وعن الكلام فيما لا يحسن الإنسان يكون ستراً لعيوبه.

كما أن فى الصمت سلامة من فلتات اللسان، وبخاصة فى أوقات الغضب والانفعال، فإن جراحات اللسان خطيرة، يترتب عليها قطع المودة وتغير الصدور وشيوع العداوة، هذا بين الناس. أما عند الله تعالى فقد يتكلم العبد بالكلمة من سخط الله عز وجل فتودى به فى جهنم وبئس المهاد.

١٢٢ - موائد علمية

نزل بأبى الدرداء ضيف، فقال له أبو الدرداء :

أما إنى لا أجد ما أضيفك به أفضل من شىء سألت عنه رسول الله ﷺ قلت : يا رسول الله. ذهب أهل الدثور بالأجور، يصومون كما نصوم ، ويصلون كما نصلى، ويتصدقون وليس لنا أموال نتصدق.

فقال النبى ﷺ :

«يا أبا الدرداء، ألا أدلك على شىء إن أنت فعلته لم يسبقك من كان قبلك ولم يدركك من كان بعدك إلا من جاء بمثل ما جئت به ؟ تسبح الله فى دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وتحمده ثلاثًا وثلاثين، وتكبره ثلاثًا وثلاثين».

(*) راجع سنن الترمذى، كتاب الصلاة، باب ما جاء فى التسبيح فى أدبار الصلاة (٢/٢٦٤ - ٢٦٥).

هذا موقف تربوى كريم، يقدم لنا هديًا تشتد الحاجة إليه فى عالم طغت فيه وعليه المادة. فإن كانت عادة الناس قد جرت على أن يقدم للضيف ما لذ وطاب من الطعام والشراب، فهذا الموقف يلفت انتباهنا إلى نوع آخر من كرم الضيافة وهو كرم أبقى أثرًا وأنفع من كرم الطعام والشراب. فإن كان الطعام والشراب غذاءً للأبدان فإن موائد العلم النافع الذى يقربنا إلى الله تعالى - غذء الأرواح والعقول.

ومن هنا عَدَّ أبو الدرداء رضي الله عنه الزاد العلمى زادًا لا يفضله آخر مما تعارف عليه الناس.

وهذه نظرة تأكدت لدى هذا الصحابى، وكثيرًا ما كان يلفت انتباه المسلمين إليها، فها هو يقف يومًا أمام الكعبة، ثم ينادى: أيها المسلمون، أليس إذا أراد أحدكم سفرًا استعد له بزاد؟ قالوا: بلى، فقال لهم: فسفر الآخرة أبعَد ما تسافرون، فقالوا له: دُلَّنا على زاده.

فقال لهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حجوا حجة لعظائم الأمور، وصلوا ركعتين فى ظلمة الليل لوحشة القبور، وصوموا يومًا شديد الحر لطول يوم النشور»[(١)].

وأبو الدرداء قد استمد هذا الفهم من هدى القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة/١٩٧].

فهذا هو الزاد الحقيقى الذى يبقى ويصل معنا إلى القبر وعند الحساب.

أما زاد الدنيا من أملاك وطعام وشراب ونحو ذلك فيتخلف عنا، يرثه الناس ونحاسب عليه بين يدى الله تعالى.

وفى الحديث، قال النبى ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من

(١) راجع الاستيعاب (ترجمة أبى الدرداء).

ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١].

ومن دروس الموقف أيضًا ما أشار إليه الحديث النبوى عن فضل المحافظة على التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين فى دبر كل صلاة، وأنه يرفع منزلة الإنسان عند الله درجات عالية لا يدانيه ولا يساويه فيها إلا من عمل مثل عمله. وفضل الله أوسع.

(١) الترمذى (رقم ١٣٧٦)، وأصله عند مسلم فى (الوصية ١٤).

١٢٣ - هيبة الإسلام

صحب أبو عبيدة بن الجراح عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما- إلى الشام، وكان بينهما مناوبة لركوب الدابة، وعلى مشارف الشام جاء الدور على عمر ليمشى على الأرض، فقال له أبو عبيدة :

يا عمر، أخشى من نظر أهل الشام إلينا، أنت تمشى بينما أنا راكب.

فقال له عمر :

نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فلا نبالى بمقالة الناس فينا.

(*) أخرجه البخارى تعليقًا.

إن هذا الموقف يظهر لنا تماسك الأمة واعتزازها بإسلامها فى مواجهة الآخر فلا تذوب فيه ولا تقلده تقليداً أعمى، وإنما هى فى المقدمة دائماً؛ لأنها الأفضل فهى خير الأمم، قال الله تعالى : ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران / ١١٠].

لكن واقع أمتنا ليس كذلك، فما الذى نزع هيبة الأمة ؟ وما الذى حرمنا مما كانوا عليه من بركات وفيوضات؟ وكيف هُنَّا ؟؟!!

هذه تساؤلات حول واقع أمتنا. ويجيبنا النبى ﷺ كى ندرك موضع الخلل وأسباب الضعف والهوان والفرقة والتمزق، والاختلاف. بقوله ﷺ : «إذا عظمت أمتى الدينار والدرهم نزعت منها هيبة الإسلام، وإذا تركت أمتى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت بركة الوحى، وإذا تَسَابَتْ أمتى سقطت من عين الله»(١).

نعم حين فتنا بالأموال والماديات ولم نعمل لبناء ورفعة الأمة، حين قدمنا المصالح الشخصية على المصلحة العامة للأمة، حين أهملنا حق الله عز وجل فينا فى العبادات والمعاملات، وأصبح الطموح والأمل مرتبطًا بالملذات والشهوات، أصابنا الضعف وتداعت علينا الأمم. قال النبى ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها»، فقال قائل : أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال ﷺ : «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن»، قالوا : وما الوهن ؟ قال ﷺ : «حب الدنيا وكراهية الموت»(٢).

وحين ضعفت منا الاستجابة لهدى قرآن الله وسنة نبيه حرمنا بركة الوحى بركة القرآن والسنة؛ لأن الله تعالى جعل بركته منوطة بالإيمان والتقوى، قال

---

(١) راجع إتحاف السادة المتقين (٤ / ٥١٥).
(٢) البخارى فى مناقب عمر.

تعـــالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف/٩٦].

وحين تبادلنا الاتهامات واختلفنا وتمزقنا وأخذ بعضنا يتتبع عيوب بعض، حرمنا تأييد الله لنا، فسباب المسلم فسوق وقتاله كفر، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو فى جوف بيته كما أخبر المعصوم ﷺ(١)، وحين أصاب شبابنا التغريب بالتقليد الأعمى بدلاً من أن نقوم بدورنا فى التأثير فى غيرنا.

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد/١١].

ورأينا فى الموقف أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرد أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى منطق الإيمان حيث تكون العبرة بالله وبرسوله ﷺ، فقال عمر : «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نبالى بمقالة الناس فينا».

---

(١) أخرجه البخارى (١/١٩، ٨/١٨، ٩/٦٣)، ومسلم الإيمان ب ٢٨، رقم ١١٦.

١٢٤ - أفلا أكون عبداً شكوراً ؟!

قام النبى ﷺ من الليل، وتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلى فأطال القراءة، وأطال الركوع، وأطال السجود، فلما رأت السيدة عائشة - رضى الله عنها - حال رسول الله ﷺ من التبتل والخشوع وطول القيام من الليل حتى تفطرت قدماه، قالت :

يا رسول الله، لِمَ تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فقال ﷺ :

«يا عائشة ، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟!».

(*) البخارى (٦ / ١٦٩).

هذا موقف نبوى كريم، يقدم لنا الأسوة والقدوة، فى القيام بواجب العبودية لله رب العالمين، فهو ﷺ سيد العابدين وإمام الخاشعين، خاطبه ربه بقوله : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر/٩٩].

صلى الله وسلم على سيدنا محمد، فلم تمنعه مشاغله عن وقوفه بين يدى ربه إذا أرخى الليل سدوله، وغارت النجوم ونامت العيون.

وما أكثر المشاغل التى كانت عند رسول الله ﷺ : مشاغل الحياة، والدعوة، وبناء الأمة، ومواجهة الأعداء من اليهود ومن والاهم، ومواجهة المنافقين. كل ذلك لم يشغل رسول الله ﷺ عن التبتل والخشوع والقيام تضرعًا لله تعالى، وهو ﷺ لا يؤدى ذلك لمجرد الامتثال فقط لأمر الله تعالى، بل بدافع من الشوق والحب، كان النبى ﷺ يتشوق ويحن للقاء ربه، وهو القائل ﷺ : «وجعلت قرة عينى فى الصلاة»(١).

ويعلمنا النبى ﷺ من خلال هذا الموقف أن نقابل نعم الله علينا بالشكر، وذلك لقوله ﷺ : «يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً ؟!».

كما يعلمنا النبى ﷺ من خلال هذا الموقف أن المؤمن يطيل الصلاة إذا كان وحده، ويطيل قراءتها وركوعها وسجودها، أما إذا صلى بالناس فالتخفيف سنته ﷺ مراعاةً لأحوال الناس من المرضى وأصحاب الحاجات ونحوهم.

قال ﷺ : «من صلى بالناس فليخفف؛ فإن فيهم الضعيف والمريض وذا الحاجة ...»(٢).

فما بال بعض الناس الذين إذا صلَّوا بالناس جماعة أطالوا، وإذا صلى الواحد منهم نافلة منفرداً أسرع وقصر ... إن هذا مخالف لهديه ﷺ.

---

(١) الشفا للقاضى عياض ١ / ١٢٠..
(٢) أخرجه البخارى (٣٠٧)، ومسلم (٤٦٧).

ولقد علمنا رسول الله ﷺ أن الحياة إنما تكون لله وبالله، فكل الأنفاس وكل الحركات وكل الأقوال والأفعال لله. هكذا علمه ربه، قال الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام/ ١٦٢].

كما يعلمنا الموقف ألاَّ نركن إلى شهادات الثناء والتقدير، بل ينبغي أن يكون ذلك دافعًا لنا إلى مزيد الإحسان والإجادة.

ويرشدنا الموقف أيضًا إلى فضل قيام الليل، وهو هدى نبوى كريم، قال رسول الله ﷺ :

« أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام »(١).

---

(١) سبق تخريجه.

١٢٥ - رسول الله ﷺ يحبك

زار النبى ﷺ والصحابة معه البقيع، فسلم عليهم ودعا لهم، ثم قال ﷺ :

«وددتُ أنَّا قد رأينا إخواننا».

فقالت الصحابة :

أو لسنا إخوانك ؟

فقال ﷺ :

«أنتم أصحابى، أما إخوانى فقوم لم يأتوا بعد، آمنوا بى ولم يرونى».

(*) مسلم فى الطهارة (٣٩)، أحمد (٢/٤٠٨).

هذا موقف نبوى يحمل للأمة حبًّا وودًّا من رسول الله ﷺ . وأن نحب رسول الله ﷺ فهذا شرع وفرض، أما أن يحبنا رسول الله ﷺ فهذا شرف وفضل. ولقد أكد القرآن الكريم حب رسول الله ﷺ لأمته وحرصه عليها.

قال الله تعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة/١٢٨].

ومن حب النبى ﷺ أن الله أعطى كل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته، وادخر النبى ﷺ دعوته شفاعةً لأمته يوم القيامة.

والنبى ﷺ فى آخر حياته ينزل عليه جبريل، والنبى ﷺ يقول : «أمتى أمتى» ، فيقول له جبريل : سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك. فقال النبى ﷺ : «يا رب وأنا لا أرضى وواحد من أمتى فى النار»(١).

ومن حب الرسول ﷺ لأمته أنه كان فى بداية الإسلام لا يصلى على من عليه دَيْن، فلما اتسع بيت المال كان يقول: «من تَرك دَيْنًا فعلىَّ، ومن ترك مالاً فلورثته»(٢).

قال الله تعالى : ﴿ **النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ** ﴾ [الأحزاب/٦].

وإذا كان هذا الحب عامًّا لكل الأمة، فقد زاد عليه رسول الله ﷺ حبًّا خاصًّا لمن آمن به ولم يره.

ولقد سألت الصحابة رسول الله ﷺ : وكيف تعرف يوم القيامة من آمن بك ولم يرك ولم تره يا رسول الله ؟

فأجاب النبى ﷺ : «أرأيتم لو أن رجلاً له خيلٌ غُرٌّ محجلة (ومعنى غُر، أى : بمقدمة وجهها بياض بالجبهة، ومعنى محجلة : أى بالقوائم الأمامية

(١) رواه الطبرى فى التفسير غير مرفوع.
(٢) رواه أحمد (٢/٢٩٠، ٣/٢٦٩)، وأصله فى الصحيحين.

بياض أيضًا) بين ظهراني خيل دُهْم بُهْم (أي : سوداء سوادًا خالصًا) ألا يعرف خيله ؟ » فقالت الصحابة : بلى يعرف الرجل خيله، فقال النبي ﷺ : « فإنهم يأتون غرًّا محجلين من الوضوء »[١]، حيث تأتي أعضاء الوضوء يشع منها نور يَعْرِفنا به حضرة النبي ﷺ يوم القيامة .

ومن دلالات الموقف أيضًا : أدب زيارة القبور، فمع تحصيل العظة والعبرة من الزيارة، ينبغي الدعاء لهم تأسيًا برسول الله ﷺ . فإذا دخل المقابر سلم عليهم قائلاً : السلام عليكم ورحمة الله، ثم يدعو لهم : أنتم السابقون ونحن اللاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية .

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٦) .

١٢٦ - هل عاملته ؟

سمع عمر بن الخطاب ﷺ رجلاً يُزَكِّي رجلاً ويثني عليه، فقال له سيدنا عمر ﷺ : هل تعرفه؟

فقال الرجل: نعم.

فقال عمر : لعلك رأيته يطيل السجود في المسجد.

فقال الرجل : نعم.

فقال سيدنا عمر : هل عاملته ؟

فقال الرجل : لا.

فقال سيدنا عمر : إذًا فأنت لا تعرفه.

(*) جامع العلوم والحكم (٣/ ١٢١).

هذا الموقف يحمل دلالات تربوية هادية منها :

أهمية جانب السلوك الاجتماعى فى تقييم الأفراد، فسيدنا عمر رضي الله عنه نبه الرجل إلى أن المعرفة الحقيقية بالناس لا تتأتى فقط بمعرفة أنهم عُبَّاد، ولكن بصلاحهم فى معاملاتهم الاجتماعية بين الناس.

ولقد رفع الإسلام من شأن الواجبات الاجتماعية فجعل رتبتها تلى رتبة الإيمان بالله تعالى، قال الله تعالى:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ [الماعون/ ١ : ٣].

وقال الله تعالى : **﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ إِنَّهُ كَانَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾** [الحاقة/ ٣٠ : ٣٤].

كما ربط الإسلام بين العبادة والسلوك الاجتماعى فى الإسلام، فامرأة عابدة كانت تكثر الصلاة والصيام ولكنها تؤذى جيرانها بلسانها، قال عنها رسول الله ﷺ : « هى فى النار » وأخرى لا تصلى إلا الفرائض ولا تصوم إلا رمضان، لكنها أحسنت المعاملة لجيرانها، فقال رسول الله ﷺ : « هى فى الجنة »[١].

إن العبادة لها عظيم الأثر فى تصفية النفوس وإعانة العبد على فعل الخيرات والإحسان لإخوانه.

ومن دلالات الموقف أيضًا عدم التسرع فى تقييم أحد إلا بعد معاملته، كى يتم التقييم بأسلوب علمى يتسم بشمول جوانب الشخصية ، ويستوفى العناصر الأساسية، ويقوم على أسس وحقائق، ولا يقوم على الهوى أو الرؤية الشخصية، أو الإحساس الفردى.

---

(١) سبق تخريجه.

ولذلك لم يقبل سيدنا عمر تقييم الرجل، وقال له: أنت لا تعرفه.

ومن دلالات الموقف أيضًا أن المؤمن كيّس فطن حذر، يحترس من الناس، فكم أصاب الأذى أناسًا بسبب فرط ثقتهم بمن ليسوا أهلاً للثقة، ومن وصايا القرآن لأهل القرآن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا**﴾ [النساء/ ٧١].

١٢٧ - قَلَّ صبرى عنك يا رسول الله !!

كـان ثوبان رضي الله عنه شـديد الحب لرسـول الله ﷺ، قـليل الصبـر عنه، فـأتاه يومًا باكـيًا قد تغيّـر لونه، فسأله النبى ﷺ عن سبب تغير لونه، فقال :

يا رســول الله ، مــا بى مــرض ولا وجع، غـيــر أنى أستوحش وحشـة شـدية إن لم أَرَكْ، ثم أتذكر أمر الآخرة وأنك تُرفع مع النبيين فأنَّى لى برؤيتك ؟!.

فأنزل الله تعالى :

﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء/٦٩].

(*) راجع تفسير الطبرى.

هذا الموقف يقدم لنا دلالات هادية فى رحاب محبة المصطفى ﷺ وما كان عليه أصحابه من الحب والود له:

● الدلالة الأولى: هذا التعلق العظيم وهذه العاطفة الودودة من الصحابة لرسول الله ﷺ، لقد أحبوه ﷺ حبًّا تجاوز أولادهم وأموالهم بل وأنفسهم، وأورثهم هذا الحب حلاوة الإيمان بالله تعالى. وفى الحديث: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يُقذف فى النار»[1].

● الدلالة الثانية: التأسى برسول الله ﷺ فى سؤال المسلم عن إخوانه للاطمئنان عليهم إذا ظهر له من حالهم ما يستوجب السؤال، ويظهر هذا من قول النبى ﷺ لثوبان لما تغير لونه: ماذا بك ؟

● الدلالة الثالثة: التأسى برسول الله ﷺ فى عدم التعجل فى الفتوى والإجابة، وأن هناك أسئلة جوابها عند الله تعالى لا يملكه بشر مهما كان علمه، ورأينا فى الموقف أن رسول الله ﷺ سكت حتى جاءت الإجابة وحيًا من عند الله تعالى، وأنزل الله على قلب نبيه ﷺ قرآنًا يُتلى.

● الدلالة الرابعة: ما تحمله الآية التى نزلت فى هذا الموقف من عبر وعظات، حيث أكدت الآية حقيقة مهمة، وهى أن الحب ليس كلامًا ولا مشاعر جوفاء، وإنما هو مشاعر صادقة تدفع صاحبها إلى الاستجابة لهدى الله تعالى والتأسى بحضرة النبىﷺ وإلا فما أرخص الحب إن كان كلامًا.

ولقد جعل الله استجابة المؤمن وطاعته لربه وتأسيه برسول الله ﷺ من وسائل الفوز بالرفقة المباركة مع النبيين والشهداء والصالحين يوم القيامة،

---

(١) سبق تخريجه.

فقال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء/ ٦٩] .

١٢٨ - لا تَعْدُ عَيناك عنهم

دخل عيينة رئيس قومه على النبى ﷺ وعنده صهيب وسلمان الفارسى وبلال بن رباح وعليهم ثياب خَلِقَة، فقال عيينة للنبى ﷺ :

إن لنا شرفًا، فإذا دخلنا عليك فأخرج هؤلاء واجعل لنا مجلسًا.

فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ :

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

[الكهف/٢٨].

(*) XXX

هذا موقف حسبه شرفًا أن الله أنزل فيه قرآنًا يُتلى، ولنا فيه دلالات هادية وعبر نافعة:

● فى غيبة الإيمان يتعاظم الشعور عند الإنسان بالتعالى والتفاخر بالقبلية أو بالمال أو بالسلطان، وهذا ما ظهر من عيينة وقومه ، وذلك من قولهم: إن لنا شرفًا، فإذا دخلنا عليك فأخرجه هؤلاء واجعل لنا مجلسًا.

أما فى الإسلام فلا مكان للتباهى أو التعالى والتفاخر بالماديات حيث لا يكتسب الإنسان قيمته مما يملك أو ينتسب إليه من شئون الدنيا، وإنما بتقواه وعلمه ونفعه لمجتمعه، قال الله تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [الحجرات/١٣]. فالذى يضعه فى المقدمة عند الله تعالى الإيمان والتقوى.

● ومن عبر الموقف ما أرشدت إليه الآية الكريمة : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾.

حيث تشير الآية إلى أن الطاعة تجعل الإنسان كريمًا على الله تعالى، وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء الفقراء؛ لأنهم يدعون ربهم ليل نهار بإخلاص وحب لله تعالى، وأمر الله نبيه ألاَّ يهملهم لخاطر عرض الأغنياء.

ونهاه عن صحبة أصحاب الأهواء المضلة.

● ومن دلالات الموقف أيضًا تنبيه الدعاة والعلماء من ورثة الأنبياء أن يحذروا عروض الإغراء التى تُعرض عليهم لتحولهم عن غايتهم ومقصودهم مهما بدت هذه العروض برَّاقة لامعة؛ فالداعية لا يقول ما يرضى الناس، بل ما يرضى الله تعالى.

١٢٩ - إِذًا تُكْفَى همَّك

قام النبى ﷺ من الليل يصلى، ثم قال :

«يا أيها الناس اذكروا الله، جاءت الراجفة، جاء الموت بما فيه».

فقال أبى بن كعب رضي الله عنه : يا رسول الله :

إنى أُكثر الصلاة فكم أجعل لك من صلاتى ؟

قال النبى ﷺ : «ما شئت».

قال أبى بن كعب : أجعل لك الربع.

قال النبى ﷺ : «ما شئتَ، وإن زدتَ فهو خير لك».

قال أبى بن كعب : أجعل لك الثلث.

قال النبى ﷺ : «ما شئت، وإن زدت فهو خير لك».

فقال أبى بن كعب : أجعل لك صلاتى كلها.

فقال النبى ﷺ : «إذًا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك».

(*) أخرجه أحمد (٥ / ١٣٦)، والترمذى (٢٤٥٧) وقال : حديث حسن صحيح.

هذا موقف نبوى كريم يقدم لنا دروسًا تربوية هادية، كما يبين لنا فضل الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، فأما عن فضل الصلاة والسلام على الرسول ﷺ، فحسبنا فيها أن الله تعالى أمر أمرًا فى القرآن بدأ فيه بذاته العَلِيَّة وثنى بملائكة قدسه، وثلث بالمؤمنين من إنسه وجنه، فقال تعظيمًا وتكريمًا لحضرة النبى ﷺ، قال تعالى :

﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً** ﴾ [الأحزاب/٥٦].

ويكفى المصلى على رسول الله حديث النبى ﷺ : «من صلى علىَّ صلاة صلَّى الله عليه بها عشرًا»[١]، وقوله ﷺ : «أولى الناس بى يوم القيامة أكثرهم علىَّ صلاة»[٢].

وفى الموقف نرى أن النبى ﷺ بشَّر من جعل مجلس ذكره كله الصلاة والسلام على النبى ﷺ أن يكفيه الله همه، وأن يغفر له ذنبه.

وذلك قوله لسيدنا أبى بن كعب رضي الله عنه : «إذًا تكفى همك ويغفر لك ذنبك».

أما بشأن الدروس التربوية فى الموقف :

فهى التربية عن طريق إثارة الحب والرغبة فى الشىء والاقتناع به، عن طريق إظهار النفع والثمرة التى تعود على فاعله والملتزم به، بدلاً من أن يُفرض إجبارًا فتنفر منه النفس. ويظهر هذا من قول النبى ﷺ لأبى بن كعب، إجابة عن سؤاله المتكرر : كم أجعل لك من صلاتى؟ أى من ذكرى ودعائى.

فكان جواب النبى ﷺ : «ما شئت ، وإن زدت فهو خير لك».

---

(١) رواه مسلم (٤٠٨)
(٢) رواه الترمذى (٤٨٤) وقال : حديث حسن.

فقوله : « ما شئت »، يترك له الرغبة والاختيار، وقوله : « وإن زدت فهو خير لك »، يشوِّقه ويقنعه بالزيادة لما فيها من خير وفلاح.

وهذا أسلوب تربوى تشتد الحاجة إليه فى عصرنا مع الأبناء والطلبة، وذلك لأن الأوامر الصارمة والإجبار والإكراه على الفضيلة لا يصنع مؤمنًا، وإنما سبيل الإقناع بمخاطبة العقل، وسبيل التأثير على العواطف والمشاعر بإظهار المحاسن هو السبيل المفيد والمثمر فى إنجاز بناء الأجيال بناءً إيمانيًّا كما يحب ربنا ويرضى.

١٣٠ - لو كان فى سبيل اللّٰه

رأى الصحابة شابًّا جلدًا قويًّا يخرج كل يوم قبل صلاة الفجر ليحتطب، ويستمر طوال يومه فى عمله الدؤوب، ولا يعود إلا بعد صلاة العشاء.

فقال الصحابة فى شأن هذا الشاب: «لو كان شبابه وجلده وقوته فى سبيل الله لكان خيراً له».

فسمع النبى ﷺ مقالتهم، فقال لهم: «لو كان يسعى على أولاده فهو فى سبيل الله» وعدَّ النبى ﷺ أموراً كلها فى سبيل الله.

(*) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله، كالذى يقوم بالليل ويصوم بالنهار» [رواه البخارى (٦/ ١٨٩)، ومسلم (٨/ ٢٢١)].

هذا الموقف يصحح فيه سيدنا محمد ﷺ مفهومًا خاطئًا شاع بين الناس قديمًا وحديثًا، وهو اقتصار مفهوم العمل الصالح والعبادة على الشعائر الإسلامية المعروفة كالصلاة والصيام والزكاة والحج.

وعلمنا النبى ﷺ أن معنى (فى سبيل الله) يمتد ليشمل الأعمال النافعة الحلال التى نقوم بها فى دنيانا لتحصيل الأرزاق وعمارة الدنيا وكفاية الحاجة.

وقد رأينا فى الموقف موضوع الحديث أن النبى ﷺ عَدَّ عمل الشاب وسعيه من أجل أسرته عبادة فى سبيل الله يثاب عليها من الله عز وجل.

والقرآن الكريم يؤكد هذا المفهوم الإيمانى، قال الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [الحج / ٧٧].

فجاء ذكر فعل الخير عامًا وشاملاً فى سياق ذكر العبادات المشهورة كالسجود والركوع، وفى هذا تعظيم لقيمة العمل وعمارة الدنيا وبناء الأمة بالحلال الطيب.

ولقد جعل الله السعى على المعاش سببًا من أسباب المغفرة، لقوله ﷺ : « من أمسى كالاً من عمل يده أمسى مغفوراً له »(١).

كما يستفاد من الموقف الهمة العالية فى إنجاز الأعمال، فالتبكير والمواصلة فى العمل سبيل لإنجاز الأعمال، وقد دعا النبى ﷺ للمبكرين إلى أعمالهم، فقال ﷺ : « اللهم بارك لأمتى فى بكورها »(٢).

---

(١) راجع الترغيب والترهيب (٢ / ٥٢٤).
(٢) الترمذى (١٢١٢)، وأبو داود (٢٦٠٦).

١٣١ - خذ الخلافة وأرحنى منها

جاء رجل إلى الخليفة أبى بكر الصديق ﷺ في حاجة، فوجهه إلى عمر بن الخطاب ﷺ فمنعه عمر لعدم استحقاقه، فرجع الرجل ناقمًا، وقال كذبًا لأبى بكر :

يا خليفة رسول الله، منعنى عمر وما احترم لك رأيًا ولا سمع لك قولاً، وقال : إنه أحق منك بالخلافة.

فدعا أبو بكر عمر بن الخطاب وقال له :

يا عمر ألم أقل لك : خذ الخلافة وأرحنى منها ؟ !

فقال عمر ﷺ :

والله ما أجد أحق بها منك، وإنما منعت الرجل لكذبه.

(*) الخلفاء الراشدون، ص ٨١.

هذا الموقف يحمل دلالات هادية ودروسًا نافعة :

● الدرس الأول : درس فى أسلوب الإدارة إذا ازدحمت الأعباء وجاوزت حد الطاقة، فللإنسان المسئول أن يلجأ إلى تفويض غيره ليقوم بمهام الوظيفة، كى لا تتعطل المصالح، وكى تسير الأمور فى نصابها، وقد استفادت الإدارة الحديثة من أسلوب التفويض فى إنجاز الأعمال وتدبير الأمور.

وقد رأينا خليفة رسول الله ﷺ يرسى هذه القاعدة حين وجه صاحب الحاجة إلى سيدنا عمر ليقوم بما ينبغى له.

● الدرس الثانى : عدم التسليم لصاحب الحاجة وطالب المصلحة دون بحث وتمحيص كى تصل الصدقات إلى أصحابها ولا يحجبها أهل المكر والحيلة ومحترفو التسول، فإن ثبت صدقهم أُعْطُوا وإلا فلا. وهذا ما صنعه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فى الموقف.

● الدرس الثالث : التبين إذا ما جاءنا من يريد إفساد العلاقات، فسيدنا أبو بكر دعا سيدنا عمر - رضى الله عنهما - ليتثبت من كلام الرجل.

وهذا هدى قرآنى كريم، قال الله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾** [الحجرات/ ٦].

● الدرس الرابع : هو هذه الروح الودودة التى تحدث بها سيدنا أبو بكر مع سيدنا عمر، حيث إن عبارته وضحت للرجل - الذى أساء وأراد أن يفسد لما لم يعط ما طلب - أن ما بين الرجلين (أبى بكر وعمر) رابطة عظيمة لا تنال منها نميمة ولا إفك، فقد قال أبو بكر لعمر : يا عمر، ألم أقل لك خذ الخلافة وأرحنى منها ؟!

● الدرس الخامس : الإحساس بالمسئولية وهمّها الثقيل، وأنها أمانة، ويظهر هذا الإحساس من قول أبى بكر رضي الله عنه : أرحنى منها.

ويظهر من هذا أن صحابة النبى ﷺ لم يكونوا حريصين على الإمارة، بل كانوا يتورعون عنها إلا إذا كُلّفوا بها، لعلمهم بقول النبى ﷺ : «إنكم ستحرصون على الإمارة وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»[١].

(١) أخرجه البخارى (٩/ ٧٩).

١٣٢ - إنى لأخشاكم لله

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادته. فلما أُخبروا بها كأنهم تقالُّوها، فقالوا :

أين نحن من النبى ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال أحدهم :

أما أنا فأصلى الليل أبدًا، وقال آخر :

أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الثالث :

وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال :

«أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

(*) البخارى (٧ / ٢)، ومسلم فى النكاح (٥).

هذا الموقف يحمل فقهًا تشتد الحاجة إليه فى حياتنا المعاصرة، ومن أهم دلالاته: النهى عن الغلو فى الدين، كما يشير إلى أن التيسير من هدى المصطفى ﷺ. أما الغلو فى الدين فقد نهى القرآن عنه، فلا نبالغ ولا نتجاوز الحد ولا نتشدد.

قال الله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾ [المائدة/٧٧].

وقال النبى ﷺ: «إياكم والغلو فى الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين»[١].

والموقف الذى بين أيدينا يعالج الغلو والتشدد بشكل مقنع، فقد كان الدافع وراء غلو هؤلاء أنهم رأوا اجتهاد رسول الله ﷺ فى العبادة على الرغم من أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وأحسوا أنهم دون رسول الله ﷺ بكثير، يظهر هذا من قولهم: وأين نحن من رسول الله ﷺ ؟، وظنوا أنهم بتشددهم وغلوهم سيكونون أكثر قربًا من الله وتعبدًا، فأزال النبى ﷺ هذه الشبهة من تفكيرهم بقوله ﷺ: «إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنى أصوم وأفطر، وأصلى وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى».

وهكذا يظهر من هدى رسول الله ﷺ التيسير على الأمة، والله تعالى أخبر عن حبيبه النبى ﷺ أنه يعز عليه أن تقع أمته فى مشقة وأنه حريص على الأمة. قال الله تعالى:

﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم**

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣٤٧)، ومسلم (الحج ٢١٠).

بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/١٢٨].

وقال النبى ﷺ : «إن هذا الدين يسر لا عسر فيه، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[١].

وتخبر السيدة عائشة – رضى الله عنها – أن النبى ﷺ ما خُير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه»[٢].

---

(١) أخرجه لنسائى (٨/ ١٢٢)، والبيهقى (٣/١٨).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٨٥).

١٣٣ - متى عهدتنى فاحشًا ؟!

استأذن رجل على رسول الله ﷺ ، فقال النبى ﷺ عنه :

«بئس أخو العشيرة» ، فلما جلس هَشَّ وبَشَّ وانبسط إليه ، فلما انطلق قالت السيدة عائشة - رضى الله عنها - : يا رسول الله ، حين رأيت الرجل قلت : بئس أخو العشيرة !! ثم تطلَّقت فى وجهه وانبسطت إليه ؟!

فقال النبى ﷺ :

«يا عائشة ، متى عهدتنى فاحشًا ؟! إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة : من تركه الناس اتقاء شره» .

(*) ذكره الحافظ فى الفتح (١٠ / ٤٧١) .

هذا موقف نبوى كريم يحمل دلالات هادية، منها :

ما يعلمنا النبى ﷺ، وهو كيف نسلم من أهل السوء والأذى، فلا نجاريهم فى سوء قولهم أو فعلهم، بل المؤمن يصون لسانه وخلقه عما يغضب الله عز وجل.

ومن هدى النبى ﷺ قوله : «ليس المؤمن بطعان ولا لعان ولا فاحش ولا بذىء»(١).

ولعل السيدة عائشة - رضى الله عنها - كانت تنتظر أن يعامل رسولُ الله ﷺ الرجل - الذى وصفه بأنه بئس أخو العشيرة - بقسوة وشدة، فلما رأت حسن معاملة رسول الله ﷺ له، سألت تطلب تفسيراً للموقف، فوضح له النبى ﷺ أنه صنع ذلك اتقاء فحشه وشره، كما بيَّن لها أنه رسول الله ﷺ ولا يجوز به أن يخرج منه ما لا يليق، فقال لها ﷺ : «يا عائشة، متى عهدتنى فاحشاً؟» لقد كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، ولم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا صخَّابًا فى الأسواق، ولكنه يعفو ويصفح.

وكان ﷺ أحسن الناس خلقًا، ولا يجزى السيئة بمثلها. وكان يحب الرفق فى شأنه كله ﷺ، كيف لا، وقد بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق ووصفه ربه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم/٤].

ومن دلالات الموقف أيضًا الحذر من إرهاب الناس وتخويفهم؛ فإن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره وفحشه، فالضرر بالناس عاقبته وخيمة وعقابه عند الله أليم.

ومن دلالات الموقف أيضًا ألاَّ نقابل السيئة بالسيئة، وإنما ندفع بالتى هى أحسن، وهذا هدى قرآنى.

---

(١) سبق تخريجه.

قال الله تعالى :

﴿وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت/٣٤].

١٣٤ - لا تعينوا الشيطان

أُتى النبى ﷺ برجل قد شرب الخمر، فأمر النبى ﷺ الصحابة أن يضربوه، فضربوه، فمنهم الضارب بيده، ومنهم الضارب بثوبه، فلما انصرف الرجل قال بعضهم له : أخزاك الله، فغضب النبى ﷺ وقال :

«لا تقولوا هذا، لا تعينوا عليه الشيطان».

(*) البخارى (٨ / ١٩٦).

هذا موقف نبوى كريم، يقدم فيه النبى للأمة درسًا فى التربية وأسلوب معاملة المخالفين والعصاة، كيف لا وهو ﷺ الذى قال : «إن الله لم يبعثنى معنتًا ولا متعنتًا، ولكن بعثنى معلمًا ميسرًا» .

بل كانت الحكمة منهجه، واللين فى القول طريقته، والتيسير على الناس هديه . ورأينا فى الموقف أن رسول الله ﷺ أمر بضرب هذا الرجل عقوبة وزجرًا له، وهذا نوع من العلاج، لكن النبى ﷺ لم يوافق على شتم الرجل أو الدعاء عليه؛ لأن سب الرجل والوقوع فيه من باب التشديد المخالف لسماحة الدين ويسره، وقال النبى ﷺ : «لا تعينوا عليه الشيطان» .

وهنا نتعلم من رسول الله ﷺ الحرص على المخالف والأخذ بيده ليعود إلى صوابه، ويرجع إلى هدى ربه تعالى . وهذا من هدى المصطفى ﷺ : لا يعامل العاصى بالتكفير، وإنما إن عوقب فأقيم عليه الحد فهو كفارة له وطهر وتطهير للمجتمع، ومن ستر الله عليه وتاب فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى مجلس، فقال : «بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا» وقرأ قول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [الممتحنة/١٢] .

ثم قال ﷺ : «فمن وفَّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فستره الله عليه، إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه»[١] .

---

(١) أخرجه البخارى (١/١١، ٥/٧٠، ٨/١٩٨).

ومعاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه أثناء صلاته شمت رجلاً عطس، ولم يكن يعلم حرمة الصلاة، بمنع الكلام فيها، فتعجب الصحابة من أمره، فمنهم من يضرب فخذه، ومنهم من ينظر إليه بشدة، فلما انتهى معاوية بن الحكم من صلاته ناداه النبي ﷺ وقال له : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس»[١]، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن.

فقال معاوية بن الحكم : والله ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا من رسول الله ﷺ، فو الله ما نهرني ولا ضربني ولا شتمني.

(١) أخرجه مسلم (٣٨١).

١٣٥ - هلاَّ جلست فى بيت أبيك ؟!

استعمل رسول الله ﷺ رجلاً على صدقات بنى سليم، فلما جاء إلى رسول الله ﷺ وحاسبه النبى ﷺ، قال لرسول الله ﷺ :

هذا الذى لكم وهذه هدية أُهديت إلىَّ.

فقال رسول الله ﷺ :

«فهلاَّ جلست فى بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك» ! !

(*) مسلم فى الإمارة (ب ٧ رقم ٢٦).

هذا موقف نبوى كريم يعالج فهمًا معوجًا،كثيرًا ما يقع فيه من تُسند إليهم المصالح العامة، فيقع بعضهم فى غفلة من أمره أو نسيان فى هذا الخطأ، لقد نسوا أنهم وضعوا فى مواقعهم ووظائفهم ليحققوا النجاح لهذه المواقع، فهم يعملون لحساب هذه المواقع وليس لحساب أشخاصهم. ويوم أن تتحول الوظيفة إلى مغنم، وتتحول الوظائف لخدمة من يشغلونها، تكون خيانة الأمانة التى حذرنا منها رسول الله ﷺ لمَّا سأله أبو ذر رضي الله عنه عن الإمارة، قال ﷺ : «يا أبا ذر : إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»(١).

وقد حذرنا رسول الله ﷺ من خيانة الأمانة، وبيَّن أنها علامة من علامات النفاق، قال ﷺ : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(٢).

وقال ﷺ : «لكل غادر لواء يوم القيام، يقال : هذه غَدْرَة فلان»(٣).

ومن دلالات الموقف التربية بالحجة، حيث لجأ النبى ﷺ إلى إظهار الحجة على بطلان تفكير الرجل الذى جمع الصدقات وقال : هذا لكم وهذا أُهدى إلىّ . فقال له ﷺ : «هلاَّ جلس أحدكم فى بيت أبيه وبيت أمه حتى تأتيه هديته ؟!».

والمعنى أن هذا النفع وهذه الهدية حصلت عن طريق الوظيفة، ولو كنت خارج الوظيفة ما أهدى إليك أحد ممن عليهم الصدقات شيئًا.

إذن ليس الدافع المحبة ولا المودة، لتكون هذه الهدايا من قبيل قول النبى ﷺ، «تهادوا تحابوا(٤)» ولكنها إلى الرشوة أقرب ؛ فلابد وأن لها مقابلاً فى تسهيل أمور أو المرونة فى تقدير نسبة ما ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم فى الإماوة (١٦).
(٢) أخرجه البخارى (١/١٥)، ومسلم فى الإيمان (١٠٧).
(٣) أخرجه البخارى (٤/١٢٧)، ومسلم فى الجهاد (١١، ١٢).
(٤) أخرجه البيهقى (٦/١٦٩)، الموطأ (٩٠٨).

ومن دلالات الموقف مسئولية المتابعة، فالمتابعة من أهم أسرار نجاح الإدارة، فمن يتولى شئون عمل من الأعمال وجب عليه أن يتابع من أسند إليهم أدواراً وأعمالاً ليتأكد من إنجازها على الوجه المطلوب.

ورأينا في الموقف أن رسول الله ﷺ تابع الرجل الذي كلفه بجمع الصدقات وحاسبه، وكانت نتيجة الحساب هذا الجزء الذي جعله الرجل في جانب وحده، فلما سأله النبي ﷺ عنه قال: أهدي إليَّ. فصحح له النبي المفهوم وعالج الموقف بحكمته ﷺ .

١٣٦ - حدثونى ما هى ؟

بينما الصحابة جلوس حول رسول الله ﷺ إذ سألهم النبى ﷺ :

«إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المؤمن، حدثونى ما هى ؟»

فوقع الناس فى شجر البوادى، ووقع فى نفس ابن عمر أنها النخلة، لكن الحياء منعه من الإجابة لصغر سنه بين الحاضرين، ثم قال القوم للنبى ﷺ :

حدثنا ما هى يا رسول الله ؟

فقال النبى ﷺ : «هى النخلة».

(*) أخرجه البخارى (١/ ٢٤، ٢٨، ٤٥، ٣/ ١٠٣)، مسلم (صفات المنافقين ٦٣/ ٦٤)

هذا موقف نبوى كريم يفيض بالقيم التربوية الهادية، ومنها :

الإشارة إلى أسلوب من أهم أساليب التعليم، وهو التعليم بالسؤال، كى يهيء المستمع والمتعلم لاستقبال العلم، وينتبه فيفهم ما يلقى إليه، وكى يحرك رغبته فى معرفة الإجابة، فإن ما يُساق بعد الطلب أعز وأغلى مما يُساق بلا طلب، وهذا من هديه ﷺ، ورأينا فى الموقف كيف سأل النبى ﷺ . وعلى الدعاة، وأهل التعليم أن يتأسوا برسول الله ﷺ فى إثارة ذهن المستمع وتهيئة الطالب للدرس.

كما يشير الموقف إلى أسلوب تربوى آخر وهو ضرب المثل؛ لما فيه من التوضيح والبيان للحقيقة المطلوبة، أيضًا فى المثل تيسير للفهم على المتعلم، ورأينا النبى ﷺ يضرب المثل للمسلم بالنخلة، والذى يجمع بينهما صفات حميدة مثل : العطاء المتنوع، والقوة، والصمود، والارتفاع، ودوام الانتفاع، وهكذا المؤمن صبور يتحمل ما لا يتحمل غيره، قوى بإيمانه يواجه الشدائد، وينجز الأعمال العظيمة بإتقان وإحكام وهو مرتفعٌ عن الأحقاد والدسائس والنقائص والعيوب، والمؤمن يداوم على السعى الصالح والعمل النافع. كما يظهر من ضرب المثل بالنخلة، أن المؤمن يقابل السيئة بالحسنة، كما تُرمَى النخلة بالحجارة فترجع على الرامى بالتمر والرطب.

ومن يتأمل أمثلة المؤمن فى القرآن والسنة يرى أنها تعددت وتنوعت ويجمعها كلها الصفات الحميدة التى ينبغى للمؤمن أن يتحلى بها.

كما يظهر من الموقف أن رسول الله ﷺ كان لا يثقل على أصحابه بالموعظة الطويلة، بل كانت موعظته خلاصة مركزة، واضحة بيِّنة، وفى هذا بيان للدعاة ألاَّ يثقلوا على الناس فى دروسهم أو موعظتهم تأسيًا بسيدنا رسول الله ﷺ حتى ينصرف الناس على شوق للحديث ورغبة فيه، وحتى لا نشتت

الناس بكثرة الكلام، فإن كثرة الكلام ينسى بعضُه بعضًا.

وقد نبه القرآن الكريم أن الفائدة من ضرب الأمثال إنما هو للعظة والعبرة والفهم والتدبر، قال الله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم/٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر/٢١].

ونتعلم من الموقف أن السن ليس معياراً للعلم، فقد يكون من هو أصغر سنًا أكثر نباهة وفهمًا، فقد رأينا ابن عمر قد عرف أنها النخلة، ولم يمنعه من الإجابة إلا الحياء، فى حين أخفق الحاضرون فى معرفة الصواب.

١٣٧ - علِّمنى شيئًا

بينما كان العباس بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ فى مجلس، سأله قائلاً:

يا رسول الله، علمنى شيئًا أسأله الله تعالى فقال له النبى ﷺ :

«سل الله العافية».

فمكث العباس أيامًا ثم جاء لرسول الله ﷺ، فقال له : يا رسول الله، علمنى شيئًا أسأله الله تعالى .

فقال النبى ﷺ :

«يا عباس، يا عم رسول الله ﷺ سل الله العافية فى الدنيا والآخرة».

(*) أخرجه الترمذى (رقم ٣٥١٤) .

هذا الموقف يقدم لنا دروسًا هادية :

أولها : حرص صحابة رسول الله ﷺ على اغتنام فرصة جلوسه ﷺ معهم ليتعلموا ويهتدوا، ويسألوه ﷺ عما يدور بأذهانهم من أفكار، ورأينا فى الموقف أن العباس رضي الله عنه يتقدم للنبى ﷺ بسؤاله.

والمؤمن الموفق هو الذى يقتدى بسلوك صحابة رسول الله ﷺ فى اغتنام الفرص للإفادة من هدى النبى ﷺ وعرض أفكاره على سنته ﷺ. فما وافق هديه اتبعناه وما خالف هديه ﷺ اجتنبناه.

ثانيها : فضل الدعاء، حيث وجه النبى ﷺ العباس لما سأله أن يعلمه شيئًا يسأله الله عز وجل، أرشده إلى الدعاء بالعافية، ولم يرشده النبى إلى شىء آخر مما يتكالب الناس عليه من أمور دنياهم، وفى هذا إشارة إلى أن فضل الدعاء يسبق كل فضل.

وفى الحديث النبوى، قال ﷺ : «الدعاء مخ العبادة»(١) والله تبارك وتعالى يبين فى قرآنه أنه قريب سميع مجيب، فليجتهد العبد فى الدعاء. قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة/١٨٦].

ثالثها : فضل الدعاء الجامع، وهذا من هديه ﷺ، حيث كان دعاؤه ﷺ جملة واحدة أو جملاً يسيرة، كى لا يشق على أمته بطول الدعاء، ومن خصائص النبى ﷺ أنه أوتى جوامع الكلم ﷺ.

ولذلك لما عاود العباس سؤال النبى ﷺ بنفس سؤاله السابق بعد مرور عدة أيام، أجابه النبى ﷺ بنفس الإجابة ليشعره بأن هذا الدعاء فيه كفاية وخير كثير. لأنه ربما استقل العباس هذا الدعاء القصير، كما أن النبى ﷺ قال له فى

(١) الترمذى (رقم ٣٣٧١).

الإجابة الثانية : « يا عباس يا عم رسول الله ﷺ » ليشعر العباس بقربه منه ﷺ فهو عمه، وجعل النبى ﷺ يعلمه من الدعاء ما يناسب حاله .

رابعًا : فضل الدعاء بالعافية فى الدنيا والآخرة، فمن عافاه الله فى بدنه، وفى عقله، وفى سمعه، وفى بصره، وفى لسانه، وفى سائر أعضائه، فقد أنعم الله عليه بنعمة عظيمة، يبين لنا قدرها رسول الله ﷺ بقوله : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[(١)] .

ويقول النبى ﷺ : « من أصبح آمنًا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فقد حيزت له الدنيا بحذافيرها »[(٢)] .

هذا عن فضل العافية والصحة فى الدنيا، فأما عن فضل العافية فى الآخرة فإنما يكون بالسلامة من عقاب النار والسلامة من شدائد وأهوال يوم القيامة .

ومن هنا كان الدعاء بالعافية يحمل خيرًا كثيرًا للمؤمن فى الدنيا والآخرة .

---

(١) رواه البخارى (٨ / ١٠٩)، والترمذى (٢٣٠٤) .
(٢) راجع الترغيب والترهيب (١ / ٥٩٠) .

١٣٨ - ارجع فصلِّ

رأى النبى ﷺ رجلاً يسرع فى صلاته فلا يتم ركوعها ولا سجودها، فقال له النبى ﷺ :

«ارجع فصلِّ فإنك لم تُصلِّ»

فأعاد الرجل صلاته مسرعًا كالمرة الأولى، فقال له النبى ﷺ : «ارجع فصلِّ فإنك لم تصلِّ».

فرجع الرجل وأعاد صلاته مسرعًا، فقال له النبى ﷺ للمرة الثالثة : «ارجع فصل فإنك لم تصلِّ»

فقال الرجل : والذى بعثك بالحق ما أُحسن غير هذا فعلمنى مما علّمك الله.

فقال له النبى ﷺ : «إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعًا ثم ارفع حتى تطمئن قائمًا، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا، ثم افعل ذلك فى صلاتك كلها».

(*) البخارى (رقم ٧٥٧)، ومسلم (رقم ٣٩٧).

هذا موقف نبوى كريم يحمل دروسًا تربوية نافعة :

الأول : تعدد أساليب التربية عند حضرة النبى ﷺ رعاية لحال المتلقى . فهو يربى بالموعظة، ويربى بالحوار، ويربى بالقصص، وغير ذلك من عشرات الأساليب التى ربى بها ﷺ ، ومن بين أساليب التعليم عند النبى ﷺ التعليم الذاتى، بتربية القدرة الذهنية عند الإنسان على الانتباه واليقظة والتفطن إلى أخطائه بالتجربة العملية كى يصلحها .

ونرى فى الموقف أن النبى ﷺ طلب من المسىء فى صلاته أن يعيدها مراراً كى ينتبه إلى أخطائه، ولما لم ينتبه الصحابى إلى خطئه وإلى أنه مسرع فى صلاته - لا يتم الركوع ولا السجود - وأعلن الرجل عن عدم قدرته على إدراك الخطأ الذى وقع فيه فى أثناء صلاته تحول النبى ﷺ إلى أسلوب آخر أنسب لحال الرجل، وهو أسلوب الشرح والتفصيل تلقينًا للرجل بما ينبغى عليه فعله .

الثانى : أهمية الاطمئنان فى الصلاة وأنه ركن من أركان الصلاة لا تصح الصلاة إلا به، وهو مذهب المالكية .

وحَدُّ الاطمئنان للأعضاء الظاهرة استقرار الأعضاء فى القيام والسجود والركوع، والتلفظ بالذكر والدعاء المطلوب - فى كل حركة من حركات الصلاة - نطقًا سليمًا .

وهذا المظهر الخارجى الخاص بالجوارح ينبغى أن يكون معبراً عن حقيقة وواقع حاصل فى قلب المسلم فى أثناء الصلاة، وهى الطمأنينة، حتى لا يكون ذكره أو صلاته ذكر وصلاة الغافلين .

والنبى ﷺ حين رأى رجلاً يعبث بلحيته فى أثناء صلاته ويكثر من الحركات ولا يتم الركوع ولا السجود، لما رأى النبى ﷺ اضطراب الجوارح

بهذه الصورة، قال ﷺ : «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه»(١).

وسبيل تحصيل الخشوع فى الصلاة يتأتى بإسباغ الوضوء، واستحضار عظمة الله تعالى، والتفكر فى معانى ما يقرأ من الآيات، مع تعظيم الله بالقلب فى الركوع والخشوع التام بالتعظيم والتقديس بالقلب فى السجود.

وعلى العاقل أن يتدبر عظمة الموقف فى أثناء الصلاة، وإذا كان أحدنا يتهيأ للقاء أصحاب القدر والمكانة والمنزلة العالية فى دنيا الناس، ويراعى آداب اللقاء، ويجتهد فى اصطفاء ألفاظ التحية اللائقة بقدر هذا الإنسان صاحب المنزلة الرفيعة، فأولى بالمؤمن أن يستشعر عظمة الله فى قلبه وأن يستحضر عظمة الله عزَّ وجل، وجلال هذه اللحطات النورانية التى يخاطب فيها ربه .

بهذا يتأتى للمسلم أن ينال الطمأنينة والخشوع فى صلاته ويشعر بلذة المناجاة التى هى من حلاوة الإيمان .

كما نتعلم من الموقف، أن رسول الله ﷺ نصح الرجل فى رفق ولين دون تعنيف. وهذا أدب نبوى كريم فى الرفق بالجاهل حتى يتعلم، يقول رسول الله ﷺ : «إن الله رفيق يحب الرفق فى الأمر كله»(٢).

---

(١) أخرجه البيهقى فى الكبرى (٢/٢٨٩)، وذكره الحافظ فى الفتح (٢/٢٢٥).
(٢) أخرجه البخارى (٨/١٤)، ومسلم فى البر والصلة (٧٧)

١٣٩ - لا يا أخي يا جبريل !!

لما ذهب النبيﷺ إلى أهل الطائف ليدعوهم إلى الإسلام؛ طردوه وسلطوا عليه عبيدهم وصبيانهم فآذوه حتى دميت قدماه الشريفتان. فشكا النبي ﷺ إلى الله تعالى ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس، فنزل عليه جبريل - عليه السلام - وقال له :

يا محمد، لو شئت أن أطبق عليهم الأخشبين لفعلت.

فقال النبي ﷺ :

«لا يا أخي يا جبريل، لعل الله أن يخرج من أصلابهم ذرية توحد الله».

(*) السيرة النبوية (٢/ ١٧).

هذا موقف نبوى كريم يقدم لنا دروسًا نافعة وقيمًا تربوية هادية :

الدرس الأول : الجدية والمحاولة الدائمة والسعى لتحقيق الهدف، فالنبى ﷺ لما جفاه أهل مكة ولم يستجيبوا له، لم يقف مكتوف الأيدى أمام صدهم وجفائهم ورفضهم لدين الله تعالى، بل فكر ﷺ فى منفذ لهذه الدعوة فأرسل أصحابه إلى الحبشة لأن بها ملكًا عادلاً.

ومن جانبه ﷺ فقد ذهب إلى الطائف، وبعد الطائف وما حدث له بها، كان لقاؤه بوفود الحجيج وعرضه الإسلام عليهم ؛ فكانت بيعة العقبة الصغرى ثم الكبرى. وهكذا لم يهدأ ﷺ ولم يستسلم أمام عناد الكفار وصدهم له. بل كانت العقبات التى تصادفه ﷺ تزيده حماسًا وقوة وثباتًا.

وهذا درس قيم للمؤمنين فى حياتهم المعاصرة.

الدرس الثانى : عدم الانهيار فى أوقات الشدائد، فالمؤمن لا يصاب بإحباط ولا انهيار، ولكن إن لم يوفق فى جولة فأمامه جولات أخرى، فلينهض وليراجع نفسه وليبدأ الإعداد لجولة أخرى يملك فيها أسباب النصر.

الدرس الثالث : التمييز بين أمرين : بين أمر الدعوة إلى الله عز وجل وما ينال الإنسان من إيذاء فى سبيلها، وبين شخص الإنسان وذاته، فالنبى ﷺ لم يكن يغضب لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله تعالى. ورأينا فى الموقف أن النبى ﷺ لم ينتصر لنفسه، وإنما عينه وفكره وكله نحو المقصد الأعلى الذى يتحرك من أجله ويتحمل الأذى من أجله، وهو نشر الدعوة والتمكين لدين الله فى الأرض، لا أن تتحول المواجهة إلى مواجهة شخصية يسيطر عليها الهوى وتتسلط عليها نزغات الشيطان كما يحدث فى أحوال كثيرة فى حياتنا المعاصرة.

الدرس الرابع : النبى ﷺ يعلمنا من خلال هذا الموقف أن نراجع أنفسنا

وأن نعود باللائمة على أنفسنا، مع الاستعانة بالله نشكو إليه حالنا ونستمد منه العون، وهذا ما نستشعره من دعائه الخاشع بعد أن طُردَ وأُوذى.

قال ﷺ : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تَكِلُنى، إلى بعيد يتجهمنى؟ أم إلى عدوٍ مَلَّكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بى سخطك، أو يَحُلَّ علىَّ غضبك، لك العُتبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[(١)].

(١) كنز العمال (٣٦١٣، ٣٧٥٦، ٥١٢٠)، جوامع الكلم (٩٧٤٣).

١٤٠ - اجعلوا بيوتكم قبلة

أتى أنصارى لرسول الله ﷺ قائلاً :

يا رسول الله ، إذا كانت الأمطار وسال الوادى ، صليت بأهلى بالمنزل ، وودت يا رسول الله أنك تأتينى فتصلى فى بيتى فأتخذه مُصَلًّى ، فذهب النبى ﷺ إلى بيت الأنصارى وقال له : «أين تحب أن أصلى من بيتك ؟» فأشار الأنصارى إلى ناحية من البيت ، فقام النبى ﷺ فيها فقمنا فصففنا فصلَّى ركعتين ثم سلم .

(*) أخرجه البخارى (١ / ١١٥ ، ١١٦ ، ١٧٠ ، ١٧٥) ، ومسلم (المساجد ٢٦٣) .

هذا موقف إيمانى يحمل دلالات هادية، ودروسًا نافعة :

الدرس الأول : الحرص على صلاة الجماعة .

ورأينا فى الموقف أن الأنصارى من حرصه على صلاة الجماعة، إذا عجز عن الصلاة فى المسجد بسبب عذر المطر أو غيره صلى بأهله جماعة فى بيته، كى يحظى ويفوز بفضل صلاة الجماعة، فهى تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ؛ لقوله ﷺ : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة »(١) .

كما أن صلاة الجماعة من كبريات الوسائل التى تُغفر بها الذنوب وترفع بها الدرجات ؛ لقول النبى ﷺ :

« صلاة الرجل فى جماعة تُضعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقه خمسًا وعشرين ضعفًا، وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجه إلا الصلاة، لم يَخْطُ خطوة إلا رفعت له بها درجة، وحُطَّتْ عنه بها خطيئة، فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام فى مصلاه ما لم يحدث تقول : اللهم صل عليه، اللهم ارحمه . ولا يزال فى صلاة ما انتظر الصلاة »(٢) .

كما أن صلاة الجماعة حصن يحفظنا من الشيطان؛ لقول النبى ﷺ : « ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان . فعليكم بالجماعة، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية »(٣) .

الدرس الثانى : الحرص على أمر الأهل بالصلاة وإعانتهم على ذلك، فهى وصية الله لنبيه ﷺ، قال الله تعالى :

الآية ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه / ١٣٢].

(١) أخرجه البخارى رقم (٦٤٥)، ومسلم رقم (٦٥٠).
(٢) أخرجه البخارى (١/ ١٦٦)، ومسلم فى المساجد (ب ٤٩ رقم ٢٧٢).
(٣) أخرجه أبو داود (ب ٤٧)، والنسائى (٢/ ١٠٦).

كما أوصى القرآن الكريم أهل الإيمان أن يحرصوا على تعليم أزواجهم أمر الدين، وجعل ذلك فى مقدمة واجبات الزوج ؛ لقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم /٦].

قال رسول الله ﷺ : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى فأيقظ امرأته فصلت فإن أبت نضح فى وجهها الماء » (١).

الدرس الثالث : الحرص على عمارة البيوت بالذكر والصلاة، وقد رغّب النبى ﷺ فى عمارة البيوت بذكر الله، قال ﷺ : « مثل البيت الذى يُذكر الله فيه، والبيت الذى لا يُذكر الله فيه مثل الحى والميت » (٢).

كما رغب النبى ﷺ فى عمارة البيوت بالصلاة وبخاصة النوافل دون المكتوبات، فصلاة المكتوبات بالمساجد أفضل، لقوله ﷺ :

« صلوا أيها الناس فى بيوتكم ؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء فى بيته إلا المكتوبة » (٣).

وقوله ﷺ : « اجعلوا من صلاتكم فى بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً » (٤).

ويبين النبى ﷺ أن الله يجعل الخير والبركة فى البيت بسبب الصلاة فيه، قال ﷺ : « إذا قضى أحدكم صلاته فى مسجده فليجعل لبيته نصيبًا من صلاته، فإن الله جاعلٌ فى بيته من صلاته خيراً » (٥).

الدرس الرابع : حرص النبى ﷺ على أمته ورأفته بها، فقد جبر خاطر الأنصارى، وذهب معه كى يعينه على الطاعة، ومدح الله نبيه ﷺ وبين هذه النعمة للأمة، قال تعالى :

---

(١) أبو داود رقم (١٣٠٨، ١٤٥٠)، والنسائى (٣/٢٠٥).
(٢) أخرجه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين (٢١١).
(٣) البخارى (١/١٨٦، ٩/١١٧). (٤) أحمد (٢/١٦، ٦/٦٥).
(٥) ابن ماجه (رقم ١٣٧٦)، وأحمد (٣/١٥، ٥٩).

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة /١٢٨].

١٤١ - ذهب باكيًا

كان أبو طلحة يعمل فى حديقته، ثم نظر فوجد الشمس على رءوس الشجر، فألقى الفأس من يده وأسرع إلى المسجد، فأدرك العصر فى آخر وقته، ولما انتهى من صلاته ذهب باكيًا إلى رسول الله ﷺ وقال له :

هلك أبو طلحة يا رسول الله، لم أدرك صلاة العصر إلا مع غروب الشمس بسبب الحديقة، فهى وما فيها صدقة لله عز وجل.

(*) سير أعلام النبلاء (أبو طلحة).

هذا موقف إيماني يحمل دروسًا إيمانية تقربنا إلى الله عز وجل :

الأول : فقه الأولويات : فالمؤمن يراعى ترتيب الأعمال مقدمًا الأولى فالأولى، والصلاة عبادة عَظَّم الله شأنها، وجعل لها المقدمة بين أعمال الخير، قال النبى ﷺ : «واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»[١] .

وأوصى النبى ﷺ أهل الإيمان بالتبكير فى أداء الصلاة، فالصلاة فى أول الوقت تستجلب رضوان الله تعالى، وقد مدح الله المؤمنين الذين يحافظون على صلاتهم، فقال تعالى فى سياق وصف المؤمنين الفالحين : ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ** ﴾ [المؤمنون/٩] .

ولقد حذر النبى ﷺ من الانشغال عن الصلاة مهما كانت دواعى الانشغال .

الدرس الثانى : تعظيم شعائر الله تعالى، وهذا شأن المؤمن مع أوامر الله تعالى، فلقد مدح الله هذه الفضيلة فى أهل الإيمان، وجعلها علامة على صحة القلب وصدق إيمانه، قال الله تعالى : ﴿ **ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج/٣٢]، لذا نرى من أهل الإيمان الفورية والمسارعة فى شأن العبادات استجابة لأمر الله تعالى : ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد/٢١] .

الدرس الثالث : شعور المؤمن بالتقصير يحمله على تصحيح الأخطاء، وفى الحديث : «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على وجهه فأطاره»[٢] .

---

(١) أخرجه ابن ماجه رقم (٢٧٧، ٢٧٨)، وأحمد (٥/٢٨٢) .
(٢) راجع إتحاف السادة المتقين (٨/٥٧١) .

ورأينا – في الموقف – أبا طلحة يبكي لما أخذه النسيان بسبب الانشغال بفلاحة الحديقة حتى غروب الشمس، ولم يكفه البكاء بل لامَ نفسه قائلاً : لقد هلك طلحة. وهذا أدب كريم مع النفس، تربى الصحابة عليه في حجر النبوة، قال النبي ﷺ : «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»(١).

الدرس الرابع : إتباع السيئات بالحسنات، فقد جعل أبو طلحة الحديقة التي شغلته عن صلاة العصر في أول وقتها صدقة لله تعالى، حرصاً على مرضاة الله تعالى، وعملاً بقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ** ﴾ [هود/١١٤]، وقول النبي ﷺ :

«وأتبع السيئة الحسنة تَمْحُها»(٢).

وهكذا يكون حال المؤمن يقظًا حذراً من الزلات والهفوات والذنوب والآثام، حريصًا على فعل الخيرات، وعلى مرضاة الله عز وجل، كما يبادر بالحسنات لتكون كفارة للسيئات.

الدرس الخامس : مرجعية السنة النبوية كمعيار إيماني للمسلم، فأبو طلحة قد عرض عمله على النبي ﷺ وأقره النبي عليه، والنبي ﷺ فينا بسنته، وربنا تبارك وتعالى قال في قرآنه : ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ** ﴾ [النساء/٦٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

١٤٢ - ما على هذا اتبعتك !

لما عاد النبى ﷺ ومعه المسلمون من إحدى الغزوات بنصر الله تعالى، أخذ النبى ﷺ فى توزيع الغنائم على أصحابه، حتى جاء الدور على أحدهم فغضب واحْمرَّ وجهه ولم يأخذ شيئًا من الغنائم، وقال لرسول الله ﷺ :

ما على هذا اتبعتك ! لكنى اتبعتك على أن أُرْمَى ها هنا بسهم - وأشار بيده إلى حلقه - فأموت فأدخل الجنة.

فقال رسول الله ﷺ :

«إن صدق اللَّهَ يصدقه».

(*) النسائى (٤/ ٤٩)، والحاكم (٣/ ٥٩٥، ٥٩٦).

هذا موقف إيمانى عظيم في تعظيم أمر الدين والتضحية من أجل مرضاة الله تعالى، فهذا رجل أتى إلى النبى ﷺ ضيفًا عليه، فأكرم النبى ﷺ نزله، وأعجب الرجل بخلق سيدنا رسول الله ﷺ، فأسلم، ثم سأل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فى الإسلام وأعلاها درجة، فقال له النبى ﷺ : « الجهاد فى سبيل الله »[1].

وخرج الرجل مع النبى ﷺ فى أول غزوة خرجها بعد إسلام الرجل، وانتصر المسلمون وعادوا بالغنائم، وقسم النبى ﷺ الغنائم؛ فلما جاء دور الرجل فى الغنائم ودعاه رسول الله ﷺ ليعطيه نصيبه ؛ احمرَّ وجه الرجل وقال لرسول الله ﷺ : « يا رسول الله : ما على هذا اتبعتك ، ولكنى اتبعتك على أن أُرمى ها هنا بسهم كى أنال الشهادة وأدخل الجنة. فقال النبى ﷺ : « إن صدق الله يصدقه ».

وفى الغزوة التالية خرج الرجل مجاهداً مع رسول الله ﷺ، وبعد انتهاء الغزوة، وجد الصحابة ومعهم رسول الله ﷺ الرجل قد استشهد وقد أصابه السهم فى الموضع الذى أشار إليه عند حلقه.

فقال النبى ﷺ : « هذا رجل صدق الله فصدقه الله عز وجل ».

إن الصدق قيمة عالية، تسمو بالمؤمن إلى الدرجات العُلى من رضوان الله تعالى.

وأفضل الصدق وأعلاه ما كان مع الله تعالى. ولقد جعل الله الصدق فى قمة الفضائل التى أوصانا بها فى القرآن الكريم. قال الله تعالى :

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ [التوبة/١١٩].

وقال تعالى :

---

(١) أخرجه البخارى رقم (٩٧)، ومسلم رقم (٨٥).

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب/٢٣].

ووضح لنا النبى ﷺ أن الصدق باب من أبواب الخير والبر الذى ينتهى بالعبد إلى الجنة، قال ﷺ : «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة، وإن العبد ليصدق ويتحرى الصدق – فى حديثه – حتى يكتب عند الله صدّيقًا»(١) .

---

(١) أخرجه مسلم فى البر والصلة (١٠٥).

١٤٣ - أرانى لم يرقَّ قلبى

ذات يوم استمع الحسن البصرى رضي الله عنه إلى رجل يعظ الناس.

وبعدما انتهى من موعظته وانصرف الناس، أقبل الحسن البصرى إلى الرجل الواعظ، وقال له - فى السرّ- : أرانى لم يرقَّ قلبى ولم تصل موعظتك إلىّ، فإما بقلبى شىء أو بقلبك .

فانصرف الرجل باكيًا.

(*) الرسالة القشيرية ، ص ٢١١ .

هذا موقف تشتد الحاجة إلى معانيه الهادية فى واقعنا المعاصر، إن أحدنا إذا أصابه تعب أو إعياء؛ فأحس معه بأعراض أى مرض فى جسمه، أسرع إلى الطبيب على الفور، حفاظًا على صحته، وهذا أمر طبيعى. ولكن من غير المعقول أن يرى أحدنا الأعراض الواضحة لمرض القلب من القسوة وعدم الخشية والوجل، ولا يهتم.

وهذا الموقف ينبهنا إلى أنه ينبغى علينا أن نهتم بصحة القلب ، أى بأحوال الإيمان فيه. ومؤشرات صحة القلب يبينها القرآن الكريم وهديه الحكيم، قال الله تعالى :

﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال/ ٢].

وقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ** ﴾ [المؤمنون/ ٦٠].

وقال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ** ﴾ [الحج/ ٣٥].

وقال تعالى :

﴿ **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الحديد/ ١٦].

ويقول النبى ﷺ : «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[(١)].

فإذا فارق القلب الخشوع والوجل أثناء الذكر وأصيبت العين بالجمود، فهذه أمارات المرض، فلا يتحرك القلب لذكر ولا طاعة، قال الله تعالى : ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر/ ٢٢].

وقال تعالى : ﴿ **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً** ﴾ [البقرة/ ٧٤].

---

(١) أخرجه الترمذى رقم (٢٤٥٠).

كما وصف الله فى القرآن الكريم القلوب المريضة بالعمى، أى أنها لا تدرك النور ولا تنتفع بالهدى، فحال القلب المريض أخطر من حال العين التى أصابها العمى، قال تعالى : ﴿ **فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ [الحج/٤٦].

إن أثر الذنوب على القلوب خطير، قال النبى ﷺ : «إذا أذنب العبد ذنبًا نُكِتَتْ نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب واستغفر صقل قلبه، وإلا اسود القلب كله، فذلك الران» ثم تلا النبى ﷺ قول الله تعالى : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [المطففين/١٤][(١)].

على المؤمن أن يكون بصيرًا بأحوال قلبه كما رأينا فى الموقف من الحسن البصرى حين استمع للواعظ فلم يرقَّ قلبه، ولا تأثرت مشاعره ولم تصل موعظة الواعظ إليه. فقال للرجل الواعظ : إما بقلبى شىء أو بقلبك.

وهنا درس جديد وفقه نافع، حيث تشير العبارة فى شقها الأول إلى أن مرض قلب المستمع يمنعه من الإفادة من المواعظ التى يستمع إليها، فمرض القلب حجاب خطير عند المستمع.

والشق الثانى من كلمة الحسن البصرى قوله : أو بقلبك، أى بقلبك شىء أفقد كلامك التأثير، فما من كلام يخرج من إنسان إلا وعليه حُلَّة من قلب قائله، وكم تموت الكلمات على ألسنة تحترف الكلام ولا تعمل به، قال الله تعالى : ﴿ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ** ﴾ [الفتح/١١].

وقال تعالى : ﴿ **لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا** ﴾ [الأعراف/١٧٩]. فالمعاصى حجاب عند المتحدث أيضًا، وكم تحيا الكلمات

---

(١) المستدرك (١/٥)، والطبرى فى التفسير (٣٠/٦٢).

البسيطة وتؤثر تأثيراً عظيماً فى المستمع حين تخرج من قلب محب لها مهتم بها يعمل بها، ولذلك نرى أن كثيراً من العلماء الصالحين يكثرون من قيام الليل وذكر الله عز وجل، ويحرصون على فعل الخيرات، ولا يتقدمون لحديث أو موعظة إلا بعد أن يكونوا من أهل العمل بها.

قال الله تعالى: ﴿ **ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر/٢٣].

وهذه الموعظة من الحسن البصرى تجعلنا نراجع أنفسنا حين يلقى كل منا باللائمة على الآخر، المستمع يلقى باللائمة على الخطيب، والخطيب يلقى باللائمة على الجمهور، فما أحوجنا لموعظة الحسن البصرى: إما بقلبك شىء أو بقلبى.

وسبيل صلاح القلوب يبدأ بصدق التوبة إلى الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ **إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا** ﴾ [التحريم/٤].

وقال تعالى: ﴿ **وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ [التغابن/١١].

وقال تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ** ﴾ [الرعد/٢٨].

أيضًا الاستعانة بالله والتفرغ إليه سبيل عظيم لعلاج القلوب؛ فالله سبحانه وتعالى صاحب الفضل العظيم فى صلاح القلب. قال تعالى:

﴿ **وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾ [الحجرات/٧].

والحذر من المعاصى باب من أبواب صلاح القلب، قال النبى ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، من تركها مخافة الله عز وجل، أبدله الله إيمانًا يجد حلاوته فى قلبه»[١].

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/٣١٤).

كما أن طُهر القلب من أمراض الحقد والغل والحسد والكراهية ونحو ذلك، طريق للفوز بالجنة، فالرجل الذى بشره النبى ﷺ بالجنة لما دخل عليه والصحابة حوله، كان بسبب طُهر قلبه من الحقد والحسد .

١٤٤ - كيف تفتح العقول ؟

كان مصعب بن عمير رضي الله عنه ضيفًا عند أسعد بن زرارة بالمدينة المنورة للدعوة إلى الإسلام، إذ أقبل أُسيد بن حضير غاضبًا؛ وقال لمصعب :

إن كنت باقيًا على حياتك فاخرج من بلادنا.

فقال له مصعب :

يا سيد قومه، اجلس فاسمع منى فإن رضيت قولى قبلته، وإلا أجبتك لما تريد.

فجلس أُسيد، فقرأ مصعب رضي الله عنه عليه بعض آى القرآن، فَرقَّ قلب أُسيد وأسلم، ثم أسلم قومه بإسلامه.

(*) أسد الغابة ، ترجمة أسيد بن حضير.

هذا موقف عظيم تشتد الحاجة إليه فى واقعنا المعاصر، حيث يعلمنا الموقف درسًا تربويًا عظيمًا فى الدعوة الناجحة إلى الله عز وجل.

يعلمنا الموقف كيف تُفتح العقول بالقرآن؛ وكيف تكون حكمة المواجهة، وكيف يكون ذكاء الداعية، وكيف يكون خلق الداعية.

وأول درس في الموقف: هو سعة صدر سيدنا مصعب رضي الله عنه فأمام الغضب الشديد والتهديد والوعيد من أُسيد بن حضير لم يَتَخَلَّ مصعب عن دماثة الخلق وبسمة الوجه وطيب الكلام، وأجاب فى هدوء الإيمان، وثبات المتوكل على الله، وحكمة العاقل فى الدعوة إلى الله تعالى؛ حيث قال لأسيد:

يا سيد قومه، اجلس واسمع، فإن رضيت قولى قبلته، وإلا أجبتك إلى ما تريد.

فجلس أُسيد، فقرأ مصعب عليه شيئًا من القرآن؛ فَرقَّ قلب أُسيد، واهتدى عقله إلى الحق؛ فأسلم ثم أسلم قومه لإسلامه.

وهكذا يكون أثر الخلق الطيب والدفع بالتى هى أحسن، قال الله تعالى:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت/٣٤].

والدرس الثانى فى الموقف: هو أنه علمنا كيف تُفتح العقول الجامدة والقلوب القاسية.

إنه يقف بنا على سر نجاح الخطاب الدينى الإسلامى فى بواكير الدعوة، وكيف اهتز معسكر الشرك والكفر رغم امتلاكه أدوات السيطرة والهيمنة؟!

وكيف فتحت المدينة المنورة دون سيف ولا قتال ؟!

إنه يضع أيدينا على أهم أسباب نجاح الداعية، وأهم وسائل الخطاب المؤثر، إنه القرآن الكريم.

لقد قرأ مصعب بعض آى القرآن على أُسيد فأثَّرت فى قلبه وعقله، وهكذا فُتحت المدينة بالقرآن، لقد تعلم مصعب كيف يفتح القلوب والعقول بالقرآن من رسول الله ﷺ.

فحين جاء أبو الوليد (عتبة بن ربيعة) إلى رسول الله ﷺ ليفاوضه فى أمر الدين بعد أن اهتز معسكر الشرك بإسلام حمزة وعمر بن الخطاب – رضى الله عنهما – وعجزت قريش عن القضاء على الدعوة وصاحبها ﷺ بالحصار الاقتصادى، أو بالتصفية الجسدية قتلاً وتعذيبًا، أو بالسخرية والاستهزاء، جاء الوليد بعد أن حاروا فى أمر هذا النبى ودعوته، وقال لرسول الله ﷺ : يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم وعبثت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد اسمع ».

قال : يا ابن أخى، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًّا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال ﷺ : « أو قد فرغت يا أبا الوليد ؟ »

قال : نعم.

قال : « فاسمع منى ».

قال : أفعل.

فقال ﷺ : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت/ ١ :٤].

ولم يزد رسول الله ﷺ على قراءة القرآن شيئًا، فتغير لون أبى الوليد، وقال : ما هذا بقول بشر.

أيضًا كانت الوفود التى تأتى إلى النبى ﷺ فى المدينة فيشير إلى أُبىٍّ بن كعب أن يقرأ عليهم القرآن.

وعمر بن الخطاب بشدته وقسوته وقوته وعناده قَبْلَ الإسلام.. لما ذهب إلى دار أخته غاضبًا معاقبًا لها ولزوجها على إسلامها؛ لما قرأ القرآن : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ * إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ [طه/ ١ - ٥]. فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴾ [طه/ ١٤].

قال : دلونى على هذا النبى، إنه القرآن الكريم فيه سر الهداية ، قال الله تعالى :

﴿ الٓمٓ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة/ ١:٢].

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء/ ٩].

وفيه شفاء العقول بما يملك من وسائل الإقناع والحوار ومقارعة الحجة بالحجة، وهو شفاء للنفوس بما يملك أمر تزكيتها وأمر صلاحها.

فبالقرآن حوَّل النبى ﷺ مجتمع البداوة والقبلية والضلال إلى مجتمع

هداية وخير وفلاح للدنيا كلها، قال الله تعالى :

﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ** ﴾ [آل عمران/١٦٤].

وهكذا تصنع الكلمات الإلهية فى العقول والقلوب والنفوس.

ولذلك قال ابن كثير وابن عباس فى قوله تعالى :

﴿ **فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا** ﴾ [الفرقان/٥٢].

أى : جاهدهم بالقرآن الكريم.

يبقى أن نسأل أنفسنا :

لماذا كان للقرآن على ألسنتهم هذا الأثر الخطير فى القلوب والعقول، ولا يكون للقرآن معنا هذا الأثر ؟

وتأتى الإجابة حقيقة واضحة يؤكدها القرآن نفسه، حيث تؤكد الآيات أن بركة القرآن لمن يعمل به.

قال الله تعالى :

﴿ **وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا** ﴾ [الإسراء/٨٢].

فالذى ينتفع بالقرآن هو الذى يعمل بالقرآن ابتغاء مرضاة الله عز وجل.

فهذا هو القرآن. فأين منه المسلمون ؟!

أين المسلمون من تعظيم كتاب الله تعالى بتعظيم أوامره والحذر من إتيان نواهيه ؟!

أين المسلمون من العمل بتعاليم القرآن فى شتى شئون حياتهم ؟!

أم أننا نستمع إلى القرآن نغمًا نطرب له دون أن نعتبر.

إن القرآن هو روح الإسلام، قال الله تعالى :

﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا** ﴾ [الشورى/ ٥٢].

والقرآن سر حياة المسلمين، قال الله تعالى : ﴿ **أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ** ﴾ [الأنعام/ ١٢٢].

وقوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ** ﴾ [الأنفال/ ٢٤].

والقرآن نور البصائر والأبصار، قال تعالى :

﴿ **وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ [الشورى/ ٥٢].

هذا هو القرآن، فأين منه المسلمون ؟!

أفـمـسلمـونَ وأمَّـةٌ شَـلاَّءُ   لا مَـيِّـتُـونَ ولا هُمُ أحْـيـاءُ !!
يَهِنُون والإسـلامُ أَشْـرَفُ منزلٍ   ومُـحـمَّـدٌ مـمـا أتَوْهُ بَرَاءُ !!

نعم أصبح المسلمون كما وصفهم النبى ﷺ : « غثاء كغثاء السيل »[(١)].

وما لم يتحول المسلمون عن مقاطعتهم وهجرهم للقرآن، وما لم يستمسك المسلمون بالقرآن، وما لم يستجب المسلمون لهدى القرآن، فلن يزدادوا إلا هوانًا ومذلة.

---

(١) سبق تخريجه

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد/ ١١].

فكفانا تبعية للغرب أو للشرق، كفانا تبعية للآخر، لأفكار البشر بما تحمله من أخطاء فادحة فى حق أمتنا وإسلامنا، ولنصحح وجهتنا إلى القرآن، بما فيه من قيم حضارية للمسلمين وللإنسانية كلها، وبما فيه من آفاق علمية تدفع الأمة إلى أن تأخذ مكانها فى المقدمة بين الأمم.

عوداً حميداً للقرآن كى تتحقق الخيرية التى زكى الله بها هذه الأمة، قال الله تعالى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران/ ١١٠].

١٤٥ – من بركة التسبيح

ذهب الإمام على ومعه السيدة فاطمة – رضى الله عنهما – إلى بيت رسول الله ﷺ ، فقال الإمام على لرسول الله ﷺ :

يا رسول الله ! أدارت فاطمة الرحى حتى أثرت فى يدها ، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها ، فهلاً أمرت لها بخادم يُعينها ؟

فقال النبى ﷺ :

«عليكما بكلمات عَلَّمَنيهنَّ جبريل – عليه السلام – :

إذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثًا وثلاثين ، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين ، وتكبران ثلاثًا وثلاثين».

(*) أخرجه البخارى (٧ / ٨٤، ٨ / ٨٧).

نحن أمام بيت تعمره زوجة أرهقها العمل، وزوج له ظروفه الاقتصادية، لكنَّ قلبه مملوء بهموم كبار فى سبيل الله.

هذه بنت رسول الله ﷺ، وهذه حياتها فى دنيا الناس. لقد أحست من أول يوم فى بيت الزوجية بظروف زوجها، الذى لم يجد مهرًا لها سوى درع عنده يستخدمها فى الحرب، ولا يستطيع الزوج أن يستأجر لها من يقوم بالأعمال الشاقة، من إدارة الرحى ونحو ذلك فى بيته، رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، ورضى الله عنكم.

وبعد عودة النبى ﷺ منتصرًا من إحدى غزواته، بغنائم وسبايا، دخل الإمام علىّ على زوجته فاطمة فرآها متعبة من مشقة إدارة الرحى، فأشفق عليها، وقال لها: «اذهبى لرسول الله ﷺ فالتمسى منه خادمًا يعينك».

وذهبت - رضى الله عنها - على استحياء، فلما رآها رسول الله ﷺ فرح بها، وسألها: «ما جاء بك يا بنية؟» فمنعها الحياء أن تُصرِّح بما جاءت من أجله، وقالت: «جئت لأسلم عليك»، وانصرفت.

وكانت السيدة فاطمة - رضى الله عنها - كما يصفها الرواة صغيرة الجسم، نحيلة العود، رقيقة الإحساس، مرهفة الشعور.

ولما تكررت رؤية الإمام على رضي الله عنه للمشقة التى تظهر على السيدة فاطمة - رضى الله عنها - والتعب الذى تعانيه من إدارة الرحى وحمل القربة، اصطحبها إلى رسول الله ﷺ، وتولى الحديث عنها، فقال: يا رسول الله، أدارت فاطمة الرحى حتى أثرت فى يدها، وحملت القربة حتى أثرت فى نحرها، فلما جاءك الخدم بعد الغزوة أمرتها أن تأتيك فتعطيها خادمًا.

يا له من موقف! إن الأمر يتعلق بفاطمة - رضى الله عنها - أقرب الناس إلى أبيها رسول الله ﷺ، إنها قطعة منه.

وكان بوسع رسول الله ﷺ أن يبدى تلميحًا يسيرًا لواحد من أغنياء المسلمين بحاجة فاطمة، فيذهب إلى بيتها الخدم والعمال.

ألم يكن بوسع رسول الله ﷺ أن يجعل لها شيئًا من الغنائم ؟!

لكن الرسول ﷺ يعلمنا أن من تولى أمانة أمر ما، عليه أن يؤدى الأمانة، وألا تهتز العدالة بين يديه تبعًا لعواطفه ومشاعره لأهله وأبنائه وقرابته؛ لذلك قال النبى ﷺ لعلىّ وفاطمة - رضى الله عنهما - : «لا والله لا أعطيكما وأدع أهل الصُفَّة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفقه عليهم»(١).

وانصرف الإمام علىّ ومعه السيدة فاطمة ، رضى الله عنهما.

وكأنى بك يا سيدى يا رسول الله، تمضى ابنتك .. وهى قطعة منك، والقلب ينسحب معها انسحابًا، لكن أمر الله أغلى وأعلى؛ أغلى من الولد، وأعلى من كل شىء.

وفى المساء ذهب الحبيب المصطفى ﷺ إلى منزل الحبيبين الإمام علىّ والسيدة فاطمة - رضى الله عنهما - يردهما إلى الله عز وجل، لنتعلم أن ما نعجز عن تحقيقه من آمال أو طموحات لأولادنا، علينا أن نوجه أولادنا إلى أن يرفعوه إلى الله عز وجل، وأن يستعينوا بالله .. إن الله على كل شىء قدير.

فقال النبى ﷺ لهما : «عليكما بكلمات عَلَّمنيهنَّ جبريل - عليه السلام- : إذا أويتما إلى فراشكما تسبحان الله ثلاثًا وثلاثين، وتحمدان ثلاثًا وثلاثين ، وتكبران ثلاثًا وثلاثين»(٢).

فكانت القوة والعافية والبركة من ثمرات الاستجابة لنصح رسول الله ﷺ ووصيته.

---

(١) مجمع الزوائد (١٠ / ١٠٠). (٢) أخرجه البخارى (٧ / ٨٤).

تقول السيدة فاطمة – رضى الله عنها – : « فصنعت ما أوصانى به رسول الله ﷺ فأغنانى الله عن الخادم » .

وفى هذا درس قيم فى ثمرة اتباع هدى رسول الله ﷺ عن إيمان وحبٍّ، لأن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى .

فينبغى التأسِّى بالمفلحين، بأهل بيت النبى ﷺ وصحابته الكرام – رضى الله عنهم – فى اتباع رسول الله ﷺ دون تردد أو مراجعة، لنفوز بما فازوا به من توفيق الله تعالى وعنايته فى الدنيا ، وبالجنة والرضوان فى الآخرة .

وهكذا يتأكد لكل مؤمن من هذا الموقف أن بركة السنة النبوية لمن يعمل بها .

رضى الله عن آل بيت رسول الله ﷺ ، وأدَّبنا الله بأدبهم وخلَّقنا بأخلاقهم، والحمد لله رب العالمين .

١٤٦- أمين حق أمين

لما ذهب عمر بن الخطاب ﷺ إلى الشام، صحبه أبو عبيدة بن الجراح ﷺ إلى بيته، فلم يرَ عمر من الأثاث شيئًا، لم يجد إلا سيفه وترسه ورَحْلَه.

فسأل عمر أبا عبيدة :

هلا اتخذت لنفسك مثلما يصنع الناس ؟!

فقال أبو عبيدة :

يا أمير المؤمنين، هذا يبلغني المقيل.

(*) رجال حول الرسول، ص ٢٦٤.

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ، الذين آمنوا به واتبعوه واتبعوا النور الذى أنزل معه.

أى رجال هؤلاء ؟! إنه الإيمان الذى يصنع بالنفوس المعجزت، إنه القرآن الذى يربى رجالاً على الفضائل والمكارم، إنه النبى محمد ﷺ الذى كان أسوة لأصحابه فى كل أحواله.

لذلك هانت ملذات الدنيا فى نظرهم، فحَسْبهم أنهم عظَّموا ما عظم الله، وهذا شأن المؤمن، يُعظم ما عظم الله، ويحقر ما حقر الله.

إن حب مرضاة الله ملأت قلوبهم فكانت أفعالهم كأفعال حبيبهم المصطفى ﷺ، كلها لمرضاة الله رب العالمين.

لذلك نرى أبا عبيدة رضي الله عنه حين رأى بعض أهل الشام قد فُتنوا بقوته وعظمته وأمانته، خاطبهم فى تواضع جم قائلاً لهم:

يا أيها الناس : إنى مسلم من قريش، ما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلنى بتقوى، إلا وددت أنى فى إهابه.

هذه حال أمين هذه الأمة سيدنا أبى عبيدة بن الجراح، الذى أثنى عليه النبى ﷺ بقوله :

«إن لكل أمة أمينًا ، وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح»(١).

ويخبرنا الموقف أن هذه القمة الإيمانية كان بيته بلا أثاث فاخر، وكان بوسعه أن يتخذ أعظم المتاع، وأفخر الأثاث !

هذه حال واحد من العشرة المبشرين بالجنة، بيته من البساطة بهذه الدرجة، وإلى الحد الذى لا يوجد فيه إلا الضروريات فقط.

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ٣٢)، ومسلم فى فضائل الصحابة (٥٣).

نعم، لقد علموا أن الذى يجعل المقدمة للمؤمن عند الله تعالى ليس الأثاث الفاخر، ولا ممتلكات الدنيا، ولا الأموال الكثيرة، إن الذى يجعل المقدمة للعبد عند الله تعالى، ويجعل العبد كريمًا على الله تعالى هو الإيمان والعمل الصالح.

أما القيم الاستهلاكية التى تجعل الإنسان فى صفوف المستهلكين للحضارة لا المنتجين لها، والتى تجعل الإنسان عبئًا على مجتمعه - فإنها تؤخر ولا تقدم- فرضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ.

لأجل كل هذه المعانى تمنى عمر رضي الله عنه فقال :

لو كنت متمنيًا، ما تمنيت إلا بيتًا مملوءًا برجال من أمثال أبى عبيدة الجراح رضي الله عنه.

ومن عبر الموقف : جواب سيدنا أبى عبيدة رضي الله عنه على سيدنا عمر رضي الله عنه لما سأله : ألا اتخذت لنفسك مثلما يصنع الناس ؟!

فأجاب رضي الله عنه : هذا يبلغنى المَقيل !

وفى هذا درس لنا لكى نأخذ من المتاع والأثاث والفراش بقدر حاجتنا دون إسراف ولا تبذير، نأخذ منها بقدر بقائنا فى الدنيا، إنها لقدرٌ قليل يفنى سريعًا، والآخرة خير وأبقى.

وكان هذا شأن كثير من صحابة رسول الله ﷺ، إذا دخل عليهم بعض الناس فسألوهم : أين أثاث البيت ؟ وأين الفراش ؟ قالوا : أرسلنا كل ذلك إلى هناك .. فإن لنا بيتًا آخر.

يقصدون بيوتهم فى الجنة، فرضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

١٤٧ - ذكرت فى الملأ الأعلى

دعا النبى ﷺ أبىّ بن كعب ؓ وقال له: «يا أُبىّ: إنى أمرت أن أعرض عليك القرآن».

فقال أُبىّ :

يا رســـول الله ! بأبى أنت وأمى، هل ذُكــرتُ هناك باسمى ؟!

فأجابه النبى ﷺ :

«نعم ، باسمك ونسبك قد ذُكرت فى الملأ الأعلى».

فبكى أبى :

فقرأ النبى ﷺ عليه :

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ .. إلى قوله تعالى : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾

[البينة / ١-٨] .

(*) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٢٤٥) باب (٣٩) .

يؤكد هذا الموقف النورانى جملة من الحقائق الهادية :

أولاها : أن الله يرفع بالقرآن الكريم من استجاب لهديه وأخلص له .

فسيدنا أبىّ رضي الله عنه تعاهد القرآن وتدارسه فى سفره وفى حضره، فى ليله ونهاره، يقرأ ويحفظ، ويفهم ويتفقه، يكتب الوحى كما أنزل على رسول الله ﷺ، ويرتل القرآن ليحاكى نُطق رسول الله ﷺ كما أُنزل عليه . فإذا جاءت الوفود أجلسها النبى ﷺ مع أُبىّ لتستمع منه إلى القرآن، وليشرح لهم ويعلمهم .

فإذا غاب النبى ﷺ فى سفر عن المدينة أمر أُبىّ بن كعب رضي الله عنه أن يؤم الناس، وزكاه النبى ﷺ فقال : « أَقْرَأ أمتى أُبىّ بن كعب »(١) .

وزكاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله : هذا سيد المسلمين أُبىّ بن كعب .

وهكذا نال سيدنا أُبىّ الدرجات العالية والمنازل الرفيعة .

وفى هذا أسوة وقدوة للمسلمين، أن يجعلوا القرآن الكريم إمامهم فى شتى نواحى حياتهم، إذا أرادوا أن يرفع الله ذكرهم، وأن يحقق لهم مجدهم، وأن يتولاهم ويرضى عنهم .

ثانيتها : هذا الأدب الجم من سيدنا أُبىّ بن كعب بين يدى رسول الله ﷺ ؛ فقد بكى سيدنا أُبىّ أمام هذه المكرمة الغالية التى أكرمه الله بها، فألزم نفسه التواضع أمام رسول الله ﷺ .

ثالثتها : أن الآيات التى قرأها النبى ﷺ من سورة البينة جاءت تثبيتًا لقلب سيدنا أُبى، حيث اشتملت السورة الكريم على توبيخ أهل الكتاب والمشركين، لإصرارهم على ضلالهم بعد أن تبين لهم الحق، والتعجب من

(١) ذكره ابن سعد فى الطبقات (٢/٢، ١٠٣ - ٣/٢ - ٥٩، ٦٠) .

تناقض أحوالهم، وبيان أن كفرهم لم يكن بسبب جهلهم، وإنما كان بسبب جُحودهم وعنادهم، وحسدهم للنبى ﷺ، على ما آتاه الله من فضله، ثم بيَن الله حُكمه فيهم أنهم شرُّ البرية.

وفى مقابل ذلك مدح الله تعالى المؤمنين بأنهم خير البرية، وفى هذا إشارة إلى أن سيدنا أُبىّ مقصود بهذه المعانى العالية، وأنه من أهل هذه البشرى القرآنية، وأنه من خير البرية، وأنه من أهل الرضا، الذين قال الله تعالى فى شأنهم:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُ ﴾ [البينة/٧-٨].

وهكذا حمل ختام الآيات البشرى - له ولكل المؤمنين - بما أعد الله لهم من الرضوان والفوز بجنات عدن.

فهنيئًا لك يا أبا المنذر، يا من بلغْتَ هذه المنزلة العالية من قلب رسول الله ﷺ، ونلت هذه الدرجة الرفيعة عند الله تعالى، فأمر الله نبيه أن يعرض عليك القرآن، وذُكِّرْتَ هنالك فى الملأ الأعلى باسمك ونسبك، رضوان الله عليك وعلى صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

١٤٧ - ماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ ؟!

جلس أبو الدرداء ﷺ يومًا بين أصحابه، فتذاكروا أمر الآخرة، فسال الدمع من عينى أبى الدرداء ﷺ فسأله الصحابة - رضى الله عنهم - عن سبب تأثره حتى سال الدمع من عينيه، فقال ﷺ:

إن أخشى ما أخشاه على نفسى أن يقال لى يوم القيامة على رؤوس الخلائق :

يا عُويمر : هل علمت ؟

فأقول : نعم.

فيقال لى : فماذا عَمِلتَ فيما عَلِمتَ ؟

(*) رجال حول الرسول، ص ٣٦٢.

هذا موقف إيمانى مبارك، ينقلنا إلى هذا الجو الإيمانى بين صحابة رسول الله ﷺ، فى مجلس من مجالسهم النورانية، لنتأمل معًا كيف كانت مجالسهم؟ وفيمَ كانوا يتحدثون ؟

يخبرنا الموقف بأن مجالسهم كانت مجالس ذكر وعلم، يتذاكرون أمر الآخرة، إذ كانت الآخرة أكبر همهم وملء قلوبهم، وهكذا ينبغى أن تكون مجالس المؤمنين، فمثل هذه المجالس الإيمانية تفوز ببشريات رسول الله ﷺ، قال ﷺ :

« ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده »(١).

فى حين حذرنا رسول الله ﷺ من مجالس الغفلة واللهو، يقول ﷺ :

« ما جلس قومٌ مجلسًا فلم يذكروا الله فيه إلا كان عليهم ترَة »(٢).

ومن دلالات الموقف الإيمانية: خشوع القلب لذكر الله؛ فقد سال دمع أبى الدرداء رضي الله عنه لما تذاكروا أمر الآخرة، وهذا ما صنعه القرآن بهؤلاء الرجال، وهذا أثر الهدى النبوى المبارك فيهم، لقد تم البناء الإيمانى لهم، فكانوا كما وصفهم ربهم تبارك وتعالى فى قرآنه ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾
[الأنفال/ ٢-٤].

ومن دلالات الموقف الإيمانية : استعداد أبى الدرداء رضي الله عنه ليوم القيامة،

(١) ، (٢) سبق تخريجه.

واتهام نفسه بالتقصير، وهذا شأن المؤمن الكيّس، الذى دان نفسه وعمل لما بعد الموت.

ثم نأتى إلى الحكمة التى كانت وراء دموع أبى الدرداء ﷺ وهى إعلانه أنَّ أخشى ما يخشاه، أن يسأل يوم القيامة: هلى علمت؟ فجيب: نعم، فيسأل: وماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟

وقد أكدت السنة النبوية المطهرة هذه الحقيقة، حقيقة أن ما علمناه إما أن يكون حُجة لنا إن عملنا به، وإما أن يكون حُجة علينا إن لم نعمل به.

وفى الحديث النبوى الشريف: «والقرآن حجة لك أو عليك»(١).

وقد نعى القرآن على اليهود أنهم علموا ولم يعملوا، وضرب بهم مثلاً قاسيًا، قال تعالى:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة/ ٥].

وحين تحدث النبى ﷺ عن أهل القرآن، وصفهم بأنهم الذين يعملون به فى الدنيا، قال ﷺ: «يؤتى يوم القيامة بأهل القرآن وأهله - الذين كانوا يعملون به فى الدنيا - تَقْدُمُه سورة البقرة وآل عمران، تحاجان عن صاحبهما»(٢).

وهكذا تأكد لكل مؤمن هذه الحقيقة الإيمانية، وهى أن بركة القرآن لمن يعمل به.

---

(١) جزء من حديث سبق تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم فى صلاة المسافرين (٢٥٣) باب (٤٢).

١٤٨- غسيل الملائكة

لمَّا استشهد سيدنا حنظلة ﷺ يوم أُحد، أخبر النبى ﷺ أصحابه أن الملائكة تغسله، وأمرهم أن يسألوا أهله عن أمره.

فسأل الصحابة - رضى الله عنهم - امرأته، فأخبرتهم بأنه كان معها، فلمَّا سمع صيحة الجهاد، قام من فوره وذهب إلى الجهاد جُنبًا فى سبيل الله تعالى دون أن يغتسل.

(*) أسد الغابة (ترجمة حنظلة بن أبى عامر).

هذا موقف عظيم يفيض بالدلالات الهادية والقيم التربوية النافعة .

الدلالة الأولى : المسارعة لنداء الجهاد دون تثاقل أو تباطؤ، وهذا ما صنعه القرآن في صحابة رسول الله ﷺ، قال الله تعالى :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران/ ١٣٣] .

وقال تعالى :

﴿ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٦٢] .

وأيضًا تقديم أمر الله، والجهاد في سبيله، على ما جُبلت النفوس على حبه من متعة الأهل، فهذه درجة إيمانية عالية .

وفي الحديث : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليهما مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذفَ به في النار »[(١)] .

ونتعلم من هنا أن نجعل أمر الله تعالى في المقدمة، فأوامر الله غالية، وهذا شأن المقربين الأبرار .

وكان الجزاء موفوراً، فمع نيل منزلة الشهادة، نال سيدنا حنظلة رضي الله عنه شرف تولي الملائكة غسله، وأخبر بذلك النبي ﷺ . وبمثل هذه التضحيات وهذه المسارعة تبنى الأمم ويرتفع شأنها .

الدلالة الثانية : حكمة رسول الله ﷺ في الاستفادة من المواقف الإيمانية لتعليم أصحابه ولفت أنظارهم إلى مواطن الموعظة والعبرة من المواقف الإيمانية المختلفة .

---

(١) سبق تخريجه .

وفى الموقف - موضوع الحديث - أخبر النبى ﷺ الصحابة عن المنزلة السامية التى وصل إليها حنظلة بإخلاصه وحبه لأمر ربه، حتى تولت الملائكة غسله، ووجههم إلى أن يسألوا أهله؛ كى يعلموا العمل الذى وصل به إلى هذه المنزلة، وهذا من عظيم حكمته ﷺ فى تربية أصحابه، وفى هذا أسوة وقدوة للدعاة والمصلحين والمربين أن يتخذوا من مواقف الحياة الحية مادة لاستخلاص العظات والعبر وإرشاد الناس وهدايتهم من خلالها.

الدلالة الثالثة : أن رسول الله ﷺ يُعلم أصحابه من الواقع العملى، وفى أرض الميدان كيف يعيش المؤمن هذا الدين، وكيف يحيا بالإسلام، إنه ﷺ يفتح أعينهم على المستقبل العظيم الذى ينتظرهم عند الله تعالى، ويلفت انتباههم إلى أن ما عند الله من المنازل العالية والدرجات الرفيعة، مما يدفع الصحابة لمزيد من التضحية والفداء، من أجل إقامة دين الله عزَّ وجلَّ.

١٤٩ - علام نرضى الدَّنيَّة في ديننا ؟

في عام الحُديبية، لمَّا خرج رسول الله ﷺ في ألف وأربعمائة من أصحابه يقصد البيت الحرام، اعترضته قريش، ثم أرسلت الرسل تريد الصلح والمعاهدة، وتم الاتفاق ولم يبق إلا كتابة الصلح، وإذا بعمر بن الخطاب يقول لأبي بكر رضي الله عنهما : أو ليس رسول الله ﷺ ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ وأبو بكر يقول له : بلى، فقال عمر : فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا ؟

فقال أبو بكر : الزم غَرْزَك يا عمر، إنه رسول الله.

فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ﷺ.

فلمَّا كرر عمر الأسئلة نفسها على رسول الله ﷺ، قال له النبي ﷺ : «يا عمر أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني».

فما هي إلا أن نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياها، فقال : يا رسول الله أو فتح هو ؟

قال ﷺ : «نعم». فطابت نفس عمر رضي الله عنه.

(*) السيرة النبوية (١ / ١٨٩).

هذا موقف يظهر فيه التدبير الإلهى لنبيه ﷺ؛ حيث وضع الله فى هذا التدبير الإلهى سر النجاح والنصر والفتح المبين، ومن هذا الموقف يدرك الفرق بين تدبير النبوة وتدبير الفكر البشرى، بين من يعمل بعقله فقط، ومن أرشده الله إلى الحق وحيًا وإلهامًا، مع ما أولاه الله من نعمة العقل والتدبير والبصر والبصيرة.

فبحكم الأسباب وحدود العقل البشرى دهش المسلمون من شروط صلح الحديبية، ودهشوا أكثر مما رأوه من رسول الله ﷺ من التساهل والموافقة على كل شروط المشركين فى الصلح، لقد أعطاهم النبى ﷺ كل ما سألوه، وكان من أشد شروط الصلح : أن يرجع المسلمون دون زيارة البيت الحرام، وأن يرد الرسول ﷺ على المشركين من يأتيه منهم، أما من جاء من المسلمين إليهم فلا يردونه إلى رسول الله ﷺ .

فنظر العقل المجرد – إلى هذه الشروط – هو الذى استفزَّ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بحماسه للدين ولعزة هذا الدين، فتوجه إلى أبى بكر ثم إلى النبى ﷺ بأسئلته اللاهبة : ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! ألست رسول الله ﷺ ؟! فَلِمَ نرضى الدنية فى ديننا ؟!.

وتأتى حكمة رسول الله ﷺ فى معالجة الأمر؛ حيث بين ﷺ أن الأمر له بُعْد أعمق، وأن النبى ﷺ لا يتصرف بعقله المجرد فقط ولا ببشريته المطلقة، ولكنه يتصرف من موقع النبوة المؤيدة بالوحى من الله تعالى، وأن النبى ﷺ لا يعصى ربه، وأن الله لن يضيعه، وعندئذ هدأت نفس سيدنا عمر – رضى الله عنه ، بعد بيان رسول الله ﷺ لحقيقة الأمر، وما هو إلا وقت يسير حتى نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح/١].

وهكذا تأكد للمسلمين أن صلح الحديبية كان مقدمة لنصر مبين وفتح عظيم. وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح/٢٧].

لقد كان صلح الحديبية هدنة مكنت للمسلمين، حيث اختلط المسلمون بالكفار ونادوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن وناظروهم على الإسلام جَهْرةً آمنين، وظهر من كان مستخفيًا بالإسلام، حتى دخل فى الإسلام - أثناء فترة المعاهدة بعد صلح الحديبية - مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر.

ومن دلالات الموقف العظيمة : أن الله تبارك وتعالى أراد أن يجعل فتح مكة لنبيه فتح مرحمة وسِلْم، لا فتح ملجمة وقتال، فتحًا يدخل الناس فيه فى دين الله أفواجًا، فكان صلح الحديبية تمهيداً لذلك. والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

١٥٠ - فتربصوا حتى يأتى الله بأمره !

آثر بعض المسلمين بمكة الإقامة مع الأهل والعشيرة على الهجرة إلى رسول الله ﷺ واللحاق به بالمدينة ، والإيمان بالله ورسوله والمشاركة فى الجهاد ، فلمَّا استحثَّهم المسلمون على الهجرة ، تعللوا بقيامهم بعمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج ، وهذه طاعات لها منزلتها عند الله تعالى ، ولم يهاجروا ، فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة / ٢٤].

(*) راجع تفسير الخازن (٣ / ٥٨).

هذا موقف يحمل دلالات هادية، تشتد إليها حاجة أمتنا فى واقعنا المعاصر :

الدلالة الأولى : فقه الأولويات فى الإسلام. فالأعمال الصالحة ليست كلها على مرتبة واحدة، وإنما تتفاضل الأعمال وتتفاوت درجاتها بحسب أهميتها ومنزلتها عند الله سبحانه وتعالى، وكان الصحابة - رضى الله عنهم - حريصين كل الحرص على معرفة الأَوْلَى من الأعمال، ليتقربوا به إلى الله تعالى، فكثر سؤالهم للنبى ﷺ : ما أفضل الأعمال ؟ وما أحب الأعمال عند الله تعالى ؟

لكنَّ بعض المسلمين لم يدرك هذا الفقه، وسوَّى بين أعمال الهجرة والجهاد وبين عمارة البيت، فأنزل الله قرآنًا يصحح هذا المفهوم ، قال تعالى :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة ١٩ / ٢٠].

وقد آثر بعض المسلمين البقاء بمكة مع الأهل والعشيرة، ومع تجارته وأمواله على الهجرة إلى المدينة واللحاق برسول الله ﷺ والمشاركة فى الجهاد، فلما استحثهم المؤمنون على الهجرة، تعللوا بقيامهم بخدمة الحجاج وعمارة البيت وحاجة الأهل إليهم والخوف على أموالهم، فأنزل الله قرآنًا يرد عليهم، ويصحح لهم ويرشدهم ، قال تعالى :

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة / ٢٤].

وهكذا تقرر الآية بأنه على المسلم أن يجعل أمر الله فى المقدمة، وألا يقدم على أمر الله ومرضاته شيئًا، وأن الركون للراحة والأهل والمال وترك الجهاد فى سبيل الله، فيه نذير بسوء العاقبة والتعرض لمصير الفاسقين.

وقد أكد القرآن هذا المعنى فى آيات كثيرة ؛ منها قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات/ ١].

فالدين من الله تعالى، وميزان الأعمال الصالحة وتفاوتها يكون بمعايير القرآن والسنة، وليس بمعايير الهوى والرؤى الشخصية.

الدلالة الثانية : هى ما أشارت إليه الآية من تحديد للأشياء التى ترتبط بها المشاعر، وجُبلت النفوس على التعلق بها والافتتان بأمرها، والتى يضعف الإنسان أمامها فيقدمها على أمر الله تعالى، فليحذر المؤمن فالأمر كله لله تعالى.

والآباء والأبناء والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة كلها نِعَم ينبغى أن تكون دافعًا لشكر المنعم وزيادة طاعته، لا أن يفتن العبد بها ويؤخر ما حقه التقديم إرضاءً لرغبات نفسه ومطامع هواه.

١٥١ - بل أجر خمسين منكم !

أتى أبو أمية الشعباني أبا ثعلبة الخُشَنى، فقال له: كيف تصنع في قول الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة/١٠٥].

فقال أبو ثعلبة : لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : «ائتمروا بالمعروف وتناهَوْا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بنفسك، ودع عنك العوامّ، فإن من ورائكم أيامًا الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم».

قيل يا رسول الله : أجر خمسين منا أو منهم.

قال ﷺ : «بل أجر خمسين منكم».

(*) أخرجه أبو داود فى الملاحم (١٧)، والترمذى (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ، ما الذى كان يشغل عقولهم ؟ وحول أى شيء كانوا يتحدثون ويتحاورون ؟ ويجيبنا الموقف بأن القرآن قد ملأ قلوبهم وعقولهم، وأن حديثهم فى مجالسهم كان فى القرآن.

ولمَّا قرأ أبو أمية الشعبانى قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة/١٠٥]. لفتت الآية انتباهه، وأراد أن يتحقق من المعنى الذى فهمه منها، فسأل أبا ثعلبة الخشنى، ووافق ذلك توارد الخواطر بينهما، حيث استوقفت الآية أبا ثعلبة الخشنى من قبل، فسأل عنها رسول الله ﷺ فذكر أبو ثعلبة تفسير رسول الله ﷺ لهذه الآية.

الدلالة الأولى: أن فى هذا أسوة لنا أن تكون عقولنا مشغولة بالقرآن وفهمه وتدبره، وأن يكون حديثنا وحوارنا حول دلالات القرآن ومعانيه، ففى هذا صلاح لأحوالنا ومرضاة لربنا.

الدلالة الثانية هى : عدم ذوبان المؤمن فى تيار المعاصى والآثام فى زمن الفتن، بل على المؤمن أن يكون حريصًا على مرضاة ربه، وأن الإنسان إذا أطاع ربه فيما أمر ونهى فلا يضره من ضل بعد ذلك، وهذه حقيقة يؤكدها هدى سيدنا رسول الله ﷺ ، ومن ذلك قوله ﷺ :

«لا يكن أحدكم إمعة، يقول : إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساء الناس أسات، ولكن وطِّنوا أنفسكم على تقوى الله وطاعته»[١].

الدلالة الثالثة : هى أن ثواب العمل الصالح يضاعف فى زمن الفتن، ويظهر ذلك من قول النبى ﷺ : «فإن من ورائكم أياماً الصابر فيهن مثل القابض على

---

(١) سبق تخريجه.

الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» ، قيل : يا رسول الله : أجر خمسين منا أو منهم ؟ قال ﷺ : «بل أجر خمسين منكم».

وفي هذا ترغيب في الحرص على العمل الصالح في زمن الفتن، والثبات على الطاعة مهما كانت الضغوط التي من حولنا، ومهما كانت الإغراءات التي أمامنا.

الدلالة الرابعة : إشارة إلى المشقة التي تصادف الصالحين والشرفاء والأمناء في زمن الفتن، وأن السبيل للتغلب على هذه المشقة إنما يكون بالصبر والاستعانة بالله تعالى، فإذا ما تم للعبد العمل الصالح نال الأجر مضاعفًا من الله، فالثواب على قدر المشقة، وإذا طاب الغرس طاب الثمر.

١٥٢ - ابتغاء وجه ربه الأعلى

أعتق أبو بكر الصديق رضي الله عنه سبعة كلهم كان يُعَذَّبُ فى الله تعالى، منهم بلال، وعامر بن فُهَيْرة، ومنهم بعض النساء اللائى أسلمن فكن يعذَّبن لإسلامهن، فقال له أبوه أبو قحافة :

أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أنك أعتقت رجالاً أقوياء يمنعونك ويدفعون عنك !

قال أبو بكر رضي الله عنه :

يا أبت إنما أريد ما عند الله.

فنزل قول الله تعالى :

﴿الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

[الليل/١٨ - ٢١].

(*) راجع تفسير السمرقندى (٣/ ٤٨٥).

هذا موقف إيمانى عظيم، حسبه عظمة وجلالاً أن الله تعالى أنزل فيه قرآنًا يُتلى، وفارس الموقف رجلٌ كريم على الله، حبيب لرسول الله ﷺ، إنه أول من آمن وصدق برسول الله ﷺ، إنه محرر العبيد، ورفيق الرسول فى الغار، أنزل الله فيه قرآنًا يُتلى فى مواضع عديدة، فرضى الله عنه وأرضاه.

وأولى دلالات الموقف هى: رأفة قلب أبى بكر رضي الله عنه بضعفاء المسلمين، فهو يرق لحالهم، ويتأثر بعنائهم وعذابهم، ولم يقف الأمر عند حدود التأثر القلبى وتحرك المشاعر؛ بل ارتقى إلى مستوى العمل، فبذل ماله لعتقهم، وهذا من هدى الحبيب المصطفى ﷺ. وفى الحديث النبوى الشريف: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»(١).

الدلالة الثانية: الإخلاص لله تعالى فى هذا العمل العظيم من أبى بكر رضي الله عنه، فهو لا يرغب فى نفع منهم، ولا فى خير يعود على شخصه من ورائهم، ولذلك لما قال له أبوه: أراك تعتق ضعافًا لا يدفعون عنك، فلو أنك أعتقت رجالاً أقوياء يدفعون عنك.

أجاب أبو بكر رضي الله عنه:

يا أبت إنما أريد ما عند الله. إنه يبتغى مرضاة الله تعالى. لذلك أثنى الله عليه وعلى أمثاله فى قوله تعالى:

﴿إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل / ٢٠ - ٢١].

وهذه حال من أثنى عليهم القرآن من صحابة رسول الله ﷺ، كل مقاصدهم كانت خالصة لوجه الله عز وجل.

---

(١) سبق تخريجه.

من ذلك قول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴾ [الإنسان/ ٩].

ويستفاد من هذا أن الإخلاص سر بركة الأعمال وقبولها عند الله تعالى، والأعمال بدون إخلاص ترجع وبالاً على صاحبها، فمن قاتل رياء، ومن أنفق رياءً، ومن عَلَّم رياءً : أخبر النبى ﷺ عنهم بقوله لسيدنا أبى هريرة رضي الله عنه : « أولئك أول خلق تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة »[١].

هذا فى مقابل قول النبى ﷺ :

« نية المؤمن خير من عمله »[٢].

الدلالة الثالثة : أن من سارع فى مرضاة ربه سارع ربه فى رضاه، وهذا مستفاد من قول الله تعالى : ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل/ ٢١].

فلا يُنال ما عند الله إلا بطاعته، والجزاء من جنس العمل.

الدلالة الرابعة : عموم معنى الآيات التى نزلت فى سيدنا أبى بكر رضي الله عنه، فهى بشرى بمعونة الله وتأييده لكل من سلك هذا المسلك الإيمانى فأعطى ابتغاء مرضاة الله، واتقى ابتغاء مرضاة الله، وصدق بكل أحواله قولاً وفعلاً هدى الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك فإنه إن شاء الله من أهل عطاء الله وكرمه فى هذه الآية، والله الموفق.

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٣٨٢)، وأصله عند مسلم (٣/ ١٩٠٥).

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب (٦٨٥٩).

١٥٣ - يَعْبدُ الله على حرف

قدم رجال إلى المدينة، فكان الواحد منهم يُسلم، فإن ولدت امرأته غلاماً ونتجت خيله، قال :

إن الإسلام دين صالح.

وإن لم تلد له امرأته ذكراً، ولم تنتج خيله ذَمَّ دين الإسلام؛ وقال :

هذا دين سوء.

فأنزل الله تعالى قوله :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج/ ١١].

(٭) تفسير السمرقندى (٢ / ٣٨٧).

هذا موقف تشتد إليه الحاجة فى واقعنا المعاصر، الذى طغت فيه قيم المادة والاستهلاك على حساب قيم الإيمان والأخلاق.

والموقف يظهر حقيقة غالية، هى أن الدين لا يوزن بموازين الناس والقيم المادية، الدين ليس صفقة؛ الدين أسمى من كل هذه القيم المادية، إنه من الله تعالى الخالق الحكيم. وموازين الله تعالى تختلف عن موازين البشر، فما كان من ميزان الناس بلاء ومحنة، بالصبر عليه والرضا بقضاء الله وقدره يكون منحة وعطاء فى ميزان الله، فما من شوكة تصيب المؤمن ولا هم ولا غم إلا كفر الله بها من سيئاته وغفر له بها من ذنوبه.

إن أمر المؤمن كله له خير، وما ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له.

وموازين الإيمان تظهر أن ابتلاء الله للعبد إنما هو من رحمة الله ولطفه، وليس البلاء دليل هوان المبتلى على الله تعالى، بل إن النبى ﷺ لما سئل : أى الناس أشد بلاء ، فقال :

« أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة – أى هوان وضعف – ابتلى على حسب دينه، فما يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة »(١).

لكن الذين يأخذون الدين على أنه صفقة فإنهم ضلوا السبيل.

وكثيرا ما يقع بعض الناس فى هذا المفهوم الذى يعالجه الموقف، حيث نسمع من أحدهم: لما صليت فقد حذائى، أو ساعتى أو نقودى، ويلبس عليه الشيطان، ويوسوس له بأن ينصرف عن الصلاة والطاعة.. سبحان الله !!

---

(١) سبق تخريجه.

هل يمتحن العبد ربه ؟! هل الدين منفعة مادية ؟!

كل هذه المعانى الساقطة تفضحها الآية الكريم وتكشفها :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج/١١].

وهذا الطبع يكون فى النفوس التى لم يتمكن منها الإيمان، النفوس التى تُركت لهواها، ويكشف الله هذا الطبع ويحذر منه، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج ١٩ : ٢١].

ثم استثنى ربنا أهل الإيمان الصادق والطاعة الخالصة، فقال تعالى :

﴿ إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج/٢٢].

كما يوضح القرآن الكريم وجهاً من وجوه هذا الطبع، قال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾ [الفجر/١٥ - ١٦].

وهكذا تهجم على الإنسان طبائع السوء فى غيبة الإيمان، ويُفتن فى هذا الخطأ الفكرى؛ حيث يجعل الدين وسيلة للدنيا، لتحقيق أهوائه ورغباته.

والدين غاية. وعبادة الله حق على الإنسان ، قال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات/٥٦].

١٥٤ - يوم يعض الظالم على يديه

قدم عُقبة بن معيط ذات يوم سفر، فصنع طعامًا ودعا إليه رسول الله ﷺ، فأبى النبى إجابة الدعوة إلا إذا أسلم عقبة، فأسلم فأجابه النبى ﷺ، وأكل من طعامه.

وكان أُبىّ بن خلف غائبًا، فلمَّا حضر وعلم بالأمر، حمل على صاحبه عقبة حملاً شديداً، وقال له:

وجهى من وجهك حرام إن تابعت محمداً، ولن أرضى عنك إلا أن تأتى محمداً وترد عليه الإسلام وتصنع به كذا وكذا، فذهب عقبة وفعل إرضاءً لصاحبه أُبىّ بن خلف، فأنزل الله تعالى قوله:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾ [الفرقان/٢٧/٢٩].

(*) تفسير السمرقندى (٢/٤٥٩).

هذا موقف يحمل دلالات هادية ونافعة :

الدلالة الأولى : أثر الصحبة فى الأصحاب؛ فعقبة لما جالس رسول الله ﷺ ودعاه إلى طعامه، اشترط عليه النبى الإسلام فأسلم، ولو ظل عقبة على هذه الحال مع رسول الله ﷺ لدخل الجنة. وهذا نموذج لأثر الصحبة الطيبة، لكن الانتكاسة والانهيار جاءه من صاحبه المشرك الذى حمل عليه، وهدده بالقطيعة إن تابع رسول الله ﷺ وأمره أن يسىء لرسول الله ﷺ قولاً وفعلاً. وصنع عقبة ما دفعه إليه صاحب السوء أُبىّ بن خلف، فحلت عليه اللعنة، وباء بغضب ووعيد من الله تعالى، وأنزل الله تعالى فيه :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [الفرقان/٢٧-٢٩].

وهكذا يؤكد هذا الموقف لنا حقيقة مهمة، وهى التى أشار إليها حديث النبى ﷺ : «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(١).

وفى الحديث النبوى الشريف : «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير؛ فحامل المسك إمّا أن يحذيك وإمّا أن تبتاع منه، وإمّا أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد منه ريحًا منتنة»(٢). فلابد من التأثر بالصاحب.

الدلالة الثانية : سوء عاقبة صحبة الشر والسوء، حيث أصاب عقبة الندم والحسرة على اتباعه لصاحبه أُبىّ بن خلف، كما وضحت الآية، وهكذا انقلبت صحبة الشر والسوء فى الدنيا إلى عداوة يوم القيامة وحسرة وندامة. ويؤكد القرآن هذا المعنى فى آية أخرى، قال الله تعالى :

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٠٣، ٣٣٤)، والترمذى (٢٣٧٨).
(٢) سبق تخريجه.

﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف/٦٧].

لذلك أوصت السنة النبوية المطهرة بأن نصطفى الأصحاب.

قال ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمنًا، ولا يأكل طعامك إلا تقى»[(١)].

الدلالة الثالثة: صبر رسول الله ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى، وتحمَل الأذى من المشركين، وفى هذا درس لورثة الأنبياء، الدعاة العاملين، أن يتأسَّوا برسول الله ﷺ فى التحلى بالصبر فى دعوتهم لله تعالى، وفى تحمل أذى المعارضين والمعاندين.

وهذا هدى قرآنى كريم، قال تعالى:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان/١٧].

---

(١) سبق تخريجه.

١٥٥ - ما الفقر أخشى عليكم

بعث النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ؓ ليأتي بمال من البحرين، فلما قدم أبو عبيدة بمال وسمعت الأنصار بقدومه، وافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلمَّا صلى انصرف فتعرضوا له، فتبسم النبي ﷺ حين رآهم، ثم قال:

«أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟».

قالوا: نعم يا رسول الله.

فقال ﷺ:

«أبشروا وأمّلوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

(*) سبق تخريجه.

هذا موقف نبوى كريم، يحمل قيمًا هادية، ودلالات نافعة.

الدلالة الأولى : حياء الصحابة رضى الله عنهم، فبعض الأنصار قد تعرض لشدة، وعلى الرغم مما بهم من شدة وحاجة إلا أن الحياء منعهم من إعلان حاجتهم، واكتفوا بالتعرض لرسول الله ﷺ بعد صلاة الفجر. والحياء شعبة من الإيمان، والحياء لا يأتى إلا بخير، والحياء كله خير.

وهذا شأن المؤمن لا يعرف الإلحاح فى السؤال، بل هو ممن وصفهم الله فى قرآنه :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة /٢٧٣].

الدلالة الثانية : رأفة النبى ﷺ ورحمته بصحابته الكرام؛ فحالهم لا يخفى عليه، لذلك لما رآهم أمامه استقبلهم بابتسامة كانت بلسمًا شافيًا لنفوسهم، وهذا من كريم خُلُقه وسماحته ﷺ، وما أحوج القائمين على الصدقات والزكاة إلى أن يتأسوا بسيدنا رسول الله ﷺ فى استقبال الفقراء ومستحقى الصدقات والزكاة، بمثل هذه البسمة الحانية الودود؛ لأن هؤلاء المتعبين من الفقراء والمساكين والمرضى يحتاجون مع المال عطاء الود والمحبة ورعاية المشاعر.

الدلالة الثالثة : حكمته ﷺ فى إسداء النصيحة.

فقد قدّم للنصيحة بالبشرى بقضاء حاجة كل منهم، وفى هذا ما يحقق الطمأنينة لهم مع فراغ بالهم من هَمِّ مسألتهم، وفى هذا أيضًا تهيئة لنفوسهم لاستقبال نصيحة رسول الله ﷺ، ويظهر هذا من قوله ﷺ لهم :

«أبشروا وأمّلوا ما يسركم».

ثم سارع النبى فى نصيحته للأمة بقوله:

«فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنى أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم».

وفى هذا بيان من رسول الله ﷺ أن أمته تتجاوز محنة الفقر بسلام، فى حين حذر رسول الله ﷺ من بسط الدنيا وما يصاحبه من ترف يشغل الناس عن ذكر الله وطاعته، ومن يقرأ التاريخ يعلم أن الترف الزائد والانشغال والشهوات والملذات من أقوى أسباب انهيار الأمم وإفلاسها.

وهذه حقيقة يؤكدها القرآن الكريم، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء/١٦].

١٥٦ - وهم لها سابقون

قرأت السيدة عائشة - رضى الله عنها - قول الله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون / ٦٠].

ثم سألت رسول الله ﷺ :

يا رسول الله، هل هو الرجل يسرق ويزنى ويفعل الموبقات، ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يعاقبه الله تعالى عليها ؟!

فقال النبى ﷺ :

«لا يا عائشة ؛ إنما هو الرجل يصوم ويصلى ويفعل الخيرات، ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل منه ذلك. يا عائشة: أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون».

(*) سبق تخريجه.

هذا موقف نبوى كريم، تتجلى فيه قيم إيمانية ودلالات هادية:

الدلالة الأولى : التدبر والفهم لآيات القرآن الكريم، والسؤال عما أشكل على الفهم، وهكذا صنعت السيدة عائشة - رضى الله عنها - تقرأ الآيات وتتدبر المعانى والدلالات؛ كى تنتفع بها وتهتدى بهديها، فإذا أشكل عليها شيء أسرعت تسأل رسول الله ﷺ، على نحو ما حدث فى الموقف، حيث عرضت فهمها الذى تبادر إلى ذهنها على رسول الله ﷺ.

وهذا منهج دعانا إليه القرآن، فدعانا إلى التدبر والفهم، قال الله تعالى :

﴿**أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء/ ٨٢].

ويؤخذ من هذا أن نهتم فى تعليم أولادنا بالفهم، فالفهم له الأولوية على الحفظ، وذلك لأن حفظ القرآن وحده دون فهم وعلم لا يرفع جهلاً. هذا مع عدم إهمال الحفظ والقراءة؛ فلذلك ثوابه عند الله تعالى.

وليت القائمين على أمر تحفيظ القرآن الكريم بالمؤسسات الخيرية أن يضموا مع جهدهم الطيب فى التحفيظ معرفة المعانى الأساسية والكلمات التى تحتاج إلى شرح أو تفسير، ويا حبذا لو نشطت جهودهم المباركة فى تدريس خلاصة مركزة عن القيم الحضارية فى القرآن، وآفاق التفكير العلمى فى القرآن الكريم، حيث تشتد حاجة الأمة إلى غرس هذه المعانى.

وحسبنا تأكيداً لكل هذه المعانى أن النبى ﷺ حين وجّه الأمة إلى تعليم القرآن، عبّر عنه بالتعليم ولم يعبِّر بالحفظ لأن التعليم أشمل وأكثر نفعًا، قال ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[١].

---

(١) أخرجه البخارى (٦ / ٢٣٦).

كما دعانا القرآن إلى الرجوع إلى أهل الذكر، فيما أشكل علينا من فهم للآيات، قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل /٤٣].

وهذا منهج علمى فى التعليم دعانا إليه القرآن الكريم بعيداً عن التخبط والعشوائية.

الدلالة الثانية : حكمة النبى ﷺ فى الإجابة.

فقد أوتى ﷺ جوامع الكلم، فجاءت الإجابة وافية مختصرة دون تطويل ممل يُشتت ذهن السائل. ومن سمات أسلوبه ﷺ الوضوح واليسر فى عرض الإجابة دون تعقيد أو إغراب.

وفى هذا أسوة من رسول الله ﷺ للمعلمين والدعاة أن يكونوا واضحين حريصين على سهولة الأسلوب وتركيزه دون تطويل ممل يشتت الأذهان.

ويظهر هذا من قوله ﷺ :

« لا يا عائشة، إنما هو الرجل يصوم ويصلى ويفعل الخيرات ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه ذلك. يا عائشة، أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون ».

الدلالة الثالثة : التمييز بين خوف العاصى وخوف المطيع، فسياق الآية يحدد الخوف المقصود فيها أنه من قبيل خوف المطيعين. وهو خوف من أن يكون فى عملهم نقص يحجبه عن القبول، وخوفهم تعظيمًا لله - عز وجل - ألا يرقى إخلاصهم فى العمل إلى نيل رضا الله عن أعمالهم.

وهذا شأن الأنبياء - عليهم السلام - والصالحين، فسيدنا إبراهيم - عليه

السلام – بعد طاعات عظيمة لمرضاة الله رب العالمين، من تركه زوجه هاجر ووليده الطفل الصغير إسماعيل – عليه السلام – فى أرض لا زرع فيها ولا ماء، وبطاعته أمر الله بذبح ولده، ولكن الله فداه، وبطاعة الله فى رفع قواعد البيت، بعد هذا كله كان دعاؤه:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة/١٢٧].

كذلك نجد خوف المطيعين، فبعد أن بين الله أن نهارهم مطيع متواضع، وليلهم راكع ساجد، ما رأوا أن طاعتهم ليل نهار مانعة لهم من جهنم، فكان دعاؤهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان/٦٥].

ومن هنا أمرنا الله بالاستغفار بعد الإفاضة من عرفات، وبعد الصلاة؛ كى لا يدخل قلبَ الإنسان عُجْبُ بعمله؛ وكى يكون الاستغفار دواء لما قد يكون فى العمل من نقص، والله المستعان.

١٥٧ - أساءوا فأكثروا

أساء أناس من أهل الشرك وأكثروا، وقتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا:

إن الذى تدعونا إليه لَحَسن، لو تخبرنا أنّ لما عملنا كفارة ؟

فنزل قول الله تعالى :

﴿إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان / ٧٠].

وقوله تعالى :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر / ٥٣].

(*) راجع تفسير السمرقندى (٢ / ٤٦٧).

من فضل الله على عباده أن فتح باب التوبة للتائبين. سبحانه وتعالى، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، رحمته سبقت غضبه، يفرح بتوبة عبده إليه، إنه سبحانه وتعالى حليم غفور، رحيم ودود، أرحم بعباده من الأم بولدها، ومهما عظمت ذنوب العباد أو كثرت، فالله يغفرها ولو كانت مثل زبد البحر إذا تاب العبد وآمن وعمل عملاً صالحًا.

إن كل هذه الرحمات والمغفرة والود والحلم ينالها العبد بالتوبة الصادقة التى تتوافر شروطها؛ وهى :

- الندم على ما فات من المعاصى.
- العزم على عدم العودة إلى المعصية أبداً.
- الإقلاع عن المعاصى.

فإن كان الأمر يتعلق بحقوق العباد، فليجتهد العبد فى قضاء هذه الحقوق على قدر استطاعته، فإن عجز وكان صادقًا فى توبته تولى الله تعالى عنه إرضاء أصحاب الحقوق.

والموقف يُبين حال قوم أساءوا فأكثروا، لهم غدرات وفجرات، ورغبوا فى الإسلام، إلا أن جرم المعاصى والفواحش التى ارتكبوها يقف حاجزاً أو مانعًا لهم، فسألوا رسول الله ﷺ : يا رسول الله إن الذى تدعونا إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة ؟ فنزل قول الله تعالى :

﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ [الفرقان/ ٧٠].

ويؤكد هذا الموقف حقائق إيمانية غالية.

الحقيقة الأولى هى : أن التوبة مفتاح المغفرة والرحمة والرضا.

والحقيقة الثانية هى : البشرى للصادقين فى توبتهم الجادين فى رجوعهم إلى الله تعالى بأن الله سيبدل سيئاتهم حسنات، وتبارك الله الغفور الرحيم الودود الرءوف اللطيف بعباده.

وأن يستر الله العبد العاصى فلا يفضحه بين الخلائق، فهذا فضل ونعمة، وأن يسقط الله العقوبة عن العبد المذنب بعد ستره، فهذا فضل بعد فضل، ونعمة فوق نعمة. وأن يُبدِّل الله السيئات حسنات بعد ستره وعفوه، فهذا كرم ما بعده كرم.

وهذا الحنان الإلهى والكرم الربانى يدفع العبد إلى أن يستحيى من ربه ويسارع بالتوبة الصادقة ليكون أهلاً لفضل الله ونعمته.

والحقيقة الثالثة هى: حكمة رسول الله ﷺ فى الصبر على أهل المعاصى ودعوتهم برفق إلى الهداية ، التوبة دون تعنيف أو شدة، مع الدعاء لهم بصلاح الحال، وفى هذا أسوة للدعاة والمصلحين أن يتحلوا بالصبر فى دعوتهم، وألاَّ يرفقوا بمن يدعونهم وأن يتعجلوا النتائج، وألا يقطعوا الأمل من هدايتهم، والتوفيق من الله تعالى.

١٥٨ - دلونى على السوق

لما تمت الهجرة إلى المدينة، وآخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار - رضى الله عنهم - وقد كان من ذلك مؤاخاة الرسول ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف من المهاجرين وسعد بن الربيع من الأنصار.

فقال سعد لعبد الرحمن - رضى الله عنهما - :

«أخى أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر مالى فخذه ! وعندى امرأتان فانظر أيتهما أعجب لك حتى أطلقها وتتزوجها».

فقال له عبد الرحمن رضي الله عنه :

«بارك الله لك فى أهلك ومالك، دلونى على السوق».
وخرج إلى السوق فاشترى وباع وربح.

(*) رجال حول الرسول، ص ٤٩٣.

هذا موقف يفيض بالدروس النافعة والعبر الهادية :

الدرس الأول هو : التضحية من أجل إقامة دين الله تعالى، فقد رأينا كيف استقبل الأنصار المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم، إنهم قدموا – عن طيب خاطر – شطر أموالهم وأهليهم للمهاجرين.

أى نفسية هذه ؟! إنه السمو فى أرقى معانيه، إنها روح الأخوة التى غرسها الإسلام فى أتباعه.

لذلك فاز الأنصار بمنزلة عالية عند الله تعالى وعند رسول الله ﷺ، فقد مدحهم الله فى قرآنه، قال الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال/ ٧٤].

ومدحهم النبى ﷺ واختارهم، وقال: «ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به، والذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار. وإنكم ستلقون أثرة من بعدى فاصبروا حتى تلقونى على الحوض، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار»(١).

والدرس الثانى هو : العفة التى كانت من المهاجرين، فعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه أمام العرض الكريم من سعد بن الربيع – رضى الله عنه– يقول له: بارك الله لك فى أهلك ومالك. نعم هذا كرم يقابله تعفف – رضى الله عنهم – أجمعين.

الدرس الثالث : هو درس الأُخوَّة، حيث جعل النبى ﷺ الأُخوَّة أساسًا

(١) رواه مسلم.

تجتمع عليه الأفئدة ولا يبقى بين المهاجرين والأنصار بعد التآخى من فرق إلا فارق التقوى والعمل الصالح.

كما أن التآخى بين المهاجرين والأنصار يؤدى إلى التماسك الإسلامى، فلا ينال منه التشتت والتوزع والتفرق.

كما أن التآخى فيه روح الجماعة التى تقوى الهمم والعزائم وتنال تأييد الله تعالى، فيد الله مع الجماعة.

وإن المجتمع الذى تسوده العلاقات الودودة الحميمة القائمة على الحب والأخلاق والإيمان هو مجتمع ناجح.

وهذه قيمة زكاها القرآن الكريم، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات/١٠].

وفى الحديث الشريف :

«المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كُربة فرج الله عنه بها كُربة من كُرَب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»(١).

الدرس الرابع : هو سرعة تحول المهاجرين فى المدينة من موقع الإعانة إلى موقع الإسهام فى بناء المجتمع والمشاركة فيه، فهذا عبد الرحمن بن عوف يذهب إلى السوق ويتاجر ويربح، وهذا المعنى يؤكده قول النبى ﷺ : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفى كل خير»(٢).

وقوله ﷺ : «اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول»(٣).

---

(١) أخرجه البخارى (٣/١٦٨، ٩/٢٨)، ومسلم فى البر والصلة (٣٢).
(٢) أخرجه مسلم فى القدر (٣٤).
(٣) أخرجه البيهقى فى السنن الكبرى (٤/٣٣٣).

١٥٩ - ويحك يا جُبير !

عندما فتحت «قبرص» وحُملت الغنائم إلى المدينة رأى الناس أبا الدرداء يبكى، فدهشوا، فتقدم جُبير بن نُفير وسأل أبا الدرداء رضي الله عنه :

ما يبكيك فى يوم أعزَّ الله فيه الإسلام وأهله؟

فأجاب أبو الدرداء :

ويحك يا جُبير ! ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره، فهذه أمة تركت أمر الله فصارت إلى ما ترى !!

(*) رجال حول الرسول، ص ٣٥٧.

نحن أمام حكمة بالغة وفهم عميق للأحداث واستخلاص العبر والعظات منها، وربط أمور الخلق بالخالق تبارك وتعالى.

فأول درس يوجه انتباهنا إليه أبو الدرداء رضي الله عنه هو : الانهيار السريع والإفلاس العاجل للأمم، إنه نتيجة شيوع الفساد والترف والتخلى عن أوامر الله تعالى، وفى هذا يقول الله تعالى :

﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً** ﴾ [الإسراء/١٦].

ومن هنا فقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه يخشى على المسلمين حين جاءتهم الغنائم واتسعت الأموال أن يُشغلوا بها عن دين الله تعالى، وأن يتنافسوا فى حب الدنيا كما تنافسها الذين من قبلهم فيصيبهم ما أصاب غيرهم من الضعف والهوان، وتنتقل الغلبة من بين أيديهم إلى غيرهم.

وهذا ما حذّر منه النبى ﷺ حين قال :

« فوالذى نفس محمد بيده ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم »(١).

ومن دروس الموقف أيضًا : شؤم المعصية على الإنسان، وأنها تجعل الإنسان هينًا على الله. وفى المقابل فإن بركة التقوى والطاعة هى سبب لتأييد الله وتوفيقه ومعونته ونصره.

وشؤم المعصية يؤثر على الفرد والمجتمع والأمة، فى شأن الفرد يُبين لنا ذلك رسول الله ﷺ بقوله : « إذا أذنب العبد نكتت نكتة سوداء فى قلبه حتى يسود القلب كله »، فذلك الران الذى ذكره الله تعالى، ثم قرأ النبى ﷺ قول الله تعالى : ﴿ **كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾(٢) [المطففين/١٤].

---

(١)، (٢) سبق تخريجه.

وتوضح السنة المطهرة أن لكل ذنب أثره السيئ، فأكل الحرام يمنع إجابة الدعاء، والظلم يؤدى إلى فقدان الأمن فى المجتمع، وضياع الأمانة يؤدى إلى انهيار المجتمع ... وهكذا.

وعلى الإجمال فربنا يحذرنا من شؤم المعاصى وسوء عاقبتها، فيقول :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه/١٢٤].

فكيف يُطلب ما عند الله بالمعاصى ؟

فنصر الله وتأييده إنما يكون للمؤمنين الذين صدقوا واستجابوا ولم يفرطوا فى أمر من أوامر الله تعالى. قال الله تعالى :

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج/٤٠].

﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم/٤٧].

---

(١) سبق تخريجه.

١٦٠ - علمنى الإسلام يا خالد

بهرت عبقرية خالد قادة الروم، فدعاه قائد منهم يدعى «جرجة»، فسأله : يا خالد ! اصدقنى ولا تكذبنى، فإن الحر لا يكذب : هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاك إياه فلا تَسُلُّهُ على أحد إلا هزمته ؟

قال خالد : لا.

قال الرجل : فبم سُميت سيف الله ؟!

قال خالد : إن الله بعث فينا رسوله، فمنا من صدَّقه ومنا من كذَّب، وكنت فيمن كذَّب، حتى أخذ الله قلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله ﷺ، فدعا لى الرسول ﷺ، وقال لى :

«أنت سيف من سيوف الله» فهكذا سُميت سيف الله.

قال القائد : هل لمن يدخل الإسلام اليوم مثل ما لكم من المثوبة والأجر ؟

قال خالد : نعم.

قال القائد : علمنى الإسلام يا خالد.

(*) رجال حول الرسول (٣٢٣).

نحن أمام عظمة تأخذ القلوب، نحن أمام قائد منتصر لا يعرف الهزيمة، وكم تحولت الهزائم إلى نصر على يديه، قائد له عقل بصير يقرأ المعارك ويحدد أسباب التفوق والغلبة ويتعرف على مواطن الضعف وأسباب الهزيمة، إن هذه العبقرية الحربية بهرت الأعداء، فظنوا أن الأمر خارج حدود أسباب البشر، وأن سيف خالد نزل من السماء فارتبط به النصر.

ويقف خالد بالقائد الرومانى على حقيقة الأمر، حيث قال خالد : لا، لم ينزل سيفى من السماء، وإنما هو سيف كآلاف السيوف التى بأيدى الجنود.

فلما سأل القائد : فبم سُميت سيف الله ؟

قال خالد : إن الله بعث فينا رسوله، فمنا من صدقه ومنا من كَذَّب، وكنت فيمن كذَّب، حتى أخذ الله بقلوبنا إلى الإسلام، وهدانا برسوله ﷺ فدعا لى الرسول ﷺ وقال : « أنت سيف من سيوف الله » فهكذا سميت سيف الله.

لقد رد خالد الفضلَ لصاحبِ الفضلِ، وأرجع النعمة إلى المنعم وهو الله رب العالمين، ولم ير خالد لنفسه فى ذلك شيئًا، وإنما هى دعوة رسول الله ﷺ وتوفيق الله سبحانه وتعالى. فما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. لم يفتن خالد بعمله وإنما رأى توفيق ربه وفضله عليه، وهذا سلوك المؤمن حين يوفق لعمل عظيم. يقول : بتوفيق ربى، ومن فضل ربى.

وفى هذا استجابة لهدى قرآنى كريم، قال الله تعالى :

﴿ **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ** ﴾ [النحل/٥٣].

ومن دلالات الموقف أيضًا : ثمرة الإخلاص لله تعالى، فلما كانت غاية خالد ومن معه هى مرضاة الله تعالى من وراء هذه الغزوات نفع الله بها، وها هو القائد يُقبل على خالد متعلمًا، ثم يسلم.

نعم لم يكن مقصدهم من الغزوات طمعًا فيما عند الناس من دنيا أو أموال، وإنما إتاحة حرية الاختيار للناس، وإتاحة الفرصة لعرض الإسلام على الشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها؛ لذلك بيَّن خالد للقائد الرومانى أنه إن أسلم فله من الثواب ما هو أعلى وأفضل.

وإنها الدعوة إلى الله تعالى حتى فى شدائد الحروب ولهيب القتال.

ولصدق خالد وإخلاصه أسلم القائد الرومانى «جرجة»، وصلى لله ركعتين، وانضم لصفوف المسلمين ثم نال الشهادة بعدها.

١٦١ - قم أبا تُراب

خرج الإمام على رضي الله عنه من عند السيدة فاطمة - رضى الله عنها - مغضباً فاضطجع فى المسجد.

ثم أتى النبى ﷺ السيدة فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - فلم يجد الإمام عليًّا فقال لها :

«أين ابن عمك يا فاطمة ؟».

قالت هو مضطجع بالمسجد.

فذهب إليه النبى ﷺ فوجد رداءه قد سقط عنه وأصاب التراب ظهره، فأخذ النبى ﷺ يمسح التراب عن ظهر الإمام على رضي الله عنه وهو يقول :

«قم يا أبا تراب». ثم ذهب به إلى فاطمة رضى الله عنها.

(*) ذكره الحافظ فى الفتح (٧ / ٧٢).

نحن أمام هدى كريم فى معالجة ما يعترى الأسر من غضب أو نفور..
فالحياة لا تخلو من متاعب ومشكلات، وما دام الإنسان فى دنيا الناس فهو فى كبد ومعاناة، قال الله تعالى :

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد/٤].

لكن مواجهة أعباء الحياة ومشاكل الدنيا بالإيمان والطاعة خير سبيل للتغلب على هذه الصعاب وتلك المشكلات.

فالإمام على رضي الله عنه خرج مُغضبًا من بيته، فإلى أين يذهب ؟

إلى المسجد، إلى حيث الذكر والطاعة، لم يذهب إلى صحبة سوء أو مجلس شراب؛ وإنما ذهب إلى بيت الله تعالى حيث الرحمة ومنازل السكينة، فلما ذهب الرسول الكريم ﷺ إلى بيت ابنته فاطمة - رضى الله عنها - فلم يجد عليًّا، سأل فاطمة : «أين ابن عمك يا فاطمة ؟» وفى هذا تنبيه إلى أن هنالك روابط متعددة بين على وفاطمة، وليست رابطة الزواج فقط هى التى تجمع بينهما، فهناك صلة الرحم، وقرابة الإسلام مع رابطة الزواج، وإذا ضعفت رابطة من هذه الروابط ظلت روابط أخرى قوية.

وأجابت السيدة فاطمة - رضى الله عنها - هو مضطجع بالمسجد يا رسول الله. ولم تذكر شيئًا عن أمر الغضب. وفى هذا أسوة وقدوة فى المحافظة على الخصوصية بين الزوجين حتى على أقرب الناس وأحبهم.

فإن المحافظة على الخصوصية بين الزوجين فيها حماية وصيانة للأسرة من تدخل الغير، وكم من أسر انهارت بسبب كشف سترها وضياع خصوصيتها واطلاع الغير على أسرارها وشئونها.

وقد أسرع النبى ﷺ إليه فوجده نائمًا قد سقط عنه رداؤه وأصاب التراب ظهره، فداعبه النبى ﷺ وأفاض عليه من رفقه وحنانه ومودته، فبيده الشريفة

ﷺ أخذ يمسح التراب عن ظهره رضي الله عنه وهو يقول : « قم يا أبا تراب » . ثم ذهب النبى ﷺ به إلى بيت فاطمة الزهراء رضى الله عنها .

وفى هذا درس لأولى الأمر فى الأسر المسلمة من الآباء والأمهات، أن يتحسسوا أمور أولادهم بعد الزواج، وأن يكونوا من الرفق والمودة فى علاج ما يظهر من خلاف أو غضب دون تعنيف أو شدة لأحد الطرفين، وإنما بمراعاة قدسية العلاقة الزوجية .

كما نتعلم من رسول الله ﷺ ألا يتحيز ولى أمر الزوج لولده ويتحامل على الزوجة أو العكس. وإنما تكون رغبته الإصلاح؛ لينال من بركات الله وتوفيقه، ففى الآية الكريمة :

﴿ **إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا** ﴾ [النساء/ ٣٥] .

فليس الأمر صراعًا بين طرفين كل منهما يريد الغلبة، وإنما هى المودة والرحمة والتسامح، قال تعالى :

﴿ **وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً** ﴾ [الروم/ ٢١] .

١٦٢ - وهل مثلى لا يغار على مثلك ؟!

خرج النبى ﷺ - ذات ليلة - من عند السيدة عائشة - رضى الله عنها - وكانت تلك ليلتها فاتبعته حيث يمضى مخافة أن يذهب إلى واحدة من زوجاته الأخريات، فوجدته ﷺ قد ذهب إلى مقابر الشهداء يدعو ويستغفر.

فعادت السيدة عائشة - رضى الله عنها - إلى بيتها تقول :

«بأبى أنت وأمى يا رسول الله، أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا».

فقال لها النبى ﷺ :

«أغرتِ يا عائشة ؟»

فقالت - رضى الله عنها - :

«وهل مثلى لا يغار على مثلك ؟!».

(*) صحيح مسلم «كتاب الجنائز» باب : ما يقال عند دخول المقابر والدعاء لأهلها (١٠٣).

هذا موقف نبوى كريم، تتجلى فيه قيم ودروس تربوية نافعة :

الدرس الأول هو : هذا الرد الرقيق من الرسول الكريم ﷺ الذى يتسم بالود الحانى على زوجه عائشة، كيف لا وهو من مدحه ربه وأثنى عليه بقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم/٤].

كيف لا وهو النبى الحريص على أمته، الرءوف الرحيم بها، فما بالنا بأهل بيته رضى الله عنهم ؟

قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة/١٢٨].

وهكذا ينبغى أن يتعلم الأزواج الدرس من رسول الله ﷺ، فلا يضيق أحدنا بمشاعر زوجه وغيرتها، وإنما ينبغى أن يرد فى حنان وودّ ورفق وعذوبة كما فعل النبى ﷺ، حيث قال للسيدة عائشة - رضى الله عنها - :

« أغرت يا عائشة؟ ».

وكم كان الرفق والود من رسول الله ﷺ لزوجه عائشة علاجًا لكثير من المواقف، من ذلك قول النبى ﷺ يومًا لها :

« إنى أعلم إذا كنت عنى راضية وإذا كنت عنى غضبى ».

فقالت : كيف يا رسول الله ؟

قال ﷺ : « إذا كنت راضية قلت : لا ورب محمد، وإذا كنتِ غضبى قلت : لا ورب إبراهيم ».

فقالت رضى الله عنها : والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك(١).

وهكذا يسمو النبى بمشاعر الغيرة إلى عنان السماء بسماحته ورفقه ووده ﷺ فهو القائل :

---

(١) أخرجه أحمد (٦/٢١٣).

« خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[١].

والقائل : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٢].

الدرس الثانى هو : سرعة الرجوع إلى الصواب من السيدة عائشة حين عرفت الحقيقة التى تخالف ما جال فى خاطرها من غيرة، وهكذا شأن المؤمن. قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ [الأعراف/ ٢٠١].

ونجد هذا المعنى الإيمانى فى الموقف؛ حين وجدت السيدة عائشة - رضى الله عنها - رسول الله ﷺ قد ذهب إلى مقابر الشهداء يدعو ويستغفر لهم، قالت تلوم نفسها : « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ! أنت فى حاجة ربك وأنا فى حاجة الدنيا ».

الدرس الثالث هو : حسن الاعتذار. فالسيدة عائشة - رضى الله عنها - قدمت اعتذارًا حكيمًا لرسول الله ﷺ حين سألها : « أغرت يا عائشة؟ »، فقالت - رضى الله عنها - : وهل مثلى لا يغار على مثلك يا رسول الله ؟!

صلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت.

﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾ [الأحزاب/ ٣٣].

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه الترمذى (٣٨٩٥)، وابن ماجه (١٩٧٧).

(٢) سبق تخريجه.

١٦٣ - ما سلطان الدنيا نريد

عندما كانت معركة اليرموك دائرة بين المسلمين والروم في الشام وصلت رسالة من عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ﷺ بعزل خالد بن الوليد ﷺ عن قيادة الجيش وتولية أبي عبيدة بن الجراح ﷺ بدلاً منه.

ولكن أبا عبيدة بن الجراح أصر على عدم إبلاغ خالد بالأمر حتى تنتهي المعركة، وبالفعل انتصر المسلمون، وبعد ثلاثة أيام تقريبًا سلَّم أبو عبيدة الرسالة إلى خالد فتعجب منه قائلاً :

وما منعك من تسليمها لي حين وصلت ؟

قال أبو عبيدة ﷺ : والله يا خالد ما سلطان الدنيا نريد ولا للدنيا نعمل.

(*) رجال حول الرسول ، ص ٢٦٢.

هذه صورة إيمانية رائعة لأصحاب رسول الله ﷺ .

ما هذه النفوس العالية ؟!

وما هذا التحول الذى غيَّر أهل القَبليَّة والبداوة إلى هذا السمو وتلك الرفعة؟ إنه القرآن الكريم والنبى ذو الخلق العظيم ﷺ .

وهكذا يصنع القرآن بالنفوس والقلوب، وهكذا ربّى النبى ﷺ أتباعه.

إن الإمارة والقيادة رضاعها حُلو وفطامها مُر، وليس سهلاً أن يُنحَّى قائد ذكى متفوق له انتصاراته وحكمته فى القيادة، قائد لا تعرف الهزيمة طريقًا إليه، يُنحى هذا القائد الذى يتمتع بهذه المكانة، ويصبح واحداً من الجنود والأتباع بين الصفوف، يتلقى الأوامر بعد أن كان يُصدرها، ليس هينًا على النفس أن تستقبل الأمر كما استقبله سيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنه، لكن الإيمان يصنع بالنفوس المعجزات، فسيدنا خالد كانت قيادته لله، وكانت جنديته لله.

فالأمر فى الحالين لمرضاة الله تعالى؛ لذلك أخذ الرسالة دون اعتراض ولا تبرم ولا ضجر، ولكن ترك العبادة وكأنه يتسلم منصبًا أعلى، إنه الإخلاص.

وموقف سيدنا أبى عبيدة الجراح رضي الله عنه يُحلق بهذا المستوى الإيمانى الرائع، إنه لا يتعجل تَسلُّم القيادة، بل تمهل فى تؤدة حتى انتهت المعركة، ثم أقبل فى إيمان عظيم يسلم رسالة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيسأله خالد بن الوليد رضي الله عنه : لماذا لم تسلمها فور وصولها وأخرتها أيامًا ثلاثة.

فقال أبو عبيدة لخالد :

« ما سلطان الدنيا نريد، ولا للدنيا نعمل » .

هكذا كانت نفس أبى عبيدة التى تربت فى كنف الإسلام، وقلبه الذى كان مفعمًا بالإيمان؛ فلم يكن أبو عبيدة يسعى فى حياته لمصلحة شخصية أو رغبة نفسية ، ولذا حرص على عدم إفشاء خبر عزل خالد – فى حينه –

لحكمة بالغة هي المحافظة على وحدة الصف الإسلامي في مواجهة أعداء الإسلام، والمحافظة على خط سير المعركة، التي كانت تنتقل من نصر إلى نصر، وربما أوهن خبر العزل قلوب رجالٍ تعلقت حبًّا بقائدها.

ولو أن إنسانًا في مكان أبي عبيدة - وقد واتته هذه الفرصة - لأحب أن ينسب إليه هذا النصر، ويتم على يديه هذا الشرف، لكن أبا عبيدة لم يكن يحب أن يحمد بما لم يفعل فَلْيُنْهِ خالد النصر كما بدأه، فما أبو عبيدة بالذي يعمل للدنيا أو نيل حظوظها.

ولو أن إنسانًا في مكان أبي عبيدة، لطار بهذا النبأ فرحًا، وصولاً إلى مطامعه التي يحرص على بلوغها ورغبة في أن ينال هذا السلطان، فبريق الجاه قوي وحب الزعامة شهوة شديدة.

لكن أبا عبيدة كان يريد سلطانًا آخر هو سلطان الإسلام لا سلطان الدنيا ويسعى لتمكين دين الله بين الناس، وأن تشرق شمسه على العالمين. الله أكبر. ورضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ.

أما عن سيدنا عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فقد خشي على قلوب المؤمنين أن تربط النصر بوجود خالد، فإذا ما غاب اهتزت ثقتهم، وشيء خطير أن ترتبط الأمة بفرد، فأراد رضي الله عنه أن يؤكد لهم حقيقة إيمانية، وهي أن النصر للمؤمنين من عند الله سواء أكان خالد قائدًا أم كان جنديًا بين الصفوف.

كما تحمل هذه الرسالة دلالة مهمة، هي : أن الأمة ولأدة للقيادات لا يتوقف عطاؤها عند قائد واحد، وهذا يدفع الأمة إلى مواصلة رحلة الخير والجهاد في سبيل الله.

وأن الراية دائماً مرفوعة تنتقل من قمة إلى قمة، فهي في رقي دائم.

١٦٤ - سبقنى إلى أربع

جاء رجل ماكر إلى الإمام علىّ ﷺ فقال : يا على ما بال المهاجرين والأنصار قدَّموا أبا بكر وأنت أفضل منه منقبة ، وأقدم منه إسلامًا ، وأسبق سابقة ؟ !

وأدرك الإمام علىّ مكر الرجل ، فقال له : يا هذا إن أبا بكر سبقنى إلى أربع :

سبقنى إلى الإمامة ، والهجرة ، والغار ، وإفشاء السلام .

ويحك أيها الرجل ! ألم تر أن الله مدح أبا بكر فى قرآنه ، فقال الله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل / ٥-٧] .

﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر / ٣٣] .

فأين علىّ من أبى بكر ؟

(*) أهل البيت (على بن أبى طالب) ص ٥٩ .

هذا موقف عظيم من الإمام على - كرم الله وجهه - تتحطم على أعتابه نوازع النفس الأمارة بالسوء وتبطل النميمة فلا يكون لها أثر؛ بل ويسهم الإمام علىّ فى علاج هذا النمام، بهذا الحوار العقلى المقنع الذى يظهر فضل أبى بكر الصديق رضي الله عنه وأنه أحق بالمقدمة والخلافة والإمامة.

ولو أن أمتنا وعت هذه الحقيقة وهذا الدرس، ما كان بيننا من تفرق وتمزق.

جاء الرجل الماكر النمام، فى ثوب المتقربين المحبين الراغبين فى علو شأن الإمام علىّ رضي الله عنه، وأخذ يفاضل بين أبى بكر والإمام علىّ - رضى الله عنهما- بما يجعل نتيجة المفاضلة تقديم الإمام علىٍّ على الصدِّيق - رضى الله عنهما ، واستند فى ذلك إلى سبق الإمام علىّ إلى الإسلام.

ورضوان الله على صحابة رسول الله ﷺ فأخلاقهم من أخلاق حبيبهم رسول الله ﷺ تقوم على معرفة الفضل لأهله، وتقوم على الإيثار والمحبة والمودة والمحافظة على جماعة المسلمين، فالإمام علىّ رضي الله عنه ارتفع فوق حظوظ النفس البشرية وحبها للإمارة، وألزم نفسه للتواضع مع الحب والإيثار لأبى بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم بدأ يبين للرجل خطأ حجته، وهذه معالجة كريمة من الإمام علىّ رضي الله عنه.

حيث قال للرجل: إن أبا بكر سبقنى إلى أربع :

سبقنى إلى الإمامة، والهجرة ، والغار ، وإفشاء السلام.

ثم ردَّ الرجل إلى القرآن الكريم، وقال له : ألم تر أن الله مدح أبا بكر فى قرآنه ، فقال :

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل/٥-٧].

وقال الله تعالى :

﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر/٣٣].

وهكذا ينبغى أن تكون أخلاق من تجمعهم المنازل العالية فى الإدارة، أن يحب الواحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن يؤثروا إخوانهم على أنفسهم، لأن هذه الأخلاق تجمع الأمة على الألفة، فلا يكون بيننا حسد ولا قطيعة، فالحرص بين صحابة النبى ﷺ كان على مرضاة الله تعالى وليس على الإمارة أو المناصب، وذلك لأنهم اهتدوا بهدى الرسول ﷺ القائل :

« ستحرصون على الإمارة وإنها لخزى وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها »(١).

---

(١) سبق تخريجه.

١٦٥ - المرأة والعلم

قال عروة لعائشة : يا أمتاه : لا أعجب من فقهك ، أقول : زوجة رسول الله ﷺ ، ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول : ابنة أبى بكر الصديق الذى كان من أعلم الناس بأنساب العرب وشعرهم .

ولكن أعجب من علمك بالطب ، كيف هو ؟ ومن أين هو ؟

فقالت عائشة :

أى عُريَّة إن رسول الله ﷺ كان يَسقم عند آخر عمره فكانت تقدم وفود العرب من كل وجه فتنعت له الأنعات وكنت أعالجه .

(*) مسند أحمد (٦/٦).

هذا موقف يتصل بقضية من أهم قضايا المسلمين فى العصر الحاضر. ويأتى هذا الموقف ليكون حكمة وبرهانًا على مكانة المرأة فى الإسلام، ودورها فى العلم وفى الحياة العامة.

فالإسلام كرَّم المرأة بنتًا، وجعل تربية البنات طريقًا إلى الجنة، وكرَّم المرأة أمًّا، فجعل الجنة تحت أقدام الأمهات، وكرَّم المرأة زوجة، فجعل إكرامها ميزانًا لخيرية الرجل لقوله ﷺ :

« خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[١].

ولم يعزل الإسلام المرأة عن الحياة العامة والمشاركة فيها كما يزعم أعداء الإسلام، بل أتاح لها المشاركة فى الجهاد فى سبيل الله، وفى العلم، وفى الدعوة إلى الله تعالى، وفى الحياة العامة. وكل ذلك فى إطار طاعة ربها دون تفريط فى هدى من هدى دينها.

ونحن – فى هذا الموقف – أمام شخصية ثرية جداً.

إنها قمة من القمم النسائية التى انتفعت البشرية بعلمها ومواقفها، وحسبها أن الله تعالى أنزل فيها قرآنًا يتلى فى مواقف عديدة.

إنها أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

وعن دورها فى العلم كما يظهر من الموقف فإن السيدة عائشة – رضى الله عنها – كان لها علم بالحديث، فقد روت أكثر من ألفى حديث ذكر لها فى الصحيحين منها سبعة وتسعون ومائتا (٢٩٧) حديث.

وكان للسيدة عائشة – رضى الله عنها – علم بتفسير آيات القرآن الكريم، فمن ذلك سؤال عروة عائشة عن قوله تعالى :

---

(١) سبق تخريجه.

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة/١٥٨].

فأجابت : لأن النبى قد مشى بينهما، فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما أو أن يتحرج من ذلك.

وكان للسيدة عائشة - رضى الله عنها - مشاركة فى الحياة العامة، فقد طلبت - رضى الله عنها - من عمر بن الخطاب ﷺ وهو فى النزع الأخير أن يعين للأمة خليفة من بعده حتى لا تتفرق الأمة من بعده.

ثم يبين الموقف أن السيدة عائشة مع فقهها. وعلمها بأنساب العرب وشعرهم، تعلمت الطب، وسألها عروة عن مصدر هذا العلم.

فأجابت «بأنها استفادت من الأطباء الذين كانوا يأتون مع وفود العرب إلى رسول الله ﷺ فى أواخر عمره، وكان النبى ﷺ يصيبه المرض، فكانوا يصفون له بعض الأدوية، وكانت السيدة عائشة - رضى الله عنها - هى التى تقوم بتمريضه ومعالجته بهذه الأدوية، فتم لها هذا العلم.

١٦٦ - ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة

أثناء غزو المسلمين للقسطنطينية، أخرج الروم صفًا عظيمًا للمسلمين فخرج إليهم من المسلمين مثلهم، وحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس : يلقى بيديه إلى التهلكة !!

فقال أبو أيوب الأنصارى :

سبحان الله ! إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار، لما نصر الله نبيه وأعز دينه قلنا : نقيم فى أموالنا نصلحها وندع الجهاد . فأنزل الله قوله :

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة/١٩٥].

(*) راجع تفسير الطبرى (٣/٥٨٨)، والسمرقندى (١/١٩٠).

هذا موقف يصحح مفهومًا خاطئًا شاع بين كثير من المسلمين عن معنى قوله تعالى :

﴿ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة/١٩٥].

والمعنى كما أشار ابن عباس والجمهور : لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة بترك النفقة فى سبيل الله لخوفكم العيْلة.

ومن دلالات الموقف الهادية : عدم الاكتفاء بالدلالات اللغوية لألفاظ الآية فى تفسير معناها، إذ إن من الآيات ما يرتبط بمواقف وأسباب نزول، وبعضها قد يكون له وجه من المعنى عيّنه النبى ﷺ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون/٦٠ -٦١].

فقد تبادر إلى ذهن السيدة عائشة أنها نزلت فى العصاة الذين يخافون حساب الله وعقابه إذا صاروا إليه، فبين النبى ﷺ أنها فى المطيعين الذين يخشون ألا تقبل طاعتهم لنقص فيها.

وكقول الله تعالى :

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة/٨١].

فقد فهم بعض الصحابة أن الخطيئة هى أى ذنب، فبين لهم النبى ﷺ أن الخطيئة هنا هى الشرك بالله تعالى.

ومن دلالات الموقف أيضًا : التضحية والفداء، فهما وراء إنجاز البطولات العظيمة، التضحية بالنفس والمال وكل غالٍ نفيس.

كما رأينا – فى الموقف – هذا الجندى المسلم الذى قام بالاقتحام العجيب المدهش لصفوف الروم، وعلى هذه الروح يربى الإسلام أتباعه.

١٦٧ - دار فى بلد المذنبين

اشترى رجل داراً تحدث الناس عن حسنها وجمالها، ثم ذهب إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه ليكتب له عقد هذه الدار، فحاول الصحابة منعه، فأمرهم الإمام علىّ أن يتركوه، فكتب له عقداً قال فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم، فقد اشترى ميت من ميت داراً تقع فى بلد المذنبين وسكة الغافلين، والدار لها حدود أربعة، فأما حدها الأول : فالموت، وأما حدها الثانى : فالقبر، وأما حدها الثالث : فالحساب، وأما حدها الرابع : فإما إلى جنة وإما إلى نار.

(*) حلية الأولياء - ترجمة الإمام على.

هذا الموقف يعالج أموراً مهمة فى حياة المسلمين، ويدعو إلى قيمة إيمانية، وفقه من فقه الأولويات، وهو : أن المصالح الفردية ينبغى ألاَّ تُقدَّم على مصلحة الجماعة، فهذا أمير المؤمنين فى دار الحكم وفى مصالح الأمة، ويأتى إليه رجل ليطلب مصلحة شخصية.

إنه رجل قد سيطرت عليه شهوات نفسه، وتمكنت منه القيم الاستهلاكية، التى تعظّم من أمر المادة. فرأى الرجل أن شرفه وعزه ومجده فى دنيا الناس يتحقق بحيازة هذه الدار الكبيرة الواسعة التى يتحدث الناس عن حسنها وجمالها.

لقد رأى الإمام علىّ ﷺ أن الرجل قد تحول عن قيم الإيمان إلى القيم الاستهلاكية، وبدلاً من أن يعتز بإيمانه، وبدلاً من أن يعتز بالفضائل والمكارم ليوافق قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات/١٣]، جعل يُشغل بأمر الدنيا فى مجلس العلم والإيمان حتى صار من الغافلين، إنه يطلب من الإمام على ﷺ وهو المشغول بأمر الدولة وهموم الدولة وشئون المؤمنين – أن يوثق له وأن يكتب له عقد هذه الدار، وأحب الإمام على ﷺ أن يجعل من ذلك موعظة غالية تنتفع بها الأمة، فقال: اتركوه يأتى ، ثم دعا بالقلم ودعا بالحبر الذى يكتب به ودعا بما يكتب فيه من ورق أو رقاع أو جلد أو نحو ذلك. ومعلوم أن من يريد كتابة عقد عليه أن يسأل عن بيانات أساسية لهذا العقد؛ مثل : اسم المشترى، واسم البائع، وأن يسأل عن حدود القطعة، وأن يسأل عن ثمن القطعة وما إلى ذلك من معلومات أساسية؛ كى تكتمل بيانات العقد، لكن الإمام عليًا ﷺ دون أن يسأل عن شىء من دوافع وعناصر العقد أخذ يكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم، اشترى ميتٌ من ميتٍ داراً تقع فى بلد المذنبين وسكة الغافلين، والدار لها حدود أربعة، فأما حدها الأول: فالموت، وأما

حدها الثانى : فالقبر، وأما حدها الثالث؛ فالحساب، وأما حدها الرابع؛ فإما إلى جنة وإما إلى نار.

فقال الرجل : يا إمامنا ! تكتب لى عقد دارٍ أم عقد مقبرةٍ ؟

فقال له : يا هذا :

النفس تبكى على الدنيا وقد علمت	أن السلامة فيها ترك ما فيها
لا دار للمرء بعد الموت يسكنها	إلا التى كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه	وإن بناها بشر خاب بانيها
فاعمل لدارٍ غداً رضوان خازنها	والجار أحمد والرحمن ناشيها

وأود أن نتأمل نص هذا العقد الذى كتبه على رضي الله عنه :

قد اشترى ميتٌ من ميتٍ داراً، فى الحقيقة أنا أتحدث الآن وأنا حى ميت والمستمع حين يستمع إلىَّ الآن حى ميت، لكن الله تعالى وحده هو الحى الذى لا يموت، فمآلنا جميعًا إلى هذه النهاية، إلى الموت، فأحبَّ الإمام علىّ أن يوقظ الرجل من غفلته وأن يذكره بهذه النهاية التى سيصير إليها، فكتب : اشترى ميت من ميت داراً تقع فى بلد المذنبين، فالدنيا لا ينفك الإنسان فيها عن خسارة، وأقسم الله على هذه الحقيقة ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِى خُسْرٍ** ﴾ [العصر / ١-٢].

ولا سلامة من هذا الخسران إلا بالإيمان والعمل الصالح، لقوله عز وجل : ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ [العصر/٣]. اثم ذكره الإمام بالحدود الأربعة لهذه الدار من : الموت، والقبر، والحساب، والنهاية، التى تؤول إلى جنة أو نار، فاعترض الرجل حيث إنه لم ينتبه بعد فقال : أتكتب لى عقد دار أم عقد مقبرة ؟ ونصحه بأن الناس تؤول

إلى هذه النهاية، وأن السعيد والموفق هو الذى يعمل لغده، ويعمل لمستقبله، والمستقبل للمؤمن لا يتوقف عند حدود الدنيا فقط فى شقة أو سيارة أو رصيد من المال، إنما يمتد إلى الجنة، يمتد إلى ما عند الله من خير وبر، وهكذا تكون الموعظة، ورضى الله عن إمامنا ، ونفعنا الله بعمله والله الموفق.

١٦٨ - سبيل النصر

لما كان يوم بدر، وجاء الكفار فى غرور وزهو بعددهم وعدتهم، واستهانوا بأمر المسلمين لقلة عددهم وعدتهم وأجمعوا أمرهم على استئصال الإسلام ونبى الإسلام من الوجود.

وتضرع النبى ﷺ إلى ربه قائلاً :

«اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك، اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض».

فأنزل الله آيات ترسم طريق النصر للمؤمنين، قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال/٤٥ - ٤٦].

(*) السيرة النبوية (٢/ ٢١٠).

هذا الموقف يحتوى على خمسة توجيهات ربانية لأهل الإيمان إذا أرادوا أن يفوزوا بالنصر على أعدائهم، يقول الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

هذا نداء لأهل الإيمان الذين يرغبون فى النصر على أعدائهم.

التوجيه الأول : هو قوله تعالى : ﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ﴾، والثبات ينبغى أن يُفهم على حقيقته، وأمْرُ الله لنا بالثبات معناه أن تأخذ بأسباب هذا الثبات، والله سبحانه بيَّن لنا هذه الأسباب التى تجعلنا من أهل الثبات والصمود حين قال :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال/ ٦٠].

فالضعيف لا ثبات له أمام القوى، والجاهل لا ثبات له أمام العلم، والفقير لا ثبات له أمام القوة الاقتصادية المتكاتفة؛ فنيبغى أن يفهم أهل الإيمان الثبات المطلوب منهم على وجهه الصحيح، وهو أن يأخذوا بأسباب الثبات؛ حتى يتمكنوا من الثبات أمام عدوهم.

أما التوجيه الثانى فهو قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة/ ١٠].

عرفت الأمة فى أوقاتها المعاصرة الذكر اللسانى القولى؛ أن الواحد يجلس ويقول مائة مرة، أو ألف مرة : سبحان الله، والحمد لله ، والله أكبر، ونحو ذلك، وهذا طيب، وهذا مطلوب، ولكن ينبغى أن يفهم المؤمن أن ذكر الله لا يقتصر عند حد الذكر اللسانى القولى، وقد بينت كتب التفسير وكتب اللغة أن القرآن

الكريم أرشد إلى دلالات كثيرة من معنى ذكر الله تعالى، من بينها الذكر العلمى بإحياء هدى القرآن الكريم ، وإحياء سنة رسول الله ﷺ ؛ فحين تكتمل فينا الأسوة والقدوة سنكون من أهل الذكر الحقيقى، مثلاً فى العمل حينما تتكلم عن معايير الجودة فى الإسلام؛ فهذا لون من ألوان الذكر العلمى. وحين نعرف معنى الإتقان فى العمل؛ فهذا لون من ألوان الذكر العلمى أيضًا. أن يكون لنا الإسهام فى الاكتشاف العلمى والمصالحة مع كون الله تعالى الذى وصلنا الله به؛ فإن التخلف العلمى جريمة فى حق الإسلام والمسلمين فى حياتنا المعاصرة، فالذكر العملى يمتد إلى هذه الشئون كلها.

التوجيه الثالث : يقول ربنا مبينًا أسباب التماسك وعدم الانهيار أمام الشدائد والمحن : ﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا** ﴾.

إذا أحبت الأمة أن تجتمع إلى شيء يجمع شملها ويوحد أمرها، فهو القرآن الكريم وسنة رسوله ﷺ، وأن تبتعد الأمة عن التنازع فكفانا فرقة، كفانا تمزقًا وتشتيتًا، إن أهل الباطل أصطلحوا واجتمعوا على باطلهم، فأولى بأهل الحق أن يتحدوا لحماية حقهم وصيانته.

التوجيه الرابع هو قوله تعالى :

﴿ **وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا** ﴾ أى : تضعفوا ﴿ **وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ** ﴾ أى : قوتكم.

التوجيه الخامس قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ والصبر هنا ليس كما يفهم البعض أنه شيء سلبى كالاستسلام ونحو ذلك، إنما الصبر قوة فى التحمل لإنجاز طموحات وآمال الأمة، هكذا يوجهنا الله تبارك وتعالى إلى أسباب النصر؛ كى يتأتى للأمة أن تكون فى المقدمة.

إن المحن البشعة التى تصيب الأمم يتخذ منها العقلاء دافعًا للتصحيح، وينبغى للأمة أن تهتدى بهدى القرآن الكريم، وأن تعمل بأسباب النصر التى

أمر الله سبحانه وتعالى بها؛ فالقرآن موجود، ورب القرآن موجود، والسنة موجودة، والذى غاب عن منظومة التفوق ومنظومة التقدم هو الإنسان القرآنى الذى يعمل بالقرآن، ويتخلق بالقرآن، ويتأدب بالقرآن، ويتأسى بنبى القرآن، هذا وبالله التوفيق.

١٦٩ - الكيف قبل الكم

جلس عمر بن الخطاب ﷺ يومًا مع أصحابه فقال لهم : تمنوا.

فقال أحدهم :

أتمنى ملء هذه الدار فضة أنفقها في سبيل الله.

وقال الآخر :

أتمنى ملء هذا الدار ذهبًا أنفقه في سبيل الله.

وقال عمر :

أتمنى ملء هذه الدار رجالاً مثل أبي عبيدة ابن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبي حذيفة أستعملهم في سبيل الله.

(*) رجال حول الرسول، ص ٢٦٤.

هذا الموقف يؤكد حقيقة إيمانية حضارية تشتد إليها الحاجة فى ظروف أمتنا المعاصرة، وهى أن حاجة الأمة إلى بناء الرجال مقدم على حاجتها المادية من مال ونحو ذلك.

فقد تمتلك الأمة الثروات المادية لكنها لا تمتلك حضارة ولا تقدمًا ولا تسيداً للعالم، إن نوعية الرجال هى التى تنجز الحضارة وتبنى الأمة وتجعل لها المقدمة بين الأمم.

لذلك رأينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يتمنى كما تمنى الآخرون ذهبًا أو فضة ينفقها على فقراء المسلمين، ولكن تمنى رجالاً لا ككل الرجال، وإنما من صفوة الرجال كأبى عبيدة بن الجراح أمين الأمة، ومعاذ بن جبل سفير النبى ﷺ ونحوهما.

وهذا درس قيم نتعلمه من هذا الموقف، هو أن نقدم الكيف على الكم.

لقد ذَمَّ القرآن الكريم الأكثرية إذا كان أصحابها لا يعقلون، أو كانوا جهلة لا يعلمون أو كانوا من الجاحدين الذين لا يشكرون فضل ربهم، من ذلك قوله تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت/٦٣].

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر/٥٧].

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة/٢٤٣].

فى مقابل مدح الله القلة إذا كانت صالحة عاقلة، يقول الله تعالى :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [ص/٢٤].

وفى هذا الإطار ينبغى أن نفهم أن الإسلام يعتنى ويعظم شأن النوعية والكيفية ويقدمها على الأكثرية.

ومن هذا المنطلق نفهم الحديث النبوى : « تناكحوا تناسلوا تكاثروا فإنى

مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة»[١].

فالرسول ﷺ لن يباهى الأمم بالجهلة ولا بالفسقة وإنما يباهى بالعاملين النافعين.

وفى تاريخ الأمة – من الأحداث والوقائع – ما يؤكد حقيقة أن الفئة القليلة – حين تصح توعيتها ويعتنى فيها بالكيف – تتفوق وتتقدم وتسيطر على الكثرة الكثيرة التى لا علم لها ولا عمل، قال الله تعالى :

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة/٢٤٩].

ولقد نصر الله الفئة المؤمنة الصادقة فى بدر، وكاد المؤمنون يخسرون المعركة فى حنين – حين نظروا إلى الكم وقدموه على الكيف وغرتهم الكثرة وأصابهم غرور الكثرة، قال الله تعالى :

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ﴾ [التوبة/٢٥].

وهكذا كان فهم الصحابة يقدمون الكيف على الكم: بعث عمر بن الخطاب عمرو بن العاص –رضى الله عنهما– لفتح مصر، ثم طلب ابن العاص من ابن الخطاب مدداً، فأمده بأربعة آلاف ومعهم أربعة، قال عنهم : الواحد منهم بألف، فالعبرة بنوع الرجال وقدراتهم ومواهبهم لا بأعدادهم أو أحجامهم.

وروى عن عمر رضي الله عنه أنه جلس يومًا مع بعض الصحابة فى دار واسعة فقال لهم: تمنوا. فقال أحدهم: أتمنى أن يكون لى ملء هذه الدار دراهم من فضة أنفقها فى سبيل الله، وتمنى آخر أن يكون له ملؤها ذهبًا ينفقه فى سبيل الله. أما عمر فقال: أتمنى ملء هذه الدار رجالاً مثل أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة أستعملهم فى سبيل الله. والحديث النبوى

(١) تفسير القرطبى (٥/٣٩١).

الشريف يؤكد هذا المعنى، قال رسول الله ﷺ :

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها » .

قالوا : أومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟

قال ﷺ : « بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن » .

قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟

قال : « حب الدنيا وكراهية الموت »(١) .

وفى عصرنا كثر عدد المسلمين فى العالم حتى جاوز المليار وربع المليار من البشر؛ ولكن حالهم كما نرى .

إذًا المهم هو النوعية والكيف .

وأيضًا فى مجال العمل يربى فينا الإسلام الإتقان والاهتمام بالنوعية، قال رسول الله ﷺ : « إن الله كتب الإحسان على كل شىء »(٢) . فى الأعمال والعبادات يطالبنا الله بالنظر إلى النوعية، فرب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر، وقال النبى ﷺ : « ركعتان بتدبر وتفكر فى جوف الليل خير من قيام الليل بلا تدبر ولا تفكر »(٣) .

وفى العلم واستذكاره لا يترك الإنسان مسألة ويُشغل بغيرها إلا بعد إتقان الأولى فهمًا ومعرفة؛ حتى يتنامى العلم بدقة دون تشويش أو تضليل .

وهكذا لو فقه المسلم هذه القاعدة الإيمانية القرآنية؛ لتحقق له التميز والتفوق – فى عصر العولمة – فى إنتاجه وعمله، والنبى ﷺ يقول :

(١) سبق تخريجه . (٢) أخرجه مسلم (٣/١٥٤٨) .
(٣) راجع كنز العمال (٢١٤٢٦) .

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف »[١].

وقال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة / ١١].

وقال ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى »[٢].

ولما رأى الرجل جالسًا فى المسجد وقد انقطع للصلاة والصيام وليس له عمل سأل عمن يطعمه ويسقيه وينفق عليه ، فقالوا : أخوه ينفق عليه . فقال النبى ﷺ : « أخوه خير منه »[٣].

وقد سُئل ﷺ عن أطيب الكسب فقال : « عمل الرجل بيده، وكل بيع مبرور »[٤].

---

(١) ، (٢) سبق تخريجه.
(٣) الطبرانى فى الكبير والأوسط، ورجاله ثقات قاله الهيثمى فى المجمع (٤ / ٦١).
(٤) رواه أحمد ٤ / ١٤١.

١٧٠ - ولكن أوهمتها

خرج البخارى رحمه الله تعالى يطلب الحديث من رجل، فرآه قد هربت فرسه، والرجل يشير إليها برداء كأن فيه شعيراً، فجاءته فأخذها.

فقال البخارى :

أكان معك شعير ؟

فقال الرجل :

لا. ولكنى أوهمتها.

فقال البخارى:

لا آخذ الحديث ممن يكذب على البهائم.

(*) السمير المهذب (٤ / ٦١).

هذا موقف يظهر أهمية الأسوة والقدوة وبخاصة فى فضيلة الصدق. لقد رفض البخارى أن يأخذ الحديث ممن أوهم فرسه بأن معه شعيراً كى تأتى إليه. وفى هذا غاية التحرى والحرص فى أخذ حديث رسول الله ﷺ، وهذه دقة فى الأمانة العلمية التى أرسى قواعدها الإسلام الحنيف، ولقد ذم الإسلام خيانة الأمانة العلمية فجعلها جريمة يحاسب الله عليها، وجعلها من صفات النفاق، قال النبى ﷺ : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(١).

والصدق فضيلة أمرنا القرآن بها، قال الله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة/١١٩].

وبين النبى ﷺ ثمرات الصدق وفوائده :

الأولى : هى أن الصدق باب الجنة، قال النبى ﷺ :

«عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»(٢).

الثانية : ما أخبرنا به النبى ﷺ أن الصدق يورث راحة الضمير والقلب، قال النبى ﷺ : «الصدق طمأنينة والكذب ريبة»(٣).

الثالثة : الصدق طريق إلى البركة فى الكسب وزيادة الخير، قال النبى ﷺ :

«البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما»(٤).

---

(١)، (٢) سبق تخريجه. (٣) راجع إتحاف السادة المتقين (١٠/ ٨٥).
(٤) البخارى (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

الرابعة : الصدق فى النية يحقق للإنسان غايته وطموحه، قال النبى ﷺ :

« من صدق الله نجا »(١) .

وقال ﷺ : « من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه »(٢) .

الخامسة : الصدق باب للنجاة من الهلكة، قال النبى ﷺ :

« تحروا الصدق وإن رأيتم أن فيه الهلكة »(٣) .

---

(١) راجع كنز العمال (٤٣٥٧٦). (٢) مسلم فى الإمارة (١٥٧).
(٣) إتحاف السادة المتقين للزبيدى (١٠/٧١)، كنز العمال للمتقى الهندى (٦٨٥٥، ٦٨٥٦)

١٧١ - الله أرحم بعباده

رأى رسـول الله ﷺ امرأة تضـم طفلهـا إلى صـدرها فى حنان بالغ وحب عـميق، فالتفت ﷺ إلى أصحابه ، وقال لهم :

«أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار ؟».

قالوا : لا والله يا رسول الله.

فـقـال الـنبى ﷺ : «واللهِ ، للهُ أرحـم بعـبـاده من هذه المرأة بولدها».

(*) أخرجه البخارى (٩١٨)، ومسلم فى التوبة (٢٢).

الله تبارك وتعالى له الأسماء الحسنى والصفات العليا . . إنه كمالات فى كمالات لا يعلم قدرها إلا هو سبحانه.

ويبين الموقف سعة رحمة الله بعباده، فالله أرحم بعباده من رحمة الأم بولدها.

وفى القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة بيان لمظاهر هذه الرحمة بالعباد. من ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر/٥٣].

وقال رسول الله ﷺ : «يُدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع كنفه عليه، فيقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول: ربِّ أعرف، فيقول الله عزّ وجلّ : فإنى سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته»(١).

كل هذا يحمل الإنسان على الحياء من الله والمسارعة بالتوبة لينال هذه الرحمة.

قال تعالى : **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾** [الأعراف/١٥٦].

فمعنى هذا أن رحمة الله تسع جميع التائبين مهما كانت ذنوبهم، حتى لو كانت مثل زبد البحر، وليس الأمر كما يفهمه بعض العامة من التعلل بأن رحمة الله وسعت كل شيء فيتمادى الواحد فى المعصية والإثم.

ولا تقف رحمة الله عزّ وجلّ عند مغفرة الذنوب، بل تمتد لتشمل كل

(١) أخرجه البخارى (٨/ ٢٤، ٩/ ١٨١)، ومسلم فى التوبة (٥٢).

نواحى الحياة وشئون الإنسان، فما بين الزوجين من مودة وسكينة ومشاعر حانية هو رحمة الله عزّ وجلّ ، قال الله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر/٥٣].

ومن رحمة الله تعالى أيضًا عطف الكبير على الصغير ورأفة الولد بولده والأم بولدها، ليس فى الإنسان فقط بل فى الحيوان أيضًا، وفى الحديث : عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ قال :

«إن لله مئة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الإنس، والجن، والوحش، والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على أولادها، وأَخَّرَ لنفسه تسعة وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة»(١).

وهكذا من يتتبع كل شأن للإنسان فى دين الله تعالى يجد فيه وجهًا من وجوه رحمة الله تعالى.

وكل من ينظر ويتأمل فى كون الله تعالى يجد من مظاهر رحمة الله تعالى ما يعجز الإنسان عن حصره.

أما أن يضع العبد نفسه فى موضع الحرمان، فهذه هى الخسارة بعينها. كما ينبغى للعبد أن يكون رحيمًا مع عباد الله؛ كى ينال رحمة الله، قال النبى ﷺ : «الراحمون يرحمهم الرحمن»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم فى التوبة (١٩، ٢٠).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود (٤٩٤١).

١٧٢ - تواضع ومصارحة

ذهب سيدنا بلال بن رباح ﷺ مع أخيه لخطبة فتاة، فتقدم بلال لأبيها قائلاً له :

أنا بلال وهذا أخى، عبدان من الحبشة. كنا ضالَّين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله.

إن تزوجونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فالله أكبر.

(*) رجال حول الرسول، ص ١٠٤.

هذا موقف إيمانى يفيض بالعظات النافعة والعبر الهادية :

الدرس الأول : أن سيدنا بلالاً ﷺ يقدم بيانًا شافيًا عن سيرته الذاتية وعن أخيه أيضًا، يضعها بين يدى ولى أمر الفتاة التى يرغب أخوه فى خطبتها.

إنها الأمانة فى بيان الحقائق دون إخفاء أو تنكر لبعض أحوال الماضى أو انسلاخ منها، وإن ظن البعض أنها تنال من أقدارهما عند الناس، كالعبودية وما يرتبط بها من مذلة وهوان. ويظهر هذا من قولة بلال :

أنا بلال وهذا أخى، عبدان من الحبشة،كنا ضالين فهدانا الله، وكنا عبدين فأعتقنا الله.

وفى هذا درس قيم للشباب أن يكونوا أمناء صادقين، حين يتقدمون لخطبة فتاة يرغبون فى الزواج بها، وثمرة ذلك أن الصدق والأمانة فى تقديم السيرة الذاتية عن الخاطب يصل بنا إلى نتائج حقيقية صالحة بعيداً عن المفاجآت المفزعة التى يتسبب فيها الكذب والتمويه، وذكر ما ليس فينا من صفات وأحوال.

والدرس الثانى : عدم الإلحاح من الخاطب، وإعطاء ولى أمر الفتاة فرصة الاختيار دون حرج، ويظهر هذا من قول سيدنا بلال ﷺ : إن تزوجونا فالحمد لله، وإن تمنعونا فالله أكبر.

وفى هذا درس قيم يدعونا إلى عدم ممارسة الضغوط الأدبية والإلحاح الحاد على ولى أمر الفتاة كى تُنتزع منه الموافقة.

والدرس الثالث : هو روح الأسرة المسلمة، وهذا التماسك وهذا الخلق الحسن الذى يشملها، فسيدنا بلال يصحب أخاه إلى ولى أمر الفتاةكى يشد من أزره.

وفى هذا تأمين للعلاقات الاجتماعية التى تقوم على الود والمحبة والاحترام للآخرين ، وحفظها وحمايتها من وساوس الشيطان ونزغاته .

ونظرة إلى المؤهلات التى تقدم بها بلال وأخوه لخطبة الفتاة، نجد أنها بمعيار القيم المادية الاستهلاكية، التى يرتفع فيها ميزان الجاه والمال، تعتبر مؤهلات ضعيفة لا ترقى للفوز بخطبة الفتاة فى حياة قبلية تقوم على التفاخر والتباهى بالنسب والجاه والمال، لكن هذه المؤهلات بمعيار القيم الإيمانية من التقوى والصلاح والصدق والأمانة ترقى للفوز بخطبة الفتاة.

وفى الحديث النبوى الشريف :

«إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير»[١] .

---

(١) سبق تخريجه .

١٧٣ - عففت فعفوا

بينما كان أحد الجنود المسلمين عائداً من الجهاد فى بلاد فارس وجد فى طريقه كيساً مملوءاً بالذهب والفضة والمجوهرات، فطواه فى ثوبه، وذهب به إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأعطاه إياه، فلما سأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه قائلاً:

ما حملك على تسليمه لنا وكان فى وسعك أن تأخذه دون أن يراك أحد؟

رد عليه الجندى المسلم فى أدب قائلاً :

إن كان لا يرانى أحد من الناس فالله يرانى.

ولما أراد عمر رضي الله عنه أن يكافئه قال :

«يا أمير المؤمنين! إنما فعلت ذلك لمرضاة الله تعالى»(*).

فقال أحد جلساء : أمير المؤمنين، عففت فعفوا ولو رَتَعْت لرتعوا.

(*) راجع الإصابة، ترجمة (عمر بن الخطاب).

فى هذا الموقف أسوة وقدوة لقيم إيمانية عظيمة.

أى رجال هؤلاء ؟!

إنهم صحابة رسول الله ﷺ، تربوا على سنته، وعلى هدى الوحى المبارك. ما زاغت منهم الأبصار إلى بريق مال أو شهرة، ولكنهم تطلعوا إلى المنازل العالية فى مرضاة الله تعالى.

وهذا جندى من بين آلاف الجنود المؤمنة وجد فى طريقه كيسًا مملوءًا بالذهب والمجوهرات النادرة، فطواه فى ثوبه، دون انبهار ببريق الذهب، وأسرع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأعطاه الكيس.

إنها يقظة الضمير والإيمان بأن الله رقيب لا يغيب، وأن مرضاة الله تعالى بالتزام الأمانة أعلى وأغلى من بريق الذهب والمجوهرات، وأن الآخرة خير من الأولى. وأن ما عند الله خير وأبقى.

تظهر كل هذه المعانى من إجابة الجندى الأمين، حين سأله سيدنا عمر رضي الله عنه:

ما حملك على تسليم الذهب لنا، وكان فى وسعك أن تأخذه دون أن يراك أحد ؟!

فقال الجندى :

حسبى أن الله يرانى. نعم حسبه وكفاه أن الله يراه، فليصنع ما يرضى الله تعالى.

ثم لما أراد عمر رضي الله عنه أن يكافئه، رفض لأنه فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله تعالى.

إنه يخشى أن تنقص مكافأة الذهب من أجره عند الله. فآثر المنازل العليا

فى مرضاة الله على الذهب والمجوهرات.

ثم يأتى فى ختام الموقف هذا الدرس القيم فى أهمية القدوة الطيبة من القيادة، فإن الأتباع يسيرون على هدى فعله قبل قوله.

يظهر هذا من قول أحد جلساء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه معقبًا على حسن صنيع الجندى الأمين :

يا أمير المؤمنين عففت فعَفُّوا ، ولو رتعت لرتعوا.

١٧٤ - فاختار لابنته العلم

تقدم شابان لسعيد بن المسيِّب (سيد التابعين)، كل منهما يرغب في الزواج بابنته.

وكان الشاب الأول من أسرة غنية لها مكانتها في المجتمع، وكان الشاب الثاني طالب علم في حلقة سعيد ابن المسيِّب، فاختار لابنته طالب العلم، وسأله :

ما معك من مال ؟

قال :

دراهم قليلة.

فقبلها منه وزوجه بها !

(*) صور من حياة التابعين، ص ٢٠١.

هذا موقف تشتد إليه الحاجة فى حياتنا المعاصرة، التى شاع فيها المغالاة فى المهور، وارتباط معايير الاختيار فى الزواج بالقيم المادية الاستهلاكية.

وأولى هدايات الموقف، هى: تأكيد أساس الدين والخلق فى اختيار الزوج، فرأينا فى الموقف سيدنا سعيد بن المسيب يفضل قيمة العلم على قيمة المال، فاختار لابنته طالب العلم الذى تأدب بأخلاق القرآن والسنة، وهذا موافق لهدى النبى ﷺ، فهو القائل: «إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير»(١).

وما من شك فى أن معيار العلم والدين والخلق، يحقق طيب العشرة وكريم المعاملة، فى حين أن معيار المادة من المال والغنى أو الجمال والجاه إذا خلا من الخلق والدين أضر بصاحبه.

والهداية الثانية هى : التيسير فى أمر الزواج، وعدم المغالاة فى المهر، وقد رأينا فى الموقف أن سعيد بن المسيب زوّج ابنته طالب علم بما معه من دراهم قليلة.

ونجد - فى هذا المجال - أن رسول الله ﷺ قد زوج فاطمة - رضى الله عنها- بسيدنا علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه على درع الإمام علىّ رضي الله عنه، التى كان يستخدمها فى الحرب.

والمهر هنا مسألة رمزية، واليسر فيه مطلوب لتيسير الحال، أما ما يتباهى به الناس اليوم من شئون مادية ترهق الناس من أمرهم عسراً، فليس هذا من الدين فى شىء.

---

(١) سبق تخريجه.

١٧٥ - يحسن الثناء على الله تعالى

مـرَّ النبـى ﷺ على أعـرابى وهـو يدعـو فى صـلاته ويقول :

يا من لا تراه العيـون ، ولا تخالطه الظنون ، ولا يصـفه الواصفون ، ولا تغيره الحوادث ، ولا يخشى الدوائر ، يعلم مثاقيل الجبال ، ومكاييل البحار ، وعدد قطر الأمطار ، وعدد ورق الأشجار ، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار ، وما توارى سماء من سماء ، ولا أرض أرضًا ، ولا بحر ما فى قعره ، ولا جبل ما فى وعره ، اجعل خير عمرى آخره ، وخير عملى خواتمه ، وخير أيامى يوم أن ألقاك فيه .

فدعاه النبى ﷺ وأهداه شيئًا من الذهب ، لحُسن ثنائه على الله تعالى .

(*) رواه الحاكم فى المستدرك .

في هذا الموقف النبوى عظات غالية وعبر هادية :

الأولى هى : تقدير النبى ﷺ لحسن التعبير اللغوى، وروعة الأدب العالى من الرجل، وأن هذا الأدب الرفيع فى التعبير جاء عن أعظم الحقائق وأعلاها إذ كان ثناء على الله تبارك وتعالى.

وفى هذا بيان ودعوة لتقدير المواهب الأدبية على اختلاف ألوانها، وتشجيع ارتباط هذه المواهب بالفضائل الكريمة والحقائق النافعة بالمكافآت المجزية.

إن الأدب الرفيع يخاطب المشاعر ويؤثر فيها كما يخاطب العقل ويؤثر فيه. فهو سلاح مهم له أثره فى الناس فى أخلاقهم وسلوكهم، وارتباط الأدب بالأخلاق يعود على المجتمع بالخير. ويكون دعمًا للفضيلة فى المجتمع، فى حين أن سقوط الأدب فى مستنقع الرذائل والغرائز والأهواء يكون تدميراً للمجتمع وعدوانًا على الفضائل والأخلاق.

كما أن الموقف يشير إلى الاهتمام باللغة العربية، فهى لغة القرآن الكريم، وإتقانها وإحسانها إتقان وإحسان لفهم القرآن الكريم، وأيضًا فإن فى الاهتمام باللغة العربية ربطًا للأمة بقرآن ربها وسنة نبيها ﷺ.

الثانية هى : أدب الدعاء، فمن أدب الدعاء أن يقدم الإنسان لدعائه بالثناء على الله تعالى، وقد أثنى الرجل ثناءً كريمًا على الله تعالى، وجعل دعاءه فى ختام هذا الثناء، حيث قال الرجل : يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون ، ولا يصفه الواصفون ، ولا تغيره الحوادث، ولا يخشى الدوائر، يعلم مثاقيل الجبال، ومكاييل البحار، وعدد قطر الأمطار، وعدد ورق الأشجار، وعدد ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار، وما توارى سماء من سماء، ولا أرض أرضًا، ولا بحر ما فى قعره، ولا جبل ما فى وعره.

وهذا موافق لهدى السنة النبوية، فعن فُضالة بن عُبيد رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ قاعداً إذا دخل رجل فصلى ثم قال: اللهم اغفر لى وارحمنى، فقال له رسول الله ﷺ:

«عجلت أيها المصلى، إذا صليت فقعدت فاحمد الله عز وجل بما هو أهله، ثم صل علىَّ، ثم ادعه»، ثم صلى آخر فحمد الله وصلى على النبى ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: «سل تُعط»[1].

وأوصى النبى ﷺ فى السنة الشريفة باستفتاح الدعاء بالثناء على الله تعالى ويا حبذا لو كان بشىء من أسماء الله الحسنى أو بها كلها.

ومن فقه الدعاء أيضًا أن يدعو بالدعاء الجامع، وأن يقدم أمر الآخرة على أمر الدنيا، وهذا ما فعله الرجل بقوله فى الدعاء: اجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه، وخير أيامى يوم أن ألقاك فيه.

(١) أخرجه أحمد (١/٢٦)، والحاكم (١/٥٢٣).

١٧٦ - من سماحة الإسلام

بينما كان معاوية بن الحكم السُلمى رضي الله عنه يصلى مع رسول الله ﷺ عطس رجل من القوم فقال له : يرحمك الله، فرماه القوم بأبصارهم، فقال :

ما شأنكم تنظرون إلىّ ؟

فجعلوا يضربوا بأيديهم على أفخاذهم.

فلما صلى رسول الله ﷺ، فوالله ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرنى (زجرنى) ولا ضربنى ولا شتمنى، وإنما قال لى :

«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هى التسبيح والتكبير وقراءة القرآن».

(*) سبق تخريجه.

هذا الموقف من صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ﷺ يمثل صورة واضحة من صور سماحة الإسلام ويُسْره، وسماحة نبيه ﷺ ورفقه وحكمته.

وتشهد نصوص القرآن الكريم بهذه الحقيقة، وهي سماحة الإسلام ودعوته إلى اليسر ودفع الحرج، من ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج/٧٨].

وقوله تعالى في سياق بيان فريضة من فرائض الإسلام، وهي الصيام :

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة/١٨٥].

وقوله تعالى في سياق فريضة أخرى وهي الوضوء :

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة/٦].

واليسر والرفق والسماحة من هدى النبي ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ : «إن هذا الدين يسر ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه»[(١)].

وقوله ﷺ : «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»[(٢)].

وقوله ﷺ : «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[(٣)].

وكان شأن الرسول ﷺ اختيار الأيسر، قالت عائشة رضي الله عنها : ما خُيِّر النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه[(٣)].

وقوله ﷺ : «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[(٤)].

وقد بين الله تعالى في القرآن حرص رسول الله ﷺ أن تأخذ أمته باليسر ولا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (١/١٦).

(٣) أخرجه البخاري (١/٦٥، ٨/٣٥).

(٤) سبق تخريجه.

تقع فى مشقة، قال الله تعالى :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/١٢٨].

كما يظهر من الموقف حكمة رسول الله ﷺ فى التربية بالرفق واللين وعدم مقابلة المخالفة بالعقاب لمن كان مبتدئًا فى حجر التربية. إنه ﷺ يعلمنا كيف نعالج ونصلح ونغير عن طريق الموعظة والرفق واليسر. ويظهر هذا فى قول النبى ﷺ للرجل الذى تكلم فى صلاته وقال لمن عطس: يرحمك الله. قال له النبى ﷺ فى هدوء ودون تعنيف : «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شىء من كلام الناس، إنما هى التسبيح والتكبير وقراءة القرآن».

كما يظهر لنا من الموقف أثر الرفق فى الإصلاح، حيث وقعت الموعظة النبوية فى قلب الرجل، وانتفع بها، وقال شاكرًا :

ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرنى (أى : ما عنفنى) ولا ضربنى ولا شتمنى.

وفى هذا درس للدعاة والمصلحين وأهل التربية أن يأخذوا الناس بالرفق واللين والرحمة، تأسيًا بهدى النبى ﷺ كى يرغبوا الناس فى فضائل الدين وهديه.

إن من أخطأ يحتاج إلى الإعانة لا إلى الإدانة.

١٧٧ - اللهم لا تردَّنى

لما كان يوم أُحد، قال رسول الله ﷺ :

«قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين».

فقام عمرو بن الجَمُوح ، وهو أعرج، فقال :

يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت فى سبيل الله حتى قُتلت، هل أمشى برجلى العرجاء صحيحة فى الجنة ؟

فقال رسول الله ﷺ : «نعم».

فاستشهد يوم أحد.

فمرَّ عليه رسول الله ﷺ فقال :

«كأنى أنظر إليه يمشى برجله هذه صحيحة فى الجنة».

(*) أخرجه مسلم فى الجهاد (١٣/٤٥، ٤٦).

هذا موقف بطولى عظيم، لصحابى جليل لم تمنعه رجله العرجاء من المشاركة فى الجهاد فى سبيل الله عز وجل. لقد منعه بنوه يوم بدر، ثم أراد بنوه أن يمنعوه يوم أحد، وقالوا له : عذرك الله، فقال لهم : منعتمونى الجنة يوم بدر وتريدون منعى اليوم، فقال لهم النبى ﷺ : « لا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة ». فخرج وقد حمل سلاحه وهو يدعو ربه قائلاً : اللهم لا تردنى، اللهم ارزقنى الشهادة.

وحقق الله له منزلة الشهادة، وقال ﷺ : « كأنى أنظر إليه يمشى برجله العرجاء صحيحة فى الجنة ».

بمثل هذه الهمم العالية تقوم قائمة الأمم، ويمثل هذه التضحيات الغالية يكون للأمم حرمتها.

وقد تعجب الدنيا كلها من أناس يقدمون أرواحهم فى سبيل الله. لكنهم لو علموا ما أعده الله للشهيد لزال عجبهم، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن للشهيد عند الله سَبْعَ خصال :

١ - أن يغفر الله له فى أول دفعةٍ من دمه.

٢ - ويرى مقعده من الجنة.

٣ - ويُحلى حُلة الإيمان.

٤ - ويُجار من عذاب القبر.

٥ - ويأمن من الفزع الأكبر.

٦ - ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها.

٧ - وزوج ثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع فى سبعين إنسانًا من أقاربه[١] .

كما أخبرت السنة النبوية المطهرة أن الشهيد لا يجد ألم القتل، قال ﷺ : « ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مس القرصة »[٢] .

كما أخبرت السنة المطهرة : أنه ما من أحد يدخل الجنة فيتمنى أن يرجع إلى الدنيا إلا الشهيد، عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال :

« ما من أحد يدخل الجنة يُحب أن يرجع إلى الدنيا وإن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة »[٣] .

وحسبنا ما أثنى الله به على الشهداء، قال الله تعالى :

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران/ ١٧٠] .

اللهم بلغنا الشهادة .

---

(١) رواه الترمذى ، راجع الترغيب والترهيب (٢ / ٣٢) .
(٢) رواه الترمذى (١٦٦٨)، وأحمد (٢ /٢٩٧) .
(٣) رواه مسلم فى الإمارة (١٠٩)

١٧٨ - اللهم احشرني مع صاحب النقب

اعترض المسلمين فى فتح دمشق حصنٌ منيع، فحاصره مسلمة بن عبد الله، وكان بالحصن نقب أراد المسلمون الدخول منه فلم يستطيعوا، لأنه كلما اقترب أحد من نقب الحصن (فتحة الحصن)، انهالت عليه السهام فيرجع.

ثم جاءت المفاجأة؛ واندفع إلى الحصن فارس نحيل، استطاع أن يفتح باب الحصن، ودخل المسلمون خلفه، وبعد فتح الحصن وانتهاء المعركة أراد القائد مسلمة بن عبد الله أن يعرف من هذا الفارس النحيل.

فنادى ، فلم يخرج أحدٌ، ثم خرج جندى ليعلن أنه يعرف الفارس، لكنه اشترط ألا يُسأل عن اسمه، فلما أجيب إلى ما طلب، قال : أنا هو، ثم دخل الجيش ولم يُعرف. فكان مسلمة يقول: اللهم احشرنى مع صاحب النقب.

(*) راجع مغازى الواقدى (فتح الشام) ، وكذلك فتوح الشام للبلاذرى.

هذا الموقف البطولى الفذ يحمل قيمًا هادية، كما يدعونا إلى إطلالة على الحكمة من الفتوحات الإسلامية : فلم تكن الفتوحات الإسلامية كحروب الاستعمار، تقوم رغبة فى الثروات والأموال والتحكم والسيطرة، وإنما كانت الفتوحات الإسلامية لتخليص الناس من سيطرة الاستعمار ومذلته. كما كانت لنشر دعوة الإسلام، دون إجبار ولا إكراه، وكان الناس يدخلون فى دين الإسلام أفواجًا بسبب أخلاق الفاتحين وحسن المعاملة وكريم العشرة.

لقد كان الفاتحون يؤمِّنون الناس – فى شتى أحوالهم – على أديانهم وممتلكاتهم، لا يهدمون معبداً ولا كنيسة، لا يقطعون زرعًا ولا شجراً، لا يقتلون حيوانًا، ويؤمِّنون الشيوخ والنساء والأطفال.

أما دلالات الموقف ، فأهمها :

الدلالة الأولى : أن الصعاب تحتاج إلى البطولات التى ترغب فى الشهادة فى سبيل الله، وأن الفدائية والتضحية هى مفتاح النصر فى الحروب، فقد امتنع الحصن على المسلمين وحاول جنود ولم يفلحوا بين كرّ وفر أمام وابل السهام التى تخرج من الحصن لتواجه من يحاول الاقتراب منه.

إن موازين المعركة تتغير مع الفداء والتضحية، وهل قام هذا الدين إلا على التضحية والفداء ؟

الدلالة الثانية : الإخلاص وابتغاء ما عند الله تعالى. فأمام هذه البطولة الفذة، وأمام هذه التضحية التى لفتت انتباه القائد والجنود، آثر صاحبها أن ينال ثوابها من الله وحده، فذكره عند الله يبقى، بينما الذكر عند الناس يفنى.

إنهم كانوا يضحون لا من أجل شهرة أو من أجل مجد دنيوى، بل كانوا يخافون على طاعتهم من ذكر الناس لها. يخافون أن يدخلها الرياء.

وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون/ ٦٠].

فحين سألت السيدة عائشة – رضى الله عنها – رسول الله ﷺ عن هذه الآية، قال لها النبى ﷺ : «بل هو الرجل يصوم ويصلى ويفعل الصالحات، ويخاف إذا رجع إلى ربه ألا يتقبل الله منه ذلك، يا عائشة ! أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون»(١).

والإخلاص لله فى الأعمال يباركها، وينفع بها؛ لذلك نفع الله بعمل صاحب النقب.

الدلالة الثالثة : موقف القائد وحسن متابعته لأحوال جنوده، وأن مبدأ الثواب والعقاب له أثره فى صلاح الرعية، فمن أحسن فله المكافأة؛ لذلك سأل القائد عن هذا الفدائى البطل. سأل عنه فلم يُجب أحد، ثم خرج الفدائى يقول: أنا أعرف هذا الفدائى بشرط ألا تسألنى عن اسمه، فوافقه، فقال : أنا هو، ثم دخل سريعًا بين الصفوف كى لا يعرف.

وضرب هذا الجندى مثلاً فى الإخلاص الصادق، مما جعل القائد مسلمة يدعو فى صلاته : اللهم احشرنى مع صاحب النقب.

---

(١) سبق تخريجه.

١٧٩ - ابن عمتك تحكم له !

اختلف الزبير مع رجل في سقي بستان، فاحتكما إلى النبي ﷺ، فحكم النبي للزبير، وقال له:

«اسق يا زبير».

فقال الرجل:

يا رسول الله، ابن عمتك تحكم له؟!

فتلون وجه النبي ﷺ، فأنزل الله قوله:

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

[النساء/٦٥].

(*) أخرجه البخاري (٥/٣٤)، رقم (٢٣٥٩)، ومسلم (٤) رقم (١٨٢٩، ١٨٣٠).

هذا الموقف لصيق بحياتنا المعاصرة، وتشتد الحاجة إلى هديه وعظاته ويحمل دلالات هادية :

الدلالة الأولى هي : أن أصحاب الحاجات لا ينظرون إلا إلى قضائها، وقد يقع بعض أصحاب الحاجات حين لا تُعطى لهم ولا تُحقق لهم رغباتهم فى خطأ وزلل، فيتجاوزون حدود الأدب فى الكلام، بل قد يصل الأمر إلى إسناد التهم لمن حكم بغير هواهم، وهذا ما حدث من الرجل الذى اختلف مع الزبير ﷺ فى سقى بستان، فأثنى الرجل – فى البداية – على رسول الله ﷺ قبل الحكم، فلما حكم النبى ﷺ أن يسقى الزبير أولاً ثم يرسل الماء إلى جاره غضب الرجل وأساء فى كلامه إلى رسول الله ﷺ قائلاً : ابن عمتك تحكم له!

وتغير وجه النبى ﷺ ولكن لم يقل شيئًا، فأنزل الله تعالى :

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

الدلالة الثانية هى : لزوم من حكم حكمًا أو وقف موقفًا فى الحق – يريد به وجه الله تعالى – ألا يتحول عن موقفه بسبب إساءة أو بسبب مدح، وليجعل كُل شانه لله تعالى.

أيضًا ينبغى ألا نجارى السفهاء فى إساءتهم، فأسوتنا وقدوتنا نبينا ﷺ قال فى الحديث : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[1].

وفى هذا الموقف نرى صاحب الخلق العظيم سيدنا رسول الله ﷺ مع قسوة الكلام وإساءة الرجل إليه ﷺ، وتغير لون وجهه ﷺ إلا أنه صمت ولم يرد بشىء.

(١) سبق تخريجه.

الدلالة الثالثة : بشرى لمن أُسيء إليه ولم ينتصر لنفسه بأن الله سينتصر له : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج/٣٨].

وفى الموقف أنزل الله قرآنًا يؤكد مكانة حكم النبى ﷺ وأنه ينبغى الامتثال لحكمه.

الدلالة الرابعة هى : أهمية تحكيم أوامر رسول الله ﷺ ونواهيه فى كل ما نأتى به من قول أو عمل. حيث جاء الأمر من الله تعالى حاسمًا فى تأكيد هذه الحقيقة، قال الله تعالى :

﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾.

وقال الله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر/٧].

١٨٠ - أخشى أن يردوه جملة !!

كان لسيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شاب صالح دفعه حماسه، وغيرته على الحق أن يطلب من والده أن يحمل الناس على الجادة، قائلاً :

والله لا أبالى إن غلت بى وبك. القدور فى الحق.

فقال له والده عمر بن عبد العزيز :

«يا بنى ! إنى أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيردوه جملة فتكون فتنة، ألم ترَ يا ولدى أن الله ذم الخمر مرتين وحرمها فى الثالثة ؟!».

(*) تاريخ الطبرى (٦ / ٥٦٥)، وطبقات ابن سعد (٥ / ٣٣٠).

من سنن الله فى خلقه سنة التدرج فى معالجة الخلل وإنجاز الطموحات، وبخاصة فيما يتصل بالبشر، ولا نعنى بالتدرج التسويف الذى يعطل الأعمال. فالفرق بين التدرج والتسويف أن التسويف تعطيل وتأجيل، فى حين أن التدرج تنظيم وتقسيم للعمل إلى مراحل مع مراعاة ظروف كل مرحلة حتى يكتمل البناء صحيحًا فى أناة.

وقد رأينا - فى الموقف - أن روح الشباب بما فيها من حماس لا تخلو من اندفاع وتعجل للنتائج، جعلت الشاب الصالح يطلب من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز أن يحمل الناس على الجادة حملاً حاسمًا.

وجاء رأى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يتسم بالحكمة والرفق، حيث قال:

إنى أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيردوه جملة، فتكون فتنة.

ثم ضرب مثلاً من هدى القرآن الكريم، فقال: ألم تر يا ولدى أن الله ذم الخمر مرتين وحرمها فى الثالثة ؟

وفى هذا درس قيم ومنهج حكيم فى معالجة الأمراض الاجتماعية، فالرفق والإقناع والتربية وإحياء ضمير الناس وربطه بالله هو أنجح السبل لعلاج ما بالمجتمع من أمراض وعلل، وكما لا يخفى على عاقل أن حمل الناس على الفضائل والمكارم لا يصنع مجتمعًا فاضلاً، فالإكراه على الفضيلة لا يصنع الإنسان الفاضل.

فالإسلام يريد قلوبًا خاشعة فى محراب رضا الله، وعقولاً ساجدة فى محراب تعظيم أوامر الله تعالى.

ومن دروس الموقف أيضًا: أن كثيراً من الآفات والعلل تحتاج إلى وقت، فينبغى ألا نتعجل النتائج.

وهذا كله من هدى قول الله تعالى :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل/١٢٥].

١٨١ - قنطرة أم حكيم

عقد الصحابى الجليل «خالد بن سعيد» على أم حكيم عقد الزواج، وأراد الدخول بها أثناء استعداد المسلمين لمعركة «مرج الصقر»؛ فقالت له أم حكيم راجية :

لو تأخرت حتى يهزم الله الأعداء.

فقال لها : إن نفسى تحدثنى أنى سأقتل.

ولم يكن هناك مكان للدخول بعروسه - أم حكيم - سوى قنطرة تربط بين شاطئى النهر، ومع صباح العرس قامت الحرب، فجاهد خالد بن سعيد بن العاص حتى نال نعمة الشهادة.

فما كان من أم حكيم إلا أن شدت عليها ثيابها وحملت عمود خيمتها تقاتل به الأعداء، فقتلت سبعة منهم. وصارت هذه القنطرة تعرف بـ«قنطرة أم حكيم».

(*) راجع الإصابة (ترجمة أم حكيم).

هذا موقف تتجلى فيه قيم البطولة والفداء :

القيمة الأولى هى : أن المؤمن تحدثه نفسه دائمًا بالشهادة فى سبيل الله، فهو يتمناها ويطلبها فى الله تعالى، وقد نال الصحابى خالد بن سعيد الشهادة.

والنبى ﷺ يُبشر من سأل الله الشهادة - صادقًا من قلبه - بأن الله سيكرمه بهذه المنزلة.

فقد أخرج مسلم فى صحيحه عن سهل رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال : « من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه »(١).

إن أعظم ما نتقرب به إلى الله تعالى من أعمال هو الشهادة فى سبيل الله. فقد أخرج الحاكم وابن حبان عن عامر بن سعد رضي الله عنه عن أبيه، أن رجلاً جاء إلى الصلاة والنبى ﷺ يصلى، فقال حين انتهى الصف : اللهم آتنى أفضل ما تؤتى عبادك الصالحين!!

فلما قضى النبى ﷺ الصلاة قال : « من المتكلم آنفًا ؟ ».

فقال الرجل : أنا يا رسول الله.

فقال النبى ﷺ : « إذا يُعْقَر جوادك وتُستشهد »(٢).

اللهم ارزقنا الشهادة فى سبيلك يا رب العالمين.

وللأمة عبرة وعظة فى هذا، فإن كان هؤلاء الأبطال قد قدموا أزواجهم فى سبيل الله فلا تبخل أيها المؤمن أن تقدم جزءاً من مالك، فلابد من التضحية من أجل دين الله تعالى.

القيمة الثانية هى : الدور الرائع لهذه المؤمنة المقاتلة « أم حكيم »، التى لقبت بقرينة الشهداء؛ لأنها كانت تتزوج بالمجاهدين الذين يختم لهم بنعمة

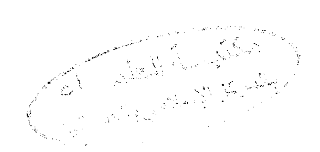
---

(١) سبق تخريجه. (٢) الحاكم (٢ / ٧٤)، وابن حبان (١٦٠٩).

الشهادة فى سبيل الله. لقد حملت أم حكيم عمود خيمتها وقاتلت وقتلت سبعة من الأعداء. وعرفت القنطرة التى شهدت جهادها وبطولتها وزواجها بقنطرة أم حكيم.

ومن هذا الموقف يظهر لنا دور المرأة البطولى فى ساحة الجهاد، ولعل هذا يدفع المغالطة والأكذوبة التى أشاعها أعداء الإسلام عن أن المرأة المسلمة معزولة عن الحياة العامة.

والحق - كما نرى فى هذا الموقف - أن للمرأة المسلمة مشاركات مؤثرة فى ميدان الحياة العامة، بل ولها دور مشهود فى الحرب أيضاً.



١٨٢ - هذه الفاتحة وأين عمر ؟

ذهب عمر بن الخطاب ﷺ ومعه بعض الصحابة إلى صاحب كرب ومرض فدعا له عمر ، وقرأ فاتحة الكتاب ، فكشف الله الكرب وشفى المريض ، وبعد حين ذهب الذين كانوا مع عمر بن الخطاب ﷺ حين دعا للمكروب ففرج الله كربه إلى صاحب كرب آخر ، فدعوا فلم يُسْتَجَبْ لهم . فتحيروا ، وقالوا :

دعا عمر بهذا الدعاء وقرأ هذه الآيات فاستجيب له .

فقال لهم صاحب الكرب :

هذا الدعاء وتلك الفاتحة ، لكن أين عمر ؟

(*) راجع الحلية لأبى نعيم ، ترجمة سيدنا عمر .

هذا الموقف يقدم إجابات شافية عن أسئلة لاهبة تفرض نفسها فى واقع الأمة المعاصر، فإن كان القرآن موجوداً بيننا يملأ الأسماع والعقول والقلوب، فلماذا ندعو فلا يستجاب لنا ؟ وما الذى غاب عن منظومة الحضارة والتقدم ؟ وبركة القرآن لمن ؟!

يجيبنا الموقف، حيث استجاب الله لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وتقبل منه دعاءه ولم يتقبل من الآخرين الذين كانوا معه، فقال لهم صاحب الكرب منبهاً لهم :

« هذه الفاتحة وهذا الدعاء، ولكن أين عمر ؟! ».

حقًا إن بركة القرآن لمن يعمل به، والله تعالى يستجيب لمن استجابوا لهديه.

والذى غاب عن منظومة التقدم وحضارة هذه الأمة هو الإنسان الذى تخلّق بالقرآن واتبع هديه، فكان القرآن حاضراً فى عمله، فأتقن العمل وأخلص لله عز وجل، وكان القرآن حاضراً فى سوقه فصدق فى البيع والشراء، وكان القرآن حاضراً فى معاملاته، فكان أميناً، وكان القرآن حاضراً فى علاقاته بالناس فكان رحيماً ودوداً، وكان القرآن الكريم حاضراً فى قوله وفعله وفى دقات قلبه.

أما أن يكون القرآن فى حياتنا نغماً صوتياً دون الاعتبار بما فيه من معانٍ وعظات وهدايات، ودون التخلق به، فهذا حرمان ما بعده حرمان.

وسبحان الله القائل :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾ [الإسراء/٩].

وقال تعالى :

﴿طسٓ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل / ١ : ٢] .

ونرى فى الموقف موعظة أخرى، وهى : أن زيارة المريض وأصحاب الكربات عمل صالح، وأن الدعاء لهم من أخلاق الصالحين وسنة الهادى البشير ﷺ .

١٨٣ - فإن لك شرفًا لا أبلغه

جرى بين الحسين بن عليّ بن أبى طالب وبين أخيه محمد بن الحنفية - رضى الله عنهم - كلام، فافترقا متغاضبين، فلما وصل محمد إلى منزله كتب إلى الحسين :

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن على بن أبى طالب إلى الحسين بن عليّ بن أبى طالب، أما بعد :

فإن لك شرفًا لا أبلغه وفضلاً لا أدركه، أبونا عليّ، لا أفضلك فيه ولا تفضُلنى، وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمى ما وافين بأمك، فإذا قرأت رفعتى فالبس رداءك ونعليك وتعالَ ترضّنى، وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى، والسلام.

فلبس الحسين رداءه ونعليه، وجاء إليه فترضّاه - رضى الله عنهما- وعن آل البيت جميعًا، وعمن اقتدى بهم.

(*) أهل البيت، الإمام على بن أبى طالب، ص ٧٩.

هذا موقف كريم من أهل بيت النبى ﷺ، ولقد كانت أخلاقهم – رضى الله عنهم – كأخلاق جدهم رسول الله ﷺ، تقوم على المكارم والإيثار. ويحمل هذا الموقف دروسًا بليغة منها :

الدرس الأول : إنزال الناس منازلهم، وبخاصة من انتسب منهم إلى رسول الله ﷺ.

يظهر هذا الدرس من قول محمد بن الحنفية لأخيه الحسين بن علىّ – رضى الله عنهما – : إن لك شرفًا لا أبلغه، وفضلاً لا أدركه، أبونا علىّ، لا أفضلك فيه ولا تفضلنى، وأمك فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ولو كان ملء الأرض نساء مثل أمى ما وافين بأمك.

الدرس الثانى : سرعة الرجوع إلى الصفاء والمودة بين الأخ وأخيه، ففور وصول محمد ابن الحنفية إلى منزله فكر فى ترضية أخيه، فكتب له ليؤثره بالفضل على نفسه.

وهكذا يصنع الإيمان بالنفوس، وهكذا تثمر التربية النبوية فى القلوب.

الدرس الثالث : هو درس الإيثار.

فقد آثر محمد بن الحنفية أخاه الحسين، ويظهر هذا فى قوله :

وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذى أنت أولى به منى، والسلام.

وفى هذا تحقيق لقول الله تعالى :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر/٩].

اللهم أدبنا بأدبهم وخلِّقنا بأخلاقهم واجعلنا من المكرمين بشفاعة جدهم ﷺ.

وإن كان الإيثار بين الصالحين فى أمور الدنيا محمودًا، فإن أفضل الإيثار ما كان فى أمر الآخرة.

الدرس الرابع : سرعة الاستجابة من الحسين لأخيه، فقد ركب إليه فور وصول الرسالة إليه وذهب وترضاه، وفى هذا تحقيق لقول الله تعالى :

﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون/ ٦١].

رحمة الله وبركاته عليكم آل البيت.

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب/ ٣٣].

١٨٤ – من غشَّنا فليس منَّا

مـر النبى ﷺ على رجـل أمامـه صبـرة (كـومـة) طعـام يبيع منه للناس، فأدخل النبى ﷺ يده فيها، فنـال أصابعه بللٌ.

فقال النبى ﷺ : «ما هذا يا صاحب الطعام ؟».

قال : أصابته السماء – المطر – يا رسول الله.

قال : «أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ من غشنا فليس منا».

(*) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٦٤).

هذا الموقف يؤكد حقيقة إيمانية غالية، وهى أن الأمانة فى المعاملات من أهم سمات مجتمع المسلمين.

كما يظهر من الموقف – أن لولى الأمر أن يتابع حركة السوق، وما يجرى بها من بيع وشراء كما صنع النبى ﷺ حين مر بالسوق على رجل أمامه صُبْرة – كومة – طعام يبيع منه للناس، فأدخل النبى ﷺ يده فيها، فنال أصابعه بللٌ. فقال النبى ﷺ :

« ما هذا يا صاحب الطعام؟ » .

قال : أصابته السماء – المطر – يا رسول الله .

قال : « أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟ « من غشنا فليس منا » .

ومن دلالات الموقف وعظاته أيضاً :

أن أخلاق هذا الدين تمتد إلى كل شئون الحياة، والمنظومة الخلقية التى يربى عليها هذا الدين أتباعه لا تكون داخل المسجد فحسب، وإنما تشمل البيع والشراء والسوق والعمل وكل شئون الحياة .

النبى ﷺ يرسى قاعدة من قواعد الأخلاق الإيمانية، لأن المؤمن أمين ومؤتمن فى كل أحواله وكل شأنه .

ويأخذ الغش فى حياة الناس صوراً عديدة منها :

١ – أن يُزين المرء لأخيه السوء كى يقع فيه ،كما يحدث بين بعض الشباب كلون من التلاعب الشيطانى، الذى يقع بين أصحاب السوء .

٢ – إخفاء الإنسان عن أخيه بعض الحقائق كى يخدعه فى أمر ما، ومن ذلك ما قد يقع من بعض السائلين للمعونات الاجتماعية كى يأخذوا ما ليس حقًّا لهم، وكما يقع من بعض طالبى الفتوى الدينية حتى

يخفى حقائق متصلة بالمسألة موضوع الفتوى، ويبالغ فى بعض الأمور الأخرى؛ كى يحصل على فتوى تبرئ ذمته.

٣ – ومن صور الغش أيضاً أن يفسد على الناس أولادهم وأزواجهم بالغيبة والنميمة.

اللهم إنا نعوذ بك من سوء الأخلاق يا رب العالمين.

١٨٥ - آثر أن يعمل بالخوص !!

كان من نتائج الفتوحات الإسلامية واتساع أرض الإسلام فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ﵁ أن كثر وصول الأموال إلى المدينة، فكانت توزع على المسلمين، وكان نصيب سلمان الفارسى ﵁ ستة آلاف.

لكنه لم يأخذ منها شيئًا لبيته، وإنما أنفقها جميعها فى سبيل الله، وآثر أن يعمل بالخوص أوعية يبيعها بثلاثة دراهم فى اليوم ويقسمها إلى ثلاثة أقسام :

درهم لشراء الخوص، ودرهم لحاجة بيته وأولاده، والدرهم الثالث ينفقه فى سبيل الله.

(*) رجال حول الرسول، ص ٥٩.

نحن أمام قدوة عظيمة من نجوم الهداية، صحابة رسول الله ﷺ الذين أمرنا الله أن نتأسى بهم وأن نقتدى بأحوالهم، قال الله تعالى :

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام/ ٩٠].

فرضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ وأدبنا الله بأدبهم وخلَّقنا بأخلاقهم.

الدلالة الأولى هى : التأكيد على قيمة العمل، والحث على أن يأكل الإنسان من عمل يده، وفى هدى رسول الله ﷺ قوله :

« ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبى الله داود – عليه السلام – كان يأكل من عمل يده ».

يظهر هذا المعنى من الموقف، حيث آثر سيدنا سلمان الفارسى رضي الله عنه أن يأكل من عمل يده، فآثر العمل بالخوص على أن يأخذ من العطاء المقسوم له من بيت المال وقدره ستة آلاف درهم.

الدلالة الثانية هى : المسارعة فى النفقة فى سبيل الله. ليس فقط بجميع المال المقسوم له من بيت المال، وإنما أيضًا الإنفاق من المال الذى اكتسبه من عمل يده.

وفى هذا درس قيم للمؤمنين، فالمؤمن لا يعمل من أجل كفاية نفسه فقط؛ بل ومن أجل غيره ممن لا يستطيعون العمل أو لا يجدون فرصة عمل، أو يعملون ولا يكفيهم ناتج العمل.

وهذا شأن المؤمن نافع لمجتمعه، إن المؤمن كما يظهر من موقف هذا الصحابى الجليل سيدنا سلمان الفارسى رضي الله عنه منتج فى مجتمعه يسهم فى البناء والتنمية، ولم يرض سيدنا سلمان الفارسى أن يكون عبئًا على مجتمعه، لأنه يعلم أن قيمة الإنسان بما ينتج ويسهم ويشارك فى مجتمعه. وليست

قيمته من قيمة ما يستهلك، على نحو ما شاع من قيم استهلاكية فى الحياة المعاصرة، فكثير من الناس يأخذ قيمته من حجم ثروته أو نوع سيارته أو شقته التى يسكنها ونحو ذلك.

والدلالة الثالثة هى : حسن إدارته لماله الناتج من عمله، حيث قسمه إلى ثلاثة أقسام :

١ – القسم الأول : كفاية حاجة أهله.

٢ – القسم الثانى : كفاية حاجة صناعته وأدواته.

٣ – القسم الثالث : النفقة فى سبيل الله.

وهذا توازن حكيم يجمع بين أمرى الدنيا والآخرة.

١٨٦ - الحلم والأناة

وَفَد أشَجُّ عبد القيس مع وفد من قبيلته على رسول الله ﷺ ، فنزل من فوق راحلته ثم ربطها وخلع ثوبين كانا عليه وأخرج ثوبين حسنين فلبسهما بهدوء، والنبى ﷺ يرى ما يصنعه.

ثم أقبل يمشى فى سكينة إلى رسول الله ﷺ ، فقال النبى ﷺ :

«إن فيك خصلتين يحبُّهما الله ورسوله : الحلم والأناة».

(*) ذكره ابن سعد فى الطبقات (١/٥٤، ٢/٥٤، ٦/٤٠٦)، وراجع كنز العمال (٣٧٥١٨).

هذا موقف تربوى حكيم من صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ﷺ، الذى يُعلمنا من خلال هذا الموقف كيف نُرَبِّى بمدح الصفات الحسنة ولفت الانتباه إليها بشكرها.

وقد أعجب النبى ﷺ هذه التؤدة وتلك السكينة وذلك الوقار الذى لازم ابن عبد القيس فى إقباله إلى النبى ﷺ، كما أعجبه عناية ابن عبد القيس بمظهره حيث خلع ملابس السفر وارتدى أخرى أعدها للقاء النبى ﷺ، فمدح النبى ﷺ سلوك الرجل، وفى هذا تعليم للحاضرين ودعوة للتأسى بمثل هذا السلوك الطيب، يظهر ذلك من قوله ﷺ : «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة».

والحلم : هو ضبط النفس وكظم الغيظ وقت الغضب ووقت الانفعال، فلا يقابل الإنسان الإساءة بالإساءة أو الضيق بالانفعال، وإنما يدفع بالتى هى أحسن.

وفضيلة الحلم وصف بها الأنبياء، من ذلك قول الله تعالى لسيدنا إبراهيم عن نبيه إسماعيل – عليهما السلام – :

﴿ **فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ** ﴾ [الصافات/١٠١].

وقال الله تعالى فى وصف سيدنا محمد ﷺ :

﴿ **وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ﴾ [آل عمران/١٥٩].

ودعانا الله إليه، من ذلك قوله تعالى:

﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ [الأعراف/١٩٩].

ويقول النبى ﷺ : «ليس الشديد بالصُّرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد أسلم كثيرون بسبب خلقه الطيب ﷺ وحلمه على من جهل عليه، من ذلك : أن حبرًا من أحبار اليهود - وهو زيد بن سعنة - درس صفات النبوة وعرف علاماتها في رسول الله ﷺ وبقيت علامتان يريد أن يخبرهما، الأولى : أنه يسبق حلمه غضبه، والثانية : أنه لا تزيده شدة الجاهل عليه إلا حلمًا.

كان زيد يخالط رسول الله ﷺ يريد أن يختبره، وذات يوم جاء أعرابي يشكو لرسول الله ﷺ شدة العيش في إحدى القرى، وزيد يسمع فقال زيد لرسول الله ﷺ : أنا أشترى منك كذا وكذا وَسْقًا بكذا وكذا، وأخرج المال وأعطى ثمانين دينارًا فدفعها إلى الرجل، واتفقا على موعد معلوم يقضيه فيه حقه، ولكنه جاء قبل الموعد، يقول زيد : فدنوت من النبي ﷺ وجذبت بُرْدَيه جذبة شديدة حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبلت بوجه غليظ فقلت : ألا تقضيني يا محمد، فوالله إنكم يا بني عبد المطلب لَمُطْل، ولقد كان لي بمخالطتكم علم، فغضب عمر وقال : أي عدو الله أتقول هذا لرسول الله ﷺ ؟ فوالذي بعثه بالحق لولا ما أخاف غضبه لقطعت رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر ويبتسم لقوله، ثم قال : «لأنا وهو أحوج إلى غير هذا، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضي، اذهب به يا عمر فاقضه حقه وزده عشرين صاعًا من تمر مكان ما رُعتَهُ»، أي في مقابل تخويفك له.

وهنا سكنت نفس زيد واطمأنت، حين وجد العلامات التي كان يبحث عنها، فذهب به عمر فقضاه دينه وزاده عشرين صاعًا من تمر، قال زيد : أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا، فمن أنت ؟ قال أنا زيد بن سعنة، قال: الحَبْر؟ قال: نعم، قال : فما دعاك أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت وتقول له ما قلت؟ فأجابه بأنه أراد أن يختبر عفوه ﷺ وحلمه[1].

---

(١) حياة الصحابة، ترجمة زيد بن سعنة.

وصدق الله العظيم :

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت/٣٤] .

١٨٧ - إنى أتكشَّف

قال ابن عباس لعطاء بن أبى رباح رضى الله عنهما :

ألا أريك امرأة من أهل الجنة ؟

قال : بلى.

قال : هذه المرأة السوداء أتت النبى ﷺ فقالت : إنى أُصْرَع، وإنى أتكشَّف، فادْعُ الله تعالى لى : فقال ﷺ :

«إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك».

فقالت :

أصبر، فقالت :

إنى أتكشَّف، فادع الله ألا أتكشف، فدعا لها.

(*) أخرجه البخارى (١٢ / ٢١٨، ٢١٩)، ومسلم (١٦ / ١٣١).

هذا موقف إيمانى يفسر لنا حكمة الابتلاء، إن الله تعالى رحمن رحيم، لطيف ودود بعباده.

ويتساءل البعض؛ ما الحكمة من الابتلاء ؟! لماذا الألم ؟!

وإجابة السؤال الأول تأتى واضحة من خلال تدبر قول الرسول ﷺ حين سُئل: أى الناس أشد بلاءً ؟

فقال ﷺ : «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتَلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صُلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة (أى ضعف) ابتلى على حسب دينه، فلا يزال البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة»(١).

فالبلاء والألم لهما فوائد إيمانية من أهمها :

● تكفير السيئات وغفران الذنوب، وهذا من رحمة الله تعالى، ويؤكد هذا المعنى قول النبى ﷺ :

«ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وَصَبٍ ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يُشاكُها إلا كفَّر الله بها خطاياه».

أما بشأن الأنبياء والأولياء وأهل الدرجات العالية عند الله تعالى، فإن البلاء بالنسبة لهم يكون رفعًا لدرجاتهم عند الله.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: دخلت على النبى ﷺ وهو يوعك، فقلت : يا رسول الله : إنك توعك وعكًا شديدًا! فقال ﷺ : «أجل، إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم». فقلت : ذلك أن لك أجرين ؟ قال : «أجل، ذلك فذلك»(٢).

(١) سبق تخريجه. (٢) البخارى (٧/ ١٥٠، ١٥٣)، ومسلم (١٩٩١).

● كما أن البلاء يدفعنا إلى التعلق بالله تعالى، مع شدة الرجاء فيه والتضرع إليه، قال الله تعالى :

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف/ ٩٤].

● كما أن البلاء والألم يكونان أيضًا وسيلة لردع المتكبرين والظالمين، وتنبيهًا للغافلين عن ربهم.

● وأيضًا من حكمة الابتلاء والألم أنهما يربيان فينا قوة التحمل، وقد ضرب الحكماء لذلك مثلاً : وهو أن الماس (المعدن النفيس) كان فى أصله فحمًا ثم تعرض لضغوط عالية جدًا بين طبقات الصخور فصار الفحم قطعة ماس نفيسة غالية لها قدرها. وهكذا يصنع الألم والبلاء بالإنسان.

● كما أن الألم وشدته أشبه بجهاز إنذار يدفعنا إلى الشعور والإحساس بما يؤذينا.

والسؤال الآن : متى يُحَصِّل المبتلَى الأجر والثواب ؟!

والجواب : يُحصل المؤمن الأجر بالصبر والرضا، أما السخط والضجر من قضاء الله وقدره فى ابتلاء العبد فيحرم العبد من ثواب الابتلاء، وتصبح المحنة محنتين، فى حين أن الصبر والرضا يجعلان المحنة منحة من الله تعالى.

قال النبى ﷺ :

« إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا، ومن سخط فله السخط »[٢].

وحسب الصابرين من الجزاء والأجر ما جاء فى قول الله تعالى :

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر/ ١٠].

(١) سنن ابن ماجه ٤٠٣١.

كما يستفاد من الموقف : حرص المرأة على ستر عورتها حتى فى أشد الأوقات، لذلك طلبت المرأة من رسول الله ﷺ أن يدعو لها ألا تنكشف . فدعا لها النبى ﷺ .

١٨٨ - عروس النيل

كان من عادة المصريين عند وفاء النيل أن يختاروا إحدى الفتيات البكر ويزينوها بأجمل الحلى وأفضل الثياب ويُلقوا بها فى النيل ليجرى.

فلما قدم عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى مصر وأخبره أهلها بذلك، قال لهم: إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله. وكتب إلى أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب رضي الله عنه بذلك، فأرسل إليه بطاقة كتب فيها:

من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى نيل مصر، أما بعد:

فإن كنت تجرى من قِبَلك فلا تجر، وإن كان الله الواحد القهار هو الذى يجريك، فنسأل الله أن يجريك.

وأمره أن يلقى بها فى النيل، فجرى وانقطعت تلك العادة السيئة من يومها.

(*) النجوم الزاهرة (١/ ٣٩).

هذا الموقف يحمل قيمًا عظيمة، من بينها قيمة تشتد الحاجة إليها فى أحوالنا المعاصرة.

هذه القيمة هى: أن الإسلام يحرر العقول من الخرافات والوهم.

وعلى عهد رسول الله ﷺ كسفت الشمس يوم مات ابنه إبراهيم، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم؛ فقال النبى ﷺ :

«إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلوا»(١).

وهكذا يحرر النبى ﷺ العقل من الوهم والخرافة، ويوجهه إلى تأمل وتدبر هذه الظواهر الكونية التى تقوم على أسباب ونواميس من قدر الله المحكم. بداية من نفس الإنسان إلى كون الله الواسع.

قال الله تعالى: ﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴾ [الذاريات/ ٢١].

ولقد ذم الله الغافلين الذين لا يعتبرون ولا يتدبرون، ويُعرِضون عن هذه الآيات الكونية، وتلك الأسرار الربانية.

قال تعالى: ﴿ **وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ** ﴾ [يوسف/ ١٠٥].

ولما نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى:

﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [آل عمران/ ١٩٠].

قال ﷺ : «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»(٢).

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) إتحاف ٩/ ٤٧، ١١٩، ١٠/ ١٦٣- منثور ٢/ ١١١.

فالتفكر والتدبر والبحث والدراسة للآيات الكونية فريضة إسلامية ينبغى ألا يتخلف المسلمون عنها.

ومن اللافت للانتباه أيضًا أن كثيراً من الظواهر الكونية جاءت علمًا على أسماء سور قرآنية، منها ما كان فى مجال الفلك، مثل : (النجم، الشمس، الرعد، الليل، الضحى)، ومنها ما كان فى مجال المخلوقات التى تشاركنا الحياة على سطح الأرض مثل : (الأنعام، النحل، النمل، العنكبوت)، وتكرر ذكر الظواهر الكونية فى آيات كثيرة يفتح للعقل آفاقًا ممتدة للتفكير والاكتشاف والاختراع.

وتدعيمًا لعقلية المؤمن فى الانطلاق المتأمل المتدبر؛ حارب الإسلام مظاهر العشوائية فى الفكر والسلوك، فنهى عن التطيّر وعن كل ما كان فى حكم التطير ، من قراءة الكف والفنجال، وحظك اليوم ، وقراءة الطالع ، وفتح الكوتشينة وغيره؛ لأن أمور الحياة وسنن الله الكونية لا تقوم على ضربة حظ أو خيال دجال، وإنما هى قائمة بتدبير محكم من الله تعالى، قال الله تعالى :

﴿ **إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ** ﴾ [القمر / ٤٩].

كما تشير الآيات إلى أن النظام الدقيق الذى لا يعرف الخلل هو الذى يحكم ظواهر هذا الكون، قال الله تعالى :

﴿ **لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** ﴾ [يس / ٤٠].

ولعل فى هذه المعانى دافعًا قويًا إلى ألا يقف نظرنا لآيات القرآن التى تتناول الظواهر الكونية عند حدود الإيمان بالخالق فقط، بل ينبغى أن يمتد فهمنا إلى معناها الواسع، الذى يدعونا إلى البحث والاكتشاف؛ كى ننتفع

بأسرارها، استجابة لهدى الله فى قرآنه.

نعم، لقد جاء الإسلام هاديًا للعقل وحرره من الخرافات والوهم.

١٨٩ - رجل تستحيى منه الملائكة

بينما كان النبى ﷺ مضطجعًا فى بيت عائشة - رضى الله عنها- أقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه فاستأذن، فأذن له النبى ﷺ وهو على حاله مضطجعًا.

ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فأذن له النبى ﷺ وهو على حاله مضطجعًا.

ثم أقبل عثمان رضي الله عنه فاستأذن فجلس رسول الله ﷺ وأذن له، فدخل وقال حاجته.

فسألت عائشة رسول الله ﷺ :

يا رسول الله !

جلست حين استأذن عثمان ولم تفعل ذلك مع أبى بكر وعمر ؟

فقال النبى ﷺ :

«إن عثمان رجل حيىّ، وإنى خشيت إن أذنت له وأنا على تلك الحال ألا يبلغ إلىّ حاجته».

(*) خلفاء الرسول، ترجمة عثمان بن عفان.

هذا موقف إيمانى يفيض بالعبر النافعة والعظات الهادية :

أولاها : حكمة رسول الله ﷺ فى معاملة الناس وتقدير الفروق الفردية بينهم، مع مراعاة خصوصية حياء سيدنا عثمان ﷺ.

ولم يكن الأمر هنا فى الموقف من باب الأفضل، ولكن كان من باب مراعاة الأنسب فى حق كل منهم.

وثانيتها هى : أن خلق الحياء من الأخلاق التى مدحها رسول الله ﷺ، فالحياء لا يأتى إلا بخير.

وفى الحديث قال النبى ﷺ : «الحياء شعبة من شعب الإيمان»[١].

وقوله ﷺ : «الحياء لا يأتى إلا بخير»[٢].

والمقصود هنا الحياء الإيجابى الذى يحمل على فعل الخيرات وترك المنكرات، ويؤكد هذا المعنى قول النبى ﷺ لأصحابه :

«استحيوا من الله حق الحياء». قلنا : إنا نستحيى والحمد لله، قال : «ليس ذلك، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»[٣].

أما الحياء السلبى الذى يمنع الإنسان من السعى للخير والبر فقد نهى الإسلام عنه، لأنه نوع من السلبيات التى تحرمنا من خيرات كثيرة.

وفى القرآن الكريم :

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان(٥٩).
(٢) رواه البخارى (٨/ ٣٥)، ومسلم فى الإيمان (٦٠).
(٣) رواه الترمذى (٢٤٥٨)، وأحمد (١/ ٣٨٧).

﴿ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب/٥٣].

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة/٢٦].

ورأينا في الموقف أن رسول الله ﷺ أثنى على حياء سيدنا عثمان رضي الله عنه وجلس النبي ﷺ بعد أن كان مضطجعًا حين استأذن سيدنا عثمان رضي الله عنه.

ثالثتها هي : حرص رسول الله ﷺ على قضاء مصالح وحوائج أصحابه، لقد خشي رسول الله ﷺ أنه إن أذن لسيدنا عثمان رضي الله عنه بالدخول وهو مضطجع - أن يمنع الحياء سيدنا عثمان رضي الله عنه من التصريح بحاجته. لذلك جلس النبي ﷺ حتى يصرح سيدنا عثمان بحاجته.

وفي هذا أسوة وقدوة للأمة في حسن المعاشرة بين الأصحاب، والحرص على قضاء حوائجهم ومصالحهم ونفعهم، ومراعاة خصوصية كل منهم. فهذه الأخلاق من أقوى أسباب الحب والمودة بين الأصحاب.

وهكذا يعلمنا رسول الله ﷺ كيف ننشئ مجتمعًا تحكمه العلاقات الودودة الحميمة، وهكذا تنشأ المجتمعات الآمنة الصالحة.

وصلى الله على معلم الناس الخير سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

١٩٠ - فدائية من عمة رسول الله ﷺ

في غزوة الخندق، أمر النبي ﷺ بنسائه ونساء المسلمين والأطفال، فجعلهم في حصن يقوم على حراسته وحمايته حسان بن ثابت ﷺ وبينما هم في الحصن، رأت صفية عمة رسول الله ﷺ يهوديًا جعل يطيف بالحصن، يتلصص النظرات، فقالت صفية - رضي الله عنها - لحسان بن ثابت ﷺ : انزل إليه فاقتله.

ولم ينزل إليه حسان، خشية أن يترك موقعه في حراسة الحصن فيتعرض لخطر.

فما كان من صفية - رضي الله عنها - إلا أن غافلت حسانًا وأخذت عمودًا من الحديد وانطلقت من حصنها إلى اليهودي فقتلته، ثم رجعت إلى حصنها.

(*) السيرة النبوية (٣/٢٤٧).

هذا موقف رائع فى الثبات والبطولة والشجاعة والإقدام، يمثل دوراً من أدوار فدائية المرأة فى الإسلام، ومشاركتها هموم الأمة وآلامها.

فهذه صفية عمة رسول الله ﷺ كانت من أوائل من استجاب لرسول الله ﷺ من أهله، وكانت كذلك من أوائل المبايعات، ولذا كانت أقرب عماته إليه.

وعندما أمر ﷺ المسلمين بالهجرة إلى المدينة، هاجرت مع أخيها حمزة وابنها الزبير بن العوام.

وشهدت مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها، وشاركت فى غزوة أحد فكانت تحمل الماء إلى المجاهدين وتأسو جراحهم، حتى أصيب المسلمون ونالتهم الشوكة، وانفض الناس عن رسول الله ﷺ. فقامت صفية الشجاعة المغوارة، وفى يدها رمح تضرب به فى وجوه الناس، وتقول: انهزمتم عن رسول الله ﷺ ؟!.

فلما رآها رسول الله ﷺ خاف أن تقع عينها على جثة حمزة، وقد قتل ومثلت به هند بنت عتبة، وبَقَرت بطنه وجدعت أنفه وأذنيه، فقال ﷺ للزبير:

«يا زبير، المرأة»، يقصد: أبعد أمك. فقال لها الزبير: يا أُمَّه إليك إليك، فإن رسول الله ﷺ يامرك أن ترجعى. فردت عليه الصابرة القوية قائلة: وَلِمَ وقد بلغنى أنه مُثِّل باخى، وذلك فى الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأصبرن وأحتسبن إن شاء الله، فجاء الزبير إلى رسول الله ﷺ وأخبره فقال ﷺ: «خلِّ سبيلها»، فأتت إلى حمزة رضي الله عنه واستغفرت له واسترجعت واحتسبته عند الله.

وكانت صفية دائمًا مع ابنها الزبير حوارى رسول الله ﷺ فى داره، وانتهى إلى المسلمين خبر الاتفاق بين قريش وغَطَفان ويهود بنى قريظة على حرب

رسول الله ﷺ وخروج الأحزاب من مكة بقيادة أبى سفيان. فضرب رسول الله ﷺ الخندق على المدينة، وأمر بنسائه ونساء المسلمين والأطفال فجُعِلوا فى الحصون والقلاع، وكان هذا رأى رسول الله ﷺ، ألا يشغل أحد بنسائه ما دُمْنَ فى مكان آمن بعيداً عن الأعداء، ونزلت صفية فى حصن حسان بن ثابت شاعر النبى ﷺ، وكان من أحصن آطام المدينة وأبنيتها، ونترك السيدة صفية تحكى ما حدث منها مع أحد اليهود أثناء إقامتهم فى الحصن، قال ابن إسحاق:

كانت صفية فى حصن حسان بن ثابت، قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من اليهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا، ورسول الله ﷺ والمسلمون فى نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت، فقلت: يا حسان، إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن، وإنى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل إليه فاقتله، قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله قد عرفت ما أنا بصاحب هذا. فقالت: فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئًا، احتجزت ثم أخذت عموداً، ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن. فقلت: يا حسان انزل إليه فاسلبه فإنه لا يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل.

بمثل هذه التضحيات تقوم الأمم، ويكون لنا المقدمة والسيادة، يرهبنا الأعداء، وتصان الأعراض، وتحفظ الحقوق.

سحائب الرحمة والرضوان على عمة رسول الله ﷺ وأخت سيدنا حمزة - رضى الله عنهما - فقد ضربت مثلاً لنساء المسلمين فى كل عصر ومكان فى البطولة والفداء، وكيف تكون المرأة المسلمة.

١٩١ - ما كنت لأفعل هذا !

لما علم بنو الحارث بوقوع خُبَيْب بن عَدِى فى الأسر أثناء استطلاعه أخبار قريش، أسرعوا لشرائه كى ينتقموا منه؛ لأنه قتل والدهم (الحارث) ببدر.

وبينما هم كذلك ، غفلت بنت الحارث عن صبيها، فجرى الولد حتى جلس فى حجر خُبيب بن عدى، ففزعت أمه خشية أن يقتل خُبيب الصبى.

فنظر خبيب للأم ؛ وقال :

أتخشين أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل هذا.

وترك الصبى يذهب لأمه.

ثم أسرعت قريش إلى خبيب فأوثقته وقتلته.

(*) الإصابة ، ترجمة خبيب.

هذا موقف يظهر عظمة دين الإسلام الذى ربط أتباعه بمنظومة من القيم والأخلاق لا تتخلف أبدًا، فهى ليست لأنفسهم فقط، وإنما تمتد منظومة القيم الإسلامية والأخلاق الإيمانية لتشمل التعامل مع الأعداء فى أوقات الأزمات والمحن.

وهذا ما ظهر من الموقف، فهذا خبيب بن عدى كان فى جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ (عشرة رجال) تحت إمرة عاصم بن ثابت، تقوم بمهمة استطلاعية عن تحركات قريش.. فعرفتهم قريش وأحاطتهم بمائة رجل، حتى وقع بعضهم فى الأسر واستشهد البعض الآخر.

وكان ممن وقع فى الأسر خُبيب بن عدى وصاحبه زيد بن الدثِنَّة، لم قتل المشركين زيد بن الدثِنَّة، وأخبروا خبيبًا بذلك يساومونه على الإيمان، وإلا قتلوه مثل صاحبه.

فاستأذن خبيب أن يصلى ركعتين، فأذنوا له ثم ساوموه مرة أخيرة على الإيمان ليكفر، فأبى، حتى إذا أجمعوا على قتله، وغفلت بنت الحارث عن صبيها فجرى إلى خبيب حتى جلس فى حِجره، ففزعت أن يقوم خبيب بقتل الصبى انتقامًا، فقال لها: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل هذا.

فترك الصبى لأمه؛ ليؤكد أن حماية الآمنين والأبرياء من أخلاق الإسلام.

وعلى الرغم من موقفه النبيل وتركه للطفل فقد كان موقف الأعداء منه التشفّى والانتقام، حيث أوثقوه مصلوبًا على جذع نخلة، وقبل أن ينزل السيف على جسده، اقترب أحد المشركين منه قائلاً:

أتحب أن محمداً مكانك وأنت سليم معافى فى أهلك؟

فصاح خبيب: والله ما أحب أنى فى أهلى وولدى فى عافية الدنيا، ويصابُ رسول الله ﷺ بشوكة!!

فقال الرجل المشرك : والله ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب أصحاب محمد محمداً !!

وهكذا يظهر لنا أيضًا أن حب الأتباع لقائدهم من أهم عوامل النصر وبناء الأمة، ولقد ضرب الصحابة أعظم المثل فى هذا الحب الذى يظهر منه التماسك لمجتمع المؤمنين.

١٩٢ - لا تمسك بأذن كلب الغنم

فُتن طالب علم بدقة حفظه وذكائه فى العلم، فأخذ يتتبع سبق القول وسقطات اللسان فى مجالس أهل العلم.

فناداه عالم مُرَبٍّ للنفوس وقال له: ابحث لى فى كتب السنة والمسانيد عن طرق حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه :

«مثل الذى يسمع الحكمة ويتبع شَرَّ ما يسمع، كمثل رجل أتى راعيًا فقال له : أجزرنى شاة من غنمك، فقال : اذهب فخذ خيرها شاة، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم».

فأدرك الطالب خطأه وانتهى عن تتبع العثرات.

(*) أخرجه أحمد (٢ / ٣٥٣)، وراجع إتحاف السادة المتقين (٦ / ٣٥٢).

هذا موقف يحمل تربية للنفوس التى يصيبها الغرور؛ فيدفعها إلى التعالى والتعاظم، ويدفعها إلى تتبع الأخطاء والعثرات وسقطات اللسان فينشرها عن أصحابها. ومثل هذا الطالب أفراد فى مجتمعنا المعاصر زين لهم الشيطان أعمالهم وأقوالهم، فاشتغلوا بتتبع العثرات، خاصة عند العلماء، أفراد يصنعون التهم، وهى فى الأعم الأغلب قائمة على الشائعات والتخمينات، أو على أمر الهوى والعاطفة والانتصار لرأى بعينه أو مذهب مُتبع.

أفراد يتعاملون مع البشر بقوالب جامدة ثابتة من الفهم، من وافقهم فيها كان ملاكًا رحيمًا، ومن خالفهم كان شيطانًا رجيمًا.

وفى الموقف كان نصح العالم من خلال حديث نبوى كريم يضرب فيه النبى ﷺ مثلاً قاسيًا لمن يتبع أسوأ ما يسمع، ومن ينشر عن الناس أسوأ ما سمع عنهم، قال النبى ﷺ : «مثل الذى يسمع الحكمة ويتبع شر ما يسمع، كمثل رجل أتى راعيًا فقال له : أجزرنى شاة من غنمك، فقال : اذهب فخذ خيرها شاة، فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم».

لقد ترك هذا الرجل جميع الغنم، ترك ما يصلح للذبح والأكل، وأخذ ما لا يصلح، وهذا لون من الضلال فى الاختيار.

وفى هذا تربية كريمة لسلوك المؤمن تجاه ما يسمع، فينبغى أن لا يقف المؤمن عند الهفوات ولا يتتبع العثرات والسقطات، وإنما سبيل المؤمن أن يصطفى أحسن ما قيل، وفى ذلك امتثال لقوله تعالى حين مدح عباده الفائزين بهداه:

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [الزمر/١٨].

عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قال: هو رجل يجلس مع القوم فيسمع الحديث فيه محاسن ومساوئ، فيحدث بأحسن ما سمع ويكف عما سواه.

وذلك لأن المؤمن حريص على فعل ما هو أكثر ثوابًا عند الله تعالى، ولا ينشر إلا الخير، ولا يلتمس لأحد عيبًا.

روى الطبراني في «الصغير» و«الأوسط» بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أحبكم إلى أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا، الذين يألفون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلى المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبرآء العيب»(١).

وكم كان النبي ﷺ يجأر إلى الله تعالى مستعيذًا من الخلاف والشقاق والنزاع، من ذلك ما رواه أبو داود والنسائي بسنديهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق»(٢).

ولا يغيب عن بالنا أن غالب المسلمين يعلم حدود الحلال والحرام، وليست القضية إثبات خطأ المخطئ وتجريمه، إنما القضية تتمثل في حمل النفس على الالتزام بالحلال وهجر الحرام، وفي المعونة التي تقدمها لأخيك في التغلب على نفسه وهواها.

القضية أن الدعوة إلى الله تعالى إعانة وليست إدانة، كما أنه ليس من المناسب للمبتدئ أو العامة الاشتغال بالنقد خاصة لأهل العلم، فأدوات النقد ومعطياته عند المبتدئ قليلة وقاصرة، وتصل به إلى نتائج مضللة غير

---

(١) مجمع الزوائد (٨/ ٢١). (٢) النسائي (٨/ ٢٦٤).

صحيحة، والمسألة هنا مسألة وعى وفهم للنصوص وليست مسألة امتلاك حفظ النصوص ومعرفتها فحسب.

ثم إن المبتدئ متبع مقلد وناقل، له أن يتبع ما اطمأن إليه قلبه وصح فى فهمه من آراء أهل العلم، لكن ليس له تسفيه آراء الآخرين، وليس له أيضًا فرض فهمه على الآخرين.

وحسبنا هنا أن نتأمل مواقف أئمة الدين فى عصور الإسلام الأولى، كيف أنهم لم يلزموا الناس الأخذ بمذهبهم، وكانوا لا يرون غضاضة فى الخلاف، وكان الواحد منهم إذا رأى الصواب أو الأفضل فى غير رأيه، لا يأنف أن يرجع إليه؛ فالإمام أبو حنيفة مثلاً كان يفضل الصدقة على حج التطوع، فلما حج ورأى مشقة الحج عاد عن قوله هذا إلى تفضيل حج التطوع على الصدقة.

وجدير بالذكر فى هذا المقام موقف الإمام مالك رضي الله عنه الذى لم يرض للخليفة هارون الرشيد أن يجبر جميع المسلمين على العمل بكتابه «الموطأ» رغم شدة تحرى الإمام مالك فى روايته له وموافقة علماء الدين له، وعلّل الإمام مالك رفضه هذا بقوله : إن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا فى البلاد، وقد يكون عند بعضهم من الأحاديث ما لم يبلغنى، ولو بلغنى لغيرت شيئًا مما دونته.

وكان بعضهم يعمل باجتهاد غيره؛ ترخصًا أو موافقة لجماعة المسلمين، من هذا ما روى عن الإمام أحمد رضي الله عنه فقد كان يرى الجماعة أن الحجامة والفصد تنقض الوضوء، فسئل عن الإمام احتجم وقام إلى الصلاة ولم يتوضأ، هل يصلى الإمام أحمد خلفه؟ فقال : كيف لا أصلى خلف مالك وسعيد بن المسيب ؟

وروى أن الشافعي ترك القنوت في الصبح لما صلى مع جماعة الحنفية في مسجد إمامهم ببغداد.

فبهذه الروح الطيبة وبهذا التسامح حمل أئمة السلف راية الدين، دون انتصار لهوى أو تعصب لرأي؛ لهذا حفظهم الله وصانهم من التحاسد والتخاصم، وانتفعت الأمة بعلمهم وبأعمالهم، وكان اختلاف الرأي عندهم عامل صحة وليس عامل هدم؛ لأن كلاً منهم كان ينشد الصواب والأفضل حتى لو ظهر على يد غيره، وكانت آراؤهم ثمرات متعددة لشجرة واحدة هي شجرة الكتاب والسنة، فرضي الله عنهم وجزاهم عنا خير الجزاء.

كما يستفاد من الموقف : الحكمة في دعوة الشاردين، ومعرفة الباب الذي نأتيهم منه، حتى تثمر الموعظة معهم.

لذلك جاءت نصيحة العالم المربي للطالب المغرور من باب يميل إليه الطالب، وهو رؤية النفس والذات في عمله وأنه في موضع الإفادة للغير وحل مشكلات العلم.

١٩٣ - خطوات الشيطان

كانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها أربعة إخوة، وكانت تأوى بالليل إلى صومعة راهب، ففجَر بها الراهب فحملت، فأتاه الشيطان؛ فقال له :

اقتلها ثم ادفنها، فإنك رجل مصدق يسمع قولك، فقتلها ثم دفنها، فأتى الشيطان إخوتها فى المنام، فأخبرهم بما حدث ودلَّهم على مكان دفنها، فلما أصبحوا قال رجل منهم : والله لقد رأيت البارحة رؤيا فقصها، فقال الآخر : وأنا والله لقد رأيت ذلك، فقال الثالث : وأنا والله قد رأيت ذلك .

فانطلقوا فأتوه فأنزلوه، ثم انطلقوا به إلى ملكهم، فلقيه الشيطان، فقال للراهب : إنى أنا الذى أوقعتك فى هذا، ولن ينجيك منه غيرى، فاسجد لى سجدة واحدة كى أنجيك مما أوقعتك فيه، فسجد له، فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأُخذ فَقُتل .

فنزل فيه قول الله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[الحشر/١٦] .

(*) راجع تنبيه الغافلين ، ص ٢١٢ .

هذا الموقف يذكرنا بالواقع المر المتمثل فى جماعة عبدة الشيطان. لقد كانت الصدمة أليمة ومفاجئة حين طالعتنا وسائل الإعلام بخبر جماعة اتخذت الشيطان لها معبوداً، وهذه المشكلة قد تكون مألوفة فى مجتمعات الشرك والكفر، لكنها غريبة حين تظهر فى مجتمع إيمانى، آيات القرآن تتلى فيه صباح مساء، وسنة النبى ﷺ تملأ الآفاق.

والتأمل المتأنى للمشكلة فى ضوء القرآن الكريم تظهر له أبعادها، ويقف بنا عند الحقيقة الواضحة البينة، دون غموض أو تحير.

لقد تناول القرآن المشكلة من لحظة الميلاد، وقصة السجود لآدم، والأكل من الشجرة المحددة، ثم توبة آدم، ثم أمر الله تعالى آدم وزوجه بالهبوط إلى الأرض، ثم قال تعالى :

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة /٣٨].

وأشارت آيات القرآن الكريم إلى نوع العلاقة بين بنى آدم والشيطان، ووضحت أنها علاقة عدائية؛ فهى لون من الصراع بين الخير والشر، قال تعالى :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف/٥].

وفَصَّلت الآيات أبعاد المشكلة، وأشارت إلى الحلول الشافية، حتى وصلت بنا إلى عرض للحظة الخوف بين يدى الله تعالى، وحساب الله تعالى لابن آدم على اتباع خطوات الشيطان، قال تعالى :

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴾ [يس/ ٦٠-٦٢].

● **الدوافع والأسباب ... المشكلة والواقع :**

حين نعود من المنطوق الشامل الذى تناول فيه القرآن الكريم المشكلة إلى واقع المشكلة المعاصرة؛ نرى أن جماعة عَبدَة الشيطان صورة من صور التسلط الشيطانى على قلوب خلت من إيمان بالله يحفظها، وعلى نفوس تربّت على موائد فكرية مسممة، فلم تستطع أن تتبصر أمرها، فنال منها هذا السم الفكرى. ولعل هذا يدفعنا إلى بذل الجهد فى الوقوف على الأسباب والدوافع التى وراء هذه المشكلة، فأصابع الاتهام تشير إلى الأسباب التالية :

(١) غياب التربية الإيمانية على موائد القرآن والسنة يأتى فى قمة العوامل، فلابد من إعادة النظر فى مناهج التربية الإسلامية والتمكين لها، والعمل على أن تكون واقعًا يعمل به.

(٢) الأفكار المخالفة لعقيدتنا الإسلامية وآدابنا الشرعية، التى تأتى وافدة عبر الإعلام بوسائله المختلفة. ولقد أصبحنا بقصد أو بغير قصد نمكن لهذه الأمور دون وعى بخطورة النتائج المترتبة على ذلك، وفى يقينى أننا بهذا نعيد تجربة قاسية، حين سمح لبعض الأفراد فى فترة زمنية من تاريخ هذا البلد أن يستوردوا الطعام الفاسد والدواء االفاسد، وكان من النتائج المدمرة لذلك أن الضرر لم يسلم منه أبناء من تعجلوا الانتفاع المادى السريع دون مبالاة بالضرر الناتج عن ارتكاب هذه الأفعال المخالفة دون مبالاة بالضرر الناتج. والأفكار المسممة لا تقل خطورة عن الطعام المسمم، بل تزيد.

(٣) الصورة التى وصلت إليها الأسرة المصرية من غياب للزوج طول الوقت أمام ضروريات الحياة فى دنيا الناس، ثم فى المقابل تخرج الزوجة طوال الوقت، إما لاستكمال ضروريات الحياة التى عجز الزوج عن الوفاء بها، أو

بحثًا عن تحقيق ذاتها على حد تعبير بنات حواء.

وإنى أتساءل : مَنْ للأبناء فى غيبة الآباء والأمهات ؟! من يصحح ؟! من يوجه ؟! من يلاحظ ويراقب ؟! وأظن أن الدنيا كلها لا يمكن أن تقوم بدور الأم والأب عند فقده.

(٤) العملية التعليمية المعاصرة، وأنماط الشخصية التى وصل إليها المدرس المعاصر؛ قد نلتمس له العذر أمام التقصير فى بعض الأمور، لكن يبقى التساؤل : إن لم يكن لهذا المنبع الأخلاقى التربوى وجود فى حياة أبنائنا، فأنَّى لهم الأسوة الحسنة ؟ وأين القدوة الطيبة ؟ أم أن الأمر جعل الأسوة والقدوة منحصرة فى مجال كرة القدم والتمثيليات والأغانى، فى حين غابت هذه الأسوة عن مجال الدين والعلم والتربية والأخلاق ؟

حتى فى مجال الدعوة والوعظ الدينى نجد كثيراً من علامات الاستفهام :

أولاها : عدم التمكين لعلماء الأمة لصياغة عقل الأمة وفكر الشباب، وإقالة النماذج التى لها الكفاءة العلمية، والقدرة على التأثير الإيجابى فى واقع الأمة.. لمصلحة من هذا ؟!

وثانيتها : الاختلافات التى تملأ الساحة، والتى تصل إلى حد التناقض والخلاف، دون وعى عند عرض الأمور التى تحتمل أكثر من رأى، وعدم احترام الرأى الآخر، أو مناقشة الأمر بعيداً عن العصبية.

وكم تؤلمنى الحيرة التى تظهر على وجوه الشباب حديثى السن حين يشوش الخلاف عليهم الرؤية، ويعكر عليهم فرصة الاختيار؛ مما جعلهم ينصرفون عن كل العمائم ويكفرون بها، باحثين عن أمل جديد.

والسؤال الآن : متى ترتفع هممنا للبناء لا للخلاف ؟

متى لا ينتصر أحد لهواه، ولا يتعصب أحد لرأيه ؟

لابد أن نصل لإجابات شافية عن هذه الأسئلة، بدلاً من التشتت والتفرق والاختلاف المذموم الذى يُوقع بنا فى مشكلة أخرى، وهى مشكلة الاختيار بين حلول المشكلة ؟

كل هذه الدوافع والأسباب كانت مقدمات أدت إلى مشكلة عبدة الشيطان، وكما قال الشاعر :

هيهات تجنى سُكَّرًا من حنظل فالشىءُ يرجع فى المذاق لأصله

الحل :

القرآن يشير بدقة ووضوح إلى الحل، حيث قال تعالى :

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة/٣٨].

وقد أفادت البشرية فى عمرها الطويل من هذا الحل، ويشير واقع الإنسانية على اختلاف العصور إلى أن النجاة والخلاص والأمان يتأتى لنا حين نتحلى بهدى القرآن الكريم، وهدى السنة النبوية المطهرة.

وهذا الحل الإسلامى له أبعاد يمكن إجمالها فى التالى :

(١) الحرص على تعليم الشباب العلم الذى يقربه إلى الله عز وجل : علم الإيمان (العقيدة)؛ حتى يحيط الشباب بالإجابات الشافية عن هذه الأسئلة الحائرة : ما هذه الحياة ؟ ولماذا وجدنا فيها ؟ وما المصير ؟ وما سبيل الأمن والأمان فى الدنيا والآخرة ؟

وآيات القرآن الكريم تقدم الزاد الشافى، إنها تشكل الشباب تشكيلاً

إيمانيًا، فيهتدى العقل الحائر ويمتلئ القلب الفارغ، وتطمئن النفس المضطربة. كما تقدم الآيات التعريف بالعدو الحقيقى، وحجمه الحقيقى، وتكشف عن أساليبه الماكرة، وتفضح سياسة الخطوة خطوة، من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة/١٦٨].

إن الشيطان لا يرضى من الإنسان المعصية فحسب، بل غاية ما يرضاه الكفر، وبعد أن يوقعه في الكفر، يتبرأ منه، قال تعالى:

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحشر/١٦].

وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «فقيه واحدٌ أشد على الشيطان من ألف عابد»[١].

وقال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقه فى الدين»[٢].

(٢) تربية النفس على الطاعة، وتعويدها على التزام ذكر الله عز وجل، فالذكر والطاعة حصن وحماية، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف/٢٠١].

وقال عز من قائل: **﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾** [الزخرف/٣٦].

وقدمت السنة النبوية ألوانًا من الذكر تشمل جوانب الحياة من مأكل ومشرب وحركة وسكون، حتى يكون الإنسان فى مأمن من هذا العدو اللدود.

---

(١)، (٢) سبق تخريجه.

(٣) البيئة الإيمانية التى ينبغى أن نقدمها للشباب ليرى فيها الأسوة والقدوة ويعيش فيها نسمات الإيمان والرحمة والسكينة والاطمئنان .

ولا أظن أن هذه البيئة يستطيع أن يقدمها ملهى أو مرقص أو سوق تجارية!

إن للهداية بقاعًا تُلتَمس فيها، وروضات هى منبع لها، وتتمثل فى المساجد ومجالس العلم والذكر.

١٩٤ - ذهب أهل الدثور بالأجور

جاء بعض الصحابة إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا :

يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نُصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفُضول أموالهم.

فقال النبي ﷺ :

«أوليس قد جعل الله لكم ما تصدَّقون به؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضعِ أحدكم صدقة».

قالوا : يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!

قال : «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر».

(*) سبق تخريجه.

هذا موقف يفيض بعظات وعبر، منها :

كثرة طرق الخير، فإن عجز الإنسان عن طريق أو أُغلق دونه باب، فأمامه أبواب كثيرة لفعل الخيرات والقربات لله تعالى.

ولا يتوقف فعل الخيرات وتحصيل الثواب على امتلاك الأموال وإنفاقها كما يتوهم كثير من الناس، لقد أرشد النبى ﷺ إلى باب سهل ميسور لجميع الناس يمكن من خلاله أن يُحَصِّل الإنسان عظيم الأجر والثواب. إنه ذكر الله عز وجل.

ثم أرشد النبى ﷺ إلى باب آخر وهو باب النية، فالنية الصالحة تحوّل أعمال العادات إلى عبادات وقربات يُثاب الإنسان عليها من الله تعالى، وأعطى النبى ﷺ مثالاً لذلك بشهوة الإنسان حين يضعها فى الحلال ينوى العفة لنفسه وأهله، فإن له بها عند الله أجرًا.

وهذا من سعة رحمة الله تعالى بعباده ؛ أن جعل أبواب الخير متنوعة وعديدة، ليجد كل إنسان ما يناسب حاله ومشربه. والمتأمل لأبواب الخير وأحوال العباد يرى أن لكل عبد بابًا يسّره الله تعالى له.

فباب الزوجة مع الله فى حسن التبعّل لزوجها وحسن تربية أولادها، وباب العالم أن يُعلِّم الناس مخلصًا لله، وألاَّ تأخذه فى الحق لومة لائم، وباب التاجر الأمانة والصدق، حتى الخادم له باب مع الله تعالى، فإخلاصه فى مال سيده وأمانته تجعل له مثل أجر سيده مرتين.

والقاضى بابه مع الله تحرى الحق والعدالة فى الحكم بين الناس، وهكذا لكل عبد باب مع الله عز وجل، وبابك مع الله هو ما أقامك الله فيه من عمل صالح.

وإذا أخلص العبد فى بابه مع الله تعالى كان من أهل الجنة، ينادى عليه من هذا الباب يوم القيامة.

فإن ضعف الإنسان عن بعض العمل، فرسول الله ﷺ ينصحنا أن لا نحرم أنفسنا من خير الله تعالى، وذلك بأن يكف الإنسان شره عن الناس، فإن ذلك صدقة منه على نفسه.

١٩٥ - وعليَّ جمع الحطب

كان النبي ﷺ في سفر، وأمر أصحابه بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله، عليّ ذبحها.

وقال الآخر: عليّ سلخها.

وقال الآخر: عليّ طبخها.

فقال رسول الله ﷺ: «وعليَّ جمع الحطب».

فقالوا: يا رسول الله نكفيك العمل.

فقال ﷺ: «علمت أنكم تكفونني، ولكني أكره أن أتميز عليكم، وإن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه».

(*) راجع إتحاف السادة المتقين (١٠٢/٧).

هذا موقف نبوى كريم يقدم لنا عظات هادية وعبراً نافعة وقيماً مهمة. كان الصحابة مع النبى ﷺ فى صحبة ودودة أشبه برحلات الأصدقاء والأصحاب الذين تجمعهم الألفة والمودة والحب فى الله عز وجل، بعيداً عن معايير المؤسسات وضوابط العمل فى إطار الوظيفة، وما يتطلبه من مراعاة الدرجات الوظيفية من إشراف وإدارة وقيادة ونحو ذلك. فالتصرف فى مثل هذه اللقاءات يتم بروح الأسرة والأخوة والتعاون.

ولقد رغب الصحابة أن يكفُوا رسول الله ﷺ العمل لإحساسهم بقدره العظيم ﷺ عند ربه ومكانته العالية فى نفوسهم، لكن النبى ﷺ يعطى الأسوة فى مشاركة إخوانه يداً بيد دون تمايز بينهم.

القيمة الأولى هى : توزيع الأدوار، وهو من أسس نجاح العمل الجماعى، كى يتكامل جهد المجموع فى إتمام العمل.

ورأينا فى الموقف كيف تم توزيع الأدوار بين الصحابة فى إصلاح الشاة للطعام، فمنهم من قام بالذبح، ومنهم من قام بالسلخ، ومنهم من قام بالطبخ، واختار النبى ﷺ مهمة جمع الحطب.

وهكذا نرى أن توزيع الأدوار فى العمل يتحقق من خلاله المشاركة المثمرة الفعالة التى تتكامل فيها الجهود ولا تتعارض.

القيمة الثانية هى: حسن معاشرته ﷺ، حيث كره ﷺ أن يتميز على أصحابه، يظهر هذا من الموقف حين قال له الصحابة : إنا نكفيك العمل.

فقال ﷺ : «علمت أنكم تكفوننى، ولكنى كرهت أن أتميز عليكم، وإن الله تعالى يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه».

وهذا من فضائله وشمائله ﷺ، فقد كان ﷺ حسن المعاشرة والتواضع لإخوانه. وكان حب الصحابة لرسول الله ﷺ يعجب منه الأعداء وقد دُهِشوا

حتى قال قائلهم: والله ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب صحابة محمد لمحمد ﷺ.

وإن كان هذا حال خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الذى أولاه الله من النعيم ما أولاه: من نعمة النبوة والرسالة والتفضيل، فعلام التعالى والتمايز والتفاخر بين الإخوان أو الزملاء والأصحاب ؟!

فهذا رسول الله ﷺ يختار أشق الأعمال وهى جمع الحطب.

القيمة الثالثة هى: أن النبى ﷺ يربى فى أصحابه روح الجماعة، روح الفريق، وفى هذا تعليم وتربية للأمة على التماسك والتآلف والتكامل، والسنة المطهرة تؤكد هذه الحقيقة فيقول ﷺ :

« والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه »(١).

« إن الله مع الجماعة »(٢).

« صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة »(٣).

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا »(٤).

وما أحوجنا إلى التأسى برسول الله ﷺ فى جمع شمل المسلمين وتعلم العمل بروح الفريق وبروح الجماعة، بدلاً من الفردية والأنانية والتمزق والتفرق الذى أضعف الأمة.

---

(١) رواه مسلم فى الذكر (٣٨).   (٢)، (٣)، (٤) سبق تخريجه

١٩٦ - تغرس وأنت شيخ كبير !

مرَّ رجل على أبى الدرداء الصحابى الزاهد ﷺ فوجده يغرس فسيلة من النخيل، وهو فى شيخوخته وهرمه، فقال له :

أتغرس هذه الفسيلة وأنت شيخ كبير، وهى لا تثمر إلا بعد كذا وكذا عامًا ؟!

فقال أبو الدرداء :

وما علىَّ أن يكون لى أجرها، ويأكل منها غيرى !!

(*) رجال حول الرسول (٣٥٣).

هذا موقف يفيض بالعظات النافعة والعبر الهادية :

أولاها هى : الإعلاء من قيمة العمل حتى آخر العمر، فهذا شيخ هرم يشتغل بغرس الشجر وفلاحة الأرض، إنه يضيف لمجتمعه قوة إنتاجية مدخرة للأجيال القادمة، ولم يرض الشيخ الهرم أن يكون عبئًا على مجتمعه، لم يرض لنفسه أن يكون بين المستهلكين الذين لا حظَّ لهم فى إنتاج أو عمل.

ويمثل هذه الهمم والروح العالية من العمل حتى آخر لحظة من العمر تتقدم وترقى المجتمعات وتتحقق عمارة الأرض. إن قيمة العمل حتى آخر لحظة من العمر، إلى آخر خطوة من خطوات الحياة، حتى آخر نفس – يؤكدها قول النبى ﷺ :

«إن كان بيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم الساعة، فليغرسها، فله بذلك أجر»[١].

وهكذا نرى الأمر الصريح من رسول الله ﷺ يغرس فسيلة النخيل التى لا تثمر إلا بعد سنين. والقيامة فى طريقها أن تقوم !!

والفسيلة هنا إشارة لكل عمل نافع يشتغل الإنسان به، فينبغى أن لا يدع الإنسان عمله حتى آخر لحظة من حياته، حتى إذا وقع أمر الله وكانت الوفاة كان أجره على الله عز وجل.

وقد أعلى الإسلام من قيمة السعى والعمل من أجل الأبناء والآباء، فقد مر النبى ﷺ على رجل فرأىٰ أصحاب رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا فى سبيل الله ؟

فقال رسول الله ﷺ : «إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو فى سبيل

---

(١) سبق تخريجه.

الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء أو مفاخرة فهو فى سبيل الشيطان»[١].

ثانيتها هى : العمل من أجل الغير.

إنهم – رضى الله عنهم – كما يرون فى العمل تحصيل الثواب من الله ، فإنهم أيضًا يرون فى العمل خلق الوفاء للأجيال القادمة، فكما وجد عند نشأته الكثير من الخيرات التى انتفع بها من عمل الأجداد والآباء – ينبغى على الإنسان أن يكون وفيًّا، ويؤدى دوره ويقوم بواجبه نحو الأجيال القادمة.

لقد غرس لنا مَنْ قبلنا، فينبغى أن نغرس لمن بعدنا.

كما يؤكد الموقف أن المسلم ينال الأجر من الله تعالى على عمله حين ينتفع به الغير، وهذا موافق لقول النبى ﷺ :

«ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[٢].

---

(١) سبق تخريجه. (٢) رواه البخارى (٣/١٣٥)، ومسلم فى المساقاة (١٢).

١٩٧ - فعرف حُلَّتــــه

كان عند يونس بن عبيد حُلل مختلفة الأثمان : قسمٌ قيمة كل حُلَّة منه أربعمائة ، وقسم كل حُلَّة منه قيمتها مائتان ، فمرَّ إلى الصلاة وترك حُلَل المائتين ، فجاء أعرابى فاستحسنها ورضيها ، فاشتراها فمضى بها وهى على يديه ، فاستقبله يونس فعرف حُلَّته ، فقال للأعرابى : بكم اشتريت ؟ فقال بأربعمائة ، فقال : لا تساوى أكثر من مائتين ، فارجع حتى تردَّها ، فقال : هذه تساوى فى بلدنا خمسمائة وأنا رضيت ، فقال له يونس : إن النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها ، ثم ردَّه إلى الدكان ، وردَّ عليه مائتى درهم ، وعنّف ابن أخيه فى ذلك وقال له : أما استحييت ؟ أما اتقيت الله ؟ تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين ؟

فقال ابن أخيه : والله ما أخذها إلا وهو راضٍ بها .

قال : فهلاَّ رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟

(*) راجع ترجمته فى حلية الأولياء .

أنعم وأكرم بهؤلاء المؤمنين، الذين استجابوا لله ولرسوله، فأحلوا ما أحل الله، وحرموا ما حَرَّمَ الله، علموا أن الله رقيب عليهم فأحسنوا وأخلصوا، فما غرتهم الحياة الدنيا وما غرَّهم بالله الغرور.

وهذا شأن من استجاب لهدى الله تعالى وتأسى بسنة رسول الله ﷺ يوفقه الله تعالى إلى ما يحب ويرضى.

والموقف درس عظيم الفائدة فى صدق المعاملة فى البيع والشراء، وهذا هدى إسلامى أوصانا به الحبيب المصطفى، قال ﷺ :

« التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء »(١).

وجعل النبى ﷺ الصدق فى البيع والشراء سببًا لتحصيل بركة الله تعالى، قال ﷺ :

« البيِّعان (أى البائع والمشترى) بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صدق البيعان وبيَّنا بورك لهما فى بيعهما، وإن كتما وكذبا فعسى أن يربحا ربحًا ويمحقا بركة بيعهما »(٢).

والمؤمن يبتغى الربح الأعلى عند الله تعالى، ويقدمه ويفضله على الربح الأدنى فى دنيا الناس.

وقد أكد الموقف هذه القيم الإيمانية من الصدق والأمانة فى البيع والشراء، حيث رأينا يونس بن عبيد لما عاد من صلاته، ووجد ابن أخيه قد باع حُلَة بأكثر من سعرها، نصح المشترى وبَيَّن له سعر الحُلَة الحقيقى، وردَّ له الباقى، وعَنَّف ابن أخيه قائلاً : أما اتقيت الله ؟ أما استحييت ؟ تربح مثل الثمن وتترك النصح للمسلمين، فقال ابن أخيه : والله ما أخذها إلا وهو راض بها.

---

(١) أخرجه الترمذى (١٢٠٩)، وحسنه.
(٢) أخرجه البخارى (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢).

قال له يونس بن عبيد : فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك ؟

وهكذا نرى حرص المؤمن على الحلال ابتغاء مرضاة الله تعالى.

وفى المقابل نجد أن رسول الله ﷺ قد حذر من ترويج السلع والبضائع بالحلف الكاذب حيث قال ﷺ :

« ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم ». ثالثهم: « المُنفق سلعته بالحلف الكاذب » [١]، أى : الذى يروِّجها بالحلف الكاذب.

ولكل عصر أيمانه الكاذبة فى ترويج السلع، ويدخل فى ذلك من يُعلن عن سلعته بإعلانات مغرية جذابة، يذكر من الأوصاف الحسنة ما ليس فيها، كى يُرغِّب الناس فى شرائها.

ومن عبر الموقف أيضًا: أهمية النصح فى الدين، حيث قال يونس بن عبيد لابن أخيه : النصح فى الدين خير من الدنيا بما فيها.

وهذا من هدى الحبيب النبى ﷺ : قال ﷺ : « الدين النصيحة » . فقالت الصحابة : قلنا: لمن يا رسول الله؟، قال ﷺ : « لله ولرسوله ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم »[٢].

ودافع النصيحة لعامة المسلمين عند المؤمن أنه يحب الخير والمنفعة للآخرين كما يحب لنفسه، ويرضى لهم ما يرضاه لنفسه.

وهذا من كلام الإيمان بالله عز وجل ، قال رسول الله ﷺ :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[٣].

---

(١) أخرجه مسلم فى الإيمان (١٧٤) . (٢) أخرجه مسلم فى الإيمان (١ / ٧٤).
(٣) سبق تخريجه.

ملحق

من قصص الرسول ﷺ

هذه مواقف بعضها عن الأمم السابقة حكاها النبى ﷺ لأمته، وبعضها الآخر عن الصحابة - رضى الله عنهم- وكلها مواقف تتسم بالطول على غير عادة مواقف الكتاب، لكنى أحببت أن ألحقها هنا بالكتاب لما فيها من عبر هادية ومواعظ نافعة.

وصلى الله على معلم الناس الخير سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

١٩٨ - الغلام والساحر والملك

عن صُهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«كان ملكٌ فيمن قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك :

إني قد كبرت فابعث إليَّ غلامًا أعلمه السحر؛ فبعث إليه غلامًا يُعلمه، وكان في طريقه إذا سلك راهبٌ، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، وكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال له :

إذا خشيت الساحر فقل : حَبَسَني أهلي، وإذا خَشيت أهلك فقل : حبسني الساحر.

فبينما هو على ذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال :

اليوم أعلَم الساحر أفضل أم الراهب أفضل ؟

فأخذ حجرًا فقال :

اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضي الناس.

فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره.

فقال له الراهب :

أى بُنَىَّ، أنت اليوم أفضل منى، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستُبْتَلى. فإن ابتليت فلا تدلَّ ندل علىَّ؛ وكان الغلام يُبرئ الأكمه والأبرص، ويداوى الناس من سائر الأدواء.

فسمع به جليس للملك كان قد عمى، فأتاه بهدايا كثيرة فقال :

ما ها هنا لك أجمع إن أنت شفيتنى، فقال :

إنى لا أشفى أحداً، إنما يشفى الله عز وجل، فإن آمنت بالله تعالى دعوت الله فشفاك، فآمن بالله تعالى فشفاه الله عز وجل، فأتى الملكَ فجلس إليه كما كان يجلس، فقال له الملك :

من رد عليك بصرك ؟

قال : ربى.

قال : ولك ربٌّ غيرى ؟!

قال : ربى وربك الله.

فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك :

أى بنى، قد بلغ من سحرك ما تُبْرئُ الأكمه والأبرص وتفعل

وتفعل. فقال: إني لا أشفي أحداً إنما يشفي الله تعالى، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دَلّ على الراهب؛ فجيء بالراهب فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه حتى وقع شقاه، ثم جاء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به حتى وقع شقّاه، ثم جيء بالغلام فقيل له : ارجع عن دينك، فأبى، فدفع به إلى نفرٍ من أصحابه فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فاطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك.

فقال له الملك : ما فُعِلَ بأصحابك ؟

فقال : كفانيهم الله ، فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال:

اذهبوا به فاحملوه في قرقور وتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقذفوه، فذهبوا به، فقال : اللهم اكفنيهم بما شئت، فانكفأت بهم السفينة فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك.

فقال له الملك : ما فُعِلَ بأصحابك ؟

فقال : كفانيهم الله تعالى.

فقال للملك : إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به .

قال : ما هو ؟

قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، وتَصْلِبَني على جذع ، ثم خذ سهمًا من كنانتي ، ثم ضع السهم في كبد القوس ثم قل : باسم الله رب الغلام ، ثم ارمني ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني .

فجمع الناس في صعيد واحد ، وصلبه على جذعٍ ، ثم أخذ سهمًا من كنانته ثم وضع السهم في كبد القوس ، ثم قال : بسم الله رب الغلام ، ثم رماه فوقع السهم في صُدغِه ، فوضع يده في صدغه فمات .

فقال الناس : آمنا برب الغلام ، فأتي الملك فقيل له : أرأيت ما كنت تَحْذَرُ ؟ قد والله نزل بك حَذَرك . قد آمن الناس . فأمر بالأخدود بأفواه السكك فَخُدَّت وأُضرمَ فيها النيران ، وقال : من لم يرجع عن دينه فأقحموه فيها أو قيل له : اقتحم ، ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها ، فتقاعست أن تقع فيها ، فقال لها الغلام ، يا أماه اصبري فإنك على الحق» .

---

(١) رواه مسلم .

وبتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العبر التالية :

الأولى : أن مراد الله غالب، فقد دبر ورتب وخطط الساحر والملك للغلام أن يكون ساحرًا، وأراد ربك للغلام أن يكون داعية، فكان ما أراد الله تعالى .

الثانية : من كان فى عناية الله وحفظه لا يضره شىء، فقد حاول الملك وجنوده إلحاق الضرر والهلاك بالغلام فلم يستطيعوا .

الثالثة : بركة الدعاء والاستغاثة بالله عز وجل، فلما دعا الغلام : اللهم اكفنيهم بما شئت، كفاه الله تعالى أذاهم ومكرهم، وفى القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة/١٣٧] .

الرابعة : صبر أهل الحق فى زمن الفتن والمحن، فأنت ترى أنهم عذَّبوا الراهب ووضعوا المنشار فى مفرق رأسه، وأن الملك قد حفر أخدودًا وأضرم فيه النيران وألقى من آمن من الناس فيه جملة .

الخامسة : أنه لا حرج على فضل الله أن يكرم عبدًا من عباده بكرامة من الكرامات . فالأمر كله لله .

السادسة : أن من أكرمه الله بكرامة فينبغى أن ينسب الفضل فيها لله، ولا يرى لنفسه من أمرها شيئًا، كى لا يفتن الناس، وهكذا قال الغلام لمن يأتيه طالبًا الشفاء، يقول : أنا لا أشفى، وإنما الذى يشفى هو الله .

السابعة : معونة الله وتأييده لأهل الحق، فرأينا الصبى قد أنطقه الله قائلاً : يا أماه اصبرى فإنك على الحق .

الثامنة : الإخلاص لله تعالى سر الأسرار فى القرب من الله تعالى ونيل بركاته . والحمد لله رب العالمين .

١٩٩ - أُوَيْسٌ القرنى وسيدنا عمر ﷺ

كان عمر بن الخطاب ﷺ إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس ﷺ، فقال له : أنت أويس بن عامر ؟

قال : نعم.

قال : فكان بك بَرَصٌ، فبرأت منه إلا موضع درهم ؟

قال : نعم.

قال : لك والدةٌ ؟

قال : نعم.

قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به بَرَص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل، فاستغفر لى. فاستغفر له.

فقال له عمر ﷺ : أين تريد ؟

قال : الكوفة.

قال : ألا أكتب لك إلى عاملها ؟

قال : أكون فى غبراء الناس أحب إلىَّ.

فلما كان من العام المقبل حج رجل من أشرافهم، فوافى عمر، فسأله عن أويس، فقال: تركته رَثَّ البيت قليل المتاع، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يأتى عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن، من مراد ثم من قرن ،كان به بَرَصٌ، فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل».

فأتى الرجل أُويسًا ، فقال : استغفر لى.

فقال : أنت أحدث عهداً بسفرٍ صالح، فاستغفر لى.

قال: لقيت عمر؟ قال : نعم، فاستغفر له، ففطن له الناس، فانطلق على وجهه.

(*) رواه مسلم.

وبتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العبر الآتية:

الأولى : فضل بر الوالدين، وبخاصة الأم، وأنه من أفضل القربات لله تعالى التى يرفع بها شأن فاعله فى الدنيا والآخرة. فقد نال أويس ما نال من المكانة العالية بسبب بره بأمه.

الثانية : أن قلة المتاع وفقر الحال فى أمر الدنيا ليس دليلاً على هوان العبد على الله تعالى، فقدكان أويس فقير الحال رثَّ البيت قليل المتاع، لكنه على درجة عالية محمودة عند الله تعالى، إذ قال عنه النبى ﷺ : «لو أقسم على الله لأبره».

الثالثة : أن طلب الدعاء من الصالحين سنة محمودة، وقد أوصى رسول الله ﷺ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يسأل أويسًا القرنى رضي الله عنه أن يدعو له، وقد فعل سيدنا عمر رضي الله عنه .

الرابعة : أن الصالحين لا يحبون الشهرة ولا الصيت الذائع بين الناس، بل يهربون من ذلك، إنهم يخشون فتنة الشهرة ورياء السمعة، لقد آثروا ذكر الله على ذكر الناس، فذكر الله يبقى وذكر الناس يفنى، لذلك لما رأى أويس القرنى أن شهرته بين الناس قد ذاعت ذهب إلى مكان مجهول.

فما بالنا بأحوالنا المعاصرة نتقاتل على الشهرة ونضحى فى سبيلها، ونبحث عنها؟! اللهم سَلِّم وردنا إلى الإيمان ردًّا جميلاً.

٢٠٠ - الأبرص والأقرع والأعمى

عن أبى هريرة ﷺ أنه سمع النبى ﷺ يقول :

«إن ثلاثة من بنى إسرائيل : أبرص ، وأقرع ، وأعمى ، أراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم مَلَكًا ، فأتى الأبرص فقال : أى شيءٍ أحب إليك ؟

قال : لون حسن ، وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره وأعطى لونًا حسنًا .

قال : فأى المال أحب إليك ؟

قال : الإبل - أو قال البقر - شك الراوى - فأعطى ناقة عشراء ، فقال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأقرع فقال : أى شيء أحب إليك ؟

قال : شعرٌ حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه ، وأُعطى شعراً حسنًا .

قال : فأى المال أحب إليك ؟

قال : البقر ، فأُعطى بقرة حاملاً ، قال : بارك الله لك فيها .

فأتى الأعمى فقال : أى شيء أحب إليك ؟

قال : أن يرد إلى بصرى فأبصر الناس ، مسحه فرد الله إليه بصره .

قال : أى المال أحب إليك ؟

قال : الغنم، فأعطى شاة والداً.

فأنتج هذان وولد هذا، فكان لهذا وادٍ من الإبل ، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته وقال: رجل مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفرى، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بعيراً أتبلغ به فى سفرى.

قال : الحقوق كثيرة.

فقال: كأنى أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله ؟!

فقال : إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر.

فقال : إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما ردَّ هذا، فقال : إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفرى، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذى رد عليك بصرك، شاة أتبلغ بها فى سفرى ؟

فقال : قد كنت أعمى فرد الله إليَّ بصرى، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله ما أجهدك اليوم بشيءٍ أخذته لله تعالى .

فقال : أمسك مالك ، فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك ، وسخط على صاحبيك» .

معانى الكلمات :

* «الناقة العشراء» بضم العين وفتح الشين وبالمد : هى الحامل .
* «أنتج» : تولى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة .
* «وَلَّدَ هذا» : هو بتشديد اللام : أى : تولى ولادتها .
* «انقطعت بى الحبال» : أى الأسباب .
* «لا أجهدك» : لا أشق عليك فى رد شيء تأخذه أو تطلبه من مالى .

(*) رواه البخارى (٧/٣١٢، ٣١٤)، ومسلم (١٨/٩٧ - ١٠٠).

وبتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العظات الآتية :

الأولى : أن الله تعالى هو الذى خلق النفس فسواها، وهو العليم بما يصلح هذه النفس، فمن النفوس ما يصلحها الغنى، ومن النفوس ما يصلحها الفقر، فسبحان من يدبر شئون خلقه بعلمه.

وقال ابن مسعود : إن العبد لَيَهُمُّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له، فينظر الله إليه فيقول للملائكة : اصرفوه عنه فإنه إن يسَّرْته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير بقوله : سبقنى فلان وأهاننى فلان، وما هو إلا فضل الله تعالى.

وأخرجه الطبرانى من حديث أنس عن النبى ﷺ : « يقول الله تعالى : إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، وإن بسط عليه أفسده ذلك؛ وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك؛ وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك؛ وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا السقم ولو أصححته لأفسده ذلك، وإن من عبادى من يطلب بابًا من العبادة فأكفه عنه لكيلا يدخله العُجْبُ، إنى أدبر أمر عبادى بعلمى بما فى قلوبهم، إنى عليم خبير »(١).

الثانية : أن الابتلاء يكون بالنعمة والنقمة ليظهر من يشكر ممن يكفر، فمن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غنى حميد، فالله قد ابتلى الثلاثة بالداء (البرص، العمى، القرع) مع الفقر، ثم الشفاء والصحة مع الغنى.

الثالثة : أن النفس الإنسانية فى غيبة الإيمان تميل إلى الفخر والتعالى، وهذا ما قاله الأبرص والأقرع : ورثنا هذا المال كابراً عن كابر. وأنكرا ما مر من حياتهما من فقر. فى حين نجح الأعمى بتواضعه واعترافه بنعمة الله عليه، وأداء حق الله فيها. فيا سعادة من وفق لمرضاة ربه، وأخضع نفسه لرضا مولاه.

(١) الأولياء لابن أبى الدنيا (١).

الرابعة هي : أن رضا الله في طاعته وأن سخط الله في معصيته، فليحرص العبد على طاعة مولاه، وليحذر معصية الله، نسأل الله السلامة والعافية.

٢٠١ - آواهم المبيت إلى الغار

عن عبد الله بن عمر بن الخطاب -رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار؛ فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم.

قال رجل منهم : اللهم إنه كان لى أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً، فلبثت - والقدح على يدى - أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر والصبية يتضاغون عند قدمى ، فاستيقظا وشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون الخروج منه.

وقال الآخر :

اللهم إنه كانت لى ابنة عم كانت أحب الناس إلىَّ فأردتها على نفسها فامتنعت منى حتى ألمّت بها سَنة من السنين فجاءتنى، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلّى بينى وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها قالت: اتق الله ولا تفض الخاتم إلا

بحقه، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلىّ، وتركت الذهب الذى أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث :

اللهم إنى استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءنى بعد حين، فقال : يا عبد الله أدِّ إلىَّ أجرى، فقلت :

كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال :

يا عبد الله لا تستهزئ بى! فقلت : لا أستهزئ بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئًا، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فأفرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».

(*) أخرجه البخارى (٧/٣١٧ - ٣٢٠)، ومسلم (١٧/٥٥ - ٥٧).

وبتدبر الموقف السابق يمكن استخلاص العبر الآتية :

الأولى : أن التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة الخالصة لله تعالى من أفضل أسباب تفريج الكروب .

الثانية : أن ما ندخره من أعمال صالحة خالصة لوجه الله تعالى، ينفع الإنسان فى الدنيا قبل الآخرة . وفى هذا حث للمؤمن على الإكثار من الأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله تعالى .

الثالثة : أن الله يكرم عباده الصالحين بكرامات جليلة، ولا حرج على فضل الله، فلنسأل الله من فضله .

٢٠٢ - لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال :

«لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصاحب جُريج ، وكان جُريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها ، فأتته أمه وهو يصلى فقالت : يا جُريج ، فقال : يا رب ، أمى وصلاتي ! فأقبل على صلاته فانصرفت .

فلما كان من الغد أتته وهو يصلى ، فقالت : يا جُريج ، فقال : أى رب ، أمى وصلاتى . فأقبل على صلاته ! فلما كان من الغد أتته وهو يصلى فقالت : يا جريج ، فقال : أى رب ، أمى وصلاتى ، فأقبل على صلاته .

فقالت : اللهم لا تُمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات .

فتذاكر بنو إسرائيل جُريجًا وعبادته ، فكانت امرأة بغىّ يُتمثل بحسنها ، فقالت : إن شئتم لأفتننه .

فتعرضت له ، فلم يلتفت إليها ، فأتت راعيًا كان يأوى إلى صومعته ، فأمكنته من نفسها فوقع عليها . فحملت ، فلما ولدت قالت : هو من جُريج ، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته ، وجعلوا يضربونه .

فقال : ما شأنكم ؟

قالوا : زنيت بهذه البغيّ فولدت منك .

قال : أين الصبى ؟ فجاءوا به .

فقال : دعونى حتى أصلى ، فصلى ، فلما انصرف أتى الصبى فطعن فى بطنه ، وقال : يا غلام من أبوك ؟ قال : فلان الراعى .

فأقبلوا على جُريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا : نبنى لك صومعتك من ذهب .

قال : لا أعيدوها من طين كما كانت ، ففعلوا .

وبينا صبى يرضع من أمه ، فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة ، فقالت أمه : اللهم اجعلى ابنى مثل هذا ، فترك الثدى وأقبل إليه فنظر إليه فقال : «اللهم لا تجعلنى مثله ، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع» . فكأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكى ارتضاعه بأصبعه السبابة فى فيه فجعل يمصها .

قال : «ومر بجارية وهم يضربونها ، ويقولون : زنيت سرقت ، وهى تقول : حسبى الله ونعم الوكيل . فقالت أمه : اللهم لا تجعل ابنى مثلها ، فترك الرضاع ونظر إليها ، فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فهنالك تراجعا الحديث ، فقالت : مر رجل حسن الهيئة ، فقلتُ :

اللهم اجعل ابنى مثله، فقلتَ : اللهم لا تجعلنى مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون : زنيت سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابنى مثلها، فقلتَ: اللهم اجعلنى مثلها ؟!

قال: إن ذلك الرجل كان جباراً، اللهم لا تجعلنى مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت، ولم تزن، وسرقت، ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلنى مثلها».

معانى الكلمات :

* «المومسات» بضم الميم الأولى وكسر الميم الثانية، : جمع مُومِس، وهى الزانية.
* «دابة فارهة» بالفاء: أى حاذقة نفيسة.
* «الشارة» بالشين المعجمة وتخفيف الراء: الجمال الظاهر فى الهيئة والملبس.
* «تراجعا الحديث» أى : حدثت الصبى وحدثها.

(*) أخرجه البخارى (٧/٢٨٧ - ٢٩٢)، ومسلم (١٦/١٠٥ - ١٠٨).

بتدبر هذا الموقف يمكن استخلاص العبر الآتية :

الأولى : أن دعاء الوالدين مستجاب، فليحذر الأبناء مخالفة آبائهم ما دام الأمر فى حدود مرضاة الله تعالى.

الثانية : أن التضرع إلى الله تعالى والاستعانة بالصلاة فى مواجهة الكرب من أفضل وأعلى أسباب الفرج، ولنا فى القرآن حجة، قال الله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة/١٥٣].

الثالثة : أن الله يكرم من شاء من عباده بكرامات، ولا حرج على فضل الله تعالى. فالأمر كله بيد الله. فقد أنطق الله الصبى بالحق.

الرابعة : أن الصالحين لا يتاجرون بدينهم رغبة فى دنيا الناس، بل هم من أزهد الناس فيها، ورأينا فى الموقف أن الناس عرضوا على جريج أن يبنوا له صومعته من ذهب بعد ظهور براءته بمعجزة نطق الصبى بالحقيقة، لكنه رفض وقال لهم : أعيدوها كما كانت فقط.

الخامسة : أن منازل الناس عند الله تعالى لا تتأتى من مظهرهم ومكانتهم فى الدنيا، ورأينا فى الموقف أن الله قد أنطق الصبى حين دعت له أمه أن يكون مثل هذا الفارس الغنى، وقال : اللهم لا تجعلنى مثله، وذلك لأن هذا الفارس كان جباراً ظالمًا فى الأرض، ولما مرت بجارية يضربونها ويقولون عنها : لقد زنت، وسرقت، وهى تقول : حسبى الله ونعم الوكيل. ودعت الأم لصبيها : اللهم لا تجعل ابنى مثلها، فأنطق الله الصبى قائلاً : اللهم اجعلنى مثلها، وذلك لأنها كانت تقية مظلومة، ولها منزلة عند الله تعالى.

وصدق الله العظيم : ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/٢١٦].

٢٠٣ - أبو هريرة وقدح اللبن

عن أبي هريرة ﷺ قال :

والله الذى لا إله إلا هو ، إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجَر على بطنى من الجوع . ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذى يخرجون منه ، فمر بى النبى ﷺ فتبسم حين رآنى ، وعرف ما فى وجهى وما نفسى ، ثم قال ﷺ : «أبا هر» .

قلت : لبيك يا رسول الله .

قال ﷺ : «الحق» . ومضى فاتبعته ، فدخل فاستأذن ، فأذن لى فدخلت ، فوجد لبنًا فى قدح ، فقال ﷺ : «من أين هذا اللبن ؟» .

قالوا : أهداه لك فلان - أو فلانة - قال ﷺ : «أبا هر» .

قلت : لبيك يا رسول الله .

قال ﷺ : «الحق إلى أهل الصفَّة فادعهم لى» . قال ﷺ : وأهل الصفة أضياف الإسلام ، لا يأوون إلى أهل ، ولا مال ، ولا إلى أحد ، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ولم يتناول منها شيئًا ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها ، فساءنى ذلك .

فقلت : وما هذا اللبن من أهل الصفَّة ! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاءوا وأمرنى فكنت أنا أعطيهم ؛ وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن ، ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ بُدٌّ ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا واستأذنوا ، فأذن لهم

وأخذوا مجالسهم من البيت.

قال : «يا أبا هِر».

قلت : لبيك يا رسول الله.

قال ﷺ : «خذ فأعطهم».

قال أبو هريرة رضي الله عنه : فأخذت القدح، فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يُرْوَى، ثم يرد عليَّ القدح، فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى، ثم يرد عليَّ القدح، حتى انتهيت إلى النبى ﷺ ، وقد رَوِى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إليَّ فتبسم، فقال ﷺ : «أبا هِرّ».

قلت : لبيك يا رسول الله.

قال : «بقيت أنا وأنت».

قلت : صدقتَ يا رسول الله.

قال : «اقعد فاشرب» فقعدت فشربت، فقال ﷺ :

«اشرب» فشربت، فما زال يقول : «اشرب» حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق، ما أجد له مسلكًا !

قال ﷺ : «فأرنى» فأعطيته القدح، فحَمد الله تعالى، وسمَّى وشرب الفضلة».

(*) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق، باب : كيف كان يعيش النبى ﷺ وأصحابه وتخليه عن الدنيا (٧/١٧٨).

بتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العبر الآتية :

الأولى : أن صحابة رسول الله ﷺ كانوا يتعرضون لشدة العيش والحاجة حتى ما يجد أحدهم وجبة الطعام أياماً، فصبروا، فزادهم الله إيماناً، فرضى الله عنهم وأرضاهم. وفى هذا أسوة لكل مسلم أن يتحمل شدة العيش إذا مرت به، فمن هم خير منا تعرضوا لأشد مما نتعرض له.

الثانية : أن حديث النفس لصيق بالإنسان، وهو الخواطر التى تمر بالإنسان، وهو أمر قد عفا الله عنه بالنسبة للمسلم، قال ﷺ : «عفا الله عن أمتى ما حدثت بها أنفسها»(١).

الثالثة : بركة رسول الله ﷺ التى حلت بقدح اللبن حتى شرب الجميع منه.

الرابعة : تواضع رسول الله ﷺ ومحبته لأهل الصفة ، فقد كان آخر من شرب، وشرب ماذا ؟ لقد شرب ﷺ الفضلة.

اللهم صل وسلم على صاحب الخلق العظيم والقلب الرءوف الرحيم سيدنا محمد ﷺ.

---

(١) إتحاف ٧/ ٢٩٢.

٢٠٤ - إن الله لا يضيع أهله

جاء إبراهيم ﷺ بأم إسماعيل وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعها عند البيت، عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هناك، ووضع عندها جرابًا فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت :

يا إبراهيم : أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ولا شيء ؟

قالت له ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها.

قالت له : آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم.

قالت : إذًا لا يضيعنا.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم ﷺ، حتى إذا كان عند الثنيَّة حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات، فرفع يديه فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم /٣٧].

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال : يتلبط - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً؟ فلم تر أحداً. فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي.

ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً ؟ فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - :

قال النبي ﷺ : «فذلك سعي الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا، فقالت :

صه - تريد نفسها - ثم تَسَمَّعَت، فسمعت صوتًا.

فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غُواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبيه - أو قال بجناحه - حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف - وفي رواية: بقدر ما تغرف - قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : قال النبي ﷺ :

«رحم الله أم إسماعيل ! لو تركت زمزم - أو قال : لو لم تغرف من الماء - لكانت زمزم عينًا معينًا» .

قال : فشربت ، وأرضعت ولدها .

فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرهم ، أو أهل بيت من جرهم ، مقبلين من طريق كداءَ ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرًا عائفًا فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لَعَهْدُنا بهذا الوادى وما فيه من ماء ، فأرسلوا جريًّا أو جريين ، فإذا هم بالماء . فرجعوا ، فأخبروهم . فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء .

فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟

قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء .

قالوا : نعم .

قال ابن عباس : قال النبى ﷺ : «فألَفَ ذلك أم إسماعيل ، وهى تحب الأنس ، فنزلوا ، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفَسَهُم

وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته لم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، قالت: خرج يبتغي لنا - وفي رواية: يصيد لنا - ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت: نحن بِشَرٍّ، نحن في ضيق وشدةٍ، وشكت إليه.

قال: فإذا جاء زوجك، اقرئي عليه السلام، وقولي له يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا.

قال - عليه السلام -: فهل أوصاك بشيءٍ؟

قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول: غير عتبة بابك.

قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج منهم أخرى.

فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد.

قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم.

قالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله تعالى، فقال: ما طعامكم. قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء.

قال : اللهم بارك لهم فى طعامهم وشرابهم. قال : فقال أبو القاسم ﷺ : «بركة دعوة إبراهيم ﷺ».

قال : فإذا جاء زوجك، فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، قال : هل أتاكم من أحدٍ ؟

قالت : نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا بخير. قال : أفأوصاك بشىءٍ ؟ قالت : نعم، يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك.

قال : ذاك أبى، وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك.

ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم فلما رآه، قام إليه، فصنع كما يصنع الوالد بولده، قال : يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر، قال : فاصنع ما أمرك ربك ؟ قال : وتعيننى؟ قال : وأعينك، قال : فإن الله أمرنى أن أبنى بيتًا ههنا، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. فعند ذلك رفع القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة، وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه به فقام عليه، وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم.

(*) راجع السيرة النبوية (١/٦٣).

بتأمل الموقف السابق يمكن استخلاص العبر الآتية :

الأولى : أن أوامر الله غالية، أغلى من الولد والزوج والأهل والنفس.

الثانية : أن من سعى لمرضاة ربه فلن يضيعه الله، إن الله لا يضيع أهله.

الثالثة : أن طاعة الولد لوالده من أعظم القربات التى ينفع الله بها الولد فى الدنيا والآخرة.

الرابعة : أن بركة السعى والاجتهاد بركة عظيمة، وهل كانت زمزم إلا بعد سعى؟

الخامسة: أن علينا السعى والاجتهاد أما النتائج فعلى الله عز وجل. لقد كان سعى هاجر من أجل ماء يكفى الطفل الصغير، فمنَّ الله عليها بزمزم لسقاية البشرية المؤمنة إلى يوم القيامة، وهذا فضل من الله واسع.

السادسة : أن المؤمن فى عمله الصالح يخشع لربه ويتواضع، ولا يتباهى بعمله الصالح مهما كان قدر هذا العمل أو مكانته. بل عليه أن يتأسى بنبى الله إبراهيم وبنبيه إسماعيل – عليهما السلام – :

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة/١٢٧].

السابعة: يظهر من الموقف الفرق بين من يعتمد فى حياته على عقله فقط، ومن يعتمد على ربه مع ما أولاه الله من نعمة العقل والبصيرة، وسبحان الله القائل :

﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود/٨٨].

٢٠٥- هل من علامة يُعرَف بها ؟

بينما الصحابة جلوس مع رسول الله ﷺ إذ تلا عليهم قول الله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر / ٢٢].

ثم قال ﷺ :

«إنَّ النور إذا دخل القلب، انفسح وانشرح»، فقيل:

يا رسول الله هل لذلك من علامة يُعرف بها ؟

فقال ﷺ :

«نعم، التجافى عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله».

(*) منهاج العابدين، حجة الاسلام الغزالى ص ٥٩، والحديث رواه الحاكم فى المستدرك عن ابن مسعود ٤ / ٣١١.

أنعم ببيئة الأنوار وساحة الرضا والرضوان، إنها هى بحق الحياة وهى الأمان وهى السكينة وهى الطمأنينة والرضا. إنها بحق جنة الدنيا للمؤمن. وسبحان الله القائل:

﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور / ٤٠].

كيف لا ؟ والله - عز وجل - نور السموات والأرض، الله نور السموات والأرض، نوَّرهما بالنور الحسى، قال الله تعالى:

﴿ تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيراً ﴾ [الفرقان / ٦١].

والله نور السموات والأرض، نوَّرهما بالنور المعنوى، قال تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة / ١٥].

وإذا أنعم الله على عبد بفيض من هذا النور تحولت حياته إلى منازل القرب والرضا، قال الله تعالى:

﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام/ ١٢٢].

هذا فى الدنيا أما فى الآخرة فينال البشرى التى جاءت فى قول الله تعالى:

﴿ يَوْمَ لا يُخْزِى اللَّهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم/ ٨].

لذلك كان من دعاء النبى ﷺ: «اللهم اجعل فى قلبى نوراً وفى بصرى نوراً وفى سمعى نوراً، ومن تحتى نوراً، ومن فوقى نوراً، اللهم اجعلنى نوراً».

ونور الله فى القلب هداية، ومن آثار هذا النور أن الله يشرح صدر المؤمن للطاعة والعبادة، والاستعداد للقاء الله عز وجل، قال تعالى:

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ [الحجرات / ٧].

وبيَّن لنا الحبيب المصطفى ﷺ فى الموقف علامات ثلاثًا لنور الله فى قلب المؤمن:

الأولى: التجافى عن دار الغرور، فلا ميل للشهوات ولا للمغريات ولا للأهواء ولا للمعاصى ولا للآثام، لأنه فى أنوار الهداية يرقى إلى منازل القرب والرضا.

الثانية: الإنابة إلى دار الخلود، حيث يجد المؤمن من نفسه سرعة الاستجابة لربه فيما أمر، إنه يسارع فى الخيرات ليتزود إلى دار الخلود.

الثالثة: الاستعداد للموت قبل نزوله، وذلك بالإكثار من الصالحات، والبعد عن المعاصى والمظالم، وبخاصة حقوق العباد.

وقد ورد فى الأثر: «الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانىّ».

ومعنى «دان نفسه»: حاسبها.

ومن فضل الله تعالى أنه بيَّن لنا الطريق للفوز بنور الله تعالى، وذلك بالإيمان والعمل الصالح، قال تعالى:

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة/٢٥٧].

ثم يأتى العمل الصالح فى المرتبة الثانية، قال تعالى:

﴿ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الطلاق/ ١١].

كما يشير القرآن الكريم إلى أن التقوى، ومتابعة الرسول ﷺ، من أقوى السبل لتحصيل نور الله عز وجل، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد/ ٢٨].

والقرآن الكريم نفسه سبيل قويم لنور الله عز وجل، قال الله تعالى:

﴿ الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم/ ١].

فإذا ما استجاب المؤمن، والتزم هدى الله عز وجل، واقتدى برسول الله ﷺ، أنعم الله عليه بفيض من نوره.

والحمد لله رب العالمين

٢٠٦ - إلهى : لا شريك لك فيؤتى

تعلق شاب بأستار الكعبة، وقال : إلهى ! لا شريك لك فيؤتى، ولا وزير لك فيُرشى، إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد، وإن عصيتك فبجهلى ولك الحجة علىَّ، فبإثبات حجتك علىَّ وانقطاع حجتى لديك إلا غفرت لى، فسمع من يبشره : بأنه عتيق من النار.

(*) الرسالة القشيرية / ٢٦٩.

إلهنا ربٌّ رحيم، إنه الغفور الودود، الحنان المنان، بديع السموات والأرض، ذو الجلال والإكرام. إذا جاءه المذنبون والمسرفون فحطوا رحال الذنوب والخطايا على باب غفرانه، تفضل بالمغفرة قائلاً سبحانه وتعالى: أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم... كيف لا ؟ وهو القائل فى كتابه الكريم:

﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر /٥٣].

كيف لا ؟ وهو الذى إذا أقبل إليه مذنب فتاب وآمن وعمل عملاً صالحًا، غفر له وبدل سيئاته حسنات.

كيف لا ؟ وهو سبحانه كما أخبر الحبيب المصطفى ﷺ: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»(١).

قال رسول الله ﷺ: «إذا تاب العبد أنسى الله الحفظة ذنوبه، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله وليس عليه شاهد بذنب»(٢).

وفى الموقف رأينا هذا الشاب يتضرع إلى مولاه فى حسن أدب، حيث يسند ما ارتكب من عصيان إلى نفسه، ويرجع ما به من طاعة وصلاح إلى فضل الله تعالى. وإقراره بوحدانية الله عز وجل؛ فلا شريك له فيؤتى، ولا وزير له فيُرشى وليس لنا من سبيل إلا باب الانكسار والاستغفار. والله تعالى بشَّرَ من أناب إليه بمغفرته، قال تعالى:

﴿ **وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ [النساء / ١١٠].

اللهم ردنا إلى الإيمان ردًّا جميلاً

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) كنز العمال للمتقى الهندى (١٠١٧٩)، الترغيب والترهيب (٤/ ٩٤)

٢٠٧ - حديثو عهد بجاهلية

أخذ النبى ﷺ السيدة عائشة - رضى الله عنها - إلى الكعبة المشرفة، وعَرَّفها أن الكعبة قد انْتُقِصَ من طولها، من جهة حجر إسماعيل. فسألت رسول الله ﷺ :

لماذا لا يُعيد بناء الكعبة ليضم إليها ما انْتُقِصَ منها ؟

فقال ﷺ :

«لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت البيت فبنيته على أساس إبراهيم».

(*) أخرجه البخارى (٢ / ١٨٠)، وأحمد (٦ / ١٧٦).

هذا موقف يفيض بالحكمة الهادية، من رسول الله ﷺ .

أما عن الكعبة ؛ فهى بناء مكعب، مجوف من الداخل، وقد تكرر بناؤها على مر الزمان، ومنها بناء قريش للكعبة قبل بعثة النبى ﷺ بخمس سنين، حين تعرضت الكعبة لحريق، بسبب اشتعال أستار الكعبة أثناء تجمير الكعبة (تبخيرها)، مما أدى إلى هدم بعضها، ودخلتها السيول، فعزمت قريش على بنائها، فكشفت قريش أساس الكعبة الذى وضعه نبى الله إبراهيم - عليه السلام - فلما عزموا على البناء، حسبوا ما جمعوه من نفقة حلال، تخلو من مال الربا، فوجدوه لا يفى لبناء الكعبة على القواعد التى وضعها نبى الله إبراهيم - عليه السلام - فنقصوا من عرضها ستة أذرع وشبراً من جهة حجر إسماعيل، وبعد البعثة أقر النبى ﷺ هذا البناء.

عن عائشة – رضى الله عنها – أن رسول الله ﷺ أخذها إلى الكعبة، وعرَّفها أن الكعبة قد انتقص من طولها من جهة حجر إسماعيل، ثم قال النبى ﷺ : «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لنقضت البيت فبنيته على أساس إبراهيم».

وهنا عبرة غالية نتعلمها من رسول الله ﷺ فى تقدير الواقع ورعاية حال المتلقى، وهذا من حكمته ﷺ فى الدعوة إلى الله عز وجل.

كيف لا ؟! وهو الذى أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم.

وهذا درس للمصلحين والدعاة والمربين. ولعل ما سبق يفسر لنا بوضوح سبب الطواف حول حجر إسماعيل مع الكعبة، حيث إن الحِجر جزء من الكعبة.

والحمد لله رب العالمين

٢٠٨ - الصفا والمروة من شعائر الله

كان - فى الجاهلية - على الصفا وثن يسمى (إسافًا) وعلى المروة وثن آخر يسمى (نائلة)، وكان العرب - فى الجاهلية - إذا طافوا بالبيت جاءوا إلى هذين الوثنين (إساف ونائلة) وتمسحوا بهما، فلما تحرج المسلمون من السعى بين الصفا والمروة لما كان من أمر هذين الصنمين، وتمسح المشركين بهما؛ أنزل الله تعالى:

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة / ١٥٨].

(*) تفسير الطبرى، الترمذى (٨٥٦).

هذا موقف تربوى عظيم، يعلمنا كيف نتصرف إذا اختلطت المسائل، فموضع الصفا والمروة شهد طاعة عظيمة من السيدة هاجر حين سعت بينهما طلبًا للماء، بعد أن انتهى الماء من سقائها واشتد العطش بوليدها إسماعيل عليه السلام.

كما شهد موضع الصفا والمروة عملاً من أعمال الشرك، من العرب فى زمن الجاهلية، حيث كان على الصفا وثن يسمى (إسافًا) وعلى المروة وثن آخر يسمى (نائلة)، وكان العرب فى الجاهلية إذا طافوا بالبيت جاءوا إلى هذين الصنمين وتمسحوا بهما.

فلما جاء الإسلام وبعث الله نبيه محمداً ﷺ وفرض الحج، تحرج المسلمون من السعى بين الصفا والمروة، بسبب أفعال المشركين عليهما قبل الإسلام.

فرد الله المؤمنين إلى أصل النسك، الذى يرتبط بطاعة عظمى، وموقف إيمانى عظيم، من السيدة هاجر أم نبى الله إسماعيل - عليهما السلام - حيث سعت سبع مرات بين الصفا والمروة طلبًا للماء، وقال النبى ﷺ: «فذلك سعى الناس بينهما» (١).

لذلك أنزل الله على النبى ﷺ قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة / ١٥٨].

كما يذكرنا هذا الموقف بموعظة غالية، وهى أن السعى لمرضاة الله يعقبه الفرج والسرور، فبعد سعْى السيدة هاجر كانت زمزم.

وهذا درس للمؤمنين فى الاجتهاد وسع الطاقة، أما النتائج فهى على الله عز وجل. والله تعالى يقول:

﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾

(١) أخرجه البخارى (٤ / ١٧٣).

[الطلاق / ٢-٣] .

وهكذا امتثل الصحابة واستجابوا لهدى الله . روى جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ لما دنا من الصفا، قرأ قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللَّه فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْه أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة / ١٥٨] .

ثم قال : « أبدأ بما بدأ الله به » فبدأ بالصفا فصعد عليه حتى رأى البيت فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره وقال : « لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده » ثم دعا بعد ذلك، وقال مثل ذلك ثلاث مرات، ثم نزل حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا[١] .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه مسلم فى الحج (١٤٧)، سنن الدارمى (٢ / ٤٦) .

٢٠٩ - أفلا نتخذه مصلّى ؟

مـر النبـى ﷺ ومـعـه سـيـدنـا عـمـر بن الخطاب رضي الله عنه بالمقام. فقال سيـدنا عمر رضي الله عنه : يا رسـول الله، أليـس هذا مقام أبينا إبراهيم ؟

قال النبى ﷺ : «بلى يا عمر».

فقال عمر رضي الله عنه : أفلا نتخذه مُصَلَّى ؟

قال النبى ﷺ : «لم أومر بذلك».

فلم تغب الشمس حتى نزل أمر الله تعالى :

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة/١٢٥].

(*) راجع أسباب النزول للسيوطى فى تفسير الآية، والترمذى (٢٩٥٩).

الله أكبر ولله الحمد، إن كل بقعة من البقاع الشريفة ـ بالحرم المكى ـ مليئة بالأسرار، ومع الأسرار عبرٌ وعظات، فبين الركن والحجر، والملتزم والحِجْر، وزمزم، والمقام، والصفا والمروة، والبيت، أسرار تفيض بالعبر والعظات، لقد تجاوزت الآيات فيها حدود الأسباب إلى مسبب الأسباب، إلى قدرة من يقول للشيء كن فيكون.

أما عن المقام: فهو مقام نبى الله سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهو الحَجَر الذى قام عليه حين ارتفع بناء البيت فاستعان بذلك الحجر، ليقف عليه ويكمل البناء.

وفى هذا الحجر أثر قَدَمَى إبراهيم الخليل، حيث جعل الله هذا الحجر تحت قَدَمَى نبى الله إبراهيم – عليه السلام – فى رطوبة الطين حتى غاصت قدماه فيه، ليكون آية ظاهرة للعالمين، وهو الحجر الموجود اليوم فى المقصورة الزجاجية الشفافة، حيث تُرى من خلالها هيئة القدمين بوضوح.

وأمرنا الله تعالى أن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى، كى ينال المسلم من بركات الله فى هذه البقاع الشريفة، التى شهدت أروع المواقف فى الاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى.

كما يظهر من الموقف أن الدين من الله تعالى، وأن النبى ﷺ لا يأتى إلا بما يأمره الله به، يظهر هذا من قول النبى ﷺ لما سأله عمر رضي الله عنه: «أفلا نتخذه مصلى؟»، فقال النبى ﷺ: «لم أومر بذلك».

فلما أنزل الله عز وجل الآية ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ [البقرة/١٢٥]، وأمر باتخاذ المقام مصلى، كان النبى ﷺ أول من استجاب لأمر الله تعالى.

كما يستفاد من الموقف، المنزلة العالية لسيدنا عمر رضي الله عنه حيث نزل القرآن

موافقًا لرأيه في هذا الموضع ومواضع أخرى، فرضي الله عن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

أما بشأن الصلاة خلف المقام، ففيها فقه تشتد الحاجة إليه في ظروفنا المعاصرة، وبخاصة أيام الحج، حيث شدة الزحام لكثرة الطائفين. وربما ظن بعض العامة أن خلف المقام مقصور على ما كان قريبًا من المقام فقط، وقد صحح العلماء هذا الفهم، فقد أشار العلماء إلى أن المسجد الحرام امتداد لخلف المقام - في أوقات الزحام وبخاصة في أثناء الحج، ومن هنا وجب أن نفسح المكان للطائفين، بالتأخر حسب الحاجة لإتاحة الفرصة لحركة الطواف، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

والحمد لله رب العالمين

٢١٠ - النبى ﷺ يستغيث ربه

لما كان يوم بدر، نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين -وكانوا ألفًا وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً - فاستقبل النبى ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يديه فجعل يستغيث ربه ويستنصره:

«اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم إن تَهْلِك هذه العصابةُ - من أهل الإسلام - لا تعبد فى الأرض»، فمازال يستغيث ربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأنزل الله تعالى قوله:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ [الأنفال/ ٩].

(*) الموقف ورد فى صحيح مسلم (١٧٦٣).

صلاةً وسلامًا على إمام الأنبياء سيدنا محمد ﷺ، حياته كلها أسوة وقدوة، ومثل أعظم لمن أراد الطريق الأقوم إلى الله عزَّ وجلّ. فها هو الحبيب المصطفى ﷺ يرى قريشًا قد أتت بخيلائها وكل غرورها وكبريائها، أتت ومرادها القضاء على بواكير هذا الدين ونبيه وأتباعه.

جاءت قريش ومعها الطبول والمعازف، كي تقيم الأفراح بعد هذه الحرب التي لا يتكافأ طرفاها، فالفرق شاسع بين قوة قريش ـ بما فيها من فرسان وسلاح وعدد وعُدة ـ وقلة قليلة خرجت مع رسول الله ﷺ لا يملكون ما تملك قريش من السلاح والعدة.

وأمام هذا الموقف العصيب، الذى لا ملاذ فيه إلا بالله عز وجل، رأينا الحبيب المصطفى ﷺ يتضرع إلى ربه يستنْصره ويستغيثه... ومن أسماء الله الحسنى: المغيث، فهو المغيث إذا انقطعت الأسباب وانعدمت الحيل. وجاء المدد الإلهى، وأغاث الله نبيه، وأعان الله الفئة القليلة، ونزل أمين الله على وحيه، سيدنا جبريل – عليه السلام – على قلب النبى محمد ﷺ، بقوله تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال / ٩].

وهكذا شأن كل من استغاث بالله مؤمنًا موقنًا به، صادقًا فى أمره. أما استغاثة الإنسان بغير الله – تعالى – فهى أشبه بالغريق الذى يستغيث بغريق آخر، لا يملك له ولا لنفسه نفعًا ولا ضرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وفى هذا أسوة للمؤمنين وقدوة ؛ أنه مهما أظلمت الأحوال واشتدت الأمور وانقطعت الأسباب، فإن أمل المؤمن فى ربه لا ينقطع أبدًا، ورجاءه فيه لا ينفد.

وكم من كربة وشدة وقع فيها الإنسان فلما استغاث ربه انفرج الهم، وجاء

فضل الله واسعًا بالبشر والسرور. ولا يكون هذا لأحد غير الله تعالى، فهو سبحانه غياث المستغيثين وناصر المظلومين.

وكم من مرة استغاث النبى ﷺ ربه من شدة الجفاف والقحط فنزل المطر مدرارًا حتى أتى الصحابى يسأل النبى أن يدعو ربه بأن يكف المطر لأن الطرق امتلأت بالماء... ويستغيث النبى ﷺ ربه ثانية قائلاً: «اللهم حوالينا ولا علينا»(١).

إن الله تعالى عظيم القدرة، وهو على كل شيء قدير، إنه قريب مجيب.

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه البخارى (٢/١٥، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٨/٩٢)، ومسلم فى الاستسقاء (٩/٨)

٢١١ - إنى أرجو الله

دخل النبى ﷺ على شاب وهو يُحْتَضَرُ، فقال ﷺ :

«كيف تجدك ؟» .

قال :

والله يا رسول الله إنى أرجو الله، وإنى أخاف ذنوبى .

فقال ﷺ :

«لا يجتمعان فى قلب عبد - فى مثل هذا الموطن - إلا أعطاه الله ما يرجو وأمنه مما يخاف» .

(*) الموقف ورد فى حديث أخرجه الترمذى (٩٨٣) .

أنعم بهذا النبى الكريم، سيدنا محمد ﷺ، الذى جاء بلسمًا للقلوب وترياقًا للنفوس، وها هو ﷺ يعلمنا ـ فى هذا الموقف ـ كيف تكون مقاصدنا ومشاعرنا مع الله عز وجل.

إنه الاعتدال فلا إفراط ولا تفريط، وإن كان اليأس يقطع بصاحبه، فإن الإفراط فى التمنى والمبالغة فيه، أشد ضرراً على الإنسان فى دينه ودنياه. وإنما الحكمة تقتضى التوازن والاعتدال، بين جناحى الخوف والرجاء، فالخوف يمثل الحذر الذى يُوَّلد الاهتمام والجدية، فيكون دافعًا للنجاح.

والرجاء يمثل الأمل الذى يحث الإنسان ويدفعه – بقوة معنوية – إلى المواصلة والاستمرار ليصل إلى مقصوده.

لذلك لما دخل الحبيب المصطفى ﷺ على الشاب ـ فى مرض موته، وسأله كى يطمئن عليه، وأجاب الشاب: «والله يا رسول الله إنى أرجو الله، وإنى أخاف ذنوبى» بشره النبى ﷺ بأنه «ما اجتمع الخوف مع الرجاء فى قلب مؤمن ـ فى مثل هذا الموطن ـ إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف».

وذلك لأن الحبيب المصطفى ﷺ قال: «إن الله تعالى لا يجمع على عبده خوفين ولا أمنين، فمن خافه فى الدنيا أمَّنه يوم القيامة، ومن أمَّنه فى الدنيا أخافه يوم القيامة»[(١)].

أما عن بواعث الرجاء، فتتأتى بالنظر فى سعة رحمة الله وعفوه، من ذلك أن النبى ﷺ قال: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم إنك ما دعوتنى ورجوتنى، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتنى غفرت لك ولا أبالى، يا ابن آدم إنك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذى (٩٨٣). (٢) مجمع الزوائد للهيثمى (١٠/ ٢١٥).

أما عن بواعث الخوف والحذر، فتتأتى بالمحاسبة، وتذكر الوقوف بين يدى الله تعالى، من ذلك قول النبى ﷺ: «لن تزول قدما عبد - يوم القيامة - حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن علمه ماذا عمل فيه»(١).

والعاقل من يأخذ من الخوف ما يدفعه إلى طاعة الله ويُبعده عن معصيته، ويأخذ من الرجاء ما يدفع عنه اليأس والقنوط.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى (١٠/٣٤٦)، الترغيب ،الترهيب للمنذرى (٤/٣٩٦).

٢١٢ - لا أحب أن يقتل بى برىء

دخل الحسين رضي الله عنه على أخيه الحسن فى مرض موته، بعد أن تأثر بالسم الذى دُسَّ له فى الطعام.

فقال الحسين لأخيه الحسن: من تتهم ؟

فقال الحسن: لتقتله ؟!

فقال الحسين: نعم.

فقال الحسن:

يا أخى: إن يكن الذى أظن، فالله أشد بأسًا وأشد تنكيلاً، وإن لم يكن هو، فلا أحب أن يقتل بى برىء.

(*) شرح الأربعين النووية للإمام الجردانى ١١٤.

رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، فأخلاق آل بيت المصطفى ﷺ كأخلاق جدهم المصطفى ﷺ، فيها العفو والسماحة والرحمة والإحسان. فرضى الله عنهم، وهذا الحسن - حفيد النبى ﷺ وابن فاطمة الزهراء، ريحانة رسول الله ﷺ، وابن الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه يتعرض لهذا البلاء، حيث دُسَّ له السم فى الطعام، وتأثر بهذا السم، واشتد عليه المرض، فدخل عليه أخوه الحسين - بعاطفة لاهبة - يريد أن يتأكد من أخيه، فسأله عمَّن كاد له ودس السم فى الطعام.

فجاءت كلمات الحسن رضي الله عنه بلسمًا وشفاء، وإيمانًا وتسليمًا. حيث قال لأخيه الحسين رضي الله عنه: «إن يكن الذى أظن فالله أشد بأسًا وأشد تنكيلاً».

نعم لقد ترك العقوبة لمن يقدر عليها ولا يخاف عقباها، إنه الله القادر العدل الذى لا يظلم الناس شيئًا.

والمؤمن الصادق هو الذى يرضى بربه معاقبًا ومحاسبًا، والمؤمن الصادق هو الذى يكفيه وعد الله بانه يأخذ من الظالم للمظلوم حتى ينصفه.

وسبحان الله القائل:

﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء/٤٧].

ولعل فى هذا خير دواء لعادة الأخذ بالثأر، أن نتأسى بموقف حفيد رسول الله ﷺ، فقد ترك العقاب لله تعالى فهو أقدر، ثم قال الحسن لأخيه الحسين رضى الله عنهما: يا أخى وإن لم يكن هو فلا أحب أن يقتل بى برىء.

ليس العار فى ترك الانتقام وأخذ الثأر، ولكن العار الأكبر هو عار الذنب وغضب الديان المنتقم الجبار.

إن قتل النفس كبيرة من أبشع الكبائر التى حذر منها القرآن الكريم، قال الله تعالى:

﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة / ٣٢].

فلا تكن أيها المسلم مثل قابيل، وكن مثل هابيل الذى قال لأخيه الراغب فى قتله كما جاء فى القرآن الكريم:

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [المائدة / ٢٨].

والحمد لله رب العالمين

٢١٣ - لهم الدنيا ولنا الآخرة

دخل عمر بن الخطاب ﷺ على رسول الله ﷺ - ذات مرة - فوجده نائمًا على حصير قد أثَّر في جنبه ، وتحت رأسه ﷺ وسادة من أدمٍ حَشْوُها ليف ، فبكى عمر ﷺ . فسأله النبي ﷺ :

«ما يبكيك يا عمر ؟ فقال عمر ﷺ : يا رسول الله ، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه ، وأنت رسول الله .

فقال ﷺ :

أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟ !»؟ (*)

(*) الموقف جزء من حديث أخرجه البخاري، انظر فتح الباري ٨ / ٤٩١٣ .

صلاةً وسلامًا على سيدنا رسول الله ﷺ من ارتضاه الله أسوة حسنة وقدوة طيبة لأمته، لقد كانت حياته كلها لله، أنفاسه وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله كلها لله . . . وأنعم به من وصف إلهى فى القرآن لحال النبى ﷺ . قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام/١٦٣].

لقد جاءه جبريل عليه السلام وقال له: إن الله يخيِّرك بين أن تكون ملكًا نبيًا أو عبدًا نبيًا، فطلب النبى ﷺ نصيحة أخيه جبريل، فأومأ إليه أن تواضع، فقال: يارب اخترت أن أكون عبدًا نبيًا[١].

وخيره ربه ؛ أن تسير معه جبال مكة ذهبًا أينما شاء، فقال ﷺ : بل أجوع يومًا وأشبع يومًا[٢].

وكانت تأتيه الأموال فينفقها ولا يجعلها تبيت عنده، فما عند الله خير وأبقى. فما كان فيه ﷺ من بساطة العيش، إنما هو من اختياره وتواضعه ﷺ .

وفى هذا الموقف يعلمنا النبى ﷺ أن يرضى المؤمن بما يرضى الله به، فمن رضى فله الرضا، وهو من قول الله تعالى:

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة/٨].

ورضا الله يحصله المؤمن بالطاعة، من ذلك قول الله تعالى:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ الفتح /١٨.

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل/١٧ - ٢١].

---

(١) كنز العمال للمتقى الهندى (٣٩٠٧٩).

(٢) إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٣٩٦/٧)..

ورضا العبد عن الله يكون فى الرضا بقضاء الله وقدره، ورضا الله عن العبد أن يرى عبده مستجيبًا لأمره.

والرضا باب الراحة والسعادة للنفس فى الدنيا، فضلاً عن ثواب الله يوم القيامة.

وفى الموقف - الذى بين أيدينا - نرى سيدنا رسول الله ﷺ يوجهنا إلى أن يكون رضانا متعلقًا بالله تعالى، ولا نكون مثل أهل الدنيا ؛ رضاهم يتعلق بزهرتها وأموالها وما فيها من متع وشهوات ورغبات وأهواء. حيث قال النبى ﷺ : «يا عمر أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة». أى لهم العاجلة الفانية، ولنا الباقية ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى/١٧].

وصلِّ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

٢١٤ - كان رجلاً سهلاً

اشترى سيدنا عثمان بن عفان ﷺ من رجل أرضًا، فأبطأ الرجل على عثمان، فقال له عثمان ﷺ :

ما منعك من قبض مالك ؟

فقال الرجل :

إنك غبنتني، فما ألقى من الناس أحداً إلا وهو يلومُني.

قال له عثمان ﷺ : أو ذلك يمنعك ؟

فقال الرجل : نعم .

فقال له عثمان ﷺ :

فاختر بين أرضك ومالك، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أدخل الله عز وجل الجنة رجلاً كان سهلاً : مشتريًا، وبائعًا، وقاضيًا، ومُقتضيًا».

(*) البيهقي (٢٢٠٢)، والنسائي (٧/٢١٩).

● أنعم وأكرم بهذه النفوس العالية، التى رباها الإسلام على السماحة، تجود تفضُّلاً وتكرُّمًا، ويكون منها اليسر والتيسير إذا عاملوا الناس بيعًا وشراء .

وهكذا المؤمن مع إخوانه هينٌ لينٌ، سهل مُيسر، نفسه سمحة، وقلبه رحيم

وفى الحديث النبوى الشريف، عن أبى سعيد الخدرى ﷺ، قال النبى ﷺ : « أفضل المؤمنين رجلٌ سمحُ البيع، سمحُ الاقتضاء »(١) .

وقال ﷺ :

« رحم الله رجلاً سمحًا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى »(٢) .

وأخبر ﷺ : « أنه كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه : إذا أتيت معسراً فتجاوز عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فلقى الله فتجاوز عنه »(٣) .

● وفى الموقف رأينا سيدنا عثمان ﷺ قد عامل الرجل الذى حدثته نفسه بأن الأرض التى اشتراها من سيدنا عثمان كان يمكن أن تُباع بثمن أكبر، مما جعله يتأخر فى تنفيذ عملية البيع والشراء التى تمت بينه وبين سيدنا عثمان، فسأله سيدنا عثمان ﷺ عن سبب تأخره فى أخذ المال المقابل للأرض، فأفصح الرجل عما فى نفسه من عدم رضاه عن البيع الذى تم . وعلى الفور وبكل سماحة قال له ذو النورين السمح الكريم سيدنا عثمان ﷺ : فاختر بين أرضك ومالك .

ثم عطر المقام والموقف بحديث الحبيب المصطفى ﷺ ليكون بلسمًا للقلوب، فقال ﷺ: فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أدخل الله الجنة رجلاً كان سهلاً مشتريًا وبائعًا وقاضيًا ومقتضيًا » .

---

(١) مجمع الزوائد للهيثمى (٤ / ٧٥).   (٢) أخرجه البخارى (٣ / ٧٥).
(٣) رواه البخارى فى الفتح ٢٠٧٨ .

● وهكذا ربى النبى ﷺ المؤمنين، على السماحة والرضا فى المعاملة، حتى تتأتى بركة الله فى البيع والشراء.

فرضوان الله تعالى عليهم ، كان مقصودهم الأعلى مرضاة الله تعالى، لقد آثروا ما عند الله على ما عند الناس أو ما عند أنفسهم . وهكذا يصنع الإيمان بالقلوب، يملؤها عفواً وسماحة.

والحمد لله رب العالمين

٢١٥ - وكان أبوهما صالحًا

أجلس سعيد بن المسيب ابنه أمامه، وقال له : إني لأزيد في صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك، ثم تلا قوله تعالى :

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ [الكهف / ٨٢].

(*) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي « شرح حديث احفظ الله يحفظك .

● من كرم الله تعالى وواسع فضله، أنه يتولى الصالحين بالحفظ في حياتهم الدنيا، يحفظهم من السيئات والمعاصي، ومن كل شيء يغضب الله تعالى، وهذا هو الحفظ الأعلى، أن يحفظ الله المؤمن من شرور نفسه، ومن شر إبليس، ومضلات الفتن، وزيغ الأهواء .

وأرشدنا النبي ﷺ إلى سبيل الفوز بحفظ الله تعالى، فقال ﷺ : « احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك »[(١)] .

فمن حفظ الله بالاستجابة لأوامره واجتناب نواهيه واقتدى برسول الله ﷺ فاز بحفظ الله تعالى له، ونال توفيقه .

والله سبحانه وتعالى يعلم ما لا نعلم، وفي هذا المعنى قال الحسن بن عليّ رضي الله عنه، لما ذُكر عنده أهل المعاصي وسوء أحوالهم : « هانوا عليه فعصوه، ولو عزُّوا عليه لعصمهم » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في حفظ الله للعبد : إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له، فينظر الله إليه، فيقول للملائكة : اصرفوه عنه، فإنه إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عنه، فيظل العبد يتطير (أي يقول كلام الشكوى والضجر دُون بصر ولا بصيرة)، بقوله : سبَّني فلان، وأهانني فلان وما هو إلا فضل الله عز وجل .

وعن النبي ﷺ : « يقول الله عز وجل : إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، وإن بسطت عليه أفسده ذلك ؛ وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك ؛ وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسده ذلك ؛ وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسده ذلك ؛ وإن من عبادي من يطلب بابًا من العبادة فأكفه عنه لكيلا يدخله العجب، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم إني عليم خبير »[(٢)] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦).

(٢) الأولياء لابن أبي الدنيا (١).

ثم إنه من فضل الله تعالى، أن يبث الطمأنينة فى قلوب أحبابه، بأنه سيحفظ لهم ذرياتهم، من شرور إبليس، ومن السيئات، ليكون مآلهم إلى الجنة، قال تعالى :

﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ** ﴾ [الطور/ ٢١].

وأرشدنا الله فى القرآن الكريم، إلى سبيل تأمين الذرية، وبخاصة إن كانت ضعيفة، وذلك بأن نلزم تقوى الله تعالى والصدق معه، قال تعالى :

﴿ **وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا** ﴾ [النساء/ ٩].

● وهناك فى قصة سيدنا موسى عليه السلام - مع الخضر - لما أقام الجدار لغلامين فى بلدة بخيلة، أبت أن تضيفهما، ولما سأل سيدنا موسى عن الحكمة من إقامة الجدار فى قرية بخيلة، كان جواب الخضر كما جاء فى التنزيل العزيز :

﴿ **أَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** ﴾ [الكهف / ٨٢].

وهكذا يظهر لنا أن أفضل ما ندخر لأولادنا هو زاد الإيمان والتقوى والصلاح والإخلاص، فبهذا الزاد ينالون حفظ الله تعالى.

● كل هذا من تجليات هذا الموقف المبارك، لسيدنا سعيد بن المسيب، لما أجلس ولده أمامه، وقال له : إنى لأزيد فى صلاتى رجاء أن تحفظ . ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾.

والحمد لله رب العالمين

٢١٦ - ثم أمر له بعطاء

بينما كان أنس بن مالك ﷺ يمشى مع رسول الله ﷺ ، إذا بأعرابى يجذب رسول الله ﷺ من ردائه جذبة شديدة ، حتى أثَّرَ الرداء فى رقبة رسول الله ﷺ من شدة جذبته .

ثم قال الأعرابى بغلظة لرسول الله ﷺ :

يا محمد ! مُرْ لى من مال الله الذى عندك .

فالتفت إليه النبى ﷺ وضحك ، ثم أمر له بعطاء .

(*) الموقف ورد فى حديث أخرجه البخارى، انظر فتح البارى (١٠ /٦٠٨٨) .

● اللهم يا ربنا ! صلِّ وسلم وبارك على صاحب الخلق الكريم، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديهم وتأدب بأدبهم، إلى يوم الدين.

هذا هو أسوتنا وقدوتنا، سيدنا محمد ﷺ لا يزيده جهل الجاهل عليه إلا حلماً، إنه ﷺ يعلمنا خلقًا تشتد إليه حاجتنا فى ظروف حياتنا المعاصرة، التى زاد اضطرابها، واشتدت فيها دوافع الغضب والغيظ، إذ قل احترام الصغير للكبير، وقلت رحمة القوى بالضعيف ... إلخ .

يعلمنا رسول الله ﷺ كيف نواجه أهل الانفعال والسفه، بأن لا نجاريهم ولا نسلك مسلكهم، وأن لا يخرجنا سفههم عن خلق الحلم والأناة، وأن ندفع بالتى هى أحسن، وهذا الأدب أدب نبوى كريم، وهو أدب قرآنى حميد، أمرنا الله به، قال تعالى : ﴿ **وَلا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ** ﴾ [فصلت / ٣٤].

● يعلمنا النبى ﷺ - فى هذا الموقف - أن الحلم ييسر لنا كظم الغيظ، كى ننال ثوابه من الله تعالى، وفى الحديث النبوى الشريف، عن ابن عمر -رضى الله عنهما ، قال رسول الله ﷺ : « ما من جرعة أعظمُ أجرًا عند الله من جرعة غيظ كظمها عبدٌ ابتغاء وجه الله تعالى »[١] . وقد رغبنا ربنا فى كظم الغيظ، قال تعالى :

﴿ **وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ [آل عمران / ١٣٣ - ١٣٤].

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه البيهقى (٤١٨٩)، اتحاف السادة المتقين للزبيدى (٩ / ١٤٥) .

٢١٧ - الأمانات إلى أهلها

في فتح مكة دخل النبي ﷺ البيت وطاف، ثم دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، فأمر بها ففتحت، فدخلها ﷺ وطهرها مما بها من مظاهر الشرك والكفر، ثم جلس النبي ﷺ في المسجد، فقام إليه عليّ رضي الله عنه ومعه مفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية.

فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة ؟» فدُعِيَ له. فقال له:

«هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء»

فنزل قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء / ٥٨].

(*) راجع تفسير ابن كثير، سورة النساء الآية/٥٨.

● صلاةً وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، ملكت فأحسنت، وآلت إليك الأمور فأكرمت، كيف لا وأنت النبى المصطفى؟!، يا من مدحك ربك فى قرآنه بمدح لا قبله ولا بعده، فليس بعد قول الله قول، ولا بعد بيانه بيان، قال الله تعالى :

﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم/ ٤].

● ويظهر من الموقف أن النبى ﷺ لما فتح مكة، دخل البيت وطاف، ثم دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، وأمر بفتحها، ففتحها له الإمام علىّ رضي الله عنه فدخل رسول الله ﷺ الكعبة وطهرها مما بها من مظاهر الشرك، ثم جلس ﷺ فى المسجد، فقام إليه الإمام علىّ رضي الله عنه، فسأل رسول الله ﷺ أن يجمع لهم الحجابة مع السقاية.

وعلى الرغم من أن النبى ﷺ فى عِزّة وتمكين بعد أن جاء نصر الله عز وجل، والناس يدخلون فى دين الله أفواجًا، فإنه ﷺ أمر بإحقاق الحق وأداء الأمانة إلى أهلها، ويضع النبى ﷺ خلقًا إيمانيًا بقوله ﷺ : «اليوم يوم بر ووفاء».

وهكذا نرى حضارة الإيمان، حضارة الإسلام متمثلة فى نبيها ﷺ حين تسيَّدت وتمكنت أحسنت وما أساءت .

● وزكّى الله تعالى فعل رسول الله ﷺ فى هذا الموقف، وأنزل فيه قرآنًا يُتلى، قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ . -

فكما أكدت الآية أن ردَّ الأمانات إنما يكون إلى أهلها، فإنها كذلك قد زكت حكم رسول الله ﷺ حين طلب من الإمام علىّ رضي الله عنه إبقاء المفتاح معه،

والإمام عليّ هو من القرب والمنزلة العالية والصلة القوية برسول الله ﷺ، وعلى الرغم من هذا لم تهتز العدالة بين يدى صاحب الخلق العظيم ﷺ، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [النساء/٥٨].

وبتأمل كلمة الناس فى الآية يظهر عموم دلالتها على كل الناس على اختلاف مللهم وعقائدهم، إنها تشمل المطيع والعاصى، كما تشمل المسلم وغير المسلم .

فالعدالة فى حضارة الإسلام ليست للمسلمين وحدهم ولكنها لهم ولغيرهم .

وهكذا كان رسول الله ﷺ، وهكذا عاش الصحابة رضوان الله عليهم على هذا الهدى الإيمانى المبارك .

والحمد لله رب العالمين

٢١٨ - أخرجى كل ما ادخرته لهم

مَرَّ الإمام الحسين رضي الله عنه - حفيد النبى ﷺ - على أهل الصُفَّة وهم يأكلون فسَلَّمَ عليهم ، فدعوه إلى الطعام معهم ، فلبَّى دعوتهم وقال : « إن الله لا يحب المستكبرين » .

وبعد الفراغ من الطعام ، قال لهم : « أجبت دعوتكم فأجيبوا دعوتى » ، ثم مضى بهم إلى منزله ، وقال لزوجه الرباب : «أخرجى كل ما ادخرته لهم » .

(*) الرسالة القشيرية / ١٢٢ .

● أهل البيت رضى الله عنهم هم عترة النبى ﷺ التى أوصى بها الأمة ، قال ﷺ : «إنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله ، وعترتى : أهل بيتى»[١] .

وأهل البيت هم ذوو القربى من النبى ، التى أمرنا الله بمودتها ، قال تعالى :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى٢٣] .

وأثنى الله عليهم فى قوله تعالى :

﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود/٧٣] .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [اللأحزاب/٣٣] .

وقد اجتمعت لأهل البيت فضائل ليست لغيرهم ؛ فلهم على قرابة النسب النبوى فضل الصحبة وفضل التبع .

وهم الورثة الحقيقيون لحال رسول الله ﷺ فى التقوى والإحسان ، فجاءت أخلاقهم كأخلاق جدهم المصطفى ﷺ ، قمةً فى مكارم الأخلاق .

● والموقف الذى بين أيدينا يشهد بحقيقة غالية ، هى أن أهل البيت لم ينالوا الدرجات العالية والمكانة الرفيعة بالنسب النبوى فقط، وإنما بحرصهم على مكارم الأخلاق والفضائل ، تأسيًا بجدهم ﷺ .

● ومن أهل الصُفّة ؟

الصُفّة مكان فى آخر مسجد النبى ﷺ كان يأوى إليه المساكين والغرباء ، وإليه ينسب أهل الصُفة ، وعليه كان ينزل المهاجرون الذين لم يتوفر لهم مكان عند الأنصار ، ومنهم من جاء إليها ليتوفر لطلب العلم ويعود معلمًا لقومه ،

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٧).

وكان عددهم قرابة السبعين.

وأثنى الله عليهم ، قال تعالى :

﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا** ﴾ [البقرة/٢٧٣] .

أما الإمام الحسين رضي الله عنه فلأنه يتخلق بخلق جده ﷺ فى التواضع؛ لما مر بأهل الصفة أفشى السلام ، فلما دعوه إلى الطعام، أجاب رضي الله عنه وجلس قائلاً : إن الله لا يحب المستكبرين.

وبعد الفراغ من الطعام معهم ، كان منه هذا الإكرام لأهل الصفة، إنه إكرام يليق بأهل بيت النبى ﷺ ، لقد طلب من زوجته الرباب أن تخرج لهم كل ما ادخرت ووزعه عليهم .

وسَعْيُ أهل البيت فى قضاء حوائج المساكين ومساعدة الفقراء، خلق ورثه أهل البيت عن جدهم ﷺ ، إن الإمام الحسين رضي الله عنه عندما استشهد وجد على ظهره أثر علامة ، فلما سأل الناس عن سبب هذه العلامة ، أجابت أخته السيدة زينب رضى الله عنها : « هذه العلامة كانت بسبب ما كان يحمله على ظهره من طعام وشراب للمساكين والفقراء بالليل .

● كما يبين موقف الإمام الحسين رضي الله عنه مع أهل الصفة ما صنعه الإسلام بالنفوس؛ فقد زكاها وطبعها على الحب والمودة والتعاطف والتراحم .

● كما يبين الموقف كيف نجحت شريعة الإسلام فى تحطيم الحواجز المادية بين الناس ، والتى يكون من ورائها التعالى والتفاخر والتعاظم ، حين تتعاظم

القيم المادية فى النفوس .

● لقد نشر الإسلام قيم الإيمان من الرحمة والتعاطف فى المجتمع، فقويت روابط المجتمع وزاد تماسكه ، وربى الإسلام الفقراء على التعفف والأغنياء على البذل والإنفاق ، وأنْعِم بمجتمعٍ فقيره متعفف وغنيه منفق !

والحمد لله رب العالمين

٢١٩ - رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه

بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنًا له اشترى فصًّا لخاتمه بألف درهم ، فكتب إليه :

بلغني أنك اشتريت فصًّا بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فبع الخاتم وأشبع ألف بطن ، واتخذ خاتمًا بدرهمين، واجعل فصَّه حديداً ، واكتب عليه :

« رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه ».

(*) الرسالة القشيرية / ١٤٩ .

نحن أمام موقف إيمانى يملأ القلب نوراً وهداية ، أى تواضع هذا ؟ وأىّ إيمان هذا ؟ إن ابن عمر بن عبد العزيز لم يشترِ شيئًا محرمًا ولكنه أراد كما يريد آلاف الشباب أن يستمتع بما يملك ، فاشترى خاتمًا به فَصٌّ من الأحجار الكريمة قيمته ألف درهم . فلما بلغ عمر بن عبد العزيز أن ابنه اشترى هذا الخاتم بهذه القيمة، أراد أن يُعلِّم ولده درسًا فى التواضع، ودرسًا آخر فى الاهتمام بفقراء المسلمين والسعى فى قضاء حوائجهم ، ودرسًا ثالثًا فى التخلى عن الترف والإسراف .

فما إن علم عمر بن عبد العزيز بأن ولده قد اشترى خاتمًا بألف درهم ، حتى كتب إليه :

« بلغنى أنك اشتريت فصًّا بألف درهم ، فإذا أتاك كتابى هذا فبع الخاتم وأشبع ألف بطن ، واتخذ خاتمًا بدرهمين ، واجعل فصَّه حديداً ، واكتب عليه : « رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه » .

وفى القرآن الكريم نجد تأكيداً لهذا المعنى ، فمما مدح الله به عباد الرحمن، وصفهم بقوله تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان/٦٣] .

كما يظهر لنا هذا الموقف الإيمانى أهمية التربية الإيمانية لأولادنا، التى تقوم على إحياء وتزكية القيم الإيمانية من التواضع وترك التعالى والتفاخر بما نملك ، والإحساس بالفقراء والمرضى وأصحاب الحوائج بأن نكون رحمة لهم ويداً حانية عليهم ، وبتقديم ما نستطيع من معونة ومساعدة لهم . فمقياس الخيرية عند الله عز وجل بقدر ما ينفع الإنسان غيره ، فخير الناس أنفعهم للناس.

وقيمة الإنسان فى رحاب الإيمان بقدر ما يعطى وليس بقدر ما يستهلك .

ثم إن الإسراف آفة تذهب بالمال مع كونه معصية نهى عنها القرآن الكريم، قال الله تعالى :

﴿ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام/ ١٤١] .

ولقد مدح الله المؤمنين الذين لا يسرفون ، فقال الله تعالى فى وصف عباد الرحمن :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان/ ٦٧]

وهكذا اقتدى عمر بن عبد العزيز بسيدنا رسول الله ﷺ الذى أوصانا ونصحنا بأن التربية الإيمانية هى أفضل ما نقدم لأولادنا، فقال ﷺ :

« ما نحلَ والدٌ ولده أفضل من أدب حسن »[١] .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه الترمذى (١٩٥٢) .

٢٢٠ - أنا جائعٌ

نظر إبراهيم بن أدهم إلى أحد تلاميذه ، وقد اشتد به الجوع ، فقال له : عليَّ بدواة وقرطاس ، فجاءه التلميذ بهما ، فكتب إبراهيم ابن أدهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى :

أنا حامدٌ ، أنا شاكرٌ ، أنا ذاكر

أنا جائعٌ ، أنا نائعٌ ، أنا عارى

هى ستةٌ وأنا الضمين لنصفها

فكن الضمين لنصفها يا بارى

وأعطاها لتلميذه ، وقال له : لا تعلق قلبك بغير الله ، ولم يمض وقتٌ طويل حتى أتى الله بالفرج .

(*) الرسالة القشيرية / ١٧٢ .

● رحم الله سلفنا الصالح الذين اهتموا بتربية القلوب وتهذيب النفوس وتزكية العقول ، فأصلح الله بهم ، ونفع الله بعلمهم . والتلميذ فى حجر التربية يحتاج إلى مُرَبٍّ له بصيرة ، مُرَبٍّ يعلم مراتب النفوس وما يصلحها .

وما أطيب أن يكون المعلم مربيًا يعطى مع العلم خُلُقًا وتربية، يصنع عقلاً يفكر ويربى قلبًا يؤمن ، وهكذا كان علماؤنا من السلف الصالح أثابهم الله عن الأمة خيراً .

● وفى الموقف - الذى بين أيدينا - اشتد الجوع بأحد تلاميذ إبراهيم بن أدهم ، ولاحظ الشيخ أثر الجوع على تلميذه ، فأحب أن يعلمه درسًا فى تجاوز الأسباب - بعد فعلها - إلى مسبب الأسباب ، أراد أن يعلمه أن فعل السبب طاعة لكن المؤمن يفعل السبب ويلتمس التوفيق من مسبب الأسباب ، وسبحانه القائل : ﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ [هود/٨٨].

فأرشد إبراهيم بن أدهم تلميذه إلى باب الاستعانة بالله تعالى ، فما نجاح الإنسان إلا بمعونة الله، والله تعالى يقول فى قرآنه: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ [الفاتحة/ ٥].

وفى الحديث النبوى الشريف : قال النبى ﷺ : « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى شسع نعله إذا انقطع »[1] .

ولكن المعلم والمربى إبراهيم بن أدهم علّم تلميذه بأسلوب عملى ، فقد أمره أن يحضر قلمًا وقرطاسًا (وهى أدوات الكتابة فى ذلك العصر) ثم كتب لتلميذه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، أنت المقصود بكل حال ، والمشار إليه بكل معنى :

---

(١) أخرجه ابن حبان (٨٩١، ٨٩٢).

أنا حـــامــدٌ ، أنا شــاكـــرٌ ، أنا ذاكـــر

أنـا جــــــائـعٌ ، أنـا نائـعٌ ، أنـا عـــارى

هى ســتــةٌ وأنـا الضــمــين لنصــفــهــا

فـكـن الـضـــمـــين لـنصـــفـــهـــا يا بـارى

ثم دفع الرقعة لتلميذه قائلاً له : لا تعلق قلبك بغير الله .

وانتفع التلميذ بموعظة شيخه ، وتوجه إلى ربه متضرعًا خاشعًا يدعو ربه بالفرج ، وما هو إلا وقتٌ يسير حتى أتى الله بالفرج .

وسبحان من يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء . والله سبحانه يرغبنا فى الدعاء بقوله : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ** ﴾ [البقرة/١٨٨].

وهكذا يعلمنا هذا الموقف الإيمانى فضيلتين :

الأولى : حُسن التوكل على الله عز وجل .

الثانية : طلب المعونة والتوفيق من الله تعالى بالدعاء .

ثم يضيف لنا الموقف قيمة غالية وعالية ومهمة ، وهى أنه ليس المهم أن نعلمَ فقط ، لكن المهم أن نعمل بما نعلَم لأن الثمرة تتحقق حين نعمل بما نتعلم . فبركة العلم لمن يعمل به، وإلا صار العلم حجةً على صاحبه .

رحم الله السلف الصالح ، ونفعنا الله بعلمهم .

والحمد لله رب العالمين

٢٢١ - أتجاوز عن المعسر

عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

«إنَّ رجلاً ـ فيمن كان قبلكم ـ أتاه المَلَك ليقبض روحه، فقيل له : هل عملت من خير ؟

قال : ما أعلم .

قيل له : انظر .

قال : ما أعلم شيئًا ، غير أنِّى كنت أبايع الناس فى الدنيا وأجازيهم، فأُنظر الموسر ، وأتجاوز عن المعسر . فأدخله الله الجنة» .

(*) رواه البخارى فى ذكر بنى إسرائيل (٧ / ٣٠٥) .

صلاةً وسلامًا على سيدنا رسول الله ﷺ، الذى أهدى لأمته هذه العظات والعبر من مواقف الأمم السابقة.

والموقف الذى بين أيدينا لرجل ذهب عمره فى الغفلة، وما أكثر الغافلين الذين تشغلهم الدنيا وزينتها عن آخرتهم.

فلما أدركه الموت، وسئل عن عمله الصالح وقيل له: هل عملت من خير؟

ولم يجد الرجل عملاً صالحًا يجعله بين الصالحين، فأجاب الرجل بقوله: ما أعلم.

فأُعيد عليه السؤال، وقيل له: انظر. فقال الرجل: ما أعلم شيئًا إلا أنى كنت أبايع الناس فى الدنيا وأجازيهم (أى أقاضيهم)، فآخذ منهم وأعطى، وكنت أُنظر الموسر، وأتجاوز عن المعسر.

لقد وُفق هذا الرجل بفضل الله إلى باب لمرضاة ربه، فأكرمه الله به فأدخله الله الجنة.

ويُظهر الموقف للمؤمنين، سعة فضل الله تعالى وواسع رحمته، فى جبر حال العباد بين يديه، وقبوله للأعمال التى قد نراها يسيرة، ويعظم ثوابها.

وهذا من كرم الله تعالى وواسع فضله.

فاللهم أكرمنا واشملنا بواسع فضلك يا لطيف.

كما يظهر من الموقف أن المؤمن ينبغى ألا يكون خاليًا عن باب من أبواب الخير يتقرب به إلى ربه.

ولكل عبد باب يسره الله تعالى له؛ فلأهل المال باب الصدقة والإحسان إلى الفقراء.

وباب العلماء : إشاعة العلم بين الناس ابتغاء مرضاة الله .

وباب الشباب : السعى الجاد فى تحصيل العلم أو فى الجهاد فى سبيل الله .

وباب الفقراء ومن تقدمت بهم السن : ذكر الله عز وجل .

حتى الخادم والعبد بابه مع الله إخلاصه فى خدمة سيده، وفى رعاية مال سيده، لأن ذلك يجعل له عند الله تعالى مثل أجر سيده مرتين .

والزوجة إذا أخلصت فى تربية أبنائها ورعاية زوجها وأسرتها كان لها مثل أجر زوجها فى كل ما يصنع من جهاد أو صدقة .

وهكذا لكل عبد باب .

أيضاً يظهر لنا من هذا الموقف موعظة غالية فى فضل التسامح ورعاية ظروف المعسرين، وحسن المعاملة فى البيع والشراء، وفى ذلك يقول النبى ﷺ : « رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى »[١] .

وهكذا فالجزاء من جنس العمل، فمن يَسَّر على الناس يَسَّر الله عليه، ومن رحم الناس رحمه الله تعالى .

وفى الحديث النبوى الشريف، قال رسول الله ﷺ : « ارحموا تُرحموا »[٢] .

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى

والحمد لله رب العالمين

---

(١) ابن ماجه (٢٢٠٣)، والبيهقى (٥/٣٥٧)

(٢) رواه أحمد (٢/١٦٥، ٢١٩) .

٢٢٢ - المرأتان والذئب

عن أبى هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«كانت امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك. وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود عليه السلام، فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان ابن داود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتونى بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرى:

لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى».

(*) رواه البخارى فى الأنبياء (٧/ ٢٧٥)، رواه أحمد (٢/ ٣٤٠).

هذا موقف يفيض بالعظات الغالية، والفوائد النافعة:

الأولى: أن القاضى يحكم بين الناس بحسب حججهم، ولعل بعض الناس أن يكون أبلغ فى حجته من الآخر، فيقضى له القاضى بحسب ما سمع.

أما العدل الخالص والحق الخالص فهو عند الله تعالى، وفى هذا المعنى يقول الله تعالى:

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ الزمر / ٤٦.

والنبى ﷺ يقول: «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار»(١).

ألحن بحجته: أقدر على التعبير عنها.

وعليه فينبغى للإنسان ألاَّ يتعجل الحكم بين الناس، وأن يسأل الله تعالى أن يلهمه الحق والصواب.

الثانية: أن الفهم وحسن الحيلة منحة من فضل الله تعالى لبعض عباده، تمكنهم من الوقوف على حقائق الأشياء، وهى نعمة أنعم الله بها على نبيه سليمان عليه السلام، وزكاه بها، قال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ الأنبياء/٧٨.

ولذلك لما حكم نبى الله داود عليه السلام للكبرى بالولد، ثم خرجت المرأتان على نبى الله سليمان عليه السلام، وأخبرتاه بالحكم أعاد النظر والتأمل، ثم لجأ إلى حيلة ذكية ليعرف منها الأم الحقيقية للولد.

فقال عليه السلام: ائتونى بسكين أشقه بينكما! وعلى الفور قالت

(١) أخرجه البخارى. (٩ / ٣٢، ٨٦)، وأبو داود (٣٥٨٣).

الصغرى: لا تفعل يرحمك الله، هو ابنها.

إنها الأم دفعتها الشفقة والحنان والحرص على ابنها أن فضلت أن يبقى حيًّا مع غيرها بدلاً من شقه نصفين فيموت.

وظهر الحق واضحًا لنبى الله سليمان عليه السلام فقضى بالولد للصغرى.

وانظر بتأمل إلى العقل والفهم، كيف يصل بالقاضى والباحث ونحوهما إلى الحق، بدلاً من وسائل البطش والتعذيب، التى ترغم المتهم على الاعتراف أو الإدلاء بأقوال مطلوبة ولكنها لا تمثل الواقع ولا الحقيقة، ولا تزيد القاضى إلا تضليلاً.

اللهم ألهمنا الرشد والصواب، ووفقنا لما تحب وترضى.

والحمد لله رب العالمين

٢٢٣ - إن الله قد غفر للكفْل

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدِّث حديثًا لو لم أسمعه إلاَّ مرة أو مرتين حتى عدَّ سبع مرات، ولكني سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته، أرعدت وبكت، فقال: ما يبكيكِ، أَكْرَهْتُك؟ قالت: لا، ولكنه عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة. فقال: تفعلين هذا وما فعلته؟! اذهبي فهي لك، وقال: لا والله لا أعصي الله بعدها أبدًا.

فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه «إنَّ الله قد غفر للكِفل».

(*) رواه أحمد في المسند رقم (٤٧٤٧)، والحاكم (٤/ ٢٥٤).

صلاةً وسلامًا على سيدنا رسول الله ﷺ، من حرصه علينا أخبرنا بما أطلعه الله عليه من أخبار الأمم السابقة وأعمالها، كى يكون لنا فيها العظة والعبرة.

وهذا خبر رجل - من المسرفين على أنفسهم - من بنى إسرائيل يدعى ذا الكفل، وهو غير ذى الكفل الذى هو من جملة الأنبياء عليهم السلام. المذكور فى القرآن الكريم، فى قول الله تعالى:

﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنبياء/ ٨٥].

فذو الكفل فى الموقف رجل مسرف من بنى إسرائيل، لا يتورع عن ذنب، ومن جملة ذنوبه وخطاياه ؛ أن امرأة ألجأتها الحاجة إلى المال، فأعطاها ستين ديناراً على أن يطأها، فلما جلس فى تمكن منها، انهمر دمعها، فليس هذا الذنب من عادتها، وهذه أول مرة تقع فى هذا الإثم بسبب الاضطرار.

وأصاب ذا الكفل دهشةٌ عجيبة، لأن هذه الدموع دموع صادقة، وحالة الاضطراب التى أصابت هذه المرأة لم تكن مصطنعة، لقد هزَّها الإيمان هزًّا أفسد جو المتعة واللذة الذى كان ينتظره ذو الكفل.

فسأل المرأة مُتعجبًا: ما يبكيك ؟ أأكرهتك ؟

فأجابت والدمع يخنق صوتها: إنى لم أعمل هذا قط، وما حملنى عليه إلا الحاجة، وإنى أخاف ربى. ووقعت الكلمات كأبلغ موعظة فى قلب ذى الكفل، وأذهبت دموع المرأة الصادقة كل هوى وفسادٍ من قلبه، وتبدل حاله، وكأنه كان فى سكرة وأفاق منها، فألهم رُشده، وعاد إليه وعيه، وقال لها: اذهبى بالمال دون أن يفعل شيئًا معها. ولم يقف عند هذا الحد من الإقلاع عن الذنب، وإنما عاهد ربه ألا يعصيه أبداً فأقسم بربه قائلاً:

والله لا أعصى الله بعدها أبداً. فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: «إن الله قد غفر للكفل».

وهكذا تصنع مواقف الصادقين بنا، فامرأة صادقة كانت بموقفها الصادق مع

ربها سببًا لتوبة ذى الكفل الذى كان لا يتورع أبدًا عن ذنب، وصدق السابقون حين قالوا: حال رجل فى ألف رجل أبلغ من كلام ألف رجل فى رجل.

ثم كان من توفيق الله ليتوب على ذى الكفل، أن وفقه لهذه الصدفة الطيبة، فقد تحول المال - الذى أعطاه ذو الكفل للمرأة فى مقابل معصية - إلى طاعة - إلى صدقة طيبة دفع الله بها عنه سوء الخاتمة، ورزقه ببركتها حسن الخاتمة.

ثم هذه النية الطيبة وعهد الطاعة الذى أقسم بالله عليه جلب له فضلاً آخر من أفضال الله تعالى.

وعلى نفس المنوال، وبنفس الأسلوب يعامل ربنا الكريم البر التواب الرحيم، كل من أناب وتاب إليه، إن ربى رحيم ودود.

اللهم ردنا إلى الإيمان ردًا جميلاً، وتب علينا توبةً نصوحًا، وألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى، وأحسن خاتمتنا فى الأمور كلها.

والحمد لله رب العالمين

٢٢٤ - إذا مِتُّ فأحرقونى !

عن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال :

«كان رجلٌ يسرف على نفسه، فلما حضره الموت قال لبنيه : إذا أنا مِتُّ فأحرقونى، ثم اطحنونى، ثم ذرّونى فى الريح، فوالله لئن قدر الله علىَّ، ليعذِّبنّى عذابًا ما عذَّبه أحدًا. فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال :

اجمعى ما فيكِ منه ففعلت، فإذا هو قائم فقال :

ما حملك على ما صنعت ؟

قال : ياربِّ خشيتك. فغفر له».

(*) رواه البخارى فى ذكر بنى إسرائيل (٧/ ٣٣٢ - ٣٣٣).

هذا رجل من بنى إسرائيل آتاه الله مالاً وجاهًا وسلطانًا، فأساء فى النعمة وبالغ فى العصيان، وكم من أناس لهم مظاهر بَرَّاقة، وأسماء لامعة، يُفسح لهم فى المجالس، ويُشار إليهم بالبنان، وهم - عند الله تعالى - من أكابر المجرمين.

لكن إن استطاع أمثال هؤلاء أن يخدعوا الناس فلن يخدعوا الله عز وجل، قال تعالى:

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة/٨].

ومرت الأعوام والظالم يزداد طغيانًا وإفسادًا، حتى أصابه مرض اشتد عليه، وكم كانت الدنيا رخيصة فى هذه اللحظات، فلا المال ولا الجاه ولا السلطان، يستطيع أن يصنع شيئًا فى هذا المقام.

إنه مقام العجز والتسليم فأدرك هذا المسرف على نفسه خطر الحساب والعقاب، حيث لا تصلح الدنيا بما فيها ليفتدى بها الإنسان من العذاب، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر/٤٧].

فدعا الرجل أولاده وأوصاهم إن هو مات أن يحرقوه، ثم يطحنوه بعد الحرق، ثم يذرّوه فى الريح، ثم قال لهم: فوالله لئن قدر الله علىّ ليعذبنى عذابًا ما عذَّبه أحدًا.

واستجاب الأولاد لوصية أبيهم، وفعلوا كما أمرهم، لكن هيهات هيهات. فوالله لو فتتوا وفَجَّروا كل ذرة إلى آلاف الجسيمات، فإن الله قادر على جمعه، قال الله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام/ ٩٤].

حتى الجزء – الذى يقطع من الإنسان عند الختان – فإنه يعود إليه بأمر الله، ليصير الإنسان كاملاً كما خلقه الله أول مرة.

لقد أمر الله الأرض: أن اجمعى ما فيكِ من هذا الرجل. ففعلت الأرض. فإذا هو قائم، فسأله ربه: ما حملك على ما صنعت ؟

قال: يارب خشيتك.

فغفر الله له.

ولعل هذا الموقف يدفعنا دفعًا قويًا إلى أن نسارع بالتوبة الصادقة إلى الله - قبل أن يأتى الموت بغتة، ولن ينفعنا كل ما تراه أعيننا من زينة الحياة الدنيا وما نتنافس بل نتقاتل من أجله، ونُشغل به عن مرضاة الله.

كما يظهر من الموقف سعة رحمة الله، ووده ومغفرته، لمن يخشى لقاءه، كيف لا ؛ وربنا هو الغفور ذو الرحمة؟.

كيف لا ؛ وربنا هو الرحيم الودود؟.

كيف لا ؛ وهو الذى تفضل بالنداء على عباده المسرفين، قال الله تعالى:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ * وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا

فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الزمر/٥٣ : ٥٨].

كما يبين ربنا أن الله يثيب عبده على الخوف، والخشية لله تعالى، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [الملك/١٢].

وقال تعالى:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن/٤٦].

اللهم رُدَّنا إلى الإيمان رَدًّا جميلاً وتب علينا توبةً نصوحًا.

والحمد لله رب العالمين

٢٢٥ - حُرِّمَتْ عليه الجنة

عن جُندُب بن عبد الله رضي الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ :

«كان فيمن كان قبلكم رجل جُرِح فجَزِع فأخذ سكِّينًا فحزَّ بها يده فما رقأ الدم حتى مات ، قال الله عزَّ وجلّ :

بادرني عبدى بنفسه ؛ حُرِّمت عليه الجنة» .

(*) رواه البخارى فى بنى إسرائيل (٧ / ٣١٠ - ٣١١) .

أمام الابتلاء ينبغي أن يصبر الإنسان ولا يجزع، فعدم الرضا بقضاء الله وقدره، يدفع الإنسان إلى الجزع والسخط.

وفي الموقف الذى بين أيدينا، بشأن هذا الرجل الذى جزع ولم يصبر، بالغ الرجل في جزعه وضجره، حتى وصل به إلى الانتحار، فأخذ سكينًا فحزَّ بها يده فمات.

فكان حكمُهُ عند الله تعالى أن حرَّم الله عليه الجنة، لأنه بادر ربَّه بنفسه.

قال رسول الله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا فيها أبدًا»(١).

ومثل هذا الموقف وقع أيام رسول الله ﷺ، فقد كان رجلٌ مع النبى ﷺ يتظاهر بالإسلام، وكان يقاتل معه في غزوة قتالاً شديدًا، فأخبر النبى ﷺ أصحابه بأنه من أهل النار، فتبعَهُ رجلٌ يراقبه، فأصابته جراحات شديدةٌ فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وحَدَّه بين ثدييه، ثم تحامل على السيف فقتل نفسه، فأُخْبِرَ النبى ﷺ فقال: «الله أكبر، أشهد أنى عبد الله ورسوله»، ثم أمر بلالاً فنادى في الناس:

«إنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمة، وإن الله ليؤيِّدُ هذا الدين بالرجل الفاجر»(٢).

نسأل الله تعالى أن يحفظنا من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخارى (٧/ ١٨١)..

(٢) أخرجه البخارى (٤/ ٨٨).

٢٢٦ - راهب وامرأة

عن أبى ذر ﷺ قال :

قال رسول الله ﷺ :

« تعبَّد عابدٌ من بنى إسرائيل ، فعبد الله فى صومعته ستين عامًا ، فأمطرت الأرض فاخضرَّت ، فأشرف الراهب من صومعته فقال :

« لو نزلت فذكرت الله فازددت خيرًا » ، فنزل ومعه رغيف أو رغيفان ، فبينما هو فى الأرض لقيته امرأة ، فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ، ثم أغمى عليه ، فنزل الغدير يستحمّ ، فجاء سائل ، فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين أو الرغيف ، ثم مات . فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته ، ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته فرجحت حسناته فغفر له » .

(*) رواه ابن حبان فى صحيحه رقم (٨٢٠) بموارد الظمآن .

هذا عابد أمضى العمر فى خلوة صومعته يتعبد لربه، كيف سقط ؟ ! وكيف نجح إبليس فى إغوائه ؟ !

لم يكن لإبليس أن يوسوس للعابد بفعل معصية، فهذا مدخل فاشل لا يؤتى ثماره مع العابد.

ولكن إبليس احتال عليه بحيلة، لقد زين له أن ينزل إلى الأرض الخضراء -بين النباتات - لينعم بالتأمل فى آيات الله فى النبات، فالتفكر فى آيات الله وخلقه عمل صالح.

وإبليس يقصد - من وراء ذلك - أن يقربه من موضع الفتنة حيث النساء، فتواصل مع امرأة لعوب، وانتهى معها إلى الفاحشة. وهكذا سقط العابد فى فخ إبليس بأبسط حيلة.

وهكذا يسلك الشيطان مع الإنسان سبل الإغواء بتدرج، قال الله تعالى:
﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة/٢٠٨].

ثم نزل العابد الماء ليستحم، فجاءه سائل فأومأ إليه العابد أن يأخذ ما عنده من خبز (رغيفًا أو رغفين) ثم مات العابد ! ! فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية فرجحت الزنية بحسناته.

ثم وضع الرغيف أو الرغيفان مع حسناته، فرجحت كفة الحسنات لَمَّا وضع فيها ثواب الرغيف، لقد ضاعف الله ثواب الرغيف وأنقذ به العابد من النار.

ومن هنا نتعلم ألا نحتقر من الأعمال الصالحة شيئًا، فلعل هذا العمل القليل هو المتمم لكفة الحسنات، وبه تكون النجاة.

كما نتعلم من الموقف أن نسأل الله حُسن الخاتمة، فهذا عابد فُتن بعد ستين سنة من العبادة والطاعة.

كما نتعلم خطورة باب النساء فى الفتنة، وقد أخرج مسلم فى صحيحه،

قول النبي ﷺ : « ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء »[١] .

وفى الحديث النبوى أيضًا، قال ﷺ : « اتقوا الدنيا والنساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت النساء »[٢] .

والمعنى أن المرأة حين تكون داعية للغرائز والشهوات، متبرجة فى سلوكها ومظهرها، فإن خطرها عظيم .

فى حين أن المرأة حين تكون داعية إيمان فى سلوكها ومظهرها فإن الله ينفع بها .

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه مسلم١٧/ ٤٥ .		(٢) رواه مسلم (٤ /٢٠٩٨) .

٢٢٧ - سقته فَغُفِر لها (مكرر)

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال النبى ﷺ:

«بينما كلب يُطيف برَكِيَّة (بئر) كاد يقتله العطش، إذ رأته بَغيٌّ من بغايا بنى إسرائيل، فنزعت مُوقَها (خُفَّها) فسقته فغُفِر لها به».

(*) رواه البخارى فى ذكر بنى إسرائيل (٧ / ٢٣٠).

ما أعظم حلمك يا ربنا، وما أعظم رحمتك، جعلت الحسنات تُذْهِب السيئات، وعداً حقًا وصدقًا جاء فى القرآن لا يتخلف قط، قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴾ [هود/١١٤].

ومن واسع فضلك يا رب أنك تضاعف الحسنات، وتقبل القليل من العبد فيكون عندك كثيراً. أنت الرب الكريم، سبحانك ما أعظمك.

هذه امرأة بغى تمارس الرذيلة، وتعيش بالفاحشة، رأت حيوانًا (كلبًا) يدور حول بئر من شدة عطشه، فَرقَّ قلبها عطفًا وحنانًا، ولم تجد المرأة شيئًا تسقى به هذا الكلب فنزعت خُفَّها، وملأته ماءً من البئر، وقدمته للكلب فشرب، فسامحها الله عز وجل وغفر لها. فكيف إذا رَقَّ القلب لإنسان يتيم أو مريض أو أرملة أو مسكين أو مظلوم أو تائه أو ضال حيران ؟ أفلا يكون الثواب عند الله الكريم أعلى وأعظم ؟

إن المشاعر التى تمر بقلوبنا، حين تكون إيمانية فإن الله تعالى يُثيب عليها، ويجزى بها خيراً. وحين يبادر الإنسان بحسنة ولو يسيرة فإنه سيحصد من ورائها الفضل والمغفرة.

إن مثل هذه الأعمال على بساطتها، جعلها الله أسباب رحمة وأسباب مغفرة. سبحانه وتعالى منه الكرم والعفو.

وفضل الله واسع، وبابه مفتوح للطالبين والسائلين والتائبين.

ولو كان صنيع خير بحيوان، كما جاء فى الموقف الذى بين أيدينا، وفى حديث متفق عليه، عن رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ العطش من هذا الكلب مثل الذى كان قد بلغ منى، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب، فشكر

الله له فغفر له » قالوا : يا رسول الله، إن لنا فى البهائم أجرًا ؟ فقال : « فى كل كبد رطبة أجر »[1].

وكذلك جعل الله الجنة جزاء لمن يصنع شيئًا من المعروف ولو كان إماطة شيء من الأذى عن الطريق، فبينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له.

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه البخارى (٣/١٤٧، ١٧٤)، ومسلم : السلام ١٥٣.

٢٢٨ - أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رقيبًا ؟!

عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ :

«كان رجلان من بنى إسرائيل متآخيين ، وكان أحدهما مذنبًا والآخر مجتهدًا فى العبادة ، وكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول له : أقصر . فوجده يومًا على ذنب ، فقال له : أقصر . فقال :

خلِّنى وربى ، أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رقيبًا ؟ فقال :

والله لا يغفر الله لك ، أو لا يدخلك الجنة . فقبض روحهما فاجتمعا عند رب العالمين . فقال لهذا المجتهد :

أكنت بى عالمًا أو كنت على ما فى يدى قادرًا ؟ وقال للمذنب :

اذهب فادخل الجنَّة برحمتى ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار» .

(*) رواه أحمد ، وأبو داود فى الأدب من سننه رقم (٤٩٠١) .

إننا لم نبعث على أعمال الناس حافظين، وإنما ندعو بالتي هي أحسن، نأمر وننهى بما أمر الله به ونهى عنه. ثم نترك النتائج لله عز وجل، إن شاء أصلح ووفق، وإن شاء هدى وأعان، وإن شاء غفر وسامح، وإن شاء عَذَّب وعاقب، فالأمر كله لله تعالى.

والله يعامل عباده بلطف وود، ألم تر أن الله خاطب المسرفين على أنفسهم فأضافهم إليه تأنيسًا لهم، فقال تعالى:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر/٥٣].

وعبرة أخرى من الموقف أنه ينبغي للطائع ألاَّ يكون متعاليًا بالعبادة، وألاَّ يحتقر غيره من أهل التقصير، بل ليحمد الله تعالى أن وفقه وهداه، وليشغل نفسه بجهد الإعانة بدلاً من اشتغاله بإدانة غيره.

ويتأتى جهد الإعانة بالدعاء بالهداية والتوبة للمسرفين، وتيسير سبل الحلال والطاعة لهم، رُوِيَ أن النبي ﷺ قال: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. فقال تعالى: من ذا الذي يتألَّى عليَّ (أي يحلف عليّ) ألاَّ أغفر لفلان، فإني غفرت لفلان وأحبطت عملك»[١].

وما يدرينا لعلَّ الله يتوب على هذا المنحرف فيصبح من الصالحين، وأمام أعيننا تحولات من درك المعاصي والانحراف إلى قمم النور والإيمان.

إن الطاعة التي تجر صاحبها إلى الكبر أو التعالي أو الغرور، صاحبها على خطر عظيم، في حين أن المعصية التي تورث العبد ذلاً وانكسارًا وندمًا، صاحبها إلى خير إن شاء الله.

وإلى هذا المعنى أشار ابن عطاء الله – رحمه الله تعالى – في الحكم، حيث

---

(١) أخرجه الطبراني (٢ / ١٧٧).

قال : معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعة أورثت عزًا واستكباراً .

إن الله هو الغفور الرحيم، ولا يعلم أحد حدود مغفرته، يقول النبى ﷺ : « يجىء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب أمثال الجبال يغفرها الله لهم »[١] .

وهل هناك أعظم ذنبًا من الذى قتل مائة نفس بغير حق ثم تاب وأناب إلى ربه فغفر له . لقد سبق عفوه غضبه، وسبقت رحمته عقابه حتى وسع كل شىء رحمة وعلمًا . يقول ﷺ : « يُدْنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقرره بذنوبه، فيقول : أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف، قال : فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى صحيفة حسناته »[٢] .

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى .

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه مسلم فى كتاب التوبة (٥١) .

(٢) مسلم ، كتاب التوبة (٥٢) .

٢٢٩ - ربِّ برحمتك

عن جابر بن عبد الله - رضى الله تعالى عنهما- قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «خرج من عندى خليلى جبريل آنفًا، فقال: يا محمد، والذى بعثك بالحق! إنَّ لله عبداً من عبيده، عَبَدَ الله خمسمائة سنة على رأس جبل فى البحر، عرضه وطوله ثلاثون ذراعًا فى ثلاثين ذراعًا، والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية، وأخرج الله تعالى له عينًا بعرض الإصبع تبضُّ بماءٍ عذب فتستنقع فى أسفل الجبل، وشجرة رمان تخرج له كل ليلة رمانة فتغذِّيه يومه، فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء، وأخذ تلك الرمانة فأكلها، ثم قام لصلاته. فسأل ربه عزَّ وجلَّ - عند وقت الأجل - أن يقبضه ساجداً، وألاَّ يجعل للأرض ولا لشىء يفسده عليه سبيلاً حتى يبعثه وهو ساجد.

قال: ففعل. فنحن نمرُّ عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا فنجد له فى العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدى الله عزَّ وجلّ، فيقول له الرب: أدخلوا عبدى الجنة برحمتى، يقول ربِّ، بل بعملى. فيقول الرب: أدخلوا عبدى الجنة برحمتى، فيقول:

يارب، بل بعملى. فيقول الرب: أدخلوا عبدى الجنة برحمتى، فيقول: يا رب، بل بعملى. فيقول الله عزَّ وجلّ للملائكة: قايسوا عبدى بنعمتى عليه وبعمله. فوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة، وبقيت نعمة الجسد فضلاً عليه. يقول: أدخلوا عبدى النار، قال: فيُجَرُّ إلى النار، فينادى: رب برحمتك أدخلنى الجنة. فيقول: ردُّوه، فيوقف بين يديه. فيقول: يا عبدى، مَنْ خلقك ولم تك شيئًا ؟

فيقول: أنت يارب، فيقول: كان ذلك من قِبَلك أو برحمتى؟ فيقول: بل برحمتك. فيقول: مَنْ قوَّاك لعبادة خمسمائة عام ؟ فيقول: أنت يارب. فيقول: مَنْ أنزلك فى جبل وسط اللجة، وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح، وأخرج لك كل ليلة رمَّانة، وإنما تخرج مرّة فى السنة، وسألتنى أن أقبضك ساجدًا، ففعلت ذلك بك ؟ فيقول: أنت يارب. فقال الله عزَّ وجلّ: فذلك برحمتى، وبرحمتى أدخلك الجنة، أدخلوا عبدى الجنة، فَنِعْمَ العبد كنت يا عبدى، فيدخله الله الجنة. قال جبريل عليه السلام: إنما الأشياء برحمة الله يا محمد».

(*) رواه الحاكم فى كتاب التوبة والإنابة (٤ / ٢٥٠)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

الإنسان وما فعل من طاعات وقربات، هو مِلْك لله تعالى، وطاعته من توفيق الله تعالى.

وكل نعمة حازها العبد هى من فضل المنعم الوهاب، قال الله تعالى:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل/٥٣].

لكن الإعجاب بالنفس أو بالعمل الصالح، يؤدى بالإنسان إلى الغرور. ولو علم الإنسان أنه عاجز عن شكر نعمة واحدة من ملايين النعم التى أنعم الله بها على الإنسان، لأيقن الإنسان بعجزه وافتقاره إلى الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴾ [النحل/١٨].

لكن الإنسان أحيانًا ينظر إلى عمله وينسى توفيق الله له فيه، ولولا توفيق الله لما أتَمَّ عملاً له ولا أفلح فى طاعة.

ويقدم لنا الموقف درسًا غاليًا فى ألاَّ نُفتن بأعمالنا الصالحة، وألاَّ نعتمد عليها، فرحمة الله أرجى من أعمالنا.

وكما رأينا فى الموقف، لما أراد هذا العابد أن يعتمد على عمله، وَكَلَهُ الله إلى عمله، وأراد أن يقارن بين نعمة واحدة - من نعمه عليه - وعمله كله طوال خمسمائة سنة، فرجحت تلك النعمة الواحدة على سائر عمله. فما بالك لو حوسب على باقى النعم.

وتأكد لهذا العابد أن ليس له إلا رحمة الله عز وجل، وفضله وإحسانه. وفى الحديث، قال النبى ﷺ: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا: حتى أنت يا رسول الله، قال: حتى أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته»[1].

فنحن ندخل الجنة برحمة الله، ونتقاسم منازل الجنة ودرجاتها بأعمالنا.

اللهم ارزقنا التواضع، وجنبنا الغرور يا رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) إتحاف السادة المتقين للتبريذى (٢/١٩٧).

٢٣٠ - خذ ذهبك

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

« اشترى رجلٌ من رجلٍ عَقاراً له، فوجد الرجل الذى اشترى العقار فى عقاره جرَّةً فيها ذهب، فقال له الذى اشترى العقار :

خذ ذهبك، إنما اشتريتُ منك الأرض ولم أشترِ الذهب، وقال الذى له الأرض :

إنما بعتك الأرض وما فيها .فتحاكما إلى رجل، فقال الذى تحاكما إليه :

ألكما ولد ؟ قال أحدهما : لى غلام، وقال الآخر : لى جارية .

قال :

أَنكِحا الغلامَ الجارية وأنفقا على أنفسكما منه وتصدَّقا ».

(*) رواه البخارى فى نزول عيسى من الأنبياء (٧/٣٢٧)، ومسلم فى الأقضية (١٢/١٩-٢١).

نحن أمام روعة وعظمة صنعها الإيمان فى القلوب، فإن كنا قد ألفنا فى دنيا الناس اجتهاد كل من البائع والمشترى فى الحصول على ميزة حتى يكون هو الفائز بالربح الأعلى، وقد يصل التنافس بينهما - فى غيبة الإيمان - إلى الحلف الكاذب والتغرير. وما إلى ذلك من أمور، الغاية من ورائها زيادة الربح وحيازة المال الوفير، ففى هذا الموقف الإيمانى الرائع تنتقل المنافسة فيه بين البائع والمشترى من الأخذ إلى العطاء.

وتحاكم الطرفان بسبب رغبة كل طرف فى إثبات مٰلكية الذهب الذى وُجد تحت العقار للآخر، إنه الورع والحرص على الحلال الخالص بعيداً عن الشبهة، وما أحوجنا فى زماننا إلى هذه العبرة، فقد حمل حب المال الناس على أخذه من حِلِّه ومن غير حِلِّه.

كما يظهر من الموقف عبرة أخرى، وهى حكمة القاضى الذى رُفع إليه الأمر، فقد حكم بما يتوافق مع ورع الرجلين، حيث جعل المال فى باب يحصل منه الثواب لكل من الرجلين، فقال القاضى: ألكما ولد ؟ قال أحدهما: لى غلام، وقال الآخر : لى جارية. فقال القاضى : أنكحا الغلام الجارية وتصدقا من هذا المال.

وعلى نفس المنوال وبنفس الطريقة نجد الصالحين أهل الورع والأمانة إذا ما شَكُّوا فى مال بين أيديهم قد اختلط بمال غيرهم مما هو أمانة يعملون فيه، فإنهم يجعلون كل المال للأمانة ولا يأخذون منه شيئًا.

نعم إن الإيمان أمن وأمان، والمؤمن الحق هو الذى يؤتمن على أموال الناس وأعراضهم، والمسلم الحق هو من سلم الناس من لسانه ويده.

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.

والحمد لله رب العالمين

٢٣١ - ففهّمناها سليمان

دخل رجلان على نبى الله داود عليه السلام، أحدهما صاحب حرث (أى حقل) والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحقل : إن غنم الرجل أكلت زرعى فلم تُبْقِ منه شيئًا، فحكم داود عليه السلام لصاحب الحقل أن يأخذ الغنم فى مقابل زرعه.

فقال سليمان عليه السلام : غير هذا يا نبى الله. قال : وما ذاك ؟

قال : تدفع الحقل لصاحب الغنم حتى يرجع كما كان، وتدفع الغنم لصاحب الحقل فينتفع بها، حتى إذا عاد الزرع كما كان، عادت الغنم إلى صاحبها، وعاد الزرع إلى صاحبه.

وفيه قول الله تعالى :

﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَان فِى الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فيه غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لحُكْمهمْ شَاهدينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعلينَ ﴾ [الأنبياء / ٧٨ - ٧٩].

(*) مختصر تفسير ابن كثير، تفسير الآية ٧٨ من سورة الأنعام.

صلاةً وسلامًا على سادتنا الأنبياء. لقد أثنى الله على سيدنا داود وسيدنا سليمان، فقال فى كتابه العزيز :

﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾.

ومع الثناء بَيَّن الله ما اختص به كل واحد منهما من فضل، فقد اختص الله داود عليه السلام بما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ * وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾.

بينما اختص الله سيدنا سليمان بنعم أخرى منها الفهم، قال الله تعالى :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾.

وقال تعالى :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ [الأنبياء / ٨١-٨٢].

والموقف يظهر لنا أن نعمة الفهم فوق العلم، وقد جعل الله لسيدنا سليمان من هذه النعمة حظًا وفيرًا. إن حكم سيدنا داود عليه السلام أقام العدل، حيث رأى أن قيمة الغنم على قدر النقصان الذى حدث فى الزرع، فجاءت الغنم عوضًا عن الزرع التالف. فمن العدل أن من أتلف شيئًا فعليه عوضه.

أما حكم سيدنا سليمان عليه السلام، فقد حقق مع العدل رعاية العمران وعدم إفلاس الطرف المدين، إنه عدل يعالج الموقف بحكمة، وهو من فيض الله تعالى، لذلك قال تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ حيث حكم سليمان عليه

السلام بأن يأخذ صاحب الغنم الأرض ليصلحها حتى يعود زرعها كما كان، ويأخذ صاحب الزرع الغنم فينتفع بألبانها وأصوافها ونسلها، فإذا كمل الزرع رُدَّت الغنم إلى صاحبها، والأرض بزرعها إلى صاحبها.

وفى هذا أسوة وقدوة لكل من يتصدى للفتوى أو الحكم بين الناس، أن يتوجه فى تضرع وعجز وافتقار إلى الله تعالى، بأن يلهمه الله الصواب ويجنبه الزلل، وأن يوفقه إلى ما يرضيه، وبخاصة أن ظروف القضاء فى حياتنا المعاصرة تتعرض لمهارة المحاماة وحيلها ومكرها، الذى قد يصل إلى درجة تغيير حقائق الأشياء، فيلبسون الحق ثوب الباطل والباطل ثوب الحق.

لكن إلهام الله وتوفيقه وفضله يجعل القاضى أو المفتى أو الحكم على وعى وفهم وبصيرة، ولا يكون ذلك إلا بمنحة وفضل من الله سبحانه وتعالى.

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.

والحمد لله رب العالمين

٢٣٢ - لن تستطيع معى صبراً !

عن أبى بن كعب رضي الله عنه قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ موسى قام خطيبًا فى بنى إسرائيل ، فسُئل : أىُّ الناس أعلم؟ فقال : أنا . فعتب الله عليه إذ لم يَرُدَّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه : إنَّ لى عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك . قال موسى : يارب ، فكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حوتًا فتجعله فى مِكْتَل (أى : وعاء) ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ (أى : هناك) . فأخذ الحوت فجعله فى مِكْتَل ، ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون ، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، فاتخذ سبيله فى البحر سربًا (أى : مسلكًا) . وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق . فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا ، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا .

قال : ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فقال له فتاه :

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف / ٦٣].

قال : فكان البحر للحوت سربًا، ولموسى ولفتاه عجبًا ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف / ٦٤].

قال : رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجى بثوب (أى : مُغَطًّى)، فسلم عليه موسى، فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى. فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم، أتيتك لتعلمنى مما عُلِّمْتَ رشداً.

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف / ٧٦].

يا موسى إنى على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه. فقال موسى : ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف / ٦٩].

فقال له الخضر : ﴿ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف / ٧٠].

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة

فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول (أى: عطاء وأجر)، فلما ركبا فى السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحًا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول فعمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها! ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف/ ٧١].

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الكهف / ٧٢ - ٧٣].

قال: وقال رسول الله ﷺ: وكانت الأولى من موسى نسيانًا. قال: وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر فى البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلامًا يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، فقال له موسى عليه السلام: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف / ٧٤ - ٧٥].

قال: وهذه أشد من الأولى! ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف/ ٧٦]،

﴿ فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه ﴾ [الكهف/٧٧]. قال: مائل، فقام الخضر فأقامه بيده، فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا، ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجرا ﴾ [الكهف/٧٧]. ﴿ قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ [الكهف/٧٨].

﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا * وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا * فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما * وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحا فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ [الكهف/٧٩-٨٢].

فقال رسول الله ﷺ: «وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص الله علينا من خبرهما».

(*) رواه البخاري في العلم في تفسير سورة الكهف (١٠/٢٣ – ٣٩).

العباد لا يعلمون شيئًا إلا ما علّمهم ربهم عزَّ وجلّ. فسبحانك يا رب لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، سبحانك، قلت وقولك الحق: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف/٧٦].

وأمرت خاتم النبيين سيدنا محمداً ﷺ بأن يطلب الزيادة فى العلم، فقلت فى القرآن : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه/١١٤].

سبحانك كما جعلت للعلم المكتسب أسبابًا يأتيها من أراد العلم، جعلت السبيل إلى العلم اللدنّى فضلك وإحسانك، تؤتيه من تشاء، فأخبرت عن عبد من عبادك عَلَّمته علمًا لا يتأتى بالتعلم من البشر، ولا يكون إلا فضلاً ونعمة منك يا الله يا عليم، فقلت سبحانك مخبراً عنه : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف / ٦٥].

ووجهت لهذا العبد نبيًا من أنبيائك ليتعلم من علمه.

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف/٦٦]. وما علم ذلك العبد إلا قطرة من فيض علم الله العليم، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء/٨٤]. وهنا عظة وعبرة، لقد جعل الله هذا الموقف كى لا تغتر البشرية بعلمها، فآفاق الكون وعالم المخلوقات لا يحيط به علم البشرية، وإنما غايتهم كما عبر القرآن أنهم ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم/٧].

ثم بينت لنا هذه الرحلة العلمية الخاصة أن لكل علم منهجه، والخلط بينهما لا يؤدى إلا إلى نتائج مضللة، فالموازين مختلفة، فعلم الأسباب يتناول الواقع وما فيه، فى حين أن العلم اللدنىَ يحيط بما تصير إليه الأمور، ويراعى أموراً لا تظهر للعين فى واقع الحياة. ومن هنا كان إنكار سيدنا موسى عليه

السلام لخرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار. فلما كشف العبد الصالح عن الحكمة من وراء هذه الأفعال زالت الغرابة وتبددت الدهشة وزال الإنكار.

كما بَيَّنت لنا هذه الرحلة العلمية الخاصة ما ينبغى من أدب بين العالم والمتعلم. فنرى حسن الاستئذان وحسن الطلب من التلميذ، وهو هنا نبى (سيدنا موسى عليه السلام)، قال الله تعالى: ﴿ **قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ [الكهف/٦٦].

كما نرى حسن الطاعة من التلميذ وعلو الهمَّة، فلما قال له العبد الصالح: ﴿ **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا** ﴾ الكهف / ٦٧ - ٦٨. قال التلميذ: ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا** ﴾.

كما نرى حسن الاعتذار من التلميذ حين خالف شرط الأستاذ، ﴿ **قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا** ﴾.

هذا من جانب المتعلم، أما من جانب المعلم، فيظهر لنا أهمية بيان ما يلزم المتعلم فى طلب هذا العلم وتوضيحه له، وبيان العقبات التى تصادف المتعلم فى طريقه لتحصيل هذا العلم. يظهر ذلك من قوله تعالى عن المعلم: ﴿ **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا** ﴾.

كما وضح المعلم الشروط التى ينبغى أن يلتزم بها المتعلم كى ينجح فى طلبه لهذا العلم، يظهر هذا من قوله تعالى: ﴿ **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** ﴾.

وفى النهاية بعد أن أدرك نبى الله سيدنا موسى عليه السلام أن هناك من هو أعلم منه، وأن هناك من العلم ما يختلف عن علم الأسباب، وهو العلم اللدنىّ،

كشف المعلم عن الحكمة من وراء ما فعل من أعمال أنكرها سيدنا موسى بعلمه ؛ وأن ما أنكره سيدنا موسى كان سببًا لنجاة السفينة من أن يأخذها الملك غصبًا، وكان سببًا فى نفع الغلامين بالكنز، بحفظه لهما حتى يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما. ثم يعلن المعلم عن الحقيقة الكبرى، وهى أن كل ما فعله لم يكن من اختياره ولا بمراده، ولكنه أمر الله عزَّ وجلّ.

وهكذا يكون علمنا القاصر أمام علم الله الشامل الذى يدبر الأمور بحكمته فالغيب كله لله والعلم الحق والخالص كله لله.

كما يظهر - من هذا الموقف العجيب - أن صلاح الآباء ينفع الأبناء. فقد كشف العبد الصالح سبب إقامة الجدار، وحفظ الكنز للغلامين بقوله : ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾.

كما يظهر أن حب الوالدين لولدهما، قد يتولد عنه زيغ الوالدين تحت تأثير عاطفة الحب وتأثير الهوى، وكم من أناس دفعهم الحب والعاطفة لأولادهم - فى غيبة الإيمان - إلى أخذ المال الحرام ونحوه، يظهر ذلك من الموقف، فى قوله تعالى لبيان سبب قتل الغلام : ﴿ **فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا** ﴾.

إن لله تعالى عبادًا - لا نعلمهم - آتاهم العلوم وكشف الأسرار، وسبحان الله : ﴿ **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ** ﴾ [المدثر/ ٣٢].

اللهم ألهمنا رشدنا ووفقنا لما تحب وترضى، ومُنَّ علينا بما مننت به على أوليائك.

والحمد لله رب العالمين

٢٣٣ - اسقِ حديقة فلان

عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتًا فى سحابة : اسق حديقة فلان ، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حَرَّة[١] ، فإذا شَرْجة[٢] من تلك الشِّراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء ، فإذا رجل قائم فى حديقته يحوِّل الماء بمسحاته ، فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟ قال : فلان . للاسم الذى سمع فى السحابة ، فقال له : يا عبد الله لم تسألنى عن اسمى ؟ فقال : إنى سمعت صوتًا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول : اسقِ حديقة فلان لاسمك ، فما تصنع فيها ؟ فقال : أما إذ قلتَ هذا ، فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدَّق بثلثه ، وآكل أنا وعيالى ثلثًا ، وأردّ فيها ثلثه» .

(*) رواه أحمد ، ومسلم فى الزهد (١٨/ ١١٤ - ١١٥) .
(١) الحَرَّة : أرض بها حجارة سوداء .
(٢) الشرجة : شق فى الأرض مجرى للماء .

ما أطيب أن يُعظِّم المؤمن أمر الله تعالى، فيقدمه على حظ نفسه، إن هذا الرجل الصالح لم يتصدق فقط، ولكنه جعل هذه الصدقة فى مقدمة النفقات التى ينفقها. قدم الصدقة على نفقة نفسه وأهله، وعلى نفقات الحديقة.

وكان الجزاء من جنس العمل، والله أكرم من عبده، فمن تقرب إلى الله شبراً تقرب الله إليه ذراعًا، ومن تقرب إلى الله ذراعًا تقرب الله إليه باعًا، ومن أتاه يمشى أقبل الله إليه هرولة. إنه اللطف والرحمة والكرم، إنه الله البَرُّ الرحيم.

لذلك أكرم الله هذا الرجل لما جعل ثلث إنتاج حديقته صدقة وقدمه على النفقات الأخرى، أمر الله السحاب أن يتوجه إلى حديقة هذا الرجل فينزل الماء فيروى الرجل حديقته.

وفى هذا عظة بليغة لكل راغب فى بركات الله وفى معونة الله ومدده وتوفيقه، كيف لا ؟ والله سبحانه وتعالى يؤكد هذه الحقيقة بقوله تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الأعراف / ٩٦].

وإنها لسُنَّة جارية فى الأمم كلها، فللعمل الصالح بركة كما أن للمعصية شؤمًا وهلاكًا، قال الله تعالى :﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ** ﴾ [المائدة/٦٦].

ومن عبر هذا الموقف أن الإنسان قد لا يشعر بما أكرمه الله به، وقد لا ينتبه إلى منزلته العالية عند الله عزَّ وجلّ، ورب أشعَث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره. إن منازل الناس عند الله تعالى لا تكون بمظاهرهم، ولا برتبهم الاجتماعية ولا بثرائهم، ولا بشىء مما ظهر أمام الناس لامعًا، نتباهى به ونتفاخر،

إن المنازل العالية ـ عند الله تعالى ـ تتأتى للصادقين مع ربهم، والعاملين فى طاعة مولاهم.

فرُب عامل يصدق مع ربه فى تنظيف شارع، أو خدمة الناس فى مؤسسة ما، يكون عند الله من صفوة أوليائه ؛ لحرصه على الحلال والجدية والصدق والأمانة. مثل هذا الرجل بركات الله تغمره، ورضا الله يملأ قلبه، وبأمثاله يسعد المجتمع، بل تسعد الحياة كلها.

وفائدة جليلة تظهر من هذا الموقف المبارك، وهى الحكمة وحسن الإدارة، فالرجل وَزَّع ناتج الثروة بحكمة، فجعل ثلثها صدقة فراعى بذلك حق الله فيها، وجعل الثلث الثانى لأهله، فلهم حق النفقة والرعاية، ثم جعل الثلث الأخير للحديقة، رعاية لها وعناية بما تحتاجه من خدمة وفلاحة ونحو ذلك.

وهذا التوازن يحقق له الوفاء بما يلزمه من حقوق لربه وأهله وحديقته.

وهذا التوازن من عناصر النجاح فى الدين والدنيا.

اللهم ألهمنا رشدنا ووفقنا لما تحب وترضى.

والحمد لله رب العالمين

٢٣٤ - فإنَّ الله أدى عنك

عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ : «أنه ذكر : أنَّ رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال : ائتنى بشهداء أشهدهم. قال : كفى بالله شهيداً. قال : ائتنى بكفيل، قال : كفى بالله كفيلاً. قال : صدقت، فدفعها إليه - إلى أجلٍ مسمًّى - فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبًا فلم يجد، فأخذ خشبة فنقرها وأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها البحر فقال : اللهمَّ إنك قد علمت أنى استسلفت فلانًا ألف دينار فسألنى كفيلاً، فقلت : كفى بالله كفيلاً، فرضى بذلك، وسألنى شهيداً، فقلت : كفى بالله شهيداً، فرضى بذلك، وإنى قد جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركبًا، وإنى استودعتكها. فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو فى ذلك يطلب مركبًا إلى بلده، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعلَّ مركبًا يجيئه بماله، فإذا بالخشبة التى فيها المال، فأخذها لأهله حطبًا، فلمَّا كَسَرها وجد المال والصحيفة. ثم قدم الرجل

الذى كـان قـد تـسلف منـه فـأتاه بـألف دينار ، وقـال : والله مـازلت جاهداً فى طلب مـركـب آتيك بمالك ، فـمـا وجـدت مركباً قبل الذى أتيت فيـه ، قال : فإنَّ الله أدَّى عنك الذى بعثت به فى الخشبة ، فانصرف بألفك راشداً » .

(*) رواه البخارى (٢ / ١٥٩ ، ٣ / ١٢٤) ، وأحمد (٢ / ٣٤٨) .

إن الله على كل شيء قدير، يُكرم عباده الصادقين بما يشاء من الكرامات والمعجزات، ومن صَدَق الله يَصْدُقه، إننا قبل أن نتعامل مع الناس فنحن نتعامل مع الله عزَّ وجلّ، وَصِدْقُنَا قبل أن يكون مع الناس فهو مع الله عز وجل. فهذا رجل وقع فى اضطرار فلجأ إلى من يُرجى خيرهم ممن بسط الله لهم الرزق، وطلب صاحب المال ضامنًا، ولم يكن ميسوراً للرجل المضطر أن يأتى بالضامن، فقال : كفى بالله كفيلاً. ورضى صاحب المال، وأعطى الرجل المبلغ الذى طلبه (ألف دينار)، وحدد له موعداً لسداد الدين. وقضى الرجل المضطر حاجته بالمال. ومرت الأيام وجاء موعد السداد، وأعد الرجل ألف دينار لكنه لم يستطع الوصول إلى صاحب الدين، لأنه لم يجد مركبًا تعبر به البحر.

وهداه تفكيره أن يضع ألف دينار فى جوف خشبة ومعها ورقة مكتوب فيها : هذه ألف دينار من فلان إلى فلان، ثم ألقى بها فى البحر قائلاً : اللهمَّ إنك قد علمت أنى استسلفت فلانًا ألف دينار فسألنى كفيلاً، فقلت : كفى بالله كفيلاً، فرضى بذلك، وسألنى شهيداً، فقلت : كفى بالله شهيداً، فرضى بذلك، وإنى قد جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه بالذى أعطانى فلم أجد مركبًا، وإنى استودعتكها.

وكان الرجل صاحب الدَّيْن ينتظر وصول المركب لعل به الرجل الذى استدان المبلغ، فقد حان وقت السداد. ولَمَّا لم يصل المركب، وجد الرجل هذه الخشبة، فأخذها لأهله حطبًا، فلمَّا كسرها وجد المال بداخلها.

لكن الرجل المدين كان قد فعل ما فعل من وضع المال فى الخشبة وألقاها فى البحر كى يكون قد وفى بالوعد أمام الله عزَّ وجلّ. ثم أعد ألف دينار أخرى، ولما تيسر سير المركب ركب فيه، وذهب إلى صاحب الدين، فلما وصل إليه وقَدَّم إليه المال، قال له : يا أخى لقد أدى الله عنك ووصل ما أرسلته من مال فى الخشبة.

نعم إن من استودع الله شيئًا حفظه. وإذا كان الصدق بين المقترض ومن أقرضه، كانت البركة من الله تعالى وأتمّ الله لهما.

اللهم ألهمنا رشدنا، ووفقنا لما تحب وترضى.

والحمد لله رب العالمين

٢٣٥ - حكمة أم سَلَمَة

لما فرغ النبى ﷺ من كتابة العهد بينه وبين أهل مكة فى صلح الحديبية، قال ﷺ لأصحابه :

قوموا فانحروا ثم احلقوا.

فما قام منهم أحد، حتى قال النبى ﷺ ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، دخل على أمّ سلمة - رضى الله عنها - فذكر لها ما وجده منهم، فقالت له :

اعذرهم واخرج إليهم ولا تكلم أحداً منهم، حتى تنحر بُدْنك وتدعو حالقك فيحلق لك.

ففعل النبى ﷺ وخرج إليهم، ولم يكلم أحداً منهم، فلما رأى الصحابة منه ذلك قاموا فنحروا وحلقوا.

(*) أخرجه البخارى (٤ / ٢٥٧).

هذا موقف سخى بالدلالات والعبر :

الأولى : فضل المشورة وبركتها : فإن الإسلام يعلم القائد ألأ يستبد برأيه، وألا يحرم نفسه من الاستفادة بطاقات الآخرين من أصحاب العقول الراشدة، وبذكاء من حوله وبآراء أهل الخبرة فى كل مجال. ولذلك وصف الله أهل الإيمان بأن أمرهم قائم على الشورى، قال تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى /٣٨].

فلا استبداد برأى ولا اتباع لهوى، وإنما المؤمن يبحث عن الأفضل والأحسن، والآراء يقدح بعضها بعضًا.

وقد نصح القرآن الكريم رسول الله ﷺ أن يأخذ بمبدأ الشورى، قال الله تعالى :

﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾ [آل عمران/١٥٩].

فالمشورة إذن هدى قرآنى أسوتنا فيه سيدنا رسول الله ﷺ.

الدلالة الثانية : مكانة المرأة فى الإسلام : فالمرأة فى الإسلام لها أدوار سامية عالية شريفة، وحسبنا ما ورد عند السلف من إشادة بمكانتها وعظيم فضلها، جاء فى الآثر : « الجنة تحت أقدام الأمهات ».

والمرأة زوجة، جعل الله لها المثوبة العالية على حسن رعايتها لزوجها وأولادها، وفى الحديث : « حسن تبعل إحداكن لزوجها يعدل ذلك كله »[١].

والمرأة طفلة جعل الله حسن تربيتها سبيلاً إلى الجنة، وفى الحديث الشريف، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « من كان له ثلاث بنات يؤويهن ويرحمهن ويكفلهن وجبت له الجنة ألبتة »، قيل يا رسول الله : فإن

---

(١) تهذيب تاديخ دمشق لابن عساكر (٢/٣٣٨، ٧/٤٤٠).

كانت اثنتين ؟ قال ﷺ : « وإن كانت اثنتين »، فرأى بعض القوم أنهم إن قالوا له: واحدة، لقال ﷺ : « واحدة »[١].

والمرأة فى ساحة العلم عالمة تُعلم وتهدى وتُرشد، ويرحم الله أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فقد كان لها دور بارز فى العلم.

والمرأة فى ساحة الجهاد مجاهدة، والمرأة فى ساحة العمل الاجتماعى لها نشاط مؤثر، ويرحم الله السيدة فاطمة الزهراء والسيدة زينب والسيدة نفيسة من آل بيت سيدنا رسول الله ﷺ ، فقد كان منهن السعى والجد فى خدمة الفقراء والمساكين.

والمرأة فى ساحة الرأى وسياسة الأمور لها دور حكيم، فأم سلمة، فى هذا الموقف ـ الذى بين أيدينا ـ كانت مستشارة مؤتمنة لرسول الله ﷺ .

إذن فما تقوقعت المرأة أبداً فى تاريخ الإسلام، والمرأة تصنع كل هذا فى إطار إيمانى، يهتدى بآيات القرآن وبسنة رسول الله ﷺ .

وهذا الموقف يظهر مكانة المرأة فى عقلها وذكائها، فالنبى ﷺ بعد أن كتب بنود صلح الحديبية، وكان فى نفوس المسلمين شىء من هذا الصلح، أمرهم ﷺ أن يقوموا فيذبحوا ويحلقوا فلم يستجيبوا، فدخل النبى ﷺ على أمّ سَلَمَة رضى الله عنها متأثراً يذكر لها ما حدث، فهدأت من روعه، وقالت له: اعذرهم يا رسول الله. لأنها تقدِّر ظروف الموقف ووقعه على نفوسهم، ثم أشارت على النبى ﷺ برأى سديد، وهو أن يتحول ﷺ من القول إلى الفعل، من الدعوة القولية إلى الدعوة العملية، فقالت رضى الله عنها : اخرج إليهم يا رسول الله، فلا تكلم أحداً منهم، وابدأ بنفسك، انحر بُدْنك، وادْعُ حالقك كى يحلق لك، ففعل النبى ﷺ وأخذ بمشورة أمّ سَلَمَة رضى الله عنها.

---

(١) مسند أحمد ٤ / ٢٣٥.

فلما رأى الصحابة رسول الله ﷺ قد نحر وحلق، قاموا جميعًا، فتأسوا به ﷺ، فنحروا وحلقوا، وببركة مشورة أمّ سَلَمَة - رضى الله عنها - زالت فتنة أوشكت أن تحدث، ومن هنا نرى مكانة المرأة وقيمتها فى الإسلام.

كما يظهر من الموقف أهمية الدعوة العملية بالقدوة والأسوة، فحال رجل فى ألف رجل، أبلغ من كلام ألف رجل فى رجل.

وصلِ اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

٢٣٦ - أكثر منك أخذاً للقرآن

في غزوة تبوك، كانت راية بني مالك بن النجار مع عمارة بن حزم، فأخذها منه رسول الله ﷺ و دفعها إلى زيد بن ثابت (كاتب الوحي)، فقال عمارة :

يا رسول الله، هل بلغك عني شيء ؟!

فقال ﷺ :

لا، ولكن القرآن مُقَدَّم، وزيد أكثر منك أخذاً للقرآن.

(*) أسد الغابة/ ترجمة زيد بن ثابت.

هذا موقف تشتد حاجة الأمة إليه فى ظروفها المعاصرة، إنه يؤسس لقاعدة فى ضوابط المفاضلة والاختيار، فالذين كانوا حول رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك هم الصحابة الأبرار، هم الذين خرجوا لهذه الغزوة يرغبون فى إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة.

وعلى الرغم من هذا، فإن رسول الله ﷺ يفاضل بينهم فيمن تسند إليه مهمة حمل الراية، فيختار زيدَ بن ثابت : كاتب الوحى، والماهر فى لغة اليهود والمتقن لها، والذى عُرِفَ عنه الذكاء والفطنة، وهذه كلها صفات ترشحه لهذه المهمة.

إن توزيع الأدوار وإسنادَ الأعمالِ ينبغى أن يكون على معاييرَ وأسسٍ واضحة، بعيداً عن الهوى، إنها أمانة المسئولية، وفى الحديث النبوى : « من استعمل رجلاً على جماعة وفيهم من هو أتقى لله منه فقد خان الله تعالى »(١).

ثم ينتقل بنا الموقف إلى هدى آخر، إنه حق التَّبيُّن لمن جال فى خاطره شىء، أو حدثته نفسه بشىء عن ترتيب أدى إلى انتقال ما كان بيده إلى غيره.

فالتَّبيُّن هنا وضوح على الحقيقة، يحمى الإنسان من الوقوع فى سوء الظن، بل وربما فى إصدار أحكام غيابية على إخوانه، وهم منها براء.

ورأينا فى الموقف توجه عمارة بن حزم إلى رسول الله ﷺ يسأله : هل بلغك عنى شىء يا رسول الله؟!

ووضح النبى ﷺ أسباب تحويل الراية إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه، حيث قال ﷺ : لا، أى لم يبلغنى عنك شىء ياعمارة، ولكن القرآن مقدم، وزيد أكثر منك أخذاً للقرآن. وبهذا أقنع النبى ﷺ عقل السائل بأن التحول تمَّ لأسباب ومعايير كانت فى صالح زيد بن ثابت رضي الله عنه، بعيداً عن الهوى.

---

(١) السلسلة الصحيحة للألبانى (٣/١٨)، السنة لابن أبى عاصم (٢/٦٢٧).

ثم يؤكد لنا الموقف حقيقة مهمة، وهى أن القرآن مقدم، وأنه يرفع صاحبه، وهكذا كانت أفعال رسول الله ﷺ ـ في الجانب التطبيقي ـ تربط الأمة بالقرآن، وتقدم أهل القرآن، وكم من مرة نرى رسول الله ﷺ قد زوج من لا يملك مالاً ولا ديناراً بما معه من القرآن، ويُقدم ﷺ عند دفن الشهداء حامل القرآن، ويقدم زيد بن ثابت على صاحبه ويدفع إليه الراية لأنه أكثر أخذاً للقرآن.

والحمد لله رب العالمين

٢٣٧ - بهذا قامت السماوات والأرض

لَمَّا بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لأهل خيبر كي يُقدر محصولهم من الثمار والزروع، طبقًا لعهد الرسول ﷺ معهم، بعد فتح خيبر، حاول اليهود رشوته ليرفق بهم فى التقدير، فقال لهم :

« والله، لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلىّ، وإنكم لأبغض الناس إلىّ، وما يحملنى حبى إياه وبغضى لكم، على ألاَّ أعدل »

فقالوا له :

بهذا قامت السماوات والأرض.

(*) ظلال القرآن ، سورة النساء، ص ٧٧٦.

الحق ما شهدت به الأعداء. وهكذا يصنع الإيمان بالقلوب، إن استشعار المؤمن بأن الله خبير بما يعمل وبأن الله رقيب على أفعاله وأقواله، على حركاته وسكناته، وبأن الله تعالى يعلم السر وأخفى، وبأن الله تعالى لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السماوات والأرض، وبأن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا ـ يجعل المؤمن أمينًا حتى وإن غابت أعين الرقُباء، يجعله أمينًا عادلاً حتى وإن سنحت له الفرصة بعيداً عن أعين الناس، لأنه يعلم يقينًا أن الله مطلع عليه ـ يعلم منه السر وأخفى، وأن جوارحه ستشهد عليه يوم القيامة. لذلك فالمؤمن فى معية نورانية مباركة، يسارع فيها إلى فعل الخيرات وترك المنكرات طاعة لأمر الله تعالى، وطمعًا فيما عند الله تعالى.

كما يظهر من الموقف هَدْىٌ كريم آخر، وهو أن مشاعر البغض والحب لا تنال من موقف المؤمن، ولا تجعل العدالة تهتز بين يديه، لأن الإيمان يحقق العدالة فى ضمائر الناس وعقولهم، وكل هذا يقف بنا عند قيمة إيمانية عظيمة ـ إذا أردنا أن نحقق العدالة فى المجتمع والعالم، هذه القيمة هى ضمير من يحكم، وصلاح قلبه، إن التربية الإيمانية لها أبلغ الأثر فى حماية القانون وحفظه من التلاعب به ضد العدالة.

وكم أضل الهوى أناسًا، فى غيبة الإيمان، فرأوا فى ثغرات القانون فرصًا سانحة لهم فاستحلوا بها ما ليس حقًّا لهم.

والمتأمل فى السنة النبوية المطهرة يرى أن النبى ﷺ ربى هذه الروح فى ضمائر المؤمنين، وفى الحديث :

« إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلىّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له بنحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار »(١).

---

(١) أخرجه البخارى (٩/ ٣٢، ٨٦).

كما يؤكد الموقف أن العدل هو أساس الأمان وعمارة الأرض، ويظهر هذا من قولهم فى الموقف : « بهذا قامت السماوات والأرض ».

والحمد لله رب العالمين

٢٣٨ - ولا بزفرة واحدة

بينما كان رجل - فى الطواف - يحمل أمه، ويطوف بها حول الكعبة المشرفة، سأل النبى ﷺ :

يا رسول الله هل أديت حقها ؟

فقال ﷺ :

« لا، ولا بزفرة واحدة ».

(*) الموقف ورد فى حديث أخرجه الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده بإسناده عن بريدة عن أبيه. ظلال القرآن، سيد قطب، سورة لقمان.

خَصَّ الله المرأة بامتياز عظيم لم يحظ به رجلٌ قط، إنه امتياز الأمومة، فالأمومة هبة وعطاء من المولى عز وجلَّ، إنها بحرٌ من الحنان يتدفق، ونبعٌ فياض بالمشاعر الودود، والعواطف النبيلة. تحمل الأم بين ضلوعها الأمل، تنتظره وتترقب لحظة ميلاده، تحمله وهنًا على وهن، لكنها المعاناة المحببة والألم الذى تسعد به، لأنها – بعد لحظات – ستضيف للحياة مولوداً جديداً، أملاً جديداً، عقلاً جديداً.

ويستمر عطاء الأمومة لوليدها ترضعه حبًا وحنانًا، ودفئًا ورعاية، تحسه ويحسها، تسعد به ويسعد بها، لتجسد للدنيا أنبل علاقات الحب الطاهر، حب الأم لوليدها. إنه لحب عظيم له قدره عند الله عز وجل، لقد جعله الله طريقًا إلى الجنة، فدعاء الأم لوليدها فى مقدمة الدعوات المستجابة، ومن هنا استحقت الأم كل التكريم لأنها أعطت بحب.

فإذا امتدت بها الأيام، ومالت شمس العمر نحو الغروب، وأدركتها الشيخوخة، كان حقًا على الأبناء أن يبالغوا فى إكرامها وفى البر بها. كيف لا والله سبحانه وتعالى قد قدمها فى البر، وجعل الجنة تحت أقدام الأمهات ؟!.

ولا يحسب أحدنا – بمبالغة إكرامها فى الكبر – أنه قد وفى الأم حقها، ويؤكد هذه الحقيقة سيدنا رسول الله ﷺ لما رأى رجلاً من أصحابه يحمل أمه على كتفه، يطوف بها حول الكعبة فى موسم الحج وسأل الرجل رسول الله ﷺ يا رسول الله : هل أديت حقها ؟

فقال رسول الله ﷺ : « لا. ولا بزفرة واحدة !! ».

نعم هكذا أجاب النبى ﷺ : ولا بزفرة واحدة. فى حمل أو وضع، لذلك جاءت الوصية بالأم - فى خصوصية تلفت الانتباه - حين وصى الله عباده

بالوالدين إحسانًا، قال تعالى :

﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان/١٤].

والمؤمنون الصادقون فى كل عصر يسارعون إلى البر بالأم أملاً فى رضاها، ففى رضاها إكرام الله عز وجل.

وتقدم لنا السنة الصحيحة نماذج نورانية، نالت المنازل العالية والدرجات الرفيعة عند الله تعالى ببركة البر بالأم، ومن أهم هذه النماذج رجل لم ير رسول الله، وكان يقيم باليمن، وكان كثير البر بأمه، فأعلم الله نبيه ﷺ بصالح عمله، وأوصى النبى ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يبحث عنه ضمن وفود حجيج اليمن، فإن وجده فليسأله أن يستغفر له، هذا الرجل هو أويس القرنى، التقى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه – فى زمن خلافته – وسأله أن يستغفر له، وأستغفر أويس لعمر، وما كان لأويس عظيم عمل – يرقى به إلى هذه المنزلة – إلا بره بأمه.

اللهم ارحم أمهاتنا وآباءنا وإخواننا وأصحاب الحقوق علينا يا رب العالمين.

٢٣٩ - أذهب الله همّى

دخل رسـول الله ﷺ ذات يوم المسـجـد، فـإذا برجل من الأنصـار يقـال له أبو أمـامة، فـقـال: « يا أبـا أمامة، مـا لى أراك جالسًا فى المسجد فى غير وقت الصلاة؟».

قال: هموم لزمتنى وديون يا رسول الله.

قال ﷺ: « أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله - عز وجل - همك، وقضى عنك دينك؟ ».

قال: قلت بلى يا رسول الله.

قال: « قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزَن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال ».

قـال: ففعلت ذلك، فأذهب الله - عز وجل - همى وقضى عنى دينى.

(*) رواه أبو داود، كتاب الصلاة رقم (١٥٥).

دخل النبى ﷺ المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فأدرك النبى ﷺ بنور بصيرته أن الرجل مهموم فلم يسأله عما أهمه وأحزنه، ولكن سأله عن جلوسه فى المسجد فى غير وقت الصلاة، ليفصح له عن مكنون صدره وسبب جلوسه بالقول الصريح، فيقضى له حاجته، أو يعلمه دعاء يقوله فى صباحه ومسائه، وهو فى المسجد أو فى أى مكان طاهر، يفرج الله به همه، ويذهب حزنه، ويطرد عنه شبح اليأس والملل والضيق والأسى.

فهو ﷺ لم ينكر عليه مكثه فى المسجد فى غير وقت الصلاة؛ لأن هذا ليس بمستغرب، فالمسلم قلبه معلقٌ بالمساجد، يلجأ إليها فى أى وقت؛ ابتغاء رحمة من ربه يرجوها.

وقد تلطف النبى ﷺ به فى السؤال، وهو أرحم بالمؤمنين من أنفسهم على أنفسهم، فقال: « أفلا أعلمك كلامًا إذا أنت قلته أذهب الله - عز وجل - همك، وقضى عنك دينك ؟ ».

فهذا أسلوب فيه جذب للانتباه، وتشويق لما سيخبره به ويطلعه عليه، وفيه بشرى طيبة يحملها إليه من لدن ربِّه - عز وجل- فكان أبو أمامة أسرع ما يكون إليه بالجواب : بلى يا رسول الله.

قال ﷺ : « قل إذا أصبحت وإذا أمسيت : اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحَزَن »، أى اعتصم بك، وألوذ بجلالك، وأحتمى بحماك، من شر الهم والحَزَن، وأسألك بقدرتك أن تدفعهما عن قلبى دفعًا وأن ترفع عنى كل سبب يؤدى إليهما، وأن تشرح صدرى بنور الإيمان حتى لا يحزننى الشيطان بما يورده علىَّ من الوساوس والهواجس والشبهات، وبما يلقيه فى قلبى على حين غفلة منى.

وهناك فرق بين الهم والحزن والغم، فالهم : هو الشدة البالغة بسبب توقع

المكروه، يقال : أهمه الأمر، أى أتعبه التفكير فيه والخوف من وقوعه على غير ما يرجو ويؤمل.

والحزن : هو الشدة البالغة بسبب تذكر ما فات، يقال : فلان حزين يعنى على موت عزيز لديه أو فقد شيء من ماله، فهو يقع بسبب التفكير فيما مضى.

والغم : هو الكرب الشديد الذى يقع للإنسان لأسباب كثيرة، فيجمع بسببه الهم والحزن معه، فيغم عليه الأمر ويلتبس عليه حتى لا يعرف كيف يتخلص منه. من قولهم: غمّ الهلال، أى استتر عن أعين الناس، وصعب عليهم رؤيته.

فالمغموم تتوارد عليه الخواطر، وتتداعى المعانى ؛ فيحزن فيصاب بالغم فيخشى مما قد يحدث له بسبب استمرار هذا الغم فيصاب بنكبة عظيمة تعطل فكره وحواسه، فلا يكاد يعقل ولا يكاد يسمع أو يبصر.

وقوله ﷺ : « وأعوذ بك من العجز والكسل » معناه : أعوذ بك من أن أتأخر عن تأدية واجباتى، وأتخلف عن تحقيق ذاتى وصالح عملى، وأن أفتقد القدرة المادية والمعنوية فى بلوغ آمالى من دنياى وآخرتى.

وقوله ﷺ : « وأعوذ بك من الجبن والبخل » معناه : أسألك أن تعصمنى من شرهما، وأعتصم بك من أن أتصف بهما فأخسر دنياى وآخرتى.

والجبن : هو التقاعس عن حماية الأعراض والحرمات، والتقاعد عن الجهاد فى سبيل الله، والتخلى عن تأدية الواجبات، والإقدام على الأعمال التى تخل بالمروءة وتتنافى مع الشهامة والشجاعة.

والبخل : هو التمسك بالمال وحبسه عمن يحتاج إليه، والحرص الشديد على نموه بشتى الطرق.

وقوله ﷺ : « وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » أى أعوذ بك من

ثقل الدين وعدم القدرة على سداده، وما يحمله المدين من همٍّ وغم، وما يجده من إحراج ومذلة، وأعوذ بك أن يقهرنى الرجال، فيغلبونى على نفسى، ومالى، ويهزمونى فى ميادين الحق والشرف.

قال أبو أمامة : ففعلت ذلك، فأذهب الله - عز وجل - همى، وقضى عنى دينى.

وهذا يرجع إلى ثلاثة أمور :

الأول : الدعاء بهذه الكلمات؛ لأنها صادرة عمن لا ينطق عن الهوى.

الثانى : إخلاص الداعى وتقواه، ويقينه بأن الله يستجيب له إذا دعاه.

الثالث : مراعاة آداب الدعاء.

هذه الوصية النبوية الغالية هدية من رسول الله ﷺ إليك، الزمها واعمل بها؛ فإنها دواء لكل داء يعجز عن علاجه الأطباء.

نسأل الله الهداية والتوفيق.

والحمد لله رب العالمين

٢٤٠ - يثنون صدورهم

كان الأخنس بن شريق رجلاً حلو الكلام، حلو المنطق، وكان إذا لقى رسول الله ﷺ لقيه بما يحب من طيب الكلام وبشاشة الوجه، فى حين أن قلبه كان ينطوى على السوء والبغض والكره. فأنزل الله قوله تعالى :

﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [هود/٥].

(*) راجع تفسير ابن كثير (الآية ٥ من سورة هود).

هذه الآية من الوحى المكى الذى يركز ـ فى الغالب ـ على معانى العقيدة، وعلى الجوانب الوجدانية فى السلوك الإنسانى، تهذيبًا للسلوك، وتربية للضمير.

وسبب نزول الآية كما ذكر ابن عباس : أن رجلاً كان يقال له : الأخنس بن شريق، وقد كان حلو الكلام، حلو المنطق، فإذا لقى رسول الله ﷺ لقيه بما يحب، فى حين أن قلبه ينطوى على السوء، فنزلت فى حقه هذه الآية، قال تعالى :

﴿ **أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ [هود / ٥].

والموقف أشبه بموقف النفاق، حيث كان الأخنس يظهر خلاف ما يبطن، وإن لم يكن من باب النفاق المحض الذى عرف أصحابه فى المدينة، فأما فى مكة فلم يظهر ذلك النوع من المنافقين، بل كان أمرهم واضحًا، فهم إما أهل إيمان، أو مشركون.

والأثر – فيما نرى – يصور حال بعض الضعاف المترددين بين التصديق والتكذيب، تعصرهم أحيانًا مشاعر التصديق، ثم تستولى عليهم وسوسات التكذيب، فيجدون أنفسهم فى موقف لا يليق بما يتوهمون لها من مكانة أو كرامة ؛ فلا يحبون أن يراهم أحد على هذه الحال، فينكفئون على صدورهم، وتنثنى هذه الصدور حرصًا على ستر ما يفضحهم، أو هى محاولة للاستخفاء بالمنكر لا تجديهم نفعًا، ولا تحقق لهم سترًا بل إنهم حتى ولو ارتدوا ثيابهم وظنوا أنهم ستروا نقيصتهم، فإن ذلك وهم لا يسترهم، ولا يخفى عوراتهم. فالله يعلم ما يسرون فى ضمائرهم، وما يحدثون به أنفسهم، قال الله تعالى :

﴿ **إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾.

وهذا المثل الذى يسوقه القرآن يقدم نموذجًا لما يتخذه المكذبون من وسائل التخفى، كأن يتخذ لنفسه خندقًا، أو جحرًا، أو نفقًا فى الأرض، كيما يخفى حقيقة عدائه للحق ـ وكل ذلك لا يجدى نفعًا، ولا يكتم سرًا، فالسر كالعلن بالنسبة إلى علم الله سبحانه وتعالى، قال الله عز وجل : ﴿ **وإن تُبْدُوا مَا فِى أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ** ﴾ [البقرة / ٢٨٤].

والحمد لله رب العالمين

٢٤١ - منزلتك عند الله

خـرج النبى ﷺ ذات يوم على الصـحـابة رضـوان الله عليهم فقال لهم :

« أيها الناس، ارتعوا فى رياض الجنة » .

فقالوا :

يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟

فقال ﷺ :

« مـجـالس الذكـر ، اغدوا وروحـوا واذكـروا ، من كـان يحب أن يعلم منزلتـه عند الله فلينظر كـيـف منزلة الله تعـالى عنده ، فإن الله تعـالى يُنزِل العبدَ حيث أنزله من نفسه » .

(*) رواه الترمذى (ح ٢٥٠٩، ٣٥١٠) .

هذا الموقف فياض بالعظات والعبر، ونحن نلتقى ـ فى البداية ـ مع طاعة من الطاعات، فضلها الله سبحانه وتعالى، وجعل لها خصوصية تنفرد بها: طاعة ذكر الله عز وجل.

والمتأمل لجميع الطاعات يجد أن الله جعل لكل طاعة وقتًا معلومًا وحدًّا محدودًا، فحين افترض الله سبحانه وتعالى الصلاة جعل لها أوقاتًا مؤقتة، محددة، وجعل لها حدًا معلومًا: الصبح ركعتان، والظهر أربع ركعات . . .إلخ.

وحين افترض الله الحج، جعل له أيامًا معلومة، وجعل له أفعالاً وأعمالاً معلومة، وحين افترض الله الصيام، جعل له شهراً محدداً وأعمالاً محددة، والزكاة جعل لها نصابًا محدداً، وجعل قدراً محدداً من هذا النصاب يخرج زكاة للفقراء والمساكين، والأصناف التى حددها الله عز وجلَّ فى قرآنه مصارف للزكاة : ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ [التوبة/ ٦٠].

إذن، فكل طاعة من هذه الطاعات حددها الله بحد معلوم وجعل لها وقتًا معلومًا، إلا الذكر، فإن الله عز وجلَّ حين أمر به المؤمنين جعله مطلقًا بلا حد ولا وقت، فقال سبحانه وتعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ [الأحزاب / ٤١ - ٤٢].

فجعل ذكره على حد الإيمان، على حد الطاقة، لا يرتبط بوقت معين ولا يرتبط بحد معين، اللهم إلا حد الاستطاعة.

ومن هنا تظهر فضيلة هذه الطاعة العظيمة ومنزلتها، وهى ذكر الله عز وجلَّ، فإن ذكر الله عز وجلَّ روضة من رياض الجنة.

والمعنى أن الذى يجلس فى هذه المجالس فإن نهايته تكون إلى جنة الله عز

وجلَّ، وهذه المجالس أحبها النبى ﷺ وعليها تتنزل الملائكة. وقد بشر الله أهل مجالس الذكر بالمغفرة إلى درجة أن من حضر معهم يريد واحداً منهم، ما كان يريد مجالس الذكر ولا مجالس القرآن، وإنما جاء لحاجة، وجاء يقصد واحداً من بين هؤلاء الذاكرين، فإن الله يغفر له، فالذاكرون كما أخبر المصطفى ﷺ «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»(١).

إلى هذا الحد يكون فضل هذه المجالس، لذلك أوصانا رسول الله بذكر الله، ثم أعطانا النبى ﷺ علامة يتطلع إليها كل مؤمن حين يريد أن يعلم منزلته عند الله عز وجلَّ، يريد أن يعلم قدره عند الله عز وجلَّ ؛ فإن الله تعالى يجعل العبد عنده كما جعل العبد ربه فى قلبه وفى عمله، فإن كان مؤمنًا، وإن كان يُعظِم أوامر الله عز وجلَّ، إن كان يستجيب لهدى الله عز وجلَّ فله المنازل العَالية عند الله تبارك وتعالى.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٣٨٣).

٢٤٢ - وقاك الله من شر البضاعة

دخل الإمام أحمد بن حنبل على الإمام الشافعي فى مرض موته، فسأله عن حاله، فقال الإمام الشافعي :

والله ما أدرى أنفسى إلى النار فأعزيها أم إلى الجنة فأهنئها ؟ يا أحمد !

أُحِبُّ الصالحينَ ولَستُ منهُمْ
لَعَلِّى أن أنالَ بِهِمْ شَفَاعَةْ

وأكرَهُ مَنْ تجارَتُهُ المعاصى
ولو كنَّا سَواءً فى البِضَاعَةْ

فقال له الإمام أحمد :

تُحِبُّ الصالحينَ وأنتَ منْهُمْ
ومثْلُكَ مَنْ بِهِ تُرْجَى الشَّفاعَةْ

وتُبْغِضُ مَنْ تجارَتُهُ المعاصى
وقَاكَ الله مِنْ شَرِّ البِضَاعَةْ

(*) الإمام أحمد بن حنبل - أبو زهرة .

هذا موقف إيمانى يفيض بالدلالات الهادية، والعبر النافعة، فنجد فضل الزيارة فى الله، فالإمام أحمد رضي الله عنه ذهب لزيارة الإمام الشافعى، وما أحوجنا إلى إحياء هذه الآداب الإسلامية، تأسيًا بسيدنا رسول الله ﷺ الذى أوصانا أن نتزاور فى الله عز وجل، وبيَّن فى حديثه - المبارك الشريف والهادى المُعلم - أن المؤمن إذا زار أخًا له فى الله، فإن الملائكة تبارك له هذه الزيارة، وتقول له: «طبت وطاب ممشاك، ويُبشر بالجنة عند الله عز وجل»[1]، فله ثواب عظيم لأجل هذه الزيارة.

يُضاف إلى هذا معنى آخر وهو الوفاء لأهل العلم، وفاء التلميذ لأستاذه، الوفاء لمن علمنا، الوفاء لمن انتفعنا بعلمه وانتفعنا بأدبه وانتفعنا بأخلاقه.

لقد ذهب الإمام أحمد وقد كان تلميذاً للإمام الشافعى ليؤدى واجب الوفاء نحو أستاذه، يسأل أستاذه عن حاله، ويسأل أستاذه إن كان يحتاج شيئًا، وهل من خدمة يمكن أن يقدمها له.

هذا الواجب، وهذه الصلة الودود بين الأستاذ والتلميذ، وبين التلميذ والأستاذ، تشتد إليها حاجتنا، حتى يُبارك الله العلم الذى نعلمه ونتعلمه، فإن الوفاء والخُلق حين يكون مع العلم، يبارك الله هذا العلم وينفع به، وهؤلاء رضى الله عنهم، تأسوا بحال سيدنا رسول الله ﷺ فى احترام المُعلم وفى تبجيله وفى العناية به، وفى رعاية حاله، وهكذا صنع الإمام أحمد بن حنبل مع أستاذه الإمام الشافعى، لما ذهب يسأل عن حاله.

وما أحوجنا - نحن الآن فى ظروفنا - إلى أن نسأل، ولكن السؤال الذى نسأله إنما هو من قبيل تأدية الواجبات الاجتماعية، يقابلنى صاحبى فأسأله : كيف حالك ؟ ولا انتظر الإجابة... بل ربما توليت الإجابة بنفسى عن صاحبى: أنت بخير، أنت كذا... وانصرف، أما هم فكانوا يسألون، وسؤالهم كله

(١) الإتحاف (٦/٢٩٦).

جدية، ينتظرون الإجابة، حتى إذا ما بدا لدى صاحبه أو لدى أخيه شيء من الآلام أو الهموم، سعى لإزالتها وعلاجها.

أيضًا يفيض هذا الموقف بدلالات إيمانية هادية، منها هذه الخشية، الخشية من الله سبحانه وتعالى، التى ظهرت من الإمامين الجليلين، فكانت إجابة الإمام الشافعي - على تلميذه الإمام أحمد - أن قال له : والله ما أدرى أنفسى إلى النار فأعزيها، أم إلى الجنة فأهنئها.

إن الأمر هنا يرتبط بمنسوب الإيمان فى القلب، حين سأله عن حاله، كان المضمون هو الإيمان، تأسيًا بالنبى ﷺ حين دخل على حارثة وقال له : « كيف أصبحت يا حارثة ؟ »، فأجابه إجابة الإيمان وقال له : أصبحت مؤمنًا بالله حقًا(١).

وحين دخل النبى ﷺ على أهل الإيمان، على الأنصار بالمدينة فقال لهم: « أمؤمنون أنتم ؟ ». قالوا : نعم مؤمنون ورب الكعبة.

فقال النبى ﷺ : « وما علامة إيمانكم ؟ ».

قالوا رضى الله عنهم : نرضى بالقضاء، ونصبر على البلاء، ونشكر على الرخاء.

فقال ﷺ : « مؤمنون ورب الكعبة »(٢).

ومن هنا يظهر لنا أن السؤال الذى كان دائمًا بين صحابة النبى ﷺ وبين الأئمة إنما كان عن الإيمان، على نحو ما حدث بين الإمام الشافعى والإمام أحمد.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) مجمع الزوائد (١/٥٧)، الإتحاف (٢/٢٣٨، ٢٨٠).
(٢) الطبرانى (١١/١٥٣)، مجمع الزوائد (١/٥٤-٥٥).

٢٤٣ - أيُضرب الصبى ؟!

قيل لسفيان الثورى رحمه الله تعالى :

أيُضرب الصبى ؟!

فقال : لا ، ولكن يُبشَّر ويُعلَّم ؛ فذلك أنفع له .

(*) السمير المهذب ، ص ١١٢ .

هذا موقف تربوى معلم، يصلح أن ينتفع به أهل العلم وأهل التربية، هذا الموقف لتابعى عظيم ولإمام من أئمة الإسلام، هو سفيان الثورى - رحمه الله - لما دخل عليه واحد من هؤلاء الذين يتعجلون جَنْى الثمار، والذين يتعجلون النتائج فى التربية، وهم إنما يخالفون طبيعة الأشياء والسنن التى خلقها الله عليها، لأن التدرج فى الأمور مطلوب، ويأتى الرفق بما لا يأتى به العنف.

دخل واحد من هؤلاء فقال لسفيان : أيُضرب الصبى؟ فأجاب العالم بحكمة عالية، وبطبيعة الحال كان فى ذهنه وفى عقله حديث رسول الله ﷺ بشأن الصلاة ومتابعة الأولاد فى إقامتها «اضربوهم عليها لعشر»[١].

ومتى يكون الضرب ؟.

الضرب له فقه، فلا يضرب الوجه ولا يعنف، وإنما هو شيء من تحريك المشاعر كضربه بسواك أو نحو ذلك، لكن حتى هذا الضرب اليسير متى يكون؟ لابد أن يبدأ المُعلم بالرفق، وأن يبدأ بالترغيب ويُبشر الصبى، بأن يُعطى من البُشريات فى مستقبل حياته إن نجح وإن التزم وإن استجاب للطاعة.

والإشارة هنا إلى الصبى، تعطى المدلول للسن الصغير، بأنه لا يُضرب ولكن يكون الضرب عندما يكبر الصبى والغلام والضرب كالكىِّ، وآخر الدواء الكى كما يقول العرب، فالضرب آخر الحيل لا نبدأ به أبداً، وإنما نبدأ بالتبشير والترغيب والإقناع وبتقديم الهدية. وهكذا كان يصنع النبى ﷺ، فمثلاً عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ كان غلامًا، فركب خلف النبى ﷺ فأحب النبى أن يعظه وأن يعلمه فقام بالترغيب، فقال له: «يا غلام إنى أعلمك كلمات»[٢]، هذه الكلمات وصفها النبى بأن فيها نفعًا من الله لهذا الغلام.

وهنالك مواقف لسيدنا رسول الله ﷺ تؤكد هذا المعنى، فسيدنا أنس خدم النبى ﷺ وسنه عشر سنين، ويصف معاملة رسول الله ﷺ له فيقول : خدمت

---

(١) رواه أحمد (٢/١٨٧).

(٢) رواه الترمذى (٢٥١٦).

رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لى لشىء فعلته لِمَ فعلته؟ ولا لشىء تركته لِمَ تركته ؟[١] .

وهذا يبين لنا سعة صدر المُعلِم سيدنا رسول الله ﷺ وكيف نتأسى به فى التعليم وفى التربية، كيف نجعل لأبنائنا من التلاميذ مادة طيبة، ليقتنعوا بنا، ليكون منهم الحب لنا، لأن التلميذ إذا أحب أستاذه تأسى به، وإذا كره التلميذ أستاذه، فإنه يكره مادته فى البداية، ولا يريد أن يتأسى به، بل يحب أن يخالفه،كنوع من رد الفعل على معاملة الأستاذ.

لذلك فإن هذه الأمور التى تختص بالمشاعر والرفق والبشرى والموعظة والإقناع ينبغى أن تُقدَّم فى التعليم، والضرب آخر الحيل وآخر الدواء الكى، وحتى الضرب إنما يكون بسواك وليس بهذه الصورة التى يعتادها الناس أو يظنها البعض، لذا نجد رسول الله ﷺ يغضب أشد الغضب عندما لقى الرجل الذى يغلظ لأولاده ويعاملهم بقسوة وشدة عندما قال له : إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ فقال : أو أملك إن نزع الله الرحمة من قلبك؟ من لا يَرْحَم لا يُرحَم[٢] .

الرفق والرحمة وتقديم الموعظة إنما هى السبيل التربوى الذى اجتمعت عليه قواعد الإيمان والإسلام ومعايير التربية الحديثة، إذا أردنا أن ننهض بأولادنا وأن نتقدم بهم.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) عدى (٦/٢٠٨٥).

(٢) رواه البخارى (٨/٩).

٢٤٤ - أم سفر السماء ؟

دخل أحد المريدين على أستاذه الشيخ عليٍّ الدقاق - رحمه الله تعالى - وسأله قائلاً :

يا شيخنا، هل سافرت ذات مرة ؟

فقال له :

سفر الأرض أم سفر السماء؟ سفر الأرض لا، وسفر السماء نعم.

(*) الرسالة القشيرية، ص ٢١٤.

هذا موقف عظيم فى التربية الإيمانية، يحمل إلينا من الزاد الإيمانى ما يصلح القلب والنفس، فنحن نرى أن هذا التلميذ توجه إلى أستاذه ليسأله، ومعلوم أن التلميذ جاء إلى الشيخ ليتعلم من علمه، علم الفقه أو علم الحديث أو علم اللغة أو أيًّا من هذه العلوم، فينبغى ألا يشغل نفسه بغير مقصده، ألا يشتت نفسه، ألا يضيع وقته فيما لا يعنيه، فدخل على أستاذه يسأله قائلاً : هل سافرت أيها الشيخ ؟

وما شأن التلميذ بسفر أستاذه وخصوصيات أستاذه؟ فأراد الأستاذ أن يحول السؤال إلى تربية وإلى علم وإلى وعى، فصرف التلميذ إلى مقصده، وجعل من سؤال التلميذ موعظة نافعة، فقال له : سفر الأرض أم سفر السماء ؟

وفى هذا تنبيه للتلميذ أن يتحول إلى ما جاء من أجله، إلى العلم، علم الفقه، علم الحديث، علم العقيدة، وما إلى ذلك من هذه العلوم، وألا يشغل نفسه بهذه الأمور وهذه الخصوصيات، وأراد الأستاذ أن ينفع تلميذه بهذا الاستفهام الذى يحرك به عقل التلميذ إلى الإجابة وإلى الموعظة التى يريد أن يتفضل عليه بها، إنه يريد أن يخلع قلبه من التعلق بالدنيا، وأن يصرف قلبه إلى التعلق بالآخرة، فصنع ذلك بشكل مقنع خاطب عقله وخاطب فكره، لأن بداية التصحيح تتأتى من تصحيح الأفكار.

وأى عمل فى الدنيا معنوياً كان أم ماديًّا، كان فى الأصل فكرة. وأى مبنى عظيم تراه بعينك كان فى الأصل فكرة فى ذهن مبدع أو مهندس أو إنسان يريد أن ينجز هذا المبنى، وأى معنى علمى هو فى الأصل فكرة اختمرت ونضجت ثم صارت عملاً، فمعالجة الأفكار شيء مهم فى التربية، فى حياة أهل العلم. فبدأ الأستاذ بشكل مقنع يلفت انتباه التلميذ إلى شيء أراده بهذا الاستفهام وبهذا السؤال الذكى: سفر الأرض أم سفر السماء ؟

ثم تولى الأستاذ الإجابة وقال : سفر الأرض لا، أى أنا لم أسافر وأنتقل إلى بلادٍ أخرى على ظهر الأرض، ثم أخبره بأن للأستاذ سفرًا آخر أعلى وأغلى، ومطلوب من كل مؤمن أن يسافر هذا السفر، يظهر هذا من قول الأستاذ : سفر الأرض لا، أما سفر السماء فنعم، وقد سافر الشيخ إلى السماء بمعنى القرب من الله عز وجلَّ، بمعنى تصفية النفس، بمعنى تصفية الروح، بمعنى تهذيب الخلق، كل هذا لون من السفر إلى الله سبحانه وتعالى.

وقد وجه الشيخ تلميذه إلى أن يسلك هذا المسلك، وما أحوجنا جميعًا إلى هذا السفر كى نتحول عن كل العادات المذمومة، وكل الأخلاق السيئة، إلى الأخلاق الحميدة، لا يضرنا إن حُرِمنا سفر الأرض، ولكننا لا نستغنى عن سفر السماء، عن السفر إلى الفضيلة، عن السفر إلى الخُلُق، عن السفر إلى العلم، هذا السفر تشتد إليه حاجة كل مؤمن وبخاصة أهل العلم.

ولعل هذا يذكرنا بحديث رسول الله ﷺ ووصيته لأبى ذر رضي الله عنه عندما قال له : «أحكم السفينة فإن البحر عميق، واستكثر من الزاد فإن السفر طويل، وخفف ظهرك فإن العقبة كؤود، وأخلص العمل فإن الناقدَ بصير»[1].

ولعل لفظ السماء هنا فيه مجاز بمعنى السفر إلى الله عز وجل، والاستعداد للقائه، والأمور الغيبية من جنة ونار، وما إلى ذلك، فالسماء إشارة إلى كل الفضائل وكناية عن كل المحامد، وكل الأخلاقيات، وكل العلوم النافعة، وكل ما يقربنا إلى الله عز وجل.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٦٣).

٢٤٥ - أولى الناس بوضع الحجر

لما اختلفت قبائل قريش - عند بناء الكعبة - على من يتولى شرف وضع الحجر الأسود - في موضعه، وكادت أن تحدث فتنة بين القبائل، رأوا أن يُحكِّموا أول داخل عليهم؛ فكان النبي ﷺ وكان الحل الذى ارتضاه الجميع.

(*) راجع سيرة ابن هشام (١/ ١٢٧).

هذا موقف عظيم من مواقف النبى ﷺ وحكمته العالية فى معالجة الأمور:

نتأمل معًا هذا الموقف، حين اختلفت قبائل قريش عند بناء الكعبة، اختلفوا على من يتولى شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه بالكعبة المشرفة، وهكذا فى غيبة الإيمان تتصارع النفوس، ويكون منها التعالى، ويكون بينها التناحر، هكذا تكون الأخلاق فى غيبة الإيمان، أما فى ساحة الإيمان فيكون الحل ويكون الدواء وتكون الحكمة وتكون الرحمة.

لَمّا دخل نور الإيمان يتمثل فى سيدنا محمد ﷺ، ارتضوا به ﷺ حكمًا بينهم، فأشار النبى ﷺ عليهم - بحكمة عالية غالية - أن تأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف ثوبه ﷺ الذى خلعه ووضع الحجر الأسود عليه، ثم حملت كل قبيلة الحجر الأسود من جانب، ثم تولى النبى ﷺ وضع الحجر بيده فى مكانه بالكعبة، ودُفِعَت فتنة أوشكت أن تقع بين القبائل بسبب وضع الحجر الأسود فى الكعبة.

قدَّر الله تعالى الأحداث لينال رسول الله ﷺ هذا الشرف، فهو أولى من كل القبائل، أولى الناس بوضع الحجر، وإن الحجر ليشرف بيدى رسول الله ﷺ، وإن النبى ﷺ هو أولى الناس بهذه السعادة وهذا الشرف وهذه المكانة.

أيضًا ـ من الدلالات ومن العبر فى هذا الموقف المبارك ـ أن الحل حينما يبتعد عن نوازع النفس، ونزغات الشيطان، ومفاسد الأثرة والهوى، ويكون بعيداً عن التعالى والتفاخر، فإن الله يبارك فى جميع أحوالنا بالإيمان بمرضاة الله عز وجل.

وانظر إلى من يُرتب لنفسه، وانظر إلى من يرتب الله عز وجل له، انظر إلى من يدبر لنفسه شأن القبائل، وانظر إلى من يدبر الله له شأن رسول الله ﷺ.

كيف لا وهو الصادق الأمين؟ وهو الذى وصفه الله سبحانه وتعالى بهذه الأوصاف الحميدة، وارتضاها منه العدو قبل الصديق، اللهم صلِّ وسلم وبارك

على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وهذا الرضا الذى كانت عليه القبائل، كان من الممكن أن ينقلب إلى عدم رضا بهذا الحكم من النبى ﷺ، فهذا الرضا له سبب ظاهر وسبب باطن: فأما السبب الظاهر فهو أن رسول الله ﷺ عُرِفَ بينهم بأطيب الأوصاف وعُرِفَ بينهم بأحب الأخلاق، فالنفوس مهيئة لأن تستقبل منه حكمه.

والسبب الباطن هو عناية ربه سبحانه وتعالى، وهو الذى يرتب له الأسباب، ومن يرتب الله له، ومن يدبر الله له فهو فى المعية العالية، الغالية.

والحمد لله رب العالمين

٢٤٦ - لست سائلاً .. أنت تاجر !

سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه سائلاً يقول : من يعشى السائل يرحمه الله، فقال عمر :

من يعشى هذا السائل ؟

ثم ذهب إلى دار الإبل، فسمع صوت السائل بعد فترة يقول :

من يعشى السائل يرحمه الله؟

فقال عمر رضي الله عنه :

ألم آمر أن تعشوا السائل ؟

قالوا :

قد عشيناه. فأرسل عمر إليه، فإذا معه جراب مملوء خبزاً، فقال له :

إنك لست سائلاً، أنت تاجر ! وأخذ عمر بطرف الجراب ثم نثره لإبل الصدقة.

(*) سيرة عمر بن الخطاب الخليفة الراشد، أ. أحمد الناجى، مكتبة الحلبى (ط١، ١٩٨٤)، ص٧٩.

رضى الله عن سيدنا عمر بن الخطاب، إنه يعلمنا درسًا غاليًا فى هذا الموقف ، أن نحذر من هؤلاء الذين يتصنعون الفقر ويدَّعون المسكنة، ويحترفون التسول، ويحتالون على أموال الناس. ولربما كون بعض هؤلاء ثروات طائلة.

وهنا يفرق سيدنا عمر ﷺ بين التسول والسؤال ؛ فالسؤال يكون عن حاجة واضطرار، لمأكل أو مشرب أو مأوى أو قضاء دين أو صلح بين الناس، أو غير ذلك من الأصناف الثمانية التى جاءت فى قول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة/ ٦٠].

والسائل إنما يسأل ما يسد حاجته، وينقطع عن السؤال بعدها، أما المتسول فإنه محترف يظهر الفقر والمرض والحاجة، ولا يكتفى بما يسد حاجته، بل يتخذ من التسول حرفة للكسب.

وما من شك فى أن الإسلام يرفض هذه الأعمال الضارة بالمجتمع ، التى لا تعود على المجتمع بفائدة سوى إهدار أموال الناس وابتزازها.

لقد عَلَّم الإسلام الأمة أن تحقيق الثروة إنما يكون بالعمل النافع الذى يضيف قيمة ويفيد المجتمع وينفع الناس، أما الإنسان الاستهلاكى فهو عبء على مجتمعه.

ونجد أن سيدنا عمر ﷺ يعلم الفقراء ألا يكونوا عيالاً على المسلمين، قال عمر ﷺ : يا معشر الفقراء، ارفعوا رؤوسكم، فقد وضح الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين.

ورأينا فى الموقف أن سيدنا عمر ﷺ بدأ بقضاء حاجة السائل حين طلب

من الصحابة أن يقدموا له طعام العشاء، لكنه ﷺ لما وجد السائل محترفًا التسول ، أخذ منه ما جمعه من الناس ونثره لإبل الصدقة.

والحمد لله رب العالمين

٢٤٧ - حُسْنُ العهد

أقبلت عجوز على النبى ﷺ ، فهشَّ وبشَّ لها ، وأكرمها ، واحتفى بها فى السؤال ، فلما سُئِل ﷺ عن سبب الحفاوة البالغة بها ، قال :

« كانت تأتينا أزمان خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان » .

(*) رواه البخارى فى كتاب الأدب (الفتح ١٠ / ٤٣٦) .

صلاةً وسلامًا على صاحب الخُلُق العظيم سيدنا محمد ﷺ، الذى بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق، قال ﷺ : «إنما بُعِثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١).

وكان النبى ﷺ خير أسوة فى مكارم الأخلاق، ولقد مدحه ربه وأثنى عليه فى قرآنه ثناءً عظيمًا، قال الله تعالى : ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم/٤].

ونحن أمام موقف كريم، تتجلى فيه قيمة إيمانية عالية، قيمة الوفاء، الوفاء لأهل الفضل الذين رحلوا عنا، الوفاء لمن جمعتنا بهم علاقات ودودة، أو رفقة خير وعمل صالح ثم رحلوا عن دنيا الناس.

يُعلمنا النبى ﷺ صاحب الخُلُق العظيم ﷺ أن نُكرم ذكرهم، وأن نُحسن رعاية عهدهم، فإن غابت أجسادهم عنا، فأثر إحسانهم فينا يظل باقيًا يشهد لهم، وهكذا تكون أخلاق الإيمان، وقيم الإسلام، ترعى العهود وتحفظ عطر الذكرى فى القلب لتتواصل منظومة الوفاء بين الأجيال دون نكران أو جحود.

وتجتمع كل هذه المعانى الإيمانية فى موقف رسول الله ﷺ من هذه العجوز التى أقبلت عليه ﷺ، فهشَّ وبشَّ لها، أى استقبلها ببشاشة الوجه وبسمة اللقاء وحُسن الترحاب وجميل الحفاوة والإكرام.

ولفت هذا المشهد النبوى الكريم أنظار الصحابة الكرام، فتساءلوا : مَنْ هذه العجوز التى نالت هذا البر، وهذا التكريم ؟!

ولم يكن أمامهم سبيل للإجابة إلا أن يسألوا حبيبهم رسول الله ﷺ فأجابهم ﷺ : «كانت تأتينا أزمان خديجة رضى الله عنها» زوجه ﷺ، ثم قال معلمًا وهاديًا : «وإن حسن العهد من الإيمان».

ولذلك من سنته ﷺ أن جعل من بر الوالدين بعد موتهما إكرام كل علاقة

(١) رواه البيهقى (١٠/١٩٢).

لا تقوم إلا بهما. عن أبى أسيد رضي الله عنه قال : بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله : هل بقى من بر أبوى شيء أبَرُّهُما به بعد موتهما، فقال ﷺ : « نعم، الصلاة عليهما (أى الدعاء لهما)، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما، وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما »(١).

وهكذا تخلق الصحابة الكرام ـ رضى الله عنهم ـ بخُلق رسول الله ﷺ فكانوا أوفياء كرماء، فعن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رجلاً من الأعراب لَقيَهُ بطريق مكة، فسلَّم عليه عبد الله بن عمر، وحملهُ على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه، قال ابن دينار : فقلنا له : أصْلَحَكَ الله، إنهم الأعرابُ وهم يرضون باليسير، فقال عبد الله بن عمر : إن أبا هذا كان وُدًّا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أبَرَّ البرِّ صلةُ الرجل أهل ودِّ أبيه »(٢).

والحمد لله رب العالمين

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٥١٤٢).
(٢) رواه مسلم فى البر والصلة (١١)، الترغيب (١٩٠٣).

٢٤٨ - لا أصحب أحداً إلا خدمته

خرج سيدنا أنس بن مالك ﷺ مع جرير بن عبد الله البَجَلِيّ ﷺ في سفر، فقام جرير بخدمة سيدنا أنس رضى الله عنهما، فقال أنسٌ لجرير :

لا تفعل.

فقال جرير :

إنى قد رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئاً، فآليت على نفسى ألا أصحب أحداً منهم إلا خدمتُه.

(※) الموقف جاء فى حديث البخارى ومسلم، رياض الصالحين (٥/٣٤٥، باب ٤٢).

رضى الله عن صحابة رسول الله ﷺ، نجوم الهداية، الذين أحبهم الله فأحبوه، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة/ ٥٤].

كما أثنى عليهم بقوله تعالى :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح/ ٢٩].

وبشرهم الله عزَّ وجل بقوله تعالى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة / ١٠٠].

وأوصانا رسول الله ﷺ بأصحابه، من ذلك قوله ﷺ : « الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه »(١).

وقال ﷺ : « لا تسبوا أصحابى فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه »(٢).

---

(١) سنن الترمذى (٣٨٦٢).

(٢) فتح البارى (٧/ ٢١).

وفى الموقف الذى بين أيدينا يتجلى لنا هذا التقدير والإكرام من صحابى لصحابى آخر، لقد قام سيدنا جرير بخدمة سيدنا أنس بن مالك فى رحلة السفر التى جمعت بينهما، لقد ورث هذا الخلق بسبب موقف كريم أكرمت فيه الأنصار رسول الله ﷺ ، فأقسم سيدنا جرير على نفسه أن لا يصحب أحداً من الأنصار إلا قام بخدمته جزاء ما أكرموا رسول الله ﷺ .

لقد أحبهم لحب رسول الله ﷺ ، فأولى بنا أن نحب الصحابة جميعهم لحبنا لرسول الله ﷺ ، وأن نذكرهم بأدب وأن نترضى عنهم، فإن قدرهم عند الله عظيم، ومنزلتهم عند الله عالية .

والحمد لله رب العالمين

٢٤٩ - رجعت وأنا عمر

كان عمر بن عبد العزيز يكتب ذات ليلة شيئًا وعنده ضيف، فكاد السراج ينطفيء، فقال الضيف :

هل أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟

فقال عمر : لا.

فقال الضيف : أنادى على الغلام (الخادم) ؟.

فقال عمر : لا، إنها أول نومة نامها.

ثم قام بنفسه وأصلح المصباح.

فقال الضيف : بنفسك يا أمير المؤمنين ؟!

فقال عمر : ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر.

(*) الرسالة القشيرية، ص ١٤٧.

أنعِم بالإيمان مُصلحًا وهاديًا، إنه يصنع بالقلوب المعجزات.

أى نفوس هذه ؟! أى قلوب هذه ؟! أى أخلاق هذه ؟!

إنها نفوس كريمة، زكاها الإيمان بالله.

إنها قلوب منيبة، ملأها نور الإيمان بالله.

إنها أخلاقُ مَنْ تأسَّوْا بصاحب الخُلُق العظيم والسيرة العطرة، سيدنا محمد ﷺ.

وهذا موقف إيمانى من سيدنا عمر بن عبد العزيز يُعلمنا فيه قيمًا إيمانية :

يعلمنا التواضع، فلا تعالى ولا تكبر، ولا تَصَنُّع ولا تكلّف، وإنما فى سهولة ويسر وتواضع يقوم عمر بن عبد العزيز إلى السراج فيصلحه، ويعلن معلمًا لمن حوله أن التواضع لم ينقص من قدره، حيث قال : ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر.

ولا يُخَدِّم ضيفه، لأن الضيف له الإكرام، ومن هدى رسول الله ﷺ قوله : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه »(١).

فجعل النبى ﷺ إكرام الضيف من علامات كمال الإيمان بالله تعالى وتمامه.

ويُعلمنا الرحمة والرفق بمن يعملون تحت أيدينا وبخاصة الضعفاء من الخدم، ومن كان فى حكمهم، فهم إخواننا، أمرنا النبى ﷺ بأن نحسن إليهم، وألاَّ نكلفهم فوق طاقاتهم.

قال رسول الله ﷺ : « هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل، ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم »(٢).

(١) أخرجه البخارى (٨/١٣، ٣٩، ١٢٥). (٢) إرواء الغليل للألبانى (٧/٢٣٤).

وهكذا مجتمع المؤمنين يعيش فى علاقة ودودة رحيمة، لا يضيع فيه ضعيف، ولا يظلم فيه ولا يقهر، وإنما الرحمة والشفقة أملاً فيما عند الله تعالى من ثواب، وفى الحديث النبوى، عن أبى الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ابغونى فى الضعفاء، فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم»[١].

وحسبنا ما أمرنا الله به فى قرآنه الكريم، قال تعالى :

﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الحجر / ٨٨].

وحسبنا قول النبى ﷺ : «إنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٢].

وقوله ﷺ : «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[٣].

والحمد لله رب العالمين

---

(١) كنز العمال (٦٠١٩).　　(٢) أخرجه البخارى (٢ / ١٠٠).

(٣) السنن الكبرى للبيهقى (٩ / ٤١)، تفسير ابن كثير (٨ / ٤٣١).

٢٥٠ - الخنساء

كان للخنساء أخ يدعى صخراً، مات فى الجاهلية فبكته كثيراً، وحزنت عليه حزنًا شديدًا ومن شعرها فى رثائه:

يُذَكِّرنى طلوعُ الشمسِ صَخْراً
وأذكره بكل مَغِيبِ شَمْسِ
ولولا كثرةُ الباكينَ حَوْلى
عَلَى قَتْلاهُمُ لقتلْتُ نفسى

ثم أنعم الله عليها بالإسلام وحسن إسلامها، ولما جاء اليوم الذى شارك فيه أبناؤها الأربعة فى إحدى معارك الإسلام، واستشهدوا، وأتى إليها من يخبرها الخبر قالت: الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم، وأسأل الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته يوم القيامة.

(*) ديوان الخنساء - المقدمة.

لقد كانت الخنساء شاعرة مخضرمة، عاشت في الجاهلية ثم أسلمت، وهذا الموقف - الذى بين أيدينا - يظهر لنا كيف غير الإسلام الخنساء فكرًا وعاطفة، ويوضح لنا من العبر والدروس الإيمانية التى تكون لنا زادًا يغنينا فى دنيانا، وذخرًا ينفعنا فى أخرانا.

وأول ما يظهر لنا فى هذا الموقف، حقيقة نفسية لابد أن ندركها وهى أن الارتباط والتعلق بالابن أشد من الارتباط والتعلق بالأخ، فأبناؤنا أكبادنا تمشى على الأرض، إذن فالصدمة فى الأبناء أعظم من الصدمة فى الإخوة أو الأخوات، وإذا أدركنا ذلك تبين لنا أن حالة الانفعال والتأثر لفقد الأبناء تكون أشد من غيرها، وإذا ما ضبط الإنسان نفسه ووقفها عند الحق، كان ذلك دليلاً على الإيمان والتسليم والرضا بما يقدر الله ويقضى به.

لقد كان الموقف فى الجاهلية عويلاً وبكاء وتهديداً بالانتحار كما ذكرت:

ولولا كـثـرةُ البـاكـينَ حَـوْلى
عَلَى قَـتْـلاهُمُ لقـتلْتُ نفـسى

ولكن فكر الخنساء فى الإسلام قد تغير، وتغيرت معه عاطفتها التى استقر فيها الإيمان حقًا، لقد ذاقت طعم الإيمان وأحست بحلاوته، فضبطت مشاعرها بما يجب على كل مسلم فى حالات الحزن والابتلاء وهو التحلى بالصبر والإيمان والثبات.

وقد ورد فى الحديث الشريف :

« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »[١].

---

(١) أخرجه البخارى. (١/ ١٠، ١٢ - ٩/ ٢٥).

لقد أدركت ثمار الشهادة وحقيقة الإيمان، فتمنت أن تجتمع بأبنائها فى الجنة.

إن هذا الموقف يدل على فهم الخنساء العميق للجهاد وأن المجاهد فى سبيل الله إنما يظفر بإحدى الحسنيين، إما النصر، وإما الشهادة، وأن الشهيد مستقره الجنة، ولذا نراها تدعو ربها سبحانه وتعالى أن تلتقى بأبنائها فى الجنة، وهى بهذا تُعلم المرأة المسلمة درسًا فى التضحية من أجل الدعوة وفى سبيل الأوطان، وأن العواطف يجب أن تضبط بالعقل والحكمة، وإلا فإن كثيرين وكثيرات سيرون الجهاد عقابًا أو عذابًا وينسون أن حرية الأوطان لابد لها من جنود حق يحمونها ضد الأعداء ويحرسونها من هجماتهم، فما بالنا إذا كانت المعركة بين الكفر والإسلام ؟!!

ويفيد الموقف أيضًا فهم الخنساء لضرورة الصبر حتى تفوز بالبشارة التى أعدها الله للصابرين والصابرات فى قوله تعالى : ﴿ **وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ** ﴾ [البقرة / ١٥٥]. وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [الزمر/ ١٠].

والصبر والرضا بالقضاء دليل على فهم المسلم لحقيقة الإيمان، وأن الدنيا يومان، يوم لك ويوم عليك، وأن قدر الله لابد أن ينفُذ : ﴿ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [الرعد / ٤١].

لذا فقد رأينا الخنساء قد أدركت ـ بالرغم من شدة الموقف ـ الخير من وراء استشهاد أبنائها الذين جاهدوا لإعلاء راية الإسلام، ووعت قول الله عز وجل: ﴿ **وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة/٢١٦].

والحمد لله رب العالمين

٢٥١ - ارحم بكائى

قال الأصمعى : خرجت حاجًّا إلى بيت الله الحرام، فبينما أطوف بالليل، إذا أنا بصوت حزين من شاب يتعلق بأستار الكعبة، يقول :

إلهى ! أغلقت الملوك أبوابها، وقامت عليها حُجّابها، وبابك مفتوح للسائلين، وها أنا سائل ببابك، مذنبٌ، فقيرٌ، مسكينٌ... جئت أنتظر رحمتك، ثم قال :

يا مَنْ يُجيبُ دُعَا المضطرِّ فى الظُّلَمِ
يا كاشفَ الضُّرِّ والبَلْوَى مع السَّقَمِ

قَدْ نام وَفدُكَ حَوْلَ البيتِ وانتبهوا
وأنتَ يا حَيُّ يا قَيُّومُ لَمْ تَنَمِ

أدعوكَ رَبِّى حزينًا راجيًا فَرَجًا
فارحمْ بكائى بحقِّ البيتِ والحَرَمِ

أنت الغفورُ فَهَبْ لى منكَ مَغفِرةً
واعطفْ عَلَىَّ أيا ذا الجُودِ والكَرَمِ

إن كـان عَـفْـوُكَ لا يَرْجُـوهُ ذو خَطَأٍ

فَـمَنْ يجـودُ عَلى العـاصِـينَ بالنِّعَمِ

ثم رفع رأسـه، فـدنوت منه، فـإذا هـو : زين العـابدين بن الحسين رضي الله عنه، ثم قال :

إلهى هب لى منك توبة أنال بها رضاك.

(*) روض الرياحين، ص ٢٠٩.

رضى الله تعالى عن آل بيت سيدنا النبى ﷺ، فهم أهل قربى النبى ﷺ التى أوصانا الله بها بمودتها ورعايتها، قال تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى / ٢٣].

كما أثنى الله عليهم فى القرآن، قال تعالى : ﴿ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ [هود / ٧٣].

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب / ٣٣].

وجعل الله ذكرهم ـ فى الصلاة ـ عند الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ بعد التشهد الأخير فى الصلاة.

وفى السنة المطهرة عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إنى أوشك أن أدعى فأجيب، وإنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى »(١) .

كيف لا، وجدهم رسول الله ﷺ ؟!

إن صلاح الآباء ينفع الأبناء، لقوله تعالى فى شأن الغلامين اللذين أقام الخضر عليه السلام لهما الجدار دون أجر لحفظ الكنز لهما حتى يبلغا، وكان ذلك السبب الذى أظهره الله فى قوله تعالى على لسان الخضر : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف / ٨٢].

فإن كان هذا مع عامة الصالحين فى كل أمة، فما بالك بمن كان نسبه ينتهى إلى رسول الله ﷺ.

(*) أخرجه أحمد فى مسنده (١٧١٣).

وقد ورث آل البيت رضى الله عنهم عن جدهم ﷺ حال العبادة وحسن الخلق، فكانت عبادتهم، وكانت أخلاقهم كجدهم ﷺ، فهم أولى الناس بهذا الإرث الإيمانى المحمدى.

ويشهد لهذه الحقيقة الموقف الذى بين أيدينا لزين العابدين بن الحسين - رضى الله عنهما - حيث يتعلق بأستار الكعبة وصوته يملؤه الحزن وتختلط به الدموع، يناجى ربه ومولاه، خاشعًا لربه، باكيا له سبحانه وتعالى، لا عن ذنب أو جناية، وإنما إجلالاً وتعظيمًا لله رب العالمين، وجاءت كلماته ثناء على الله تعالى بما هو أهله، مع التواضع لربه، قال رضي الله عنه فى دعائه :

يا مَنْ يُجيبُ دُعَا المضطرِّ فى الظُّلَمِ
يا كاشفَ الضُّرِّ والبَلْوَى مع السَّقَمِ

قَدْ نامَ وفدُكَ حَوْلَ البيتِ وانتبهوا
وأنتَ يا حَىُّ يا قَيُّومُ لَمْ تَنَمِ

أدعوكَ ربِّى حزينًا راجيًا فَرَجًا
فارحمْ بكائى بحقِّ البيتِ والحَرَمِ

أنت الغفورُ فَهَبْ لى منكَ مَغفرةً
واعطفْ عَلَىَّ أيا ذا الجُودِ والكَرَمِ

إن كان عَفْوُكَ لا يَرْجُوهُ ذو خَطَأٍ
فَمَنْ يجودُ عَلى العاصِينَ بالنِّعَمِ

وكانت المفاجأة للأصمعى الذى لفت انتباهه حال هذا الشاب من الأخلاق والخشوع وأدب المناجاة لمولاه، إن هذا الشاب من آل بيت المصطفى ﷺ، إنه زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم أجمعين.

وفى هذا أسوة لمحبى آل بيت رسول الله ﷺ أن يتأسوا بهم فى الخشوع والتواضع والإخلاص لله رب العالمين.

وفى هذا الموقف درس يعلمنا التضرع والبكاء لله تعالى، فدموع البكاء من خشية الله دموع غالية عند الله تعالى، فلا يعذب صاحبها، قال ﷺ : «عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله»[١].

وإن كان هذا حال الصفوة البررة الأتقياء، فما بالنا بالمذنبين والمقصرين ؟ ألسنا أولى بالبكاء ؟!!.

والحمد لله رب العالمين

---

(١) رواه الترمذى (١٦٣٩).

٢٥٢ - فى التواضع

كان الإمام الرفاعى يؤم مجلسَه جمعٌ عظيمٌ من الناس وأصلح الله بأنفاسه خلقًا كثيراً، فجاء واحد من مريديه، وقال له :

يا إمام، بم نلت ما أنت فيه من المنزلة ؟!

فقال :

نظرت إلى السُّبُل المؤدية إلى الله تعالى فوجدتها كلَّها مزدحمة، إلا بابًا واحدًا وجدته خاليًا، فسلكت منه، هو باب الانكسار والتواضع.

(*) انتفاع الساعى بسيرة الإمام الرفاعى، ص ٧٩.

أنعم وأكرم بأخلاق الصالحين، الذين تأسوا بحبيبهم المصطفى ﷺ صاحب الخلق العظيم ومُتمم مكارم الأخلاق.

والموقف الذى بين أيدينا يعلمنا خلقًا إيمانيًا كريمًا، إنه خلق التواضع، وباب التواضع باب قَلَّ رواده فى سياق الحضارة المادية التى كثيرًا ما تدفع إلى التعالى والتعاظم.

والتواضع باب من أبواب القرب لله تعالى.

والتواضع باب من أبواب الوصول لله تعالى.

والتواضع باب من أبواب الرفعة عند الله تعالى.

كيف لا والله تعالى أمرنا به !، قال تعالى : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء / ٢١٥].

وقوله تعالى : ﴿ **وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً** ﴾ [الإسراء / ٣٧].

وقال تعالى فى جزاء المتواضعين : ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا** ﴾ [القصص /٨٣].

ومن هدى النبى ﷺ قوله: « إن الله أوحى إلىَّ أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد »(١).

والمسلم يتواضع فى غير مذلة ولا مهانة، إنه يتواضع ليرتفع، ولا يتكبر لئلا ينخفض، إن سنة الله جارية فى رفع المتواضعين له، ووضع المتكبرين وخفضهم، قال النبى ﷺ : « ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزًا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »(٢).

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (الجنة/٦٤)، وأبو داود (٤٨٩٥)

(٢) شرح السنة للبغوى (١٣٣٦ /)، والترمذى (٢٠٢٩).

وقال ﷺ: «حق على الله أن لا يرتفع شىء من الدنيا إلا وضعه»(١).

ولله درّ القائل:

تَواضَعْ تَكُنْ كالنَّجْمِ لاحَ لِناظرٍ
على صَفَحاتِ الماءِ وهو رَفيعُ
ولا تَكُ كالدُّخانِ يعلو بنفسِه
على طبقاتِ الجوِّ وهُوَ وضيعُ

وفى الموقف الذى بين أيدينا رأينا الإمام الرفاعى عليه سحائب الرحمة والرضوان يدل تلميذه على باب سهل ميسور من أبواب الوصول التى ازدحمت بطلابها كباب الصدقة والعلم والجهاد ونحو ذلك؛ لما فى هذه الأبواب من مكانة محمودة بين الناس، فى حين أن باب التواضع ثقيل على النفس لا يستطيعه إلا أصحاب النفوس العالية، وكثيراً ما يغفل الناس عنه، ولذلك قَلَّ طلابه وروّاده.

وما أكثر غفلتنا عن كثير من أبواب الخير، فى زحمة حياة المادة.

اللهم فقهنا فى الدين وبَصِّرْنا بما يقربنا إليك.

وتأمل أخى المؤمن، كيف تواضع عباد الرحمن لربهم فما رأوا طاعتهم بالنهار وقيامهم بالليل مانعًا لهم من جهنم، فكان دعاؤهم: ﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا * وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا**

(١) مجمع الزوائد للهيثمى (١٠/٢٥٥).

فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا * وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا * وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان / ٦٣ - ٧١].

والسيدة عائشة رضى الله عنها حين قرأت قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون / ٦٠]. سألت رسول الله ﷺ عن معناها : هل هو الرجل يسرق ويزنى ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يحاسبه على المعاصى ؟

فقال ﷺ : « بل هو الرجل يصوم ويصلى ويخاف إذا رجع إلى ربه ألاَّ يتقبل الله منه ذلك، يا عائشة : ﴿ أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون / ٦١] »[١].

اللهم ارزقنا التواضع يارب العالمين

(١) أخرجه البخارى (الفتح ٨ / ٤٤٥).

٢٥٣ - أحمل عليك أم عنك ؟!

كان عمر بن الخطاب ﷺ يتفقد أحوال الرعية ليلاً ومعه بعض عماله، فوقف أمام بيت به صبية يبكون، وأمهم تشتكي إلى ربها قائلة :

يارب، عمر يلي أمرنا ويغفل عنا !! فأسرع عمر ومعه عامله إلى بيت المال، وقال لعامله:

احمل عليّ جوال الدقيق.

فقال:

يا أمير المؤمنين، أحمل عليك أم عنك ؟!

قال : احمل عليّ.

فلما تكرر نفس السؤال من العامل لسيدنا عمر، قال له عمر :

احمل عليّ، هل تحمل عني أوزاري يوم القيامة ؟!!

(*) خلفاء الرسول، ص ١١٨.

● رضى الله عن سيدنا عمر بن الخطاب الذى استجاب الله فيه دعوة رسول الله ﷺ : «اللهم أعزَّ الإسلام بأحد العمرين»(١)، فجاء إسلامه عزاً وقوة للمسلمين، إن شخصية سيدنا عمر شخصية فذة دفعها القرآن إلى القمة فكان تاجًا للعدالة وحب الحق، وإنصاف الناس من نفسه، ونصرة الضعيف والمظلوم، وهكذا يصنع القرآن بالنفوس، لقد أصبح ابن الخطاب قرآنيًا فى فكره وقوله وفعله، لقد ارتقى ابن الخطاب فى القرآنية حتى بلغ منزلة عالية، فقد نزلت بعض آيات القرآن الكريم موافقة لرأيه، من ذلك ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ قوله : يا رسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت الآية :

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة / ١٢٥].

● والموقف الذى بين أيدينا درس عُمرى فى أمانة المسئولية. إن ابن الخطاب لا يكتفى بما يسمع عن أحوال الرعية، بمثل هذه التقارير التى لا تخلو من تلفيق وكذب، رغبة ممن يرفعها إلى الحاكم أن يخفى خللاً أو يحجب عيبًا أو نقصًا : «كل شىء تمام، وفى أحسن حال». والواقع يخالف هذا التمام، ويئن بالمشكلات الخطيرة.

ومن هنا كان لابد من هذه المتابعات والجولات المفاجئة من المسئول والحاكم، لكشف ما تخفيه التقارير التى تجعل الصورة وردية، وأنه ليس فى الإمكان أبدع مما كان.

وهذا هَدْىٌ سَنَّه سيدنا عمر لكل مسئول يخاف ربه، ويعلم أنه مسئول عن أمانة ما استرعى، وهذا أثر للتربية المحمدية للصحابة رضى الله عنهم، فمن هدى النبى ﷺ عن مسئولية الأمانة، وأمانة الإمارة قوله لأبى ذر الغفارى رضي الله عنه: «يا أبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها»(٢).

(١) أخرجه الترمذى (٣٦٨١، ٣٦٨٣).
(٢) سبق تخريجه.

وبمثل هذا الإحساس بالمسئولية، والتقدير لأمانة السلطة، يكون صلاح البلاد والعباد، وبمثل هذه الشخصيات العمرية تقوى الإدارة الإسلامية وتقوى المناصب.

● ثم نحن أمام درس آخر، تجلى فى هذا الدرس العمرى، حين وجد ابن الخطاب أهل بيت يشكون حالهم إلى الله ولا تملك الأم فى هذه الدار المنكوبة أمام بكاء الصبية الصغار إلا أن ترفع شكواها من عمر إلى الله تعالى قائلة : يارب، عمر يلى أمرنا ويغفل عنا !!

لم يمتعض عمر ولم يتأفف، ولا أصابه شىء من العظمة والتعالى مما يصيب أصحاب السلطان فى مثل هذا الموقف، حيث ينتصرون لأهوائهم تنكيلاً بمن أعلن رأيه فيهم صراحة، أو تناولهم بنقد.

لكن نور الإيمان يجعل المسئول يدين نفسه قبل أن يدين الناس، وقد هزت كلمات أم الصبية الجياع قلب عمر، فأسرع إلى بيت المال، وأعد لهم جوالاً ملأه من خيرات الله من بيت مال المسلمين، ورأى أن يكفِّر عن تقصيره فى حق هذه الأسرة بأن يحمل لهم الزاد والطعام بنفسه، وكان الحمل ثقيلاً، لا يستطيع أن يرفعه وحده، فقال لمعاونه، ارفع علىّ، وأخذت الدهشة الرجل، ماذا يصنع أمير المؤمنين ؟! وكيف أرفع عليه ؟! أنا أولى بأن أحمل عنه هذا الحمل، فقال لابن الخطاب : أحمل عليك أم عنك ؟!

فقال عمر : احمل علىّ.

وتكررت المراجعة بين الرجل وسيدنا عمر، فقال عمر رضي الله عنه حاسمًا الأمر : احمل علىّ، هل تحمل عنى أوزارى يوم القيامة ؟!

● إنه الإيمان الذى يصنع بالنفوس المعجزات، وحمل عمر الطعام إلى الصبية، وجلس معهم، فاستعجله الرجل الذى يرافقه، وقال له كما تقول بطانة

الحاكم والمسئول فى مثل هذه المواقف : « يكفى هذا القدر، لقد أحسنت إليهم، هيا نرحل عنهم » . لكن قوة إيمان عمر ترد مثل هذا الكلام الذى لا يرقى إلى مستوى الإيمان العمرى، فقال عمر فى حسم وقوة : والله، لا أذهب حتى يأكلوا، ولقد جئناهم وهم يبكون ولن أتركهم إلا وهم يضحكون . ولا غرابة فيمن بشرهم النبى ﷺ بالجنة وهم مازالوا بين الناس فى دنياهم .

لا غرابة فى مواقفهم الإيمانية بعد أن أثنى القرآن عليهم، ويبقى لنا منهم الأسوة والقدوة، والدروس الهادية، والعبر النافعة، وصدق الله العظيم : ﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ** ﴾ [ق /٣٧].

٢٥٤ - إِنِّى أُحبُّكْ

دخل أبو إدريس الخولانىُّ رحمه الله مسجد دمشق، فإذا فتى بَرَّاقُ الثَّنَايا وإذا النَّاسُ حوله، فسألتُ عنه، فقيل:

هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه.

فلما كان من الغَدِ، بَكَّرْتُ إلى المسجد فوجدته قد سبقنى يصلى، فلما قضى صلاته، سَلَّمت عليه، ثم قلت له:

والله إنِّى لأُحِبُّك.

فقال: آلله. فقلت: الله.

فجذبنى إليه وقال لى:

أبشر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى:

«وجبت محبتى للمتحابين فىّ، والمتجالسين فىّ، والمتزاورين فىّ، والمتباذلين فىّ»(*).

أنعم بهذا الدين العظيم، الذى يعلمنا أن الأشياء تعلو وترتفع وتعظم حين

(*) حديث صحيح، رواه مالك فى الموطأ ٢/٩٥٣.

ترتبط بالخالق سبحانه وتعالى. ويعلمنا أن الإسلام لم يصادر العواطف والمشاعر، وإنما هَذَّبها ووجَّهها لتكون عملاً صالحًا، تُثاب عليه من الله تعالى.

هذا موقف إيمانى عظيم لمعرفة الحب فى الله، كيف يكون وما ثمرته؟! وما قدره فى ميزان الله تعالى ؟!

لقد دخل أبو إدريس الخولانىُّ - رحمه الله تعالى - مسجد دمشق، فلفت انتباهه هذا الفتى الذى كسا النور مجلسه، وَجْهُهُ مشرقٌ، وثناياه بَرَّاقة، يحظى بحب الناس، يلتفون حوله فى المسجد، قوله مسموع، ولمجلسه هيبة ووقار، فسأل أبو إدريس عن هذا الفتى، فقيل له : إنه معاذ بن جبل ﷺ، الصحابى الجليل. وفى الغَدِ، بَكَّرَ أبو إدريس إلى المسجد ليكون من الأوائل السابقين للمسجد، لكنه وجد هذا الفتى المشرق الصحابى الجليل معاذ بن جبل ﷺ قائمًا يصلى، لقد سبقه إلى المسجد.

لقد ملأ هذا الفتى المشرق قلب أبى إدريس حبًا وتقديرًا، فلما قضى الفتى صلاته، أسرع إليه أبو إدريس فسلَّم عليه وقال له : والله إنى لأحبك.

وفى هذا القَسَم وهذا التأكيد أبلغ الدلالة على هذا الحب العظيم الذى ملأ قلب أبى إدريس لسيدنا معاذ بن جبل ﷺ. أحبه لطاعته وعلمه وصلاحه. لقد كان الصحابة يحبون فى الله ولله كما علمهم حبيبهم المصطفى ﷺ.

عن أنس ﷺ أن النبى ﷺ قال : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف به فى النار »[١].

نعم لقد أحب أبو إدريس سيدنا معاذًا حبًّا إيمانيًّا صادقًا، فأسرع إليه يخبره

(١) رواه مسلم، الإيمان (٦٧).

تأسيًا بقول النبى ﷺ : « إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه »[١] .

وفى مقابل هذا الحب لله، زَفَّ سيدنا معاذ إليه البشرى، التى بَشَّر الله بها أهل الحب فيه. فقال له : أبشر ! فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى : وجبت محبتى للمتحابين فىَّ، والمتجالسين فىَّ، والمتزاورين فىَّ، والمتباذلين فىَّ » .

لك الحمد يارب، لقد جعلت محبة الإخوان سبيلاً لنيل محبتك وعظيم عنايتك، عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى، اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظلَّ إلا ظلى »[٢] .

نعم إن الحب فى الله عمل صالح، ننال به الثواب العظيم من الله تعالى، وأعد الله لأهله فى يوم القيامة المنازل العالية والدرجات الرفيعة .

---

(١) رواه مسلم فى البر والصلة (٣٧)، أحمد (٢ / ٢٣٧، ٣٧٠) .
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه .

٢٥٥ - هادٍ يهدينى

لَّما هاجـــر رســـول الله ﷺ، كـــان ﷺ يـركب وأبـو بــكــر رضي الله عنه رديفه، وكان أبو بكر يعرف الطريق لاعتيـاده السفر إلى الشام، فكان يمر بالقوم فيقولون له:

من هذا الذى معك يا أبا بكر ؟

فيقول رضي الله عنه :

هادٍ يهدينى إلى الطريق.

(*) السيرة الحلبية ٢ / ٩٨.

هذا موقف فى العقل والكياسة وحسن التصرف، إنه موقف فى فقه الأزمات وحسن التخلص منها دونما كذب أو تضليل.

وتأمل معى هذه الرمزية الشفافة التى تطل من العبارة، إن لها ظاهراً وباطناً:

فالظاهر : خطاب يتوجّه به أبو بكر ﷺ إلى القوم يومئ من خلاله إلى أن النبى ﷺ دليله الذى يهديه إلى الطريق ويدله عليه حتى يبلغه هدفه.

والباطن: إقرار وشهادة إيمان من سيدنا أبى بكر ﷺ، بأن هذا الهادى هو الذى أرسله الله لهدايته وهداية العالمين.

ولم يكذب أبو بكر – وحاشاه فهو الصديق – فى قوله، فرسول الله ﷺ مُرسل من عند الله عز وجل لهداية أبى بكر وهداية الناس أجمعين.

كما أنه لم يصرِّح بحقيقة أمر النبى ﷺ ؛ لأنه يعلم ما فى هذا من الخطر المحدق، وهو لا يريد أن يمسه أحد بسوء، وهما فى الطريق إلى بلد جديد سيبدأ منه النبى ﷺ تأسيس قواعد الدين.

وهذا الذى قاله أبو بكر ﷺ هو من باب المعاريض، أى: أن تقول كلامًا يحتمل أكثر من تأويل، كأن يسألك سائل عن اسمك ولا تريد التصريح به فتقول: عبد الله. وهذا أمر مندوب إليه، فقد روى أنه ﷺ قال:

«إن فى المعاريض لمندوحة عن الكذب»[1].

أى: فيها من السعة ما يغنى الإنسان عن الكذب.

ولقد أجاب أبو بكر فأوجز وكفى، وضمَّن إجابته البسيطة رسالة ظلت تخترق الآفاق والعصور حتى وصلت إلينا، كى تعلمنا هذا الدرس : إن المؤمن كيِّسٌ فَطن، يواجه المواقف بما يناسبها، ويعد العُدَّة للأمور بحزم كى لا يفلت منه الزمام، فالكلمة قد تكون سببًا للنجاة، كما قد تكون سببًا للهلاك، والفارق بين الكلمتين يكمن فى كياسة القائل وفطنته أو جهله وغفلته.

---

(١) سنن البيهقى ١٠/ ١٩٩.

٢٥٦- اللهمَّ عَلِّمنا

قال السَّرِىُّ السَّقْطِى :

أصـــابنى مـــرض شـــديد ، فـــدخل علىَّ بعض إخـــوانى يعودوننى ، فجلسوا فأطالوا ؛ فآذانى جلوسهم ، ثم قالوا :

إن رأيت أن تدعو الله .

فمددت يدى فقلت :

اللهم علِّمنا أدب العيادة !

(*) الرسالة القشيرية ، والموقف فى : الأذكياء ، لابن الجوزى .

هذا موقف فى أدب الكلام وحُسن الرد بذكاء، إنه موقف فى اللباقة واللياقة والدبلوماسية.

إن السَّرِىَّ لم يشأ أن يوبِّخ زُوَّاره أو يعيب عليهم رغم أنهم آذوه بطول الجلوس عنده وهو فى حالٍ شديدة من المرض، وحق على زوار المرضى أن يخففوا الزيارة فلا يثقلوا على المريض الذى هو بحاجة إلى الراحة. لكن الإمام انتظر اللحظة المناسبة ليعلِّمهم أدب الزيارة، ويفهمهم فى الوقت ذاته أنهم أثقلوا عليه بطول مكثهم عنده، فانتظر حتى سألوه أن يدعو الله عز وجل، فأجابهم بقوله: اللهمَّ علِّمنا أدب العيادة.

إنها إيماءة لطيفة ليس فيها ما يجرح شعور أحد، ولكنها - أيضًا - رسالة واضحة تذكِّرهم بواجب من واجبات من يعود مريضًا، وهو ألا يثقل عليه بطول المكوث عنده.

ولابد أن القوم تلقوا هذه الإشارة بالقبول والتسليم ودون إحساس بالإهانة أو أنهم غير مرغوب فيهم، بل هم قوم قد أدَّوا واجبًا بعيادتهم المريض، ولكنهم نسوا واجبًا آخر وهو ألا يثقلوا عليه بطول البقاء عنده، فذكَّرهم السقطى بهذا الواجب الذى نسوه منتهزاً فرصة سؤالهم الدعاء، فامتثل لرغبتهم ودعا الله عز وجل بدعاء يذكِّرهم من خلاله بأدب من آداب الزيارة، وهو تخفيفها وعدم الإطالة حتى لا يضجر مضيفه ولا يضيع عليه وقته.

وقد رُوى فى قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ**﴾ [الأحزاب/٥٣]، أن هذه الآية نزلت فى قوم زاروا النبى ﷺ فأكلوا ثم جلسوا يتحدثون فأطالوا الجلوس حتى تهيأ النبى ﷺ للقيام فلم

يقوموا، فقام وبقى ثلاثة نفر يتحدثون، فعاد النبى ﷺ فإذا هم جلوس، فقام ثانية فانطلقوا وراءه[١]. فنزلت هذه الآية فى بيان أدب من آداب الزيارة، وهو ألا يؤذى الزائر مزوره بالإطالة عليه، هذا فى حال الصحة، فما بالك بحال المرض ؟

إن مراعاة أحوال الناس أدب من الآداب التى ينبغى على المسلم أن يتحلى بها، كما أن الرد الجميل وتوجيه النصح ينبغى أن يكون بطريقة فيها لباقة وحسن اختيار للحظة المناسبة، والكلمة المناسبة.

---

(١) المستدرك للحاكم (٢/٤١٨).

٢٥٧ - لِيَهْنِكَ العِلمُ أبا المُنْذِرِ

عن أُبَىّ بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

«يا أبا المنذر، أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟».

قلت :

الله ورسوله أعلم.

قال ﷺ :

«يا أبا المنذر ، أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟».

قلت :

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة/٢٥٥].

فضرب فى صدرى وقال :

«لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المُنْذِرِ».

(*) رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٢٥٨).

هذا موقف نبوى كريم، به دلالات إيمانية هادية، وقيم تربوية نافعة. من ذلك :

أن الحبيب المصطفى ﷺ يلفت انتباه أبى المنذر رضي الله عنه إلى خصوصية آية من آيات القرآن، فيقول ﷺ : «يا أبا المنذر : أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم ؟» فأجاب أبو المنذر : ﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** ﴾، فضرب النبى ﷺ فى صدر أبى المنذر ملاطفة له واستحسانًا لإجابته ورضا عن وعيه وفهمه، وقال ﷺ مباركًا لأبى المنذر علمه : «ليهنك العلم أبا المنذر».

﴿ **اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ** ﴾.

هنا سؤال يطرح نفسه. ما معنى أفضلية هذه الآية على سواها ؟

المعنى : هو أن الثواب على قراءتها أفضل من الثواب على قراءة سواها. وإلا فآيات القرآن كلها واحدة فى الحسن والكمال لا نقص فى واحدة منها.

ولا عجب أن آية الكرسى بهذا القدر السنى، فقد تضمنت صفات الله العلية صاحب القهر والسلطان فى الدنيا والآخرة، الأكبر من أن يقاس به فى القدر والعظمة أحد. فلا عبودية إلا لله رب العالمين وحده لا شريك له.

بدأت الآية الكريمة باسم الله الأعظم على رأى أغلب العارفين بالله، ﴿ **اللَّهُ** ﴾ اسم عَلَمٌ على ذات الحق سبحانه الجامع لكل الصفات، وهو أخص الأسماء؛ إذ لا يطلق على غير الله، لأنه هو الواحد الأحد الذى لا إله فى الوجود سواه.

﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ أى لا معبود بحق سواه، فهو وحده المستحق أن يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفًا ورجاء وتوكلاً عليه واستعانة به، وسؤالاً من فضله ودعاء إليه فلا شريك له.

سبحانه! خلق ورقة التوت، طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد. ومع ذلك يخلق منها أنواعًا مختلفة: يأكلها دود القز فيخلق منها الحرير، ويأكلها النحل فيخلق منها الشهد، وتأكلها الشاة فيخلق منها البعر، فإن كان البعر يدل على البعير والأقدام تدل على المسير، أفلا تدل سماء ذات أبراج وسبل فجاج على الله سبحانه؟!.

ويطيب لى فى هذا المقام أن أذكر أثرًا يدل على اليقظة دائمًا، ذلك فيما حكى أن بعض المشايخ كان يخص بعض تلاميذه بإقباله عليه، فقالوا له في ذلك وسألوه، ولكنه أجاب بالفعل لا بالقول، فدفع إلى كل واحد من تلاميذه طيرًا وقال له : اذبحه بحيث لا يراك أحد، فمضى كل واحد وخلا بنفسه وذبح ما معه. وجاء التلميذ الذى يفضله الشيخ ويقبل عليه ومعه الطير غير مذبوح، فسأله الشيخ عن عدم ذبحه، فقال التلميذ لشيخه : إنك أمرتنى أن أذبحه فى مكان لا يرانى فيه أحد، ولم يكن موضع إلا والله سبحانه وتعالى يرانى فيه. فقال الشيخ لتلاميذه : لهذا أفضله عليكم، غلبت عليكم رؤية الخلق، وغلب عليه رؤية الخالق.

وكذلك فى قصة الرجل الذى راود امرأة على نفسها أن يفعل فيها وأمرها أن تغلق الأبواب جميعها، وقال لها: هل بقى باب لم تغلقيه ؟ فقالت : نعم، الباب الذى بيننا وبين الله، فأنزل الله الخوف فى قلب الرجل وتركها وخلَّى سبيلها.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الواحد الخالق البارئ المصور المتصرف فى

ملكه كيف يشاء، وهو الأحق أن يذكر فلا ينسى، لأن معناه حاضر لا يغيب.

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ الذى لا أول لحياته ولا انتهاء، فلا يلحقه العدم والفناء، القيوم الدائم القيام بتدبير شئون خلقه.

وروى عن أبى علىّ الكنانى أنه رأى رسول الله ﷺ فى منامه، وقال: يا رسول الله، ادع الله ألأ يميت قلبى. فقال ﷺ: إذا أردت أن يحيى الله قلبك فلا يموت أبدا فقل كل يوم أربعين مرة بين سنة الفجر والفرض: يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت.

ولأنه سبحانه قيوم، فهو سبحانه ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾؛ لذلك لَمّا قال بنو إسرائيل لموسى – عليه السلام – : هل ينام ربك. أوحى الله إليه أنْ قل لهؤلاء: «إنى أملك السموات والأرض بقدرتى فلو أخذنى نوم أو نعاس لزالتا».

ربنا الموصوف بالكمال والجلال ﴿لَّهُ﴾ لا لغيره ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ فجميع من تحت سماء الله وفوق أرضه وما فيهن تحت سطوة الله وسلطانه، فلا يغترّ الإنسان يومًا بدنياه أو بشبابه أو بماله أو بجاهه أو أى زينة من الدنيا، ليعمل ليوم الوعيد، لأنه لا شافع إلا بأمر الله سبحانه وتعالى.

﴿مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ أى أن العلم بالغيب عند الله وحده فهو الذى يعلم ما قبل من فى السماوات والأرض وما بعدهم، ولا يطلع أحد على شىء من علم الله إلا ما أطلعه الله عليه، كما أطلع الرسل والمرسلين.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ إلهنا سبحانك كما جعلت الكعبة بيتًا يطوف به المسلمون لنيل المقاصد كما تطوف الناس ببيوت الحكام والملوك، جعل الله سبحانه له – وله المثل الأعلى –

كرسيًّا وعرشًا كالملوك والحكام يدلان على عظيم قدرته ونفوذ سلطانه فى جميع خلقه وهو غنى عنهم.

﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ ولا يثقله حفظ السماوات والأرض وهو العلى الرفيع المنزلة المستعلى فوق خلقه بقدرته وجبروته، فهو سبحانه الذى علا فلا تُدْرَكُ ذاته ولا تُتَصَوَّر صفاته، تاهت الألباب فى جلاله وعجزت العقول عن إدراك كماله، فهو سبحانه العظيم، ليس لعظمته بداية ولا لجلاله نهاية، سبحانه علا جده وتعالى مجده.

فلنتَّقِ الله ولنحفظ آية الكرسى ونحافظ عليها ولنعمل بها ولنقرأها صباحًا ومساءً، وعقب الصلوات الخمس وأينما شئتم حتى تكونوا أنتم وأهل بيتكم فى ذمة الله وحفظه، ويكون لكم من الله بفضلها حارسًا قويًّا أمينًا عليكم، وعلى أهليكم، ولتقوى إيماننا بالله.

ولعله من المناسب فى هذا السياق ذكر قصة الراهب مع الإمام أبى حنيفة حين سأله عدة أسئلة وكان أول سؤال:

ماذا قبل الله ؟

فأجاب أبو حنيفة : يا هذا ، هل تحسن العدد ؟ فقال : نعم، قال له: ماذا قبل الواحد؟ قال الراهب: لا شىء قبله. فقال الإمام أبو حنيفة : إذا كان الواحد الفانى لا شىء قبله، فالله الباقى لا شىء قبله.

ثم سأل الراهب : فى أى وجه يكون وجهة الله ؟

فأجاب الإمام أبو حنيفة : يا هذا، إذا أوقدت سراجًا ففى أى جهة يكون وجه النور ؟ فقال الراهب: يملأ المكان.

فقال أبو حنيفة : إذا كان النور الزائل لا جهة له فالله الباقى منزه عن الجهة والمكان، وتلا قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾ [النور/٣٥].

ثم سأل الراهب : ماذا يفعل ربك الآن ؟

فأجاب الإمام أبو حنيفة : يرفع أقوامًا ويضع آخرين، أمور يبديها ولا يبتديها، وكل يوم هو فى شأن، سبحانه سبحانه هو العلى المتعال المستحق للعبادة وحده والتقديس.

ومن وصايا رسول الله ﷺ بشأن آية الكرسى قوله ﷺ :

« من قرأ آية الكرسى فى دبر الصلاة المكتوبة كان فى ذمة الله إلى الصلاة الأخرى »(١).

---

(١) رواه الطبرانى (٣/٨٥)، الدر المنثور (١/٣٢٣).

٢٥٨ - ثلث القرآن

عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال فى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ :

«والذى نفسى بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن».

(*) أخرجه البخارى (٦/ ٢٣٣، ٨/ ١٦٤، ٩/ ١٤٠)

تبارك الله رب العالمين، تبارك مَنْ هذا كلامه، وتبارك الله واسع الفضل والجود، فمن كرمه وجوده وفضله أن جعل لهذه الأمة المحمدية من الأعمال اليسيرة ما يعطى عليه الثواب الجزيل كى تتحقق لهذه الأمة الخيرية والمقدمة بين الأمم الذين طالت أعمارهم وكثرت أعمالهم.

وهذه حقيقة إيمانية تظهر واضحة فى القرآن، فقد أكرم الله هذه الأمة بليلة فى شهر رمضان من كل عام هى خير من ألف شهر، وأكرم الله هذه الأمة بيوم عرفة ويوم الجمعة ... وغيرها من الأيام.

وعلى نفس المنوال نجد إكرام الله تعالى لهذه الأمة بأن جعل الثواب العظيم الجزيل على أعمال يسيرة، مثل قراءة سور من القرآن الكريم، من ذلك ما ورد فى شأن سورة الإخلاص :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾.

وفى الموقف الذى بين أيدينا يلفت النبى ﷺ نظر أصحابه إلى قَدْرِ هذه السورة وعظم منزلتها عند الله تعالى، فقال ﷺ : « أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن فى ليلة واحدة ؟ فشقَّ ذلك على الصحابة ، وقالوا - رضى الله عنهم - : أيُّنا يُطيق ذلك يا رسول الله ؟!

فكشف النبى ﷺ عن عظيم كرم الله تعالى وأن فضل الله أوسع من أعمالنا وأعلى ، فقال ﷺ :

﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ ثلث القرآن.

وهذا رجل آخر سمع رجلاً يقرأ ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ** ﴾ يرددها كثيراً، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له وكأن الرجل يتقالُّها، أى: يَعُدُّها قليلة، فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن »[١].

---

(١) رواه البخارى ٩ / ٥٣.

وهذا رجل آخر يأتى إلى رسول الله ﷺ يقول : يا رسول الله، إنى أحب هذه السورة « قل هو الله أحد »، فقال ﷺ :

« إن حُبَّها أدخلك الجنة »[١].

وذلك لما فى هذه السورة من صفات كريمة وتنزيه لله تعالى.

فـ (أحد) معناها : لا شريك له ولا ند له.

(الصمد) : أى الذى يُصْمَد إليه (يُتَوَجَّهُ إليه) فى قضاء الحوائج.

(لم يلد ولم يولد) : أى لا يجرى عليه سبحانه ما يجرى على البشر من الحاجة إلى الولد.

(ولم يكن له كفواً أحد) : أى ليس له شبيه ولا نظير.

فتبارك الله رب العالمين

---

(١) رواه الترمذى (٣ / ٢٩) وقال : حديث حسن.

٢٥٩ - من تواضعه ﷺ

لما أراد النبى ﷺ أن يحج، أتى بِرَحْلٍ رث وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم.

فقال الصحابة:

يا رسول الله، نجهز لك ما هو أفضل.

فقال النبى ﷺ :

لا، ثم دعا: «اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة».

(*) أخرجه ابن ماجه (٢٨٩٠، ٢٩٩٣).

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، تُعلم أُمَّتك التواضع، وترشدنا إلى التخلى عن التعالى والترفع والمباهاة أو التفاخر. كيف لا وأنت خير أسوة وأفضل قدوة ؟.

كان النبى ﷺ سيد المتواضعين إجلالاً لعظمة الله تعالى، ومن تواضعه ﷺ أن إماء المدينة كانت الواحدة منهن تأخذ بيد النبى ﷺ ليقضى لها حاجتها، وكان ﷺ لا يأنف أن يمشى مع الأرملة والمسكين فيقضى لهما الحاجة.

ومن تواضعه ﷺ أنه كان يشهد الجنائز ويعود المرضى ويجيب دعوة الفقراء، وكان يقوم بخدمة نفسه ولا يترفع عن القيام بالأعمال العادية فى بيته لمساعدة أهله.

ومن تواضعه ﷺ أيضًا أن الله تعالى خيَّره بين أن يكون عبدًا نبيًّا أو ملكًا نبيًّا، فاختار أن يكون عبدًا نبيًّا(١)، فكان ﷺ خير أسوة وأفضل قدوة فى التواضع مع ما أولاه الله من عظيم النعم، وكفى بنعمة النبوة الرسالة نعمة وفضلاً.

ومن هديه ﷺ قوله : «إن الله أوحى إلىّ أنْ تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغى أحد على أحد»(٢). وقوله ﷺ : «ما تواضع أحد لله إلا رفعه»(٣).

وكان ﷺ لا يحب أن يتميز عن أصحابه. وفى مختصر السيرة للطبرى أنه ﷺ كان فى سفر وأمر بذبح شاة، قال رجل: علىَّ سلخها. وقال آخر: علىَّ طبخها. فقال ﷺ: «علىَّ جمع الحطب»، فقالوا: يا رسول الله نكفيك االعمل. قال: «قد علمت أنكم تكفوننى، ولكنى أكره أن أتميز عليكم وإن الله يكره من

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣١)، وصحيح ابن حبان (٢١٣٧).
(٢) أخرجه مسلم (الجنة ٦٤). (٣) أخرجه مسلم فى البر والصلة (ب ١٩ رقم٦٦).

عبده أن يراه متميزاً عن أصحابه »[١].

وهذه الأحاديث ظاهرة الدلالة على غاية تواضعه ﷺ ورغبته دائمًا فى المبالغة فى التواضع والخضوع، وفى التقليل من زخرف الدنيا ونعيمها، وإظهار أنها حقيرة وأن ما عند الله خير وأبقى؛ فإنه ﷺ ما كان يحب أن يمجده أصحابه أو يطروه كما أطرت النصارى عيسى بن مريم فجعلوه إلهًا أو ابن إله فزاغوا وضلوا.

وكان يعتنى بذوى الحاجات ويستمع إليهم ويعمل على قضاء حاجاتهم ولو كان صاحب الحاجة عبداً أو امرأة.

وكان ﷺ أمينًا على أسرار ذوى الحاجات فلا يذيعها ولا ينشرها، وينأى عن مواطن سمع الغير لها.

وكان يكتم حاله عن أصحابه ولا يشكو، حتى إنه رهن درعه عند يهودى على ثلاثين صاعًا من شعير أخذها لأهله[٢].

اللهم أدبنا بأدبه ﷺ ، وخَلِّقنا بخلقه، وأسعدنا به فى الدنيا والآخرة.

(١) كشف الخفاء (١/ ٢٩٢).
(٢) دلائل النبوة للبيهقى (٧/ ٢٤٠) سنن البيهقى (٦/ ٣٧).

٢٦٠ - النبى ﷺ مع القرآن

دعا رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود أن يقرأ عليه آيات من القرآن، فقرأ ابن مسعود آيات من سورة النساء حتى بلغ قوله تعالى :

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء/ ٤١].

قال ﷺ :

«أمسِكْ يا ابن مسعود». وذرفت عيناه بالدموع.

(*) راجع تفسير ابن كثير/ للآية.

كان النبى ﷺ فى رمضان وفى غار حراء حيث كان يتعبد، فنزل عليه الوحى بأول آية صافحت قلب رسول الله ﷺ ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ [العلق/ ١-٥].

ومنذ هذه اللحظة والنبى ﷺ يتلقى من أخيه جبريل - عليه السلام - أو يستمع للقرآن من المهرة بتلاوته من الصحابة - رضى الله عنهم - أو يروح ويغدو معلمًا وهاديًا بالقرآن.

فأما عن تلقيه ﷺ للقرآن، فكان فى لحظات متبتلة وقورة، وكان الصحابة - رضى الله عنهم - يسمعون فيها دويًا كدوى النحل عند وجه الرسول ﷺ وكانت تعتريه ﷺ حالة من الخشوع والاستغراق، وكان النبى ﷺ حريصًا على ترديد كل حرف وكل كلمة وراء سيدنا جبريل - عليه السلام - ولقد بث الله سبحانه وتعالى الطمأنينة فى قلب رسوله ﷺ بشأن ما يتنزل على قلبه من وحى، فلا يعجل به، قال تعالى: ﴿ **لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ** ﴾ [القيامة ١٦: ١٩].

كما أكد الله سبحانه وتعالى لنبيه أن ما يتنزل عليه من الآيات محفوظ فى صدره بقدرة الله، قال تعالى:

﴿ **سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ** ﴾ [الأعلى/٦].

و «لا» هنا نافية، وليست ناهية، فالمعنى: سنقرئك قراءة من حسنها وبركتها أنك لا يمكن أن تنسى بعدها أبدًا.

وقد كان النبى ﷺ يحب أن يستمع للقرآن من عاشق القرآن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولقد طلب منه ﷺ يومًا أن يقرأ عليه. فقرأ ابن مسعود من سورة

النساء حتى بلغ قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ [النساء/٤١]. فبكى النبى ﷺ وسال دمعه، وقال: «أمسك يا ابن مسعود» كانوا يقرأون لله، ويستمعون لله، كانوا يقرأون تخشعًا وتعبدًا، وليس مباهاة ولا شهرة، ولا طلبًا لدنيا ولا مال، ولذلك نفع الله بقراءتهم، وكانت تصل إلى القلوب وحسبنا أن نتدبر كيف فتح مصعب بن عمير المدينة، لقد فتحها بالقرآن الكريم.

وفى مرة أخرى يستمع النبى ﷺ إلى صاحب الصوت الندى الملائكى أبى موسى الأشعرى، وهو يرتل الآيات، ويثْبُتُ النبى ﷺ فى مكانه، ويستمع إلى هذا الصوت العذب وهو يشدو بالآيات، فلما انتهى أبو موسى من القراءة أخبره بعض الصحابة بما كان من رسول الله ﷺ من استماعه لتلاوته واستحسانه لها، حتى إنه ﷺ قال عنه : «لقد أوتى مزماراً من مزامير داود»(١).

فقال أبو موسى : والله لو علمت أنه ﷺ يسمعنى لحبرته له تحبيراً.. أى لزدت فى تحسين تلاوتى وتجويدها. وكان النبى ﷺ يتلقى الآيات، ويستمع إليها ويعلمها، ويُرغِّب فى ذلك، فقال ﷺ :

«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(٢).

ومن ذلك أنه كان يجمع الأمة على القرآن.. ومنه ما كان من شأن القراءات القرآنية التى تراعى العادات النطقية فى لهجة كل قبيلة مثل الإمالة ونحوها. وكان ﷺ يقول:

«لقد أنزل القرآن على سبعة أحرف، فبأى حرف قرأت فقد أصبت»(٣).

---

(١) أخرجه النسائى (٢/١٨٠)   (٢) أخرجه البخارى (٦/٢٣٦).
(٣) أخرجه النسائى (الافتتاح ب/٢٦)، وأحمد (٢/٢٣٢، ٥/١١٤).

وأما عن تعليم أحكامه فكثير، ومن ذلك لما قرأت السيدة عائشة – رضى الله عنها – قول الله تعالى :

﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون/ ٦٠]. قالت : يا رسول الله هل هو الرجل يزنى ويسرق ويفعل المعاصى، ويخاف إذا رجع إلى ربه أن يعاقبه الله عليها ؟

فصحح النبى وأرشد إلى الصواب، فقال ﷺ : «لا يا عائشة ، إنما هو الرجل يصوم ويصلى ويفعل الخيرات ويخاف إذا رجع إلى ربه ألأ يتقبل الله منه ذلك، يا عائشة ﴿أُوْلَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾»(١) [المؤمنون/ ٦١].

وهكذا كان النبى ﷺ مع القرآن، حتى صار ﷺ قرآنًا يمشى على الأرض، فكل حاله تطبيق عملى لآيات القرآن.

---

(١) سبق تخريجه.

٢٦١ - من رحمة النبى ﷺ

جاء أعرابى إلى رسول الله ﷺ فقال :

إنكم تُقَبِّلون الصبيان وما تُقَبِّلهم !

فقال رسول الله ﷺ :

أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟!

(*) أخرجه البخارى (٨ / ٩) .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء/١٠٧]. فهو ﷺ رسول الرحمة الذى أرسله الله تعالى رحمة لجميع العالمين، رحمة للمؤمنين ورحمة للكافرين ورحمة للمنافقين، ورحمة لجميع بنى الإنسان الرجال والنساء والصبيان، ورحمة للطير والحيوان، فهو رحمة عامة لجميع خلق الله تعالى، وأما الشفقة والرأفة والرحمة بالمؤمنين فقد قال تعالى فيه : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة/١٢٨]. قال بعضهم : من فضله ﷺ أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وهذا أعرابى جاء إلى النبى ﷺ يطلب منه شيئًا فأعطاه، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابى: لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم النبى ﷺ أن كفوا ثم قام ودخل منزله وأرسل ﷺ إليه شيئًا ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال له النبى : إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى صدورهم عليك ، قال : نعم، فلما كان الغد أو العشى جاء فقال ﷺ : إن هذا الإعرابى قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى، أكذلك؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال النبى ﷺ : مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفوراً فناداهم صاحبها: خَلُّوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار[١].

وروى عنه أنه ﷺ قال: «لا يُبْلغَنِّى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئًا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[٢].

(١) شفا ١/٢٥٣. (٢) رواه البيهقى (٨/١٦٦، ١٦٧).

ومن شفقته ﷺ على أمته تخفيفه وتسهيله عليهم كراهته أشياء مخافة أن تفرض عليهم، كقوله ﷺ: «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك مع كل وضوء»(١). وخبر صلاة الليل، ونهيهم عن الوصال، وكراهته دخول الكعبة لئلا نتعنت أمته، ورغبته لربه أن يجعل سبه ولعنه لهم رحمة بهم، وأنه كان يسمع بكاء الصبى فيتجوَّز فى صلاته.

ومن شفقته ﷺ أن دعا ربه وعاهده، فقال: «أيما رجل سببته أو لعنته فاجعل ذلك له زكاة ورحمة وصلاة وطهوراً وقربة تقربه بها إليك يوم القيامة»(٢). ولما كذبه قومه أتاه جبريل – عليه الصلاة والسلام – فقال له: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. فناداه ملك الجبال وسلّم عليه وقال: مرنى بما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبى ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا»(٣).

وروي ابن المنكدر أن جبريل – عليه السلام – قال للنبى ﷺ: إن الله تعالى أمر السماء والأرض والجبال أن تطيعك. فقال: أؤخر عن أمتى لعل الله أن يتوب عليهم. فقالت عائشة – رضى الله عنها: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما(٤). وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا.

وعن عائشة أنها ركبت بعيراً وفيه صعوبة فجعلت تردده، فقال رسول الله ﷺ: «عليك بالرفق»(٥).

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٥، ٣/٤٠). (٢) الشفا (١/٢٥٤).
(٣) سبق تخريجه. (٤) سبق تخريجه.
(٥) أخرجه البخارى (٨/١٥، ١٠٦)، وأخرجه مسلم فر البر والصلة (٧٩).

ومن رحمته ﷺ العامة رحمته للمنافقين بالأمان من القتل والسبى نظرًا لظاهر إسلامهم فى الدنيا.

ومن رحمته ﷺ العامة للكفار بدفع عذاب الاستئصال عنهم فى الدنيا، وذلك أن الأمم السابقة كانت إذا أرسل الله تعالى فيهم رسولاً فكذَّبوا وكفروا به جاءهم العذاب فعمّهم، كما قص الله تعالى من أخبار قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم كيف أحاط بهم العذاب وحاق بهم ما كانوا يستهزئون.

وأما كفّار هذه الأمة المحمدية فقد رفع الله عنه العذاب العام الذى يستأصلهم كما استأصل وعمّ الكفار من الأمم السابقة، وذلك تكرمة لهذا الرسول الكريم ﷺ الذى أرسله الله تعالى رحمة للعالمين.

وأما عن رحمته ﷺ بالأهل والعيال فقد روى مسلم فى صحيحه عن عمرو ابن سعيد عن أنس رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ. قال: كان إبراهيم مسترضعًا له فى عوالى المدينة، فكان ينطلق ونحن معه فيدخل البيت وإنه ليدخن – أى يعلو منه الدخان – وكان ظئره قينا، فيأخذه – أى فيأخذ النبى ﷺ ابنه إبراهيم المسترضع – فيقبله ثم يرجع. قال عمرو: فلما توفى إبراهيم قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم ابنى وإنه مات فى الثدى – أى فى سن رضاع الثدى – وإن له لظئرين – أى مرضعتين – تكملان رضاعه فى الجنة»[1] أى تتمان له رضاع سنتين، فإنه توفى وله ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا.

ومن رحمته بأهله ﷺ أنه كان يعاونهم فى الأمور المنزلية، فقد جاء أن الأسود قال: سألت عائشة – رضى الله عنها –: ما كان النبى ﷺ يصنع فى أهله؟ فقالت: كان فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة[2].

---

(١) أخرجه مسلم فى الفضائل (٦٣)، وأحمد (٣/ ١١٢).

(٢) أخرجه البخارى (٨/ ١٧)، وأحمد (٦/ ٤٩).

فما كان ﷺ من جبابرة الرجال، بل كثيراً ما كان يخدم نفسه بنفسه ﷺ فعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: كان النبى ﷺ يخيط ثوبه، ويخصف نعله ويعمل ما يعمل الرجال فى بيوتهم(١).

وأما عن رحمته بالصبيان واليتيم والأرملة والمريض وغيرهم فقد روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «إنى لأدخل فى الصلاة أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبى فأتجوز فى صلاتى مما أعلم من شدة وجد أمه»(٢).

ومن رحمته ﷺ بالصبيان: إنه كان يمسح رؤوسهم ويقبلهم كما جاء فى الصحيحين عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قبل رسول الله ﷺ الحسن والحسين ابنى على وعنده الأقرع بن حابس التميمى فقال الأقرع: إن لى عشرة من الولد ما قبلت أحداً قط! فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرْحَمُ لا يُرْحَم»(٣).

عن البراء رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ والحسن على عاتقه يقول ﷺ: «اللهم إنى أحبه فأحبه»(٤).

عن أنس رضي الله عنه قال: سُئل النبى ﷺ: أى أهل بيتك أحب إليك؟ قال: «الحسن والحسين» وكان يقول لفاطمة عليها السلام: «ادعى لى ابنى» ويضمّهما إليه رضى الله عنهما(٥).

ومن رحمته بالصبيان وحبه لإدخال السرور عليهم: أنه ﷺ كان إذا أتى بأول ما يدرك من الفاكهة يعطيه لمن يكون فى المجلس من الصبيان، كما روى

---

(١) أخرجه أحمد (٦/١٢١، ٢٦٠). (٢) أخرجه البيهقى (٢/٣٩٣).
(٣) أخرجه البخارى (٨/٩، ١٢)، ومسلم الفضائل (٦٥).
(٤) أخرجه البخارى (٥/٣٣، ٧/٢٠٥)، ومسلم (١٨٨٢).
(٥) أخرجه الترمذى (٣٧٧٢).

الطبرانى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن النبى ﷺ كان إذا أتى بباكورة الثمرة – أى أولها – وضعها على عينيه ثم على شفتيه، وقال: «اللهم كما أريتنا أوله فأرنا آخره» ثم يعطيه من يكون عنده من الصبيان[١].

ومن رحمته ﷺ بكاؤه لفراق ولده إبراهيم رضي الله عنه، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على ابنه إبراهيم رضي الله عنه وهو يجود بنفسه – أى فى حالة الاحتضار – فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله! فقال ﷺ : «يا ابن عوف إنها الرحمة»، ثم أتبعها بأخرى فقال: «العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[٢].

وعن أسامة بن زيد – رضى الله عنهما – أن رسول الله ﷺ رفع إليه ابن ابنته وهو فى الموت، ففاضت عينا رسول الله ﷺ فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله ! قال: هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء[٣].

ومن رحمته أنه كان ﷺ لا يأنف أن يمشى مع الأرامل والمساكين فيقضى حاجاتهم. وكان يأتى ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم، وكان يحسن إلى اليتامى ويبرّهم ويوصى بكفالتهم والإحسان إليهم ويبين الفضائل المترتبة على ذلك بقوله ﷺ : «أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا – وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما– وإن خير بيت فى المسلمين البيت الذى فيه يتيم يحسن إليه[٤].

---

(١) رواه ابن السنى عن أبى هريرة وقال الحافظ الهيثمى: رواه الطبرانى فى الكبير والصغير ورجال الصغير رجال الصحيح.
(٢) رواه البخارى (٢/ ١٠٥).
(٣) رواه البخارى (٢/ ١٠٠، ٧/ ١٥٢، ٨/ ١٦٧)، ومسلم فى الجنائز (١١).
(٤) رواه البخارى (٧/ ٦٨، ٨/ ١٠)، وأبو داود (٥١٥٠)

ومن رحمته ﷺ أنه كان إذا رأى أحد أصحابه فى حالة شدة وبأس يحزن لأجل ذلك حزنًا شديداً ويرق قلبه ويبكى متأثراً من ذلك الموقف، فقد قَبَّل عثمان بن مظعون وهو ميت وهو ﷺ يبكى حتى قالت عائشة : فرأيت دموع النبى ﷺ تسيل على خد عثمان . وفى رواية أنه قبل بين عينيه ثم بكى طويلاً[١] .

وأما عن رحمته بالحيوان فقد كان ﷺ يوصى بالرحمة بالحيوان وينهى صاحبه أن يجيعه أو يدئبه ويتعبه بإدامة الحمل عليه أو إثقاله بما فيه نوع من التعذيب له .

وقد مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه – أى ضمر من شدة الجوع– فقال ﷺ : « اتقوا الله فى هذه البهائم فاركبوها صالحة وكلوها صالحة »[٢] .

ودخل يومًا بستانًا لرجل من الأنصار فإذا فيه جمل، فلما رأى النبى ﷺ حن – الجمل – وذرفت عيناه، فأتاه رسول الله ﷺ فمسح ذفراه – موضع الأذنين من مؤخر الرأس – فسكن الجمل، فقال ﷺ : « من رب – أى صاحب – هذا الجمل ؟ » فجاء فتى من الأنصار، فقال له ﷺ : « أفلا تتقى الله فى هذه البهيمة التى ملكك الله إياها ؟! فإنه شكا إلىَّ إنك تجيعه وتدئبه »[٣] أى تتعبه من كثرة العمل عليه واستعماله فوق طاقته .

وكان ﷺ ينهى عن إرهاق الحيوان بإيقافه وإطالة الجلوس عليه من غير ضرورة إلى ذلك، وقد دخل على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال : « اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق

(١) شرح السنة للبغوى (٥ / ٣٠٢) .
(٢) رواه أبو داود (٢٥٤٨) وابن خزيمة فى صحيحه(٢٥٤٥) .
(٣) رواه أبو داود (٢٥٤٩)، وفى الترغيب (٣ / ٢٠٦) .

والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكرًا لله منه »[١].

ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: « نقيقها تسبيح »[٢].

وقال ﷺ: « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض »[٣].

ونهى عن التحريش بين البهائم[٤] وذلك بتسليط بعضها على بعض بالأذى وتهييجها بالإفساد.

وكان رسول الله ﷺ يحذر من أن يفجع الإنسان الطيور بأولادها، ولما أخذ بعضهم فرخى حمرة – وهى طائر صغير – وجاءت منزعجة، قال: « من فجع هذه بولديها؟ » ردوا ولديها إليها »[٥] ورأى قرية نحل – أى مجتمع نحل – قد حرقها بعضهم فقال: « من حرق هذه ؟ قالوا : نحن، قال: إنه لا ينبغى أن يعذب بالنار إلا رب النار »[٦].

كما ورد أنه ﷺ حذر من قتل الطير عبثًا لا لمنفعة أكل ونحوه بقوله: « من قتل عصفوراً عج إلى الله يو م القيامة، يقول: يا رب إن فلانًا قتلنى عبثًا ولم يقتلنى منفعة »[٧] .

وكما أنه ﷺ أوصى بالرفق فى ذبح الحيوان والإحسان إليه فى ذلك وقال لمن أضجع شاة وهو يحد شفرته : « أتريد أن تميتها موتتين ؟ هلا حددت شفرتك قبل أن تضجعها »[٨] .

كما أنه ﷺ حذّر من اتخاذ الحيوان وكل ذى روح غرضًا[٩]. أى هدفًا للرمى.

---

(١) رواه أحمد (٣ / ٤٣٩، ٤٤٠).
(٢) مجمع الزوائد (٤ / ٤١)، منثور (٤ / ١٨٤).
(٣) رواه البخارى (٤ / ١٥٧)، ومسلم فى البر والصلة (ب٣٧ رقم ١٣٥).
(٤) رواه أبو داود (٢٥٦٢)، والترمذى (١٧٠٨، ١٧٠٩).
(٥) رواه أبو داود (٢٦٧٥)، كنز العاملين (٤٣٧٣٦).
(٦) رواه أبو داود (الجهاد ب / ١٢١، والأدب ب / ١٧٧).
(٧) رواه النسائى (٧ / ٢٣٩)، الطبرانى (٧ / ٢٣٩).
(٨) رواه الحاكم (٤ / ٢٣١، ٢٣٣)، الطبرانى (١١ / ١٣٣).
(٩) رواه مسلم (١٥٤٩)، والنسائى (٧ / ٢٣٨، ٢٣٩).

٢٦٢ - من جود النبى ﷺ

مَرَّ صفوان بن أمية بشِعْب مملوء إبلاً وغنمًا فأعجبه، فجعل ينظر إليه، فقال النبى ﷺ له:

أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب ؟

قال صفوان : نعم يا رسول الله.

فقال النبى ﷺ : هو لك بما فيه.

فقال صفوان : أشهد أنك رسول الله، ما طابت بهذا نفس أحد قط إلا نفس نبى.

ثم رجع صفوان إلى قومه فقال:

يا قومى أسلموا، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخاف الفقر.

(*) أخرجه النسائى فى البيوع (ب ٧٧)، أخرجه أحمد (٣/٣٠٣).

صلى الله وسلم وبارك على من فاضت يده بالجود والكرم، وصلى الله وسلم على من آتاه الله الحكمة فى مداواة النفوس، فلكل نفس مدخل من حيث تحب وترغب النفس، فبعض الناس يأتى طائعًا بالعطاء كما رأينا من صفوان، الموقف، وبعض الناس يأتى طائعًا بإظهار قدره ومكانته، لحبه للفخر، كما فى أبى سفيان، فقال النبى ﷺ ساعة فتح مكة : «ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[(١)].

وعطاء النبى ﷺ كان ثقة فى ربه بأن يخلف ما هو خير، قال تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ/٣٩].

كما كان ينفق ﷺ أفضل ما عنده، لقوله تعالى : ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران/٩٢]. وكان إنفاقه ﷺ من أجل الدعوة إلى الله تعالى وليس من أجل تحقيق شهرة بين الناس أو رغبة فى ثنائهم، بل كان عطاؤه لله تعالى.

والمواقف الدالة على جوده وكرمه ﷺ كثيرة ومشهورة، لقد بلغ به ﷺ الكرم أنه كان يستحى أن يرد سائله خالى اليدين معتذرًا بالفاقة. جاءه رجل فسأله فقال : ما عندى شيء، ولكن ابتَعْ عَلَيَّ فإذا جاءنا شيء قضيته، فقال عمر : يا رسول الله، قد أعطيته فما كلفك الله ما لا تقدر. فكره ﷺ قول عمر فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله أنفق ولا تخف من ذى العرش إقلالاً، فتبسم رسول الله ﷺ وعرف من وجهه البشر بقول الأنصارى، ثم قال ﷺ : «بهذا أمرت»[(٢)].

عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية أنه قال : لقد أعطانى رسول الله ﷺ ما أعطانى وإنه لأبغض الناس إلىَّ، فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلىَّ.

(١) أخرجه مسلم فى الجهاد (ب/ ٣١، ٨٤، ٨٦)، وأبو داود (الخراج ب٢٥).

(٢) الشفا للقاضى عياض (١/ ٢٣٣)، إتحاف السادة المتقين للزبيدى (١/ ٢٣٤).

روى الترمذى أن النبى ﷺ حُمل إليه تسعون ألف درهم ووضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

وعن أبى سعيد رضي الله عنه قال: سأل ناس من الأنصار رسول الله ﷺ فأعطاهم ما سألوه، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه، ثم سألوه فأعطاهم ما سألوه حتى إذا نفد ما عنده قال: ما يكون عندى فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يُعفُّه الله، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أُعْطِىَ أحد عطاءً هو خير له وأوسع من الصبر» (١).

وعن عائشة - رضى الله عنها - قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ يكل صدقته إلى غير نفسه حتى يكون هو الذى يضعها فى يد السائل(٢).

وعن أبى ربيعة قال: خصلتان كان لا يكلهما رسول الله ﷺ لأحد: الوضوء من الليل حين يقوم، والسائل يقوم ﷺ فيعطيه بنفسه(٣).

عن عبد الله الهوزنى قال: لقيت بلالاً فقلت: يا بلال حدثنى كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟ قال: ما كان له شيء، وكنت أنا الذى ألى ذلك منه - أى أنا المتولى أمر ماله ﷺ - منذ بعثه الله تعالى حتى توفى، وكان عليه السلام إذا أتاه الإنسان مسلمًا فرآه عاريًا يأمرنى فأنطلق أستقرض فأشترى له البردة فأكسوه وأطعمه(٤). وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما - قال: كان رسول الله ﷺ أجود الناس، وكان أجود ما يكون فى رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة(٥).

---

(١) رواه البخارى (٢ / ١٥١)، ومسلم فى الزكاة (١٢٤).
(٢) رواه ابن ماجه (ج٢/٩٦). (٣) طبقات ابن سعد (٤ / ٣٢)
(٤) سنن أبى داود فى الخراج (ب/٣٥)
(٥) أخرجه البخارى (١/٥، ٣/٣٣)، ومسلم فى الفضائل (٤٨، ٥٠).

٢٦٣ - حبيبى يا رسول الله

دخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فوجده نائمًا على الحصير ورأى أثر الحصير فى جنبه الشريف ﷺ .

فقال له :

يا رسول الله ، ألا نبسط تحتك ألين منه ؟

فقال ﷺ :

مالى والدنيا ، إنما مثلى ومثل الدنيا مثل راكب سار فى يوم صائف ، فقال (من القيلولة) تحت شجرة ثم راح وتركها .

(*) أخرجه البخارى (٣ / ٢١٣) .

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا حبيبى يا رسول الله، كنت أزهد الناس، وكان فقرك فقرًا اختياراً وليس فقرًا اضطراريًا، لأنك كنت تنفق كل ما يأتى لك من مال، وكنت تكره أن يبيت فى بيتك شيء من مال الدنيا . فتحت عليك الفتوح وانهمرت بين يديك الأموال، وأنت يا سيدى يا حبيبى يا رسول الله معرض عن الدنيا كل الإعراض.

وقد عرض الله عليك بطحاء مكة ذهبًا فقلت : لا يا رب، ولكن أجوع يومًا وأشبع يومًا، فإذا شبعت حمدتك وشكرتك، وإذا جعت تضرعت إليك ودعوتك(١) .

وكان ﷺ يقنع باليسير من الدنيا ويقول : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا(٢) .

وكان ﷺ لا يدخر شيئًا لنفسه، وما جاء أنه ادخر فهو إنما كان لأهله، وما شبع ﷺ وأهله ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا(٣) .

وما أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه الله إلى أن قبض(٤) .

وكان يمر به الشهر والشهران وما يوقد فى بيته نار، إنما هو التمر والماء(٥) وجاءته فاطمة بكسرة خبز فقال : ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ قالت : قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى آتيك بهذه الكسرة، فقال : أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام(٦) .

وقد قبض ﷺ ودرعه مرهونة عند رجل يهودى على ثلاثين صاعًا من شعير أخذها رزقًا لعياله(٧) .

---

(١) أخلاق النبوة (٢٦٧) . (٢) أخرجه مسلم (٧٣٠، ٢٢٨١)
(٣) رواه الترمذى (٢٣٥٧، ٢٣٥٨) .
(٤) مسند أحمد ، مسند الأنصار (٢٣٢٨٥) (٥) رواه أحمد (٦ / ٧١، ٨٦) .
(٦) رواه الطبرانى (١ / ٢٣٢)، وطبقات ابن سعد (١ : ٢ : ١١٤) . (٧) سبق تخريجه .

يقول جابر : مكث رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يحفرون الخندق ثلاثًا لم يذوقوا طعامًا، قالوا : يا رسول الله، إن ههنا كدية من الجبل (أى صخرة كبيرة)، فقال رسول الله ﷺ : رشوها بالماء، وفى الحديث قال جابر : فحانت منى التفاتة، فإذا رسول الله ﷺ قد شد على بطنه حجرًا (١) .

وتقول السيدة عائشة : خرج رسول الله ﷺ ولم يملأ بطنه فى يوم من طعامين. كان إذا شبع من التمر لم يشبع من الشعير، وإذا شبع من الشعير لم يشبع من التمر(٢) .

ويقول عتبة بن غزوان : لقد رأيتنى وإنى لسابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق السمر حتى تقرحت أشداقنا(٣) .

وتقول السيدة عائشة : لقد مات رسول الله ﷺ وما شبع من خبز وزيت فى يوم واحد مرتين(٤) .

ويقول أنس : ما أعلم أن رسول الله ﷺ رأى رغيفًا مرققًا حتى لحق بالله عز وجل ولا رأى شاة سميطًا بعينه حتى لحق بالله عز وجل.

والرغيف المرقق الملين، والسميط هو الذى أزيل شعره بالماء الساخن وشوى بجلده.

---

(١) أخرجه أحمد (٣ / ٣٠٠).
(٢) الشمائل المحمدية للترمذى : (٦٧).
(٣) السمر هو شجر عظيم له شوك، والحديث رواه مسلم فى الزهد والرقائق (٥٢٦٩).
(٤) رواه مسلم فى الزهد والرقائق (٥٢٨٣).

٢٦٤ - عليكم بالسكينة

بينما نحن نصلى مع النبى ﷺ إذ سمع جلبة الرجال، فلما صلى قال ﷺ :

ما شأنكم ؟ قالوا :

استعجلنا إلى الصلاة.

قال ﷺ :

فلا تفعلوا، إذا أتيتم إلى الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا.

(١) الموقف ورد فى حديث أخرجه البخارى فى كتاب الأذان، باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة.

هذا موقف نبوى كريم، يظهر فيه :

أولاً : حرص الصحابة – رضى الله عنهم – على حضور الصلاة فى المسجد خلف رسول الله ﷺ، وكان بعضهم يخشى أن تفوته صلاة الجماعة خلف رسول الله ﷺ، وكان بعضهم يخشى أن تفوته صلاة الجماعة خلف رسول الله ﷺ فيأتون مهرولين، ويحث بعضهم بعضاً على الإسراع خشية أن تفوتهم صلاة الجماعة، ونتج عن ذلك شيء يسير من الضوضاء بالمسجد وقت الصلاة، فنهاهم النبى ﷺ عن ذلك حتى لا يفوتهم الخشوع والطمأنينة فى الصلاة. ويسَّر النبى ﷺ لهم الأمر بقوله : «فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا».

أيضاً يظهر من توجيه النبى ﷺ الحكمة فى معالجة السلوكيات، حيث لم يُعَنِّفْ ﷺ أحداً من أصحابه – رضى الله عنهم – وإنما وَجَّه إليهم النصح النافع، واختار لهم ﷺ الأيسر والأفضل.

كما بَيَّن ﷺ أن السعى إلى الصلاة ينبغى أن تصاحبه السكينة بما تشتمل عليه دلالة الكلمة من الطمأنينة والخشوع، وفى هذا تعظيم لهذه البقاع الطاهرة التى أذن الله أن ترفع، فتنزه عن الضوضاء وكل ما لا يليق بقدسيتها.

أيضاً فى السعى بالخشوع والطمأنينة تعظيم لأمر الصلاة، فإن المتوجه لها، متوجه إلى ربه، ليقف بين يديه، وجلال عظمة الله فى قلب المؤمن تحمله على الخشوع والخضوع لله تعالى.

وتعالى الله رب العالمين القائل فى قرآنه : ﴿ **وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾ [الحج/ ٣٢].

أيضاً من فقه هذا الموقف أن يحافظ المؤمن إذا دخل المسجد على الهدوء كى لا يشغل غيره معه، وبخاصة إذا كان هذا الغير يصلى أو يقرأ، ومن هنا كان النهى عن رفع الصوت فى المسجد حتى ولو كان من يرفع صوته يقرأ القرآن،

فضلاً عن أنه أدب عظيم يثاب عليه المؤمن عند الله تعالى.

فأنعم بالمبادرة والمسارعة إلى المساجد قبل الأذان لينتظر المسلم الصلاة، عملاً بقول النبى ﷺ : «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟».

قالوا : بلى يا رسول الله.

فقال ﷺ : «إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط» (١).

ومن عجيب ما يحكى فى فضل المبادرة والمسارعة إلى المسجد من أجل الصلاة أن أخوين قد ماتا فى يوم واحد، فحفر الحفار لهما قبرين ودفن كل واحد منهما فى قبره. فلما نام الحفار رأى فى منامه هذين الرجلين على هيئة غاية فى الحسن.

رأى الأول قد جاءه الحور والولدان فأركبوه مركبة خضراء وزفوه إلى الجنة.

ورأى الثانى قد جاءه الحور والولدان فزفوه ماشياً.

فلما أصبح ذهب إلى أمهما فقال بعد أن عزاها فيهما : جئت أسألك عن ولديك هذين ماذا كان حالهما ؟ فبادرته المرأة بقولها : أجئت تسألنى عن الراكب أم عن الماشى؟!

فتعجب الحفار من قولها وقال: ذرية بعضها من بعض، ثم قال: جئت أسألك عن الراكب والماشى.

قالت : فأما الراكب فكان يأتى إلى المسجد قبل الأذان.

وأما الماشى فكان يأتى إلى المسجد بعد الأذان.

---

(١) أخرجه مسلم فى الطهارة (٤١)، والترمذى (٥١).

٢٦٥- كرامة المؤمن

أتى مالك بن عوف النبى ﷺ فى ثوب دون، فقال له النبى ﷺ :

ألك مال ؟

فقال مالك بن عوف : نعم.

فقال له النبى ﷺ : من أى المال ؟

فقال مالك بن عوف : قد آتانى الله من الإبل والغنم والخيل والرقيق.

فقال له النبى ﷺ :

فإذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته.

(*) سنن أبى داود، فى كتاب اللباس، حديث رقم (٤٠٦٣).

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، يا سيد الحكماء، يا صاحب القلب الودود الرؤوف بأمتك. دخل عليك رجل من أصحابك، فى هيئة يظهر منها أمارات الاحتياج والفقر، وكأنى بك يا حبيبى يا رسول الله وأنت تسأله عن ذمته المالية، لتقف على حقيقة أمره، فلعل مظهره كان يبدى الفقر، لكن قلبك يستشعر شيئًا آخر، فسألته كى تتأكد من حاله، فإن كان فقيراً أعطيته وسترته، وإن كان غنيًّا أرشدته وهديته، وفى كل خير.

فقال الرجل : نعم يا رسول الله عندى مال، وهى إجابة غير كافية لتحقيق ما يريد أن يتأكد منه رسول الله ﷺ فسأله سؤالاً محدداً : من أى المال ؟

فأبدى الرجل أنه فى نعمة وأن لديه مالاً وفيراً من الإبل والغنم والخيل والرقيق. فاستحق الرجل بعد هذه الإجابة التوجيه الحكيم المقنع من سيدنا رسول الله ﷺ حيث قال له :

« فإذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته ».

هذا هو هدى القرآن لأمة الحبيب ﷺ، قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ [المائدة/٨٧ - ٨٨].

وقال عز وجل : ﴿ **يَا بَنِى آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف/٣١ - ٣٢].

وكما نهى ربنا عن الإسراف فقد نهى عن الشح والبخل، وإنما هو التوازن، قال تعالى فى صفة عباد الرحمن : ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا** ﴾ [الفرقان/٦٧].

وهذا الموقف هدى كريم من سيدنا رسول الله ﷺ للذين يملكون الأموال ويبخلون على أنفسهم وأولادهم، يحرمون أنفسهم من المتع الحلال فى المأكل والمشرب والملبس والسكنى، ويظهرون أمام الناس بمظهر المحتاج الذى يسأل الناس.

أولى ثم أولى بهؤلاء أن يتبعوا هدى الحبيب المصطفى ﷺ حيث أمرنا أن يظهر المسلم بالمظهر اللائق لسنه وعلمه وعمله، كى يكون ظاهر المسلم كباطنه عزة وكرامة.

والحمد لله رب العالمين

٢٦٦ - خير الصدقة

عن جابر عبد الله الأنصارى قال :

كنا عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجلٌ بمثل بيضة من ذهب ، فقال : يا رسول الله ، أصبتُ هذه من معدنٍ فخذها فهى صدقة ، ما أملك غيرها .

فأعرض عنه رسول الله ﷺ ثم أتاه من قِبَلِ ركنه الأيمن فقال مثل ذلك ، فأعرض عنه ، ثم أتاه من قِبَلِ ركنه الأيسر فأعرض عنه ، ثم أتاه من خلفه فأخذها رسول الله ﷺ فخذفه [أى رماه] بها فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته .

فقال ﷺ :

«يأتى أحدكم بما يملك فيقول : هذه صدقة ، ثم يقعد يستكفُّ الناس ؟ خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى» .

(*) سنن أبى داود ، كتاب الزكاة (١٦٧٣) ، والبيهقى (٤ / ١٥٤) .

هذا موقف يثير في الذهن تساؤلات عديدة، يأتي في قمتها المقارنة بين هذا الموقف وموقف أبي بكر الصديق ﷺ حين أتى بكل ماله ووضعه بين يدي النبي ﷺ صدقة، وسأله النبي ﷺ : «ماذا أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟». فقال أبو بكر: أبقيت لهم الله ورسوله. وقَبِل النبي ﷺ صدقة أبي بكر ﷺ، لكنه ﷺ هنا لم يقبل من الرجل بيضة الذهب التي لا يملك سواها.

والحق أن رسول الله ﷺ يعامل كل إنسان بحسب ظروفه وأحواله، وكما كان ﷺ يجيب عن السؤال الواحد بأكثر من إجابة بحسب السائل وظروفه وأحواله، فإنه ﷺ كذلك يعامل كل إنسان بحسب حاله، لقد علم النبي ﷺ أن الرجل ليس له من أسباب تحصيل المال ما يكفيه، وأنه سيقع في حرج ومشقة ، مما قد يضطره إلى سؤال الناس، ثم وضح النبي ﷺ سبب الرفض بشكل مقنع، فقال ﷺ : «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى».

يضاف إلى هذا أن أبا بكر ﷺ كان صاحب خصوصية لعظم الإيمان في قلبه.

وفي هذا درس للدعاة وأهل التربية أن يأخذوا في الحسبان التباين بين الناس في قدرتهم على احتمال الشدائد. وأن يكون التكليف في حدود طاقاتهم، وهذه قاعدة قرآنية كما أنها هدى نبوي كريم.

قال الله تعالى :

﴿ **لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة/٢٨٦].

ومن دروس هذا الموقف أيضًا أن بعض الناس ليست له حيلة في تعويض ماله، فمصادره محدودة، وليس له سبيل دائم لتحصيل المال، ومثل هذا إذا أخذنا ما معه لتفريج كربة أحد إخوانه، فإنما نكون عالجنا مشكلة وتسببنا في مشكلة أخرى .. وليس هذا من الحكمة، وهذا شاهد قوي على مرونة تعاليم الإسلام ليجد فيها كل إنسان بحسب ظروفه وأحواله متسعًا لفعل الخير.

٢٦٧ - هيا إلى الجنة

عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال :

«من أصبح منكم صائمًا ؟ »

قال أبو بكر : أنا .

قال ﷺ : «من تبع منكم اليوم جنازة ؟ »

قال أبو بكر : أنا .

● قال ﷺ : «فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا ؟»

قال أبو بكر : أنا .

قال ﷺ : «فمن عاد منكم اليوم مريضًا ؟»

قال أبو بكر : أنا .

قال رسول الله ﷺ : «ما اجتمعن فى امرئٍ إلا دخل الجنة» .

(※) أخرجه مسلم فى فضائل الصحابة (١٢)، وأحمد (٦/ ٣٥٩) .

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، تلفت انتباهنا إلى أهمية اغتنام فرص الخير، ومن رحمة الله أن جعل أبواب الخير متعددة، والسعيد الموفق من حاز من هذه الأبواب ما استطاع من الخير، فكيف بمن جاز هذه الأبواب، رضى الله عنك يا خليفة رسول الله وصاحبه فى الغار، ورفيقه وصدِّيقه يا سيدى يا أبا بكر.

والمتأمل فى هذا الموقف يرى بوضوح أن الحبيب ﷺ يهدينا إلى التعليم والدعوة والإرشاد عن طريق السؤال لإثارة الذهن ولفت الانتباه وتشويق المؤمن، وتوجيه همته إلى أبواب الخير، فقال الحبيب ﷺ :

من أصبح منكم صائمًا ؟ ويبادر سيدنا أبو بكر بالإجابة قائلاً : أنا.

ثم يسأل الحبيب المصطفى ﷺ : من تبع منكم اليوم جنازة ؟

ويبادر أبو بكر بالإجابة: أنا.

ويوالى الحبيب ﷺ أسئلة الخير فيقول : فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا ؟

ويبادر الصديق أبو بكر رضي الله عنه : أنا.

ويسأل الحبيب ﷺ سؤالاً آخر : فمن عاد منكم اليوم مريضًا ؟

والمبادرة أيضًا من أبى بكر : أنا يا رسول الله.

ثم يعلن النبى ﷺ النتيجة الباهرة الرائعة بهذا الامتحان العملى السريع والمفاجئ، إنها الفوز العظيم، قال الحبيب ﷺ : «ما اجتمعن فى امرئٍ إلا دخل الجنة».

ومن تجليات هذا الموقف أن النبى ﷺ يعلمنا أن نحوِّل الكلام إلى واقع وإلى سلوك وعمل.

اللهم بنور رسول الله ﷺ نوِّر قلوبنا وحَسِّن أعمالنا

ووفقنا لما تحب وترضى

٢٦٨ - حكمة أعرابى

قال الأصمعى :

قـرأت هذه الآية : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة/٣٨].

وكان إلى جانبى أعرابى، فقلت سهواً : والله غفور رحيم، فقال الأعرابى : كلا م من هذا ؟

قلت : كلام الله عز وجل.

قال : أعد . فأعدت : والله غفور رحيم.

فقال الأعرابى : ليس هذا كلام الله !

فتنبهت ، فقلت : والله عزيز حكيم.

فقال الأعرابى : أصبت ، هذا كلام الله عز وجل.

فقلت له : أتقرأ (أتحفظ) القرآن ؟

قال : لا ، قلت : فمن أين علمت أنى أخطأت ؟

فقال الأعرابى : يا هذا ، عَزَّ وحكم فقطع ، ولو غفر ورحم ما قطع.

(*) نهاية الأرب (٩/ ٤٥).

ما أحوجنا لتدبر هذا الموقف .. حيث يظهر لنا أهمية الفهم والتدبر وثمرة التأمل والإدراك. فلابد من الوعى لما نقرأ، وبخاصة إن كان الذى نقرأ هو القرآن الكريم وآيات الوحى المنزل على قلب الرسول الكريم ﷺ.

ولقد أكد القرآن هذا المعنى، قال الله تعالى: ﴿ **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء/٨٢].

كما وصف الله أهل الإيمان بأنهم إذا استمعوا الآيات كان منهم الخشوع لله تعالى، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ [الأنفال/٨].

ويبين أن أهل العلم هم أكثر الناس خشية، قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [فاطر/٢٨].

وأثنى على العلماء بقوله: ﴿ **وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت/٤٣].

ومن هنا تأتى أهمية الفهم والتدبر على الحفظ.

والموقف الذى بين أيدينا نص فى هذا المعنى، لذلك لما قرأ الأصمعى الآية، وقال سهواً: والله غفور رحيم، قال الأعرابى: كلام من هذا ؟ فقال للأصمعى: أعد.

فأعاد الأصمعى القراءة: والله غفور رحيم. فقال الأعرابى: ليس هذا كلام الله !

فانتبه الأصمعى لسهوه، وصحح قائلاً: ﴿ **وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ فقال الأعرابى: أصبت، هذا كلام الله عز وجل.

فأحب الأصمعى أن يتأكد من علم الرجل، فسأله: أتحفظ القرآن ؟!

فقال الأعرابى: يا هذا، عزَّ وحكم فقطع، ولو غفر ورحم ما قطع.

٢٦٩ - فكُنْ أنت

كان الحسن البصرى يسير فى جنازة، فقال لمن يسير بجواره :

تُرى لو سُئل هذا الميت ماذا تتمنى ؟ فماذا يقول؟!!

قال الرجل :

يتمنى أن يعود إلى الدنيا فيعمل خيراً مما عمل.

فقال الحسن البصرى :

إن لم يكن هو فكن أنت.

(*) تفسير الحسن البصرى (٢/ ١٥٠).

أى رجـال هؤلاء ؟! . . إنه الإيمـان الذى صنع هذه القلوب وصـاغ هذه العقول بهذا الفكر الإيمانى، الذى يتخذ من كل حوادث الحياة عظة وعبرة.

وهكذا صنع هذا العالم الناصح بصاحبه وسأله أسئلة المواعظ والعبر، حيث يلفت انتباهه إلى أن الفرصة التى انتهت بالنسبة إلى هذا الميت، فإنها ما زالت متاحة بين يديك ما دمت حيًا فاغتنمها . . ويظهر هذا من قوله :

إن لم يكن هو فكن أنت.

وهذا شأن الصالحين، وشبيه بهذا الموقف قول الرجل الصالح حين كان يُشيع جنازة أحد إخوانه، فبكى، وقال: عجبتُ لميت الغد يُشَيِّع ميت اليوم ! نعم فكلنا إلى هذه النهاية، والسعيد الموفق الذى يتهيأ لها بصالح الأعمال، فالكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت كما علمنا الحبيب المصطفى ﷺ .

نعم كلنا أموات . . . أكتب لك وأنا حى ميت وأنت تقرأ لى أو تستمع وأنت حى ميت، لكن الله عز وجل هو وحده الحى الذى لا يموت.

وقد وضَّح لنا رسول الله ﷺ أنه ما يتحسر أهل القبور على شىء من دنياهم قدر تحسرهم على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها.

إن موعظة الموت موعظة بليغة . . فهذا رجل يملأ الأسماع والعقول والقلوب، له مال وسلطان وبنون، كان يحادثنا ونحادثه، ويلاطفنا ونلاطفه، كان يتمنى وكنا نتمنى معه . . فجاء الموت وذهب الرجل كأننا لا نعرفه ولا يعرفنا.

يموت الإنسان ويموت معه طمعه وجشعه وسلطانه . . ولا يبقى إلا ما كان صالحًا خالصًا لله تعالى، والحبيب المصطفى ﷺ يؤكد هذا المعنى بقوله : «إذا

مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[١].

---

(١) سبق تخريجه.

٢٧٠ - لا يبغى إلا وجه الله

حينما حضرت خالد بن الوليد ﷺ الوفاة، سأله ولده:

من الذى ينفذ وصيتك يا أبى ؟

أجابه :

عمر بن الخطاب.

وعندما رأى الدهشة فى وجهه قال له :

لا تظن أنه عزل أباك عن ضغينة كلا.. عمر لا يبغى إلا وجه الله.

رضوان الله تعالى على صحابة سيدنا رسول الله ﷺ الذين رضعوا من لبان علمه، وتربوا على مائدة خلقه، فملأ الله قلوبهم إيمانًا وحكمة وتأدبوا بأدب نبيهم ﷺ وتخلّقوا بخلقه، فكانت أخلاقهم كأخلاق نبيهم المصطفى ﷺ.

كيف لا وقد أثنى عليهم القرآن؟ قال تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ [الفتح/٢٩].

وأوصى بهم رسول الله ﷺ حيث قال: «الله الله فى أصحابى»(١).

والموقف الذى بين أيدينا يهدى إلى قيم عالية وأخلاق سامية، يهدى إلى الحب فى الله وحسن الظن بالإخوان، مهما اختلفت الآراء ووجهات النظر، فاختلاف الآراء إنما يكون من أجل الوصول إلى الأفضل، من أجل فهم أدق ووعى أشمل .. إنه لله .. ولذلك كان الاختلاف بينهم لا يفسد وُدًّا.

لذلك رأينا سيدنا خالد بن الوليد لما حضرته الوفاة وأسند تنفيذ وصيته إلى سيدنا عمر بن الخطاب، ورأى سيدنا خالد الدهشة على ولده وفهم من ذلك أن ولده يتذكر أن سيدنا عمر رضي الله عنه عزل أباه، فقال سيدنا خالد لولده موضحًا الأمر:

لا تظن أنه عزل أباك عن ضغينة، كلا .. عمر لا يبغى إلا وجه الله تعالى.

ومن عبر الموقف أيضًا الاهتمام بالوصية، رعاية لحقوق العباد من جانب، ورعاية لحقوق الله تعالى من جانب آخر، وهذا السلوك من الهدى النبوى المبارك الذى دعا إليه رسول الله ﷺ بقوله: «لا يموتن أحدكم إلا وصية مكتوبة عند رأسه»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذى (٣٨٦٢)، وأحمد (٥/٥٤، ٥٧).
(٢) أخرجه أحمد (٢/٤)، وحلية الأولياء (٩/٢٣١).

ومن فوائد الموقف بشأن الوصية إسناد الوصية إلى من يستطيع القيام بها من الصالحين، لذلك أسند سيدنا خالد رضي الله عنه تنفيذ وصيته إلى سيدنا عمر رضي الله عنه.

ما أعظم الحياة فى رحاب الله تعالى ! إنها بحق الطمأنينة والسكينة والرضا، إنها جنة الله فى الأرض.

٢٧١ - من تواضع الرسول وشفقته ﷺ

لما كان فتح مكة أتى أبو بكر رضي الله عنه بأبيه أبي قحافة إلى النبي ﷺ يقوده لكبر سنه !!

فقال النبي ﷺ :

«لم لو تركت الشيخ حتى نأتيه !»

(*) الجامع الكبير (٢/٣٢٨).

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، تعلمنا كيف يكون توقير الكبار، وإجلال المخلصين، نعم، قلت للصديق، سيدنا أبى بكر رضي الله عنه: لم لو تركت الشيخ حتى نأتيه ؟ رحمة ورأفة وشفقة بالأب والد سيدنا أبى بكر رضي الله عنه، وإجلالاً لقدر سيدنا أبى بكر ولمواقفه العظيمة مع النبى ﷺ فى الدعوة إلى الله تعالى.

وصدق الله العظيم حين أثنى عليك يا صاحب الخلق العظيم، وأنت فى لحظات الفتح كنت رحيمًا عطوفًا، فسبحان من أرسلك رحمة للعالمين، ومدحك بقوله تعالى: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾ [القلم/ ٤].

امتلكت وانتصرت فما بطشت ولا انتقمت، ولما جاء إليك من عذبوا أصحابك وأخرجوك وألحقوا بك من الأذى ما كان .. عفوت عنهم وقلت لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء[١] .

إنها السماحة لرسول الإسلام ﷺ فى أسمى معانيها وأعظم مواقفها. لم يعنِّفْهم أو يوبخهم، بل فتح لهم أبواب الأمان، فقال رأفة بهم: «من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل داره فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن»[٢] .

ما أحوج البشرية إلى هديك يا رسول الله .. والأمن فيها مضطرب والكل حيادى يتخبطون فى طلب الأمن بعيداً عن هدى رسول السلام والإسلام.

---

(١) أخرجه البيهقى (٩/ ١١٨)
(٢) أخرجه البيهقى (٢/ ٢٩١).

٢٧٢ - من أحب إليك ؟!

اجتمع عليٌّ وجعفر وزيد بن حارثة، فقال كل منهم :

أنا أحبكم إلى رسول الله ﷺ .

ثم انطلقوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه : من أحب إليك ؟

فقال ﷺ : فاطمة.

قالوا : نسألك عن الرجال.

فقال النبى ﷺ :

أما أنت يا جعفر فأشبه خَلْقُك خَلْقى وإنك منى وشجرتى، وأما أنت يا على فأبو ولدى وأنا منك وأنت منى، وأما أنت يا زيد فمولاى ومنِّى وإلىَّ وأحب القوم إلى.

(*) أخرجه أحمد فى ذخائر العقبى، وذكره العلوى المالكى فى كتابه: محمد الإنسان الكامل، ص ٢٦٠.

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله ﷺ جاءك بعض أصحابك كلهم يتودد إليك، وقد تعلقت قلوبهم بك، فما كان منك إلا أن جبرت خاطرهم جميعًا. وأثنبت على كل واحد منهم بما تعلم فيه من خير وفضل.

وهذا من كمال خلقه ﷺ فى معاملة الناس، إنه يعلمنا فضيلة عظيمة، ألا وهى جبر الخاطر، وتطييب النفوس، لأن جبر الخاطر وتطييب النفس يبنى فى القلوب الحب والمودة، ويجعل بين الإخوان الألفة والمحبة، وأنعم بمجتمع تسوده العلاقات الودودة التى ينشأ عنها التراحم والتعاطف.

ويوافق هذا المعنى قوله ﷺ للأنصار: «لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار»[١].

ومعلوم أن مراده ﷺ من ذلك تأليف قلوبهم واستطابة نفوسهم وجبر خواطرهم.

وفى سياق المعنى نفسه يأتى قوله ﷺ للأنصار لما أعطى غيرهم عند فتح مكة وتركهم، فقال لهم ما جبر به خواطرهم، وأدخل السرور على قلوبهم، قال ﷺ:

«أو لا ترضون أن يرجع الناس بالغنائم إلى بيوتهم وترجعوا برسول الله ﷺ إلى بيوتكم، لو سلكت الأنصار واديًا أو شعبًا لسلكت وادى الأنصار أو شعبهم»[٢].

ومن ذلك الهدى المبارك فى جبر الخاطر وتطييب النفس قوله ﷺ لسلمان الفارسى: «سلمان منا أهل البيت»[٣].

---

(١) رواه البخارى (٥/٣٨، ٧١، ٢٠٠، ٩/١٠٦، ١٠٧).
(٢) رواه البخارى فى مناقب الأنصار (٥/٣٨).
(٣) رواه الطبرانى والحاكم، كشف الخفا ١/٢٦٠.

٢٧٣ - كانوا لأصحابنا مكرمين

لما جاء إلى النبى ﷺ وفد النجاشى، قام النبى ﷺ بنفسه بإكرامهم وبضيافتهم، فأسرع الصحابة إلى النبى ﷺ ، وقالوا له :

نحن نكفيك يا رسول الله.

فقال ﷺ :

«إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأنا أحب أن أكافئهم.

(*) أخرجه أبو داود فى المراسيل، وذكره العلوى المالكى فى: محمد الإنسان الكامل، ص ٢٥٦.

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله. بعثك الله لتتمم مكارم الأخلاق.

قال ﷺ : «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»(١) وأنت أسوتنا وقدوتنا، تعلمنا فى هذا الموقف أن لا نضيع الإحسان وألاَّ ننكر الجميل لمن أسدى إلينا معروفًا أو صنع بنا جميلاً. بل تعلمنا أن نقابل الجميل بما هو أحسن، وهذا موافق لهدى القرآن الكريم، قال تعالى : ﴿ **وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا** ﴾ [النساء/٨٦].

تعلمنا يا رسول الله ﷺ ألاَّ تكون العلاقة مع الناس علاقة المنفعة، فإذا تحققت المنفعة وقضيت المصلحة انصرفنا عمن جعلهم الله أسباب خير لنا وأجرى الله على أيديهم نفعنا.

وإنما تؤكد لنا بالفعل والقول معًا أن تكون العلاقة مع الناس لله وفى الله، تقوم على الوفاء والإخلاص، والناجى يأخذ بيد أخيه بعيداً عن منطق الوصولية واستغلال الفرص.

وكم فى حياتنا من الناس من مُدَّت إليه يد العون والمساعدة، فلما تمكَّن ووصل إلى مقصوده تنكَّر لمن أسدوا إليه المعروف وعاونوه، وهذا سلوك شيطانى، لا يرضاه الله ولا رسوله ﷺ.

ومن هدى الحبيب المصطفى ﷺ قوله : «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه»(٢).

والله تعالى يقول : ﴿ **هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ** ﴾ [الرحمن/٦٠].

---

(١) أخرجه البيهقى (١٠/١٩٢).

(٢) إتحاف السادة المتقين للزبيدى (٤/١٥٦، ١٨٠).

وصلى الله وسلم على من بعثه ليتمم مكارم الأخلاق، يعلمنا أن نكون أوفياء، وفى سياق هذا المعنى يأتى وفاء النبى ﷺ لزوجه السيدة خديجة – رضى الله عنها – إنه كان يكرم كل من اتصل بها من قرابة أو صداقة تقديراً لمعروفها معه ﷺ وإحسانها الذى لا ينسى له.

ولقد وضَّح النبى ﷺ أن شكر المعروف هو شكر لله تعالى؛ قال ﷺ : « أشْكَرُكُم لله أشكركم للناس »[(١)].

(١) أخرجه الطبرانى (١/ ٢٠٧)، والبيهقى (٦/ ١٨٢).

٢٧٤ - أفَتَّانٌ أنت يا معاذ !

لَمَّا صلَّى معاذ بن جبل ﷺ إمامًا فى مسجد قومه وأطال الصلاة، كان فى المصلين ذو حاجة فقطع الصلاة وانصرف.

فلما علم معاذ لم يعجبه ما صنع الرجل وعنَّفه بالقول، فذهب الرجل يشكو سيدنا معاذًا إلى النبى ﷺ فقال ﷺ :

«أَفَتَّانٌ أنت يا مُعاذ ؟» (ثلاث مرات).

(*) أخرجه أحمد (٣/٢٩٩)، والشافعى (٥٦).

صلاة وسلامًا عليك يا سيدى يا رسول الله، يا من آتاك الله الحكمة العالية، وألهمك اليسر فى حياتك وحببه إليك قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التوبة/١٢٨]، وها أنت تعلمنا اليسر وتأمرنا به.

كما تعلمنا يا رسول الله كيف يكون التعليم والتأديب لمن أخطأ، وهذا درس للدعاة والمربين والمصلحين.

فالعتاب طريق من طرق التأديب والتهذيب، وقد كان ﷺ يستعمله إذا اقتضت الحاجة ذلك كتربية أو تنبيه، ولكنه ﷺ كان يسلك فى العتاب طرقًا مختلفة وأساليب متعددة يراعى فيها الأحوال والمقتضيات، فتراه يعاتب تارة بالإشارة، وحينًا بالعبارة، وحينًا آخر بالمخاصمة، وقد يكون أيضًا بالإعراض، وقد يكون بالهجر والترك، وقد يكون بما يظهر على وجهه الشريف من آثار الغضب.

ومن ذلك أنه ﷺ رأى يومًا عبد الله بن عمر وقد لبس ثوبين معصفرين، ولما كان ذلك منهيًّا عنه قال له ﷺ : «أمك أمرتك بهذا ؟»[١].

فاكتفى ﷺ بهذا النوع من العتاب لأنه كان كافيًا فى إصلاح الأمر وبيان المعروف، ولذلك فإنه ثبت أن ابن عمر لما رجع إلى بيته ما كان منه إلا أن أحرق الثوبين.

وقد يشتد ﷺ فى العتاب لا لأن المعاتَب محتاج إلى ذلك، أو أنه لا ينتفع إلا بأسلوب الشدة، ولكن لملاحظة معنى آخر من المعانى السامية، وذلك كما وقع فى معاتبة معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وكان ذلك جبرًا لخاطر الرجل واهتمامًا بشكواه وإلا فإن تطويل الصلاة يكفى فيه مجرد البيان بأن من أمَّ فليخفف خصوصًا مع مثل معاذ، وهو من أعلم الناس بالحلال والحرام.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٥٧).

ومن هذا الباب عتابه ﷺ بشدة لأبى ذر رضي الله عنه ، فإن أبا ذر قال لعبده: يا ابن السوداء. فشكاه إلى حضرة المصطفى ﷺ فما كان منه ﷺ إلا أن قال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية، أعيَّرته بأمه؟!»(١)، وهذا عتاب شديد فى حق أبى ذر، وقد يكون أقل من ذلك كافيًا، ولكنه ﷺ لاحظ حال ذلك الخادم الذى جاء شاكيًا، وقد أمن فى ظل الإسلام الذى لا يفرق بين الألوان والأجناس، فأراد ﷺ أن يجبر خاطره ويرضى نفسه ويشعره باهتمامه بحاله وشكواه.

ومن طرقه ﷺ فى التأديب السجن، ولكن لم يكن للنبى ﷺ سجن مخصوص معد مهيأ لذلك، وكذلك فى عهد أبى بكر رضي الله عنه ، وإنما كان معنى السجن تعويق الشخص ومنعه من التصرف بنفسه سواء كان فى بيت أو مسجد.

فقد روى أبو داود بسنده أن النبى ﷺ حبس رجلاً فى تهمة(٢)، وفى الصحيح أنه ﷺ حبس ثمامة بن أثال بربطه فى سارية من سوارى المسجد(٣).

وقد يتولى نفس الخصم أو وكيله ملازمة الشخص الذى يستحق الحبس، فقد روى عن الهرماس بن حبيب عن أبيه قال: أتيت النبى ﷺ بغريم لى، فقال لى: الزمه، ثم قال لى: يا أخا بنى تميم ما تريد أن تفعل بأسيرك(٤) وهذا كان هو الحبس على عهد رسول الله ﷺ وأبى بكر، ثم اشترى عمر رضي الله عنه دارًا بمكة وجعلها سجنًا(٥).

ومن طرقه ﷺ فى التأديب الضرب، فقد جلد من قتل عبده متعمدًا(٦) وجلد مسطح بن أثاثة ومن تكلم فى قصة الإفك وخبر ذلك مشهور.

(١) أخرجه مسلم (الإيمان ٣٨، ٣٩). (٢) أخرجه أبو داود (٣٦٣٠).
(٣) مسند أحمد (٧/٥٧). (٤) أخرجه أبو داود (الأقضية ب ٢٩).
(٥) انظر: تاريخ الخلفاء للسيوطى، ترجمة عمر رضي الله عنه
(٦) جاء فى صحيح الترمذى والنسائى وأحمد: «من قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه» والجدع: القطع.

ومن طرقه ﷺ في التأديب التأديب بالنفي، وقد ثبت أنه نفى الحكم بن أبي العاص إلى الطائف، وأمر بذلك فقال: «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام»(١)، وقضى على الأجير الذي زنى بالجلد والتغريب(٢)، وكذا حكم على المخنث الذي كان يدخل على النساء.

ومن طرقه ﷺ في التأديب الهجران وثبت ذلك من قصة كعب بن مالك أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهم كعب وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع فهجرهم ﷺ ولم يكلمهم وأمر بهجرهم، وقد قاسوا من هجر المصطفى وأصحابه لهم ما أخبر عنه القرآن بقوله: ﴿ **وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ** ﴾ [التوبة/٢٥].

قوله تعالى: ﴿ **بِمَا رَحُبَتْ** ﴾ أي مع رحبها، أي سعتها، فلا يجدون مكانًا يطمئنون إليه قلقًا وجزعًا تمثيل لحيرتهم في أمرهم وضاقت عليهم أنفسهم وقلوبهم للغم والوحشة بتأخير توبتهم فلا يسعها سرور ولا أنس.

وفي حديث كعب حتى تنكرت في نفسي الأرض فما هي بالتي أعرف، وفي رواية: وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هي بالحيطان التي نعرف. وهذا يجده الحزين والمهموم في كل شيء حتى قد يجده في نفسه، وفي رواية حتى وجدوا أشد الوَجْدِ وصاروا مثل الرهبان.

وثبت أنه ﷺ عذب بقطع الأيدي والأرجل وسمل الأعين، وذلك في قصة العرنيين الشهيرة الصحيحة التي رواها البخاري عن أنس قال: قدم أناس من عكل وعرينة فاجتووا المدينة – أي استوخموها – فأمر لهم الرسول ﷺ بلقاح وأن يشربوا من أبوالها وألبانها فانطلقوا فلما صحوا قتلوا راعي النبي ﷺ وساقوا النعم، فجاء الخبر في أول النهار فقمنا في آثارهم ، فلما ارتفع النهار

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود (١٢). (٢) مسند الشافعي (٩/٢٥٤).

جىء بهم فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسملت أعينهم وألقوا فى الحرة – أرض ذات حجارة سوداء – يستسقون فلا يُسْقَون، وفى رواية حتى ماتوا، وعند ابن أبى عوانة من رواية عقيل عن أنس فيه : فصلب اثنين وقطع اثنين وسمل اثنين.

وعن أنس قال : إنما سمل النبى ﷺ أعين العرنيين لأنهم سملوا أعين الرعاء[١].

وثبت أنه ﷺ باشر القتل بيده الشريفة فقتل أبىّ بن خلف وذلك أنه ﷺ تناول الحربة من يد الحارث بن الصمة فأخذها ﷺ فطعنه طعنة فى عنقه وقع بها عن فرسه فكسرت ضلع من أضلاعه فمات[٢].

وثبت أنه عذب ﷺ بالإحراق والهدم، روى ابن هشام عن عبد الله بن حاتم عن أبيه قال : بلغ رسول الله ﷺ أن أناسًا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يثبطون الناس عن تبوك، فبعث ﷺ طلحة بن عبد الله فى نفر وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ففعل.

وفى غزوة تبوك جاءه ﷺ خبر مسجد الضرار من السماء، فأرسل جماعة من أصحابه وأمرهم أن يهدموه ويحرقوه، فدعا مالك بن الدخشم ومعن بن عدى العجلانى فقال : انطلق إلى هذا المسجد الظالم أهله فأهدمه وأحرقه فخرجا فحرقاه وهدماه، وقد قطع النبى ﷺ نخل بنى النضير وأحرق قراهم.

---

(١) أخرجه مسلم فى القصاص والديات (٣١٦٤)، فتح البارى بشرح صحيح البخارى (٢٧٢٥).

(٢) أخرجه الترمذى (٣٣٠٢).

٢٧٥ - يا عابد الحرمين

كان التابعى الجليل الفضيل بن عياض - رحمه الله - يمكث أربعة أشهر فى الحرم المكىِّ متفرغًا للعبادة، وفى الحرم المدنى أربعة أشهر كذلك، حتى اشتهر بين الناس بأنه عابد الحرمين، فسمع به عبد الله بن المبارك رضي الله عنه وكان يجاهد فى سبيل الله، فأرسل إليه رسالة قال فيها :

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أَبْصَرْتَنَا لَعَلِمْتَ أَنَّكَ فى العبادةِ تلعبُ
مَن كَان يَخضِبُ خَدَّهُ بدموعه فنُحُورُنا بدمائنا تَتَخضَّبُ
ريحُ العَبيرِ لَكُم ونَحْنُ عَبيرُنا وَهجُ السَّنابكِ والغُبارُ الأَطْيَبُ
ولقد أتانا من مقالِ نَبيِّنا قَولٌ صَحيحٌ صادقٌ لا يكذبُ
لا يُجْمَعَنَّ غُبارُ خيلِ اللهِ فى أنفِ امرئٍ ودخَانُ نارٍ تلْهَبُ

فتأثر الفُضَيل بكلام عبد الله بن المبارك وخرج غازيًا فى سيل الله.

(*) سير أعلام النبلاء، جـ٨، ص ٤١٢.

هذا الموقف رسالة إلى الأمة فى محنتها المعاصرة، إنه موقف يصحح الوعى، ويلفت انتباه المؤمن إلى أن منازل الأعمال متفاوتة، وقد أخبر الحبيب النبى ﷺ : أن الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق[١]، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة، قال تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [التوبة/١٩ - ٢٠].

وهذا ينقلنا إلى مفهوم عظيم فى فقه الأولويات، الذى حرص الصحابة رضى الله عنهم على اتباعه، ويظهر ذلك من تكرار سؤالهم لسيدنا رسول الله ﷺ عن أحب الأعمال عند الله تعالى، وعن أفضل الأعمال عند الله تعالى، ومنزلة الإنسان عند ربه على قدر منزلته فى أعمال الخير، يشهد لذلك المعنى قوله تعالى :

﴿ لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء/٩٥ - ٩٦].

وأمتنا الإسلامية اليوم ليست فى حاجة إلى عباد بقدر حاجتها إلى علماء ومجاهدين فى شتى نواحى الحياة العلمية والاقتصادية والعسكرية.

وذلك بعد أن تعاظم الفرق بيننا وبين أعدائنا وأصبحت السيطرة والهيمنة

---

(١) حديث أخرجه .

لهم فى مقابل العجز والصمت المخزى عندنا، وأصبح تعظيم الـ (أنا) الإسلامية فرضًا حتميًا وضرورة تفرضها المواجهة أمام طوفان العولمة أو الأمركة .

ويأتى موقف عبد الله بن المبارك مع الفضيل بن عياض ليكون أسوة فى جانب التطبيق العملى لفقه الأولويات[١] وعلو الهمة .

---

(١) راجع فى فقه الأولويات دراسة أ.د الشيخ/ يوسف القرضاوى، تحت عنوان : فقه الأولويات، وكذلك كتابات الشيخ/ محمد الغزالى . .

٢٧٦ - من يمنعك منى ؟!

عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ نائمًا فى ظل شجرة ، وسيفه معلق بالشجرة ، فجاء رجل من المشركين فانتزع السيف وقال : تخافنى ؟ قال ﷺ : «لا» قال : فمن يمنعك منى ؟

قال ﷺ : «الله» .

قال : فسقط السيف من يده ، فأخذه رسول الله ﷺ فقال : «من يمنعك منى ؟ »

فقال : كُن خير آخذ .

فقال ﷺ : «تشهد أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله ؟»

قال : لا ، ولكنى أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلَّى سبيله .

فأتى أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس .

(*) مسند أحمد (٣/٣٦٥) ، والحاكم فى المستدرك (٣/٣٩) .

سيدنا رسول الله ﷺ هو سيد المتوكلين والموقنين، إنه ﷺ يعلمنا فى هذا الموقف حسن التوكل على الله واليقين فى الله حتى وإن غابت الأسباب، فأمل المؤمن فى الله تعالى لا ينقطع ورجاؤه فيه لا ينفد، وذلك لأن المؤمن لا يقف عند السبب وإنما يتجاوز الأسباب إلى مسبب الأسباب سبحانه وتعالى.

لذلك لما أخذ الرجل السيف وظن أنه بامتلاكه السيف أنه سينال من رسول الله ﷺ ويلقى فى قلبه الخوف، فقال الرجل: من يمنعك منى ؟

لكن هيهات هيهات، فالله قد عصم النبى ﷺ من أن يناله من الناس قتل، فقد أنزل الله على نبيه ﷺ قوله :

﴿ **وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ [المائدة/٦٧].

فأخرج النبى ﷺ رأسه ساعتها وكان له حرس يقفون قريبًا من حجرته عند اسطوانة الحرس بالروضة الشريفة والتى ما زالت معلومة حتى اليوم.

ثم قال ﷺ للحرس : «انصرفوا، فقد عصمنى الله تعالى».

فكيف بمن عصمه الله وتولى حمايته أن يخاف ؟! لذلك أجاب النبى الرجل بقوله ﷺ : «الله»، أى الله يمنعنى منك. تبارك الله وصلى الله على سيد الموقنين سيدنا محمد ﷺ، وما أن قال النبى ﷺ : «الله» حتى سقط السيف من يد الرجل، وأخذه النبى ومكَّن الله نبيه ﷺ وانقلب الأمر، فقال النبى ﷺ للرجل : «من يمنعك منى الآن ؟!».

فقال الرجل يستعطف رسول الله ﷺ : كُن خير آخذ، والنبى لا ينتصر لنفسه، وإنما حياته كلها لله، مُتحققًا ﷺ بقول الله تعالى :

﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ**

وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام/١٦٢ - ١٦٣].

لذلك دعاه النبى ﷺ إلى الإسلام، وقال له: «تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله».

ولم يقبل الرجل الدعوة فى حينها، وطلب من رسول الله أن يمهله، وأمهله النبى ﷺ وعاهد الرجل رسول الله أن لا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه.

وأخلى النبى ﷺ سبيله وتركه يمضى، وكان الرجل لا يصدق نفسه، فما أن وصل لأصحابه حتى قال لهم: جئتكم من عند خير الناس.

اللهم صَلِّ على صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد ﷺ.

٢٧٧ - أتحبون أنه لكم ؟!

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفتيه، فمر بجدى أسكَّ ميتٍ، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال:

«أيك يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟

فقالوا :

ما نُحب أنه لنا بشيء وما نصنع به ؟

ثم قال ﷺ :

أتحبون أنه لكم ؟

قالوا :

والله ما كان حيًا كان عيبًا، أنه أسك. فكيف وهو ميت !

فقال ﷺ :

«فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم».

(*) مسلم فى الزهد، المقدمة (٢)، البيهقى (١/ ١٣٩).

تبارك الله رب العالمين، وصلاة وسلامًا على الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ، إنه ﷺ يعلمنا بهذا الرفق والحنو والشفقة والرحمة والحرص علينا، كيف لا ؟! وهو من قال الله فى شأنه :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/١٢٨].

فمن حرصه علينا وحبه لنا يسلك فى تعليمنا إلى ضرب المثل، وإلى الاستعانة بمواقف الحياة ومشاهدها كوسائل توضيحية كيما نفهم ونزداد إيمانًا ووعيًا وقربًا.

إنه يمسك بإذن جدى معيب (لأنه أسكَّ) أى : صغير الأذنين. ويعرض عليهم بثمن زهيد بدرهم!

وما من شك فى أن هذا العرض مرفوض لدى الطبائع السليمة والعقول الواعية. فرفضوا أن يكون لهم هذا الجدى حتى بدون ثمن، فهو ميت وهو أسكّ.

وهنا يعلن النبى ﷺ موعظته فى هذا السياق، مُقْسِمًا بالله تعالى على حقيقتها قائلاً ﷺ :

«فوالله لَلْدنيا أهون على الله من هذا عليكم» .

هذه الدنيا التى نغتر بها ونتعالى بها ونتفاخر ونتكبر، ونتناحر من أجلها، بل وقد نرتشى أو نظلم أو نعتدى من أجلها، ونضيّع العمر فى سبيل تحصيلها، إذ هى لا تساوى هذا الجدى الميت الأسكّ !! بل هى عند الله تعالى أهون !! اللهم سلمنا.

الختام

أخى المؤمن .. أختى المؤمنة :

وبعد هذه الجولة الإيمانية فى حياة سيدنا رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والصالحين خلال هذه المواقف الخالدة.

لعل ما بها من مواعظ وعبر قد تمكن من القلب فازداد إيمانًا بمن خلقه فسواه، وتمكن فى العقل ليسجد للذى فطره وأبدعه، وتمكن من الإنسان كله.. فصارت الجوارح كلها تقتدى وتتأسى بهذه الإيمانيات الخالدة التى تربطنا بالله علاّم الغيوب، الكبير المتعال.

ولعلك أخى المؤمن والداعى قد وجدت فيها مادة من الرقائق الهادية والقصص الهادف والحكم النافعة.

ولعلنا جميعًا نزداد بها إيمانًا وتأسيًا وتخلقًا.

ولعلى أفوز بدعوة خاصة منك بظهر الغيب لأخ لك فى الإسلام يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه، ويأمل فى شفاعة الحبيب المصطفى ﷺ.

وإن شاء الله تعالى يا أخى ندعو الله تبارك وتعالى أن نلتقى جميعًا هناك.. عند حوض الحبيب المصطفى ﷺ، وتمتد منا اليمين لنفوز بكأس من حوض الكوثر من يمين المصطفى ﷺ، يمينه بها كأس الكوثر وعلى شفتيه ﷺ بسمة حانية ودودة، ونكرم بالدعاء من حضرته ﷺ. لنجوز الصراط.. ثم نكون هناك يا رب فى رفقة من أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقًا.

اللهم أعنَّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك.

واجعلنا يا رب ممن أحببتهم فأحبوك وزدتهم فشكروك.

يا رب وفى دنيا الناس لا تفضح لنا عرضًا.

يوم نودع الأحباب لا تفضح لنا عرضًا.

يوم يفترق عنا الناس لا تفضح لنا عرضًا.

بين الزاهدين المتقين لا تفضح لنا عرضًا.

يا رب وكما أقررت عيون أهل الدنيا بدنياهم أقرر عيوننا بطاعتك ومحبتك يا أرحم الراحمين.

يا رب واجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك.

يا رب إن فى تدبيرك ما يُغنى عن الحيل.

وإن فى كرمك ما هو فوق الأمل.

وإن فى حلمك ما يَسُدُّ الخلل.

وإن فى عفوك ما يمحو الزلل.

فاللهم بقوة تدبيرك وفيض كرمك وسعة حلمك وعظيم عفوك صل وسلم وبارك على سيدنا محمد.

اللهم احرسنا بعينك التى لا تنام، واحفظنا فى كنفك الذى لا يرام، واحمنا بقدرتك، إنك على كل شىء قدير.

اللهم يا من لطفت بخلق السماوات والأرض، ولطفت بالأجنة فى بطون أمهاتها، الطف بنا فى قضائك وقدرك لطفًا يليق بجودك وكرمك يا أرحم الراحمين.

اللهم بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا ورحمتك التى وسعت كل شىء نسألك من كل خير سألك منه سيدنا محمد نبيك ورسولك ﷺ، ونعوذ بك من كل شر استعاذك منه سيدنا محمد نبيك ورسولك ﷺ.

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات/ ١٨٠ : ١٨٢]

كشاف بموضوعات الكتاب

الإيمان:

القرآن الكريم:

الصلاة:

الصيام:

الحج:

الدعاء:

الجهاد :

الآداب :

الإمارة والحكم :

معجزات النبى ﷺ :

معجزات الأنبياء:

من أخلاق النبى ﷺ:

حب النبى ﷺ :

أهل بيت النبى ﷺ :

فضائل الصحابة :

حكمة الدعوة وأخلاق الداعية:

العلم والعلماء:

العمل:

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

المسارعة إلى الخيرات:

الإخلاص:

الأمانة:

الرحمة:

الزهد والتعفف:

التواضع:

التوبة:

التوكل:

التيسير:

الحِلْم:

الحوار:

الشورى:

التعاون:

التسامح والعفو:



ثبت الموضوعات

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/١٥٩٥٨